تشارلز ديكنز

ديفيد كوبرفيلد

الجزء الأول

رواية

الترجمة الكاملة



ترجمة: **زينب محمد عبد الحميد**

مكتبة | 966
سُر مَن قرأ

ديفيد كوبرفيلد

تشارلز ديكنز


◆ المؤلف: تشارلز ديكنز


◆ العنوان: ديفيد كوبرفيلد - الجزء الأول

◆ ترجمة: زينب محمد عبد الحميد

◆ طبعة آفاق الأولى 2022

◆ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

◆ مستشار النشر: سوسن بشير

◆ المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠٢١ / ٢٩٢٦٩

الترقيم الدولي : ISBN

978 - 977-765 - 332 - 9

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

تشارلز ديكنز

ديفيد كوبرفيلد

رواية

ترجمة

زينب محمد عبد الحميد

الجزء الأول

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ديكنز، تشارلز.

تشارلز ديكنز : ديفيد كوبرفيلد - الجزء الأول

ترجمة: زينب محمد عبد الحميد

ط١ القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - ٢٠٢٢

٥٤٤ ص، ٢١ سم.

رقم الإيداع ٢٩٢٦٩ / ٢٠٢١

الترقيم الدولي 9 - 332 - 977-765 - 978

١ - الأدباء (روايات)

٢ - ديكنز، تشارلز

مقدمة المترجمة

لا أخفي على القارئ أنني أمام أصعب ما واجهته في هذا العمل، وهو مفارقته بعد عام وأربعة أشهر من المعايشة لا الترجمة، كما أن دربًا من الجنون قد يدفعني إلى كتابة مقدمة لعمل مثل الذي بين أيدينا، إذ أدرك استحالة أن أختزل هذا العمل بما فيه من زخم وإبداع في سطور تقتضب الحكاية، كما أن ما سبقني من دراسات ومقالات عن هذا العمل يجعلني عاجزة عن الإشارة إلى عالم ديكنز الممتد من الطفولة إلى النضج في سطور قلائل.

وهذه الرواية على انتشارها، لم تحظَ بعدد من الترجمات الكاملة لها، بل شاعت لها إصدارات مختصرة، وهي على جودتها وأهميتها للنشء، قد اختزلت عالم ديكنز الرحب، وقمعت شخصياته لصالح ما يسلط الضوء على الحكاية لا عالم الحكاية وشخصياته، فانتقصت من أدبيته.

في النهاية أود الإشارة إلى المشروع المهم الذي تبنته دار آفاق، إذ أخذت على عاتقها إحياء الكلاسيكيات، برؤية تشمل الموازنة بين طرح ترجمات جديدة لاكتشافات فكرية وأدبية لم تترجم من قبل، وتقديم ترجمات كاملة لأعمدة الأدب العالمي. أسعدني القدَر بالمشاركة في هذا المشروع بترجمة «ديفيد كوبرفيلد».



مقدمة المؤلف

يصعب عليَّ الابتعاد عن هذا الكتاب، أو تحمل إحساس الانتهاء منه، ولا يسعني سوى أن أشير إليه برباطة جأش بهذا العنوان الرسمي الذي يتطلبه، إذ لم يزل أثره يلازمني وقد أوليته اهتمامًا بالغًا، بل لم يزل خاطري منقسمًا بين اللذة والندم، حيث لذة إنجاز عمل طويل، وندم فراق الأصدقاء. وإني لأخشى أن أثقل على القارئ العزيز بمشاعري وسرائر وجداني. أما ما يمكنني أن أقوله عن القصة لأي غرض، فقد ضمَّنته بين كلماتها.

قد يهتم عدد يسير من القراء بمعرفة مبلغ حزن الكاتب حين يزيح قلمه في نهاية عمل إبداعي عايشه طوال عامين، وأي شعور يلفه بعد أن يفرغ من عمل إبداعي انسابت فيه أفكاره؛ كأنما انتزع جزءًا من روحه وقذف به في عالم الغموض. ولا يسعني أن أزيد القول إلا بأن أعترف اعترافًا هو عليَّ هينٌ، مفاده أنه ليس بوسع قارئ أن يصدق هذه الرواية، بما يفوق إيماني بها حين سطرتها.

لن ألتفت إلى الماضي، بل سأتطلع إلى المستقبل، حيث لا أستطيع أن أغلق هذا العمل من دون نظرة متفائلة متطلعة إلى الوقت الذي سأقوم فيه مرة أخرى بطرح أوراقه اليانعة بين دفتَي كتاب واحد، محتفظًا بذكرى مخلصة للشمس الحانية والندى الذي عبَّأ هذه الأوراق من نبتة «ديفيد كوبرفيلد»، وجعلتني سعيدًا.

لندن، أكتوبر ١٨٥٠



تاريخ وخبرة الصغير

ديفيد كوبرفيلد

الفصل الأول

مولدي

ستُظهر هذه الصفحات ما إذا كنت سأصير بطلًا في حياتي، أم سيحتل هذه البطولة إنسان غيري. سأسرد حكاية حياتي من بدايتها؛ فأُدَوِّن أنني وُلدت (على حد علمي وظني) في يوم الجمعة، في الساعة الثانية عشرة ليلًا. جدير بالملاحظة أنه ما إن بدأت الساعة تدق حتى أجهشت بالبكاء.

أما يوم وساعة مولدي، فقد أعلنت الممرضة عن بشارته، وكذلك قالت بعض النساء الحكيمات في الحي اللائي اهتممن بي بشدة، حتى قبل مولدي بعدة أشهر، ومن دون أي إمكانية لتعرفنا الشخصي. أولًا: قُدِّر لي أن أصير سيئ الحظ في الحياة؛ وثانيًا: سأمتاز بقدرتي على رؤية الأشباح والأرواح، وحسبما ظنن فقد تعلقت كلتا الهِبتين حتمًا بي، فهذا مصير جميع الأطفال قليلي الحظ من الجنسين، الذين يُولدون في الساعات الأولى من ليلة الجمعة.

لا أحتاج إلى قول أي شيء هنا عن النقطة الأولى، فليس ثمة ما يبرهن هذه النبوءة أو يدحضها أفضل من تاريخي وما تبعه من مغبَّات. أما النقطة الثانية، فسأُعقِّب فقط بأنني إن لم أكن قد واجهت هذا الجزء من الميراث وأنا لم أزل طفلًا، فإنني لم أصل إليه بعد. إلا أنني لا أشتكي على الإطلاق من حرماني من هذه الهبات؛ وإن كان ثمة إنسان آخر يتمتع بها حاليًّا، فإني آمل مخلِصًا أن يتمسك بها.

وُلدت محاطًا بكيس جنيني، وقد أُعلن عن بيعه في الصحف بسعر زهيد يبلغ خمسة عشر جنيهًا[1]. ويبدو أن البحارة الرُّحل كانوا يفتقرون إلى المال في ذلك الوقت، أو أنهم قد تخلوا عن هذا الاعتقاد وصاروا يفضلون سترة الفلين، لست متأكدًا من الأمر؛ كل ما أعرفه أنه لم يقبل سوى مشترٍ واحد، كان المتقدم محاميًا يعمل لحساب بعض السماسرة لتحصيل الفواتير. عرض المشتري جنيهين نقدًا، على أن يسدد باقي ثمنه خمرًا، لكنه استنكر أن يضمن له الكيس النجاة من الغرق إن دفع مبلغًا أعلى. سُحب الإعلان نتيجة لذلك، وتكبدنا الخسارة – الخمر لم يكن مرضيًا، إذ كان الخمر الذي تصنعه أمي العزيزة المسكينة قد أتيح في السوق في ذلك الوقت. حُفِظ هذا الكيس بعد عشر سنوات في لعبة اليانصيب في بلدتنا، من بين خمسين عضوًا يقامر عليها بتذكرة ثمنها نصف كروان، وكان على الفائز أن يدفع خمسة شلنات لاستلام جائزته.

---

(١) اعتقدت بعض الشعوب أن ولادة طفل يغطي رأسه كيسًا جنينيًا يكسبه حظًّا أو مواهب خاصة، كما ظن البحارة أن الاحتفاظ بكيس جنيني بمثابة تميمة ومنجاة من الغرق. صورت عدد من الأعمال الدرامية عدة شخصيات نسجت حولها الحكايات بسبب ولادتها بهذا الكيس الجنيني فوق رؤوسها.

كنت حاضرًا بنفسي، وأتذكر شعوري الغامر بالانزعاج والارتباك، من جرَّاء التصرف في جزء من جسمي بهذه الطريقة. أذكر أن هذه القطعة قد فازت بها سيدة عجوز تحمل سلة يد، وأخرجت منها خمسة شلنات على مضض، جميعها من فئة نصف البنس. كان المبلغ الذي دفعته ينقص عن المبلغ الكلي ببنسين ونصف - وقد استغرق الأمر وقتًا هائلًا وجملة كبيرة من الحسابات، للسعي من دون جدوى لإثبات ذلك لها. أما الحقيقة التي سوف نتذكرها لفترة طويلة على أنها واحدة من العجائب؛ هي أن السيدة لم تمتْ غرقًا قَطُّ، لكنها ماتت منتصرة على فراشها في الثانية والتسعين من عمرها. عرفت أنها ظلت تفتخر حتى نهاية حياتها، وأنها لم تركب الماء ولو مرة في حياتها، باستثناء سيرها على جسر. كانت تصرح دومًا حتى أيامها الأخيرة بينما تحتسي الشاي (الذي كانت تحبذه بشدة وتنحاز له)، باستيائها من ضعف إيمان البحارة وغيرهم، الذين كانوا يتجرأون «بالتسكع» حول العالم. حاول الناس عبثًا إقناعها أن بعض وسائل الراحة، بما في ذلك الشاي، نتجت عن هذه الممارسة التي تستهجنها. إلا أنها كانت تجيب دائمًا، بتأكيد أكبر ويقين فطري بقوة اعتراضها وقولها: «دعونا لا نهيم مع الهائمين».

وحتى لا أهيم بنفسي في الوقت الحاضر، فإنني سأعود إلى قصة مولدي.

وُلدت في بلدة بلندرستون، في إقليم سافوك، أو كما يقولون في اسكتلندا، وُلدت في هذه «الناحية». وُلدت يتيمًا. أغمض أبي عينيه عن نور هذا العالم قبل أن أفتح عينيَّ عليه بستة أشهر. لم أزل أستشعر غرابة

حتى الآن، في التفكير أنه لم يرني قَطُّ، ولم تزل تراودني إلى الآن غرابة، حيث الذكريات الغامضة التي أحملها من ارتباطات طفولتي المبكرة، بحجر قبره الأبيض في باحة الكنيسة، وكيف استشعرت شفقة لا تُوصف تجاهها، حيث كان مستلقيًا وحيدًا بقبره في ليل معتم، بينما كان منزلنا دافئًا ومضاءً بالنار والشموع، وقد أغلقت أبوابه وأحكمت علينا. بدا لي ذلك أحيانًا دربًا من دروب القسوة.

كانت لوالدي عمة، وبالتالي فهي عمتي الكبيرة، والتي سأحكي لكم قصتها في موضعها، وستربطني بها علاقات كثيرة فيما بعد. كانت عمتي القطب الرئيسي لعائلتنا. إنها الآنسة تروتوود، أو الآنسة بيتسي، كما كانت تدعوها أمي المسكينة دائمًا، بعدما تغلبت على خوفها العارم من هذه الشخصية صعبة المراس، فكانت لا تذكرها إلا فيما ندر. تزوجت عمتي من رجل أصغر منها، وكان في غاية الجمال، من دون أن ينطبق عليه المثل القائل «إن الجمال جمال الأخلاق» - لقد تردد القول أنه ضرب الآنسة بيتسي، إلى درجة أن وقع نزاع بينهما ذات مرة بشأن مخزون البيت، فأوشك بتصرف أهوج ولكنه صارم، على رميها من شباك يعلو درجتين من السلم. كانت هذه الأدلة تدعم تباين الأهواء بين الزوجين، مما دفع الآنسة بيتسي إلى مقايضته ودفع المال له وإجراء الانفصال بينهما بالتراضي. سافر بعدها إلى الهند بما معه من مال، وهناك، وفقًا لحكاية تُشاع في عائلتنا، شوهد ذات مرة يركب فيلًا بصحبة «بابون»[١]، لكنني أظن أنه كان بصحبة «بابو أو بيجوم»[٢].

---

(١) قرد أفريقي قصير الذيل.

(٢) رجل هندي أو سيدة من سيدات الهند. نوع من التلاعب بالألفاظ المتشابهة للسخرية.

على أي حال، وصلت أخبار وفاته من الهند إلى الوطن، في غضون عشر سنوات. لم يعرف أحد مدى تأثير الخبر على عمتي. لقد استعادت على الفور بعد الانفصال، اسمها قبل الزواج مرة أخرى، واشترت كوخًا في قرية صغيرة بعيدًا جدًّا على ساحل البحر، واستقلت بنفسها هناك كامرأة عزباء مع خادم واحد، وصار من المعروف أنها تعيش حياة نائية، وقد اعتزلت بعد ذلك كل شيء من دون رجعة.

أظن أن أبي كان فيما قبل ذا مكانة عندها؛ إلا أنها استشعرت إهانة قاتلة بعد زواجه بحجة أن أمي لم تكن سوى «دمية من الشمع». لم تكن قد رأت أمي من قبل، لكنها عرفت أنها لم تكن قد بلغت العشرين بعد. لم يلتقِ أبي والآنسة بيتسي مرة أخرى. كان عمر أبي يعادل ضعف عمر أمي عندما تزوج، وكانت له هيئة ضعيفة. مات بعد زواجهما بعام، وكما قلت قبلًا، فإنه مات قبل ستة أشهر من مجيئي إلى العالم.

كانت هذه حالتنا في فترة ما بعد الظهيرة، في يوم أرجو عذرًا أن أطلق عليه، تلك الجمعة التاريخية والعظيمة. لا أستطيع أن أدَّعي أنني كنت أدرك كيف سارت الأمور في ذلك الوقت، أو أنني أتذكر أشياء مبنية بالأساس على حواسي، أو نتيجة لما يلي من وقائع.

كانت أمي جالسة إلى جانب النار، واهنة القوى مريضة، وقد انخفضت معنوياتها للغاية. كانت تنظر نحو النار وقد ترقرقت دموعها، متفكرة في يأس بالغ في حالها وفي حال هذا الغريب الصغير اليتيم، الذي رحب بقدومه إلى العالم ببعض الدبابيس والتمائم، التي استقرت في درج في الطابق العلوي. حل إلى عالم لم يتحمس على الإطلاق

لفكرة مجيئه. كانت أمي، على حد قولي، جالسة إلى جانب النار، في ظهيرة يوم مشرق وذات رياح، من أيام شهر مارس، بائسة وفي غاية الحزن، غير متيقنة من قدرتها على مواصلة الحياة من جراء المحنة التي تعانيها. رفعت عينيها بينما تجفف دمعها، ناظرة نحو النافذة المقابلة، فإذا بها تبصر سيدة غريبة قادمة من ناحية الحديقة.

أحست أمي بوازع من شؤم بعد نظرتها الثانية، حيث كانت القادمة هي الآنسة بيتسي. لاحت أشعة شمس الغروب تتلألأ على السيدة الغريبة من فوق سور الحديقة، بينما تقترب إلى الباب في هيئة متصلبة وموحشة، ورباطة جأش لا بد أن تكون لملك لا لأي شخص آخر.

وما لبثت أن وصلت إلى المنزل، حتى أظهرت إثباتًا آخر لهويتها. طالما ألمح أبي إلى أنها نادرًا ما تتصرف مثل أي مسيحي عادي. أما الآن، فقد اقتربت وأخذت تنظر من تلك النافذة نفسها بدلًا من أن تدق الجرس. راحت تضغط أرنبة أنفها على الزجاج إلى الحد الذي عود أمي العزيزة المسكينة القول بأن أنفها صار في لحظة مسطحًا وأبيض تمامًا.

التفتت نحو أمي وقد أبدت لها نظرة أفزعتها، إلى الحد الذي أقنعني دومًا أنني مدين للآنسة بيتسي بمولدي في يوم الجمعة.

تركت أمي مقعدها في فزع، وقد توارت وراءه في زاوية الغرفة. أما الآنسة بيتسي، التي جالت نظراتها في أرجاء الغرفة في بطء، قد راحت تبحث عن أمي في الجانب الآخر من البيت، وعيناها تجولان مثل رأس

أعرابي يطل من ساعة هولندية، حتى وصلتا إلى أمي. عبست ثم أدلت بإشارة إلى أمي لتدنو وتفتح الباب، وكما اعتادت على طاعتها فقد فعلت أمي ذلك.

قالت الآنسة بيتسي: «أنتِ السيدة كوبرفيلد، على ما أظن». كان ظنها ربما يشير إلى ملبس الحداد لأمي، وحالتها التي تبدو عليها.

أجابت أمي بصوت خافت: «نعم».

قالت الزائرة: «الآنسة تروتوود. هل أجرؤ على القول بأنكِ سمعت عنها؟».

أجابت أمي أنها سعدت بالسماع عنها. ويبدو أنها اغتاظت من أنها لم تظهر عليها سعادة وارفة من جراء هذه المعرفة.

قالت الآنسة بيتسي: «ها أنتِ الآن تبصرينها». أحنت أمي رأسها وطلبت منها أن تتفضل بالدخول.

توجهتا إلى الصالون الذي أتت منه أمي، حيث لم تكن النار قد أوقدت في أفضل الغرف على الجانب الآخر من الممر - إذ لم توقد النار بالفعل منذ تشييع جنازة أبي. جلستا معًا من دون أن تتفوه الآنسة بيتسي بكلمة واحدة، فبدأت أمي في البكاء بعد أن حاولت عبثًا كبح جماح انفعالها. قالت الآنسة بيتسي على عجل: «آه تُت، تُت، تُت![1] لا تفعلي هذا. هيَّا كُفي عنه».



(١) صوت يوحي بالاعتراض.

لم تستطع أمي السيطرة على الأمر على الرغم من محاولتها، فبكت حتى أفرغت نحيبها.

قالت الآنسة بيتسي: «اخلعي قبعتك يا طفلتي، ودعيني أراكِ».

كانت أمي تخشاها للغاية، فلم ترفض الامتثال لهذا الطلب الغريب، مهما كان لديها من عدم استعداد للقيام بالأمر. لذلك امتثلت لما قيل لها، وفعلت ذلك بأيدٍ مرتعشة إلى الحد الذي جعل شعرها (الذي كان ناعمًا وجميلًا) يتدلى على وجهها.

صاحت الآنسة بيتسي قائلة: «ما هذا؟ يا الله! إنكِ تبدين مجرد طفلة!».

كانت أمي، بلا شك، تبدو في ريعان الشباب بشكل غير عادي حتى في سنواتها الأخيرة. إلا أن أمي المسكينة أخفضت رأسها، كما لو أنها مذنبة، وراحت تقول بينما تبكي إنها خائفة في الواقع من أن تبدو كطفلة أرملة، ولن تصبح سوى أم طفلة إن هي بقيت على قيد الحياة. خيل إليها بعد برهة، أنها شعرت بالآنسة بيتسي تلمس شعرها، لكن يدها لم تكن حانية. حولت نظرها إليها في خجل وتطلُّع، فوجدت تلك السيدة جالسة وقد لملمت إليها تنورة فستانها، متشابكة الأيدي، منضمة إلى ركبة واحدة، وقد أسندت قدميها إلى سياج المدفأة، تنظر نحو النيران بوجه عابس.

قالت الآنسة بيتسي فجأة: «بحق السماء، لماذا أسميتموه عش الطيور؟».

سألت أمي: «هل تقصدين المنزل، يا سيدتي؟».

قالت الآنسة بيتسي: «لماذا عش الطيور؟ إن كانت لدى أي منكما خبرة عملية في الحياة، فإن اسمًا من فنون الطهي كان سيَفي أكثر بالغرض».

أجابتها أمي قائلة: «كان الاسم من اختيار السيد كوبرفيلد، فقد أحب أن يتخيل طيرًا يحوم حول البيت عندما اشتراه».

أحدثت رياح المساء نوعًا من الاضطراب بين بعض أشجار الدردار القديمة القابعة في الحديقة، بحيث لم تستطع أمي ولا الآنسة بيتسي في هذه اللحظة أن تتغاضيا عن إلقاء نظرة خاطفة نحو هذه الجلبة. كانت أفرع أشجار الدردار تنحني نحو بعضها البعض، مثل عمالقة يتهامسون بالأسرار، وبعد بضع ثوانٍ من هذه الإفضاء، سقطوا في موجة عارمة من العنف، فألقوا بأذرعهم الجامحة، كما لو أن أسرارهم المتأخرة كانت شريرة جدًّا فعكرت صفوهم. بدت بعض أعشاش الطيور القديمة الممزقة التي أفسدها الطقس، كما لو أنها تثقل كاهل أغصانها العُليا، فراحت تتأرجح مثل حطام البحر على صفحة موج عاصف.

سألت الآنسة بيتسي: «أين الطيور؟».

كانت أمي تفكر في شيء آخر، فرددت: «أين...؟».

سألت الآنسة بيتسي مرة أخرى: «أين الطيور؟ ماذا حل بها؟».

قالت أمي: «لم تكن ثمة طيور منذ أن عشنا هنا. ظننا - تصور السيد كوبرفيلد - أن الحديقة ستصير محلًّا للطيور، ولكن الأعشاش كانت قديمة جدًّا، وقد هجرتها الطيور لفترة طويلة».

صاحت الآنسة بيتسي: «إنه ديفيد كوبرفيلد نفسه! إنه ديفيد كوبرفيلد من منبت رأسه حتى أخمصي قدميه! يطلق على المنزل عشًّا

للطيور بينما ليس ثمة طائر واحد بالقرب منه، ويتصور بثقة أن الطيور ستأتي، لأنه يرى الأعشاش!».

راحت أمي تقول: «إنني في حداد على السيد كوبرفيلد، وإذا بكِ تجرؤين على التحدث إليَّ بهذا الجفاء...».

أتصور أن أمي العزيزة المسكينة كانت على وشك الاعتداء على عمتي ومهاجمتها. أما عمتي فكان من الممكن أن تخرسها بسهولة بإيماءة يد واحدة، حتى لو كانت أمي قد تدربت بشكل أفضل على مثل هذا اللقاء في ذلك المساء. ما لبثت أن نهضت من كرسيها، حتى جلست مرة أخرى في خنوع تام قد فقدت وعيها.

عادت أمي إلى وعيها، أو أعادتها الآنسة بيتسي إلى يقظتها، أيًّا كان الأمر، فقد وجدت الأخيرة واقفة جوار النافذة. كاد الشفق في هذه اللحظة أن ينجلي نحو ظلام الليل، ولم يكن بإمكان كل منهما أن تبصر الأخرى في صورة خافتة، من دون هذا الضوء الساري من النيران المشتعلة.

تحدثت الآنسة بيتسي، بينما عادت إلى كرسيها، كما لو أنها قد ألقت بنظرة عابرة على المشهد، فقالت: «حسنًا، وماذا تنتظرين...؟».

تلعثمت أمي قائلة: «إن جسدي بأكمله يرتجف. لا أعرف ماذا ينتظرني. سأموت، إنني موقنة بذلك!».

قالت الآنسة بيتسي: «لا، لا، لا. فلتشربي القليل من الشاي».

صرخت أمي في عجز قائلة: «يا عزيزتي، يا عزيزتي، هل تظنين أنه سيجلب لي الخير؟».

قالت الآنسة بيتسي: «بالطبع سيفعل. إن الأمر لا يتعدى كونه دربًا من الأوهام. ما اسم فتاتك؟».

قالت أمي ببراءة: «لا أعرف حتى هذه اللحظة إن كانت فتاة أم صبيًّا يا سيدتي».

صاحت الآنسة بيتسي، مستشهدة بلا وعي بالأمنية الثانية المرتبطة بوسادة الدبابيس القابعة في درج في الطابق العلوي، ولكن أمي كانت قد أساءت فهمها هذه اللحظة، فأجابت بأنها لم تكن تقصدني، قائلة: «فليبارك الله الطفلة! لم أقصد السؤال عن اسمها. أعني ما اسم خادمتك؟».

قالت أمي: «اسمها بيجوتي؟».

كررت الآنسة بيتسي قولها ممزوجًا ببعض السخط، فقالت: «بيجوتي! هل تقصدين أيتها الفتاة، أن ثمة إنسانًا قد ذهب إلى كنيسة مسيحية، وقد أُطلق عليه اسم بيجوتي؟». أجابت أمي بصوت خافت: «إنه لقبها. لقد أطلق عليها السيد كوبرفيلد هذا الاسم، لأن اسمها المسيحي هو اسمي نفسه».

فتحت الآنسة بيتسي باب الصالون ثم صاحت: «يا بيجوتي، أحضري شايًا. إن سيدتك مريضة قليلًا. لا تتأخري».

أصدرت هذا الأمر بكل ما أوتيت من قوة كما لو أنها صاحبة سلطة معترف بها في هذا المنزل منذ أن وجد. تطلعت نحو وجه بيجوتي المندهش وهي قادمة من الممر حاملة شمعة نحو هذا الصوت الغريب، فما لبثت أن أغلقت الآنسة بيتسي الباب مرة أخرى، ثم جلست كما

كانت من قبل. أسندت قدميها على حاجز المدفأة، أما تنورة فستانها فمطوية تحتها وقد شبكت يديها على ركبة واحدة.

قالت الآنسة بيتسي: «كنت تحدثين عن كون المولود فتاة. لا يخامرني شك في أنها ستكون فتاة. يراودني شعور بأنها يجب أن تكون فتاة. أما الآن يا طفلتي، فمنذ لحظة ولادة هذه الفتاة...».

تجرأت أمي وراحت تقول بحرية: «ربما... صبيًّا».

أردفت الآنسة بيتسي تقول: «إنني أخبرك بما يختلجني من شعور بأنها فتاة. لا تعارضي شعوري. وإنني أنتوي منذ لحظة ولادة هذه الفتاة، أيتها الطفلة، أن أصير صديقتها. أتطلع أن أصبح أمًّا روحية لها، وأرجو أن تسميها بيتسي تروتوود كوبرفيلد. يجب ألا تقع أي أخطاء في حياة بيتسي تروتوود. ينبغي ألا يحط أي شيء تافه من مشاعر هذه المسكينة العزيزة. يجب أن تنشأ نشأة حسنة، وأن نحسن حمايتها وصيانة مشاعرها من أي خفايا حمقاء لا تستحق مشقة التفاتها إليها. سأوليها رعايتي واهتمامي».

كانت الآنسة بيتسي تعقب كل جملة من هذه الجمل بإيماءة من رأسها، كما لو أن ذاكرتها استدعت أخطاءها السالفة، وقد راحت تكبت أي إشارة واضحة إلى هذه الأخطاء بإصرار شديد. كانت أمي قد راودتها الشكوك نفسها، بينما كانت تراقبها عبر بصيص شذرات النيران الخافتة، فقد لفها خوف عارم من الآنسة بيتسي. صارت أمي في حالة من الاضطراب الحاد، وقد استولى عليها الارتباك كاملًا، إلى الحد الذي جعلها تستطيع بالكاد أن تلاحظ أي شيء بوضوح، أو تعرف ما عليها قوله.

ساد صمت من جانب الآنسة بيتسي لبعض الوقت في محاولة منها لإيقاف حركات رأسها هذه تدريجيًّا، ثم سألت: «وهل كان ديفيد جيدًا معكِ، يا طفلتي؟ هل كنتما على وفاق معًا؟».

قالت أمي: «كنا سعيدين للغاية. كان السيد كوبرفيلد طيبًا جدًّا في معاملته لي».

راحت الآنسة بيتسي تسأل: «ماذا، هل أفسدك بتدليله على ما أظن؟».

بكت أمي قائلة: «نعم، أخشى أنه أفسدني بالفعل، بعد أن تركني وحيدة تمامًا أعتمد على نفسي في هذا العالم القاسي مرة أخرى».

قالت الآنسة بيتسي: «حسنًا، لا تبكي. لم تكونا متكافئين أيتها الطفلة - إذا كنا نفترض إمكانية تكافؤ أي شخصين بشكل ما - ولذا طرحت عليكِ هذا السؤال. كنت يتيمة حينما تزوجك، أليس كذلك؟».

«نعم».

«وكنت تعملين مربية؟».

فأجابت أمي ببساطة: «كنت مربية أطفال، أعمل لدى عائلة كان السيد كوبرفيلد يزورها. كان السيد كوبرفيلد لطيفًا جدًّا معي، وقد التفت إليَّ وأحاطني بالرعاية، وأعارني قدرًا كبيرًا من الاهتمام، وفي النهاية تقدم إليَّ بالزواج، ثم قبلته. وهكذا تزوجنا».

أطرقت الآنسة بيتسي، ولم تزل عابسة الوجه متأملة في النيران ثم قالت: «ها! أيتها الطفلة المسكينة! هل تعلمين أي شيء؟».

تلعثمت أمي قائلة: «أستميحك عذرًا يا سيدتي، ماذا قلتِ؟».

قالت الآنسة بيتسي: «هل تعلمين شيئًا عن رعاية المنزل، على سبيل المثال؟».

أجابتها أمي قائلة: «أخشى أنني لا أعرف الكثير، فمعرفتي لا ترقى إلى ما كنت أتمنى. لكن السيد كوبرفيلد كان يُعلِّمني...».

قالت الآنسة بيتسي على سبيل الاعتراض: «أكان يعرف الكثير عن هذه الأمور بنفسه؟!».

أكملت أمي: «وآمل أن أكون قد تحسنت، فقد كنت حريصة جدًّا على التعلم. كان في غاية الصبر لتعليمي، لولا فاجعة موته الكبرى».

انهارت أمي في هذه اللحظة مرة أخرى، ولم تستطع الاستمرار في الحديث.

قالت الآنسة بيتسي: «حسنًا، على مهلك».

أكملت أمي: «لقد احتفظت بدفتر لتدوين حسابات المنزل بانتظام، وكنت أراجعه كل ليلة مع السيد كوبرفيلد».

بكت أمي في موجة ثانية من النحيب، ثم انهارت مرة أخرى.

قالت الآنسة بيتسي: «حسنًا، كفى! لا تبكي مرة أخرى».

استأنفت أمي حديثها في نوبة أخرى من البكاء، بعد أن انهارت من جديد قائلة: «إنني على يقين من أننا لم نُبدِ قَطُّ أي اختلاف حول هذا الأمر، إلا اعتراض السيد كوبرفيلد على تشابه كتابتي لرقم ثلاثة ورقم خمسة إلى حد كبير، أو اعتراضه على كتابة ذيول متعرجة لرقم سبعة ورقم تسعة».

قالت الآنسة بيتسي: «سترهقين نفسك بهذا الشكل، وأنتِ تعلمين أن هذا البكاء ليس في صالحك أو صالح ابنتي الروحية. على مهلك، كُفي عن هذا النحيب».

كان لهذه الحجة بعض الأثر في تهدئة أمي، وإن كان لتوترها المتزايد الأثر الأكبر في خفوتها. ساد فاصل من الصمت، لم يقطعه إلا صوت الآنسة بيتسي وهي تُردد بين الحين والآخر قولها: «ها!». بينما كانت تجلس وقد أسندت قدميها على حاجز المدفأة.

تحدثت بعد فترة قائلة: «أعرف أن ديفيد قد أمَّن لنفسه معاشًا سنويًّا اقتطعه من ماله، فماذا فعل لكِ؟».

تحدثت أمي على الرغم مما تجده من صعوبة في الحديث قائلة: «كان السيد كوبرفيلد حريصًا جدًّا وكثير الكرم بحيث أمَّن عودة جزء من المعاش إليَّ».

سألت الآنسة بيتسي: «كم المبلغ؟».

قالت أمي: «مئة وخمسة جنيهات في السنة».

قالت عمتي: «كان من الممكن أن يفعل ما هو أسوأ من ذلك».

كانت هذه الكلمات مناسبة لهذه اللحظة. صارت أمي في حالة أسوأ، للحد الذي جعل بيجوتي تلحظ في لمحة بصر كيف اكتنفها المرض، بينما تتوجه نحوها حاملة شايًا وشموعًا، وسرعان ما قامت بيجوتي بنقل أمي إلى الطابق العلوي حيث غرفتها الخاصة، الأمر الذي كانت لتفعله الآنسة بيتسي عاجلًا إذا توفر لها ضوء كافٍ. ما

لبثت بيجوتي أن استدعت هام بيجوتي، ابن أخيها، الذي ظل مختبئًا في المنزل عدة أيام من دون معرفة أمي. أرسلته بوجه خاص في حالة الطوارئ هذه، ليستدعي الممرضة والطبيب.

انتابت كل منهما دهشة بالغة فور وصول كل منهما عقب الآخر في غضون بضع دقائق، ليجدا سيدة يجهلانها يبدو من مظهرها الوقار، وقد جلست أمام النار، رابطة قبعتها حول ذراعها اليسرى، بينما تسد أذنيها بقطع من القطن. لم تكن بيجوتي تعرف شيئًا عنها، ولم تقل أمي شيئًا عنها. ظلت لغزًا قابعًا في الحجرة، ولم ينتقص من جلال حضورها ما حملته في جيبها من قطن يستخدمه الصاغة، بينما كانت تحشو أذنيها به.

صعد الطبيب إلى الطابق العلوي ثم نزل مرة أخرى بعد أن فحص مريضته، وعلى ما أظن، فقد أقنع نفسه بمقابلة هذه السيدة المجهولة والجلوس معها هناك لبضع ساعات، بدافع نوع من اللباقة الاجتماعية. كان أكثر الرجال لطفًا وأرقهم طبعًا. ظل يدخل ويخرج من الغرفة ليشغل مساحة أقل على الرغم من ضآلته. راح يمشي بهدوء كما لو أنه شبح مسرحية هاملت، بل كان أكثر خفة وبطئًا. أشاح برأسه جانبًا بعض الشيء بتواضع ووقار، استرضاء للآخرين واستعطافًا لهم. ليس بوسعي قول شيء سوى أنه لم يكن ليؤذي كلبًا ولو بكلمة واحدة. لم يكن بإمكانه أن ينهر كلبًا ضالًّا ولو بكلمة. كان يتكلم بروية تشبه مشيته تمامًا، فربما يقدم كلمة لطيفة، أو نصف كلمة، أو جزءًا من جملة رقيقة، لكنه لم يكن ليتفوه بكلام وقح، أو يتسرع في الحديث، لأي اعتبارات دنيوية.

تحدث السيد تشيليب، بينما ينظر بلطف نحو عمتي وقد أمال رأسه جانبًا، ليشكل قوسًا صغيرًا، إذ راح يشير إلى قطن حفظ الجواهر، ملامسًا أذنه اليسرى بلطف وقائلًا:

«هل تعانين من بعض الالتهاب الموضعي، يا سيدتي؟».

أجابته عمتي وهي تسحب القطن من أذن واحدة كما لو أنه سدادة من فلين قائلة: «ماذا تقول؟!».

كان السيد تشيليب منزعجًا جدًّا مما أظهرته من اندهاش -كما قال لأمي فيما بعد- وإنه لمحظوظ إذ لم يفقد عقله. لكنه كرر سؤاله بلطف:

«هل تعانين من بعض الالتهاب الموضعي، يا سيدتي؟».

ردت عمتي قائلة: «هراء»، ثم أعادت سدادة أذنها مرة أخرى بحركة واحدة.

لم يستطع السيد تشيليب فعل أي شيء بعد ذلك، بل جلس وأخذ ينظر نحوها بوهن، بينما كانت قابعة تنظر نحو النار، حتى نودي مرة أخرى إلى الطابق العلوي. عاد بعدها بربع ساعة.

سألته عمتي بينما تخرج القطن من أذنها الأقرب إليه: «حسنًا، ما الأمر؟».

رد السيد تشيليب: «حسنًا يا سيدتي، إننا... إننا نتقدم ببطء يا سيدتي».

أجابته عمتي بتعليق ساخر متقطع الصوت، قائلة: «آ - آ - آه!»، ثم سدت أذنها كما كانت من قبل.

نعم - هذا حقًّا ما حدث - كما أخبر السيد تشيليب أمي، إذ تملكه شعور أقرب إلى الصدمة تقريبًا. كان يتحدث من وجهة نظر مهنية لا غير، وقد صدم تقريبًا. لكنه جلس وأخذ ينظر إليها، برغم ما حدث، لما يقرب من ساعتين، بينما كانت جالسة تنظر نحو النار، حتى نودي مرة أخرى. عاد مرة أخرى بعد غياب جديد.

سألته عمتي بينما تخرج القطن من أذنها الأقرب إليه مرة أخرى: «حسنًا، ما الأمر؟».

رد السيد تشيليب: «حسنًا يا سيدتي، إننا... إننا نتقدم ببطء يا سيدتي».

قالت عمتي: «يا - ا - اه!». تحدثت بازدراء لا يحتمل في وجه السيد تشيليب. قال فيما بعد إن المقصد من هذه الطريقة هو التقليل من مكانته أمامها. فضل بعدها الذهاب والجلوس على الدرج في ظلام وقد ثبت في مهب الهواء، حتى نودي مرة أخرى.

أما هام بيجوتي، الذي تعلم في المدرسة الأهلية، وكان متمسكًا بتعاليم المسيحية وحريصًا عليها، ومن ثَم يمكن اعتباره شاهدًا موثوقًا به على الأحداث؛ فقد حكى في اليوم التالي، أنه قد لاحت له نظرة خاطفة عبر فتحة عند باب الحجرة، بعد ساعة مما حدث، فإذا بالآنسة بيتسي وقد لمحته فورًا، بينما كانت تمشي جيئة وذهابًا في حالة من الإثارة؛ فانقضت عليه قبل أن يتمكن من الهرب. علت في هذه اللحظة أصوات أقدام في الفضاء، ولم يكن للقطن أن يحجب ضجيجها. كان هام هو مصدر هذا الصوت، إذ أمسكت به السيدة كضحية تغدق عليه غضبها الزائد بينما

تعلو الأصوات أكثر فأكثر. كانت تسحبه من ياقته وتشده إليها ثم تبعده (كما لو أنه أفرط في سكره). راحت في هذه اللحظة تهزه ثم شدته من شعره، ومزقت قميصه، ثم أخذت تنخر أذنيه كما لو أنها أرادت إصابتهما كما هي حال أذنيها، من دون أن تتوانى في إذلاله وسوء معاملته. أكدت عمته ما حدث، فقد رأته في الساعة الثانية عشرة والنصف، بعد وقت قصير من إطلاق سراحه، وأشارت أنه كان محمر اللون مثلي تمامًا.

لم يكن السيد تشيليب ليكن حقدًا لأحد؛ لا في مثل هذا الوقت، ولا في أي وقت آخر. ما لبث أن دخل إلى الحجرة بمجرد أن أطلق سراحه، وقال لعمتي بأسلوب وديع:

«حسنًا يا سيدتي، يسعدني أن أهنئك».

قالت عمتي بحدة: «على أي شيء؟».

ارتعش السيد تشيليب مرة أخرى بسبب لهجة عمتي شديدة القسوة، ولذلك فقد انحنى قليلًا أمامها وأرسل إليها ابتسامة صغيرة لتهدئتها.

صرخت عمتي في نفاد صبر قائلة: «ليرحم الله هذا الرجل، ما الذي يفعله؟! ألا يستطيع الكلام؟».

قال السيد تشيليب بلهجته اللطيفة: «اهدئي يا سيدتي العزيزة. لا داعي للقلق يا سيدتي. اطمئني».

اعتقدوا منذ ذلك الحين أن معجزة حالت بينه وبين عمتي، فلم تقبض عليه وتشده لتنتزع منه حديثه. لقد اكتفت بأن هزت رأسها، ولكن بطريقة جعلته يرتجف خوفًا.

استأنف السيد تشيليب حديثه، بمجرد أن تحلى بالشجاعة قائلًا: «حسنًا يا سيدتي، يسعدني أن أهنئك. انتهى الآن كل شيء يا سيدتي، وقد مرَّ بسلام».

أخذ السيد تشيليب يلقي كلماته مستغرقًا نحو خمس دقائق أو يزيد، وقد راحت عمتي تتمعن فيه بنظراتها.

تحدثت عمتي بينما تطوي ذراعيها ولم تزل قبعتها معقودة حول إحداهما قائلة: «كيف حالها؟».

أجابها السيد تشيليب: «حسنًا يا سيدتي، آمل أنها سترتاح تمامًا قريبًا، فتحظى براحة كاملة ينبغي أن تتوافر لأم شابة في ظل هذه الظروف المنزلية الكئيبة. ولا تعارض بين ذلك ورؤيتك لها الآن، يا سيدتي، بل قد يصير وجودك مفيدًا لها».

قالت عمتي بحدة: «وما حالتها؟».

أطرق السيد تشيليب برأسه جانبًا أكثر قليلًا من ذي قبل، ونظر إلى عمتي مثل طائر وديع.

قالت عمتي: «الطفلة، كيف حالها؟».

أجاب السيد تشيليب: «يا سيدتي، ظننت أنكِ تعرفين. إنه ولد».

لم تنبس عمتي ببنت شفة، لكنها تناولت قبعتها من بين الأربطة كما لو أنها تمسك بسلاح، ووجهت بها ضربة إلى رأس السيد تشيليب، ثم لبستها بحنق، وخرجت ولم تعد قَطُّ. اختفت كما الجنية الساخطة،

أو تلاشت كواحد من تلك الكائنات الخارقة للطبيعة، بعد أن كان من المفترض أن أراها بشكل عام، ولكني لم أستطع.

لم تعد قَطُّ، وقد استلقيت في سلتي ومكثت أمي في سريرها. أما بيتسي تروتوود كوبرفيلد فقد باتت إلى الأبد في أرض الأحلام والظلال، تلك المنطقة الهائلة التي جئت منها مؤخرًا؛ وأنار الضوء فوق نافذة غرفتنا نحو نفق أرضي يسلكه المسافرون جميعًا، وفوق مقبرة تعلو رماد ورفات ذلك الرجل الذي عاش يومًا ما، ولولاه لم أكن.



الفصل الثاني

إنني ألاحظ

أنظر إلى الماضي، فأجد أول الأشياء التي تحضر أمامي في بهاء مميز، من فراغ طفولتي تلك، هو صورة أمي بشعرها الجميل وهيئتها الشابة، وكذلك صورة بيجوتي التي لا يميزها شيء على الإطلاق، فعيناها داكنتان؛ فاض سوادهما على ملامح وجهها بالكامل، أما خداها وذراعاها الصلبتان، فتصبغها حمرة فائقة، إلى حد أنني كنت أعجب من عدم إيثار الطيور لها لتنقرها عوضًا عن التفاح.

أتصور أنني أستطيع أن أتذكر هاتين المرأتين بينما تدنوان مني، إذ تتقزمان أمام بصري بعد انحناء أو ركوع على الأرض، بينما أتنقل من إحداهما إلى الأخرى بثبات. يراود عقلي انطباع لا يمكنني إبعاده عن ذكرياتي الحقيقية؛ وهو لمسة سبابة بيجوتي كما اعتادت أن تمسكني بها، وقد أثَّر فيها شغلها بالإبرة فأحالها خشنة مثل مبشرة جوزة الطيب.

قد يكون هذا خياليًّا، على الرغم من أنني أظن أن ذاكرة معظمنا يمكن أن تعود إلى أوقات أبعد مما يتصور الكثير منا، كما أظن أن قوة الملاحظة في عدد كبير من الأطفال الصغار، تكون رائعة جدًّا لقربها ودقتها. أحسب

في حقيقة الأمر أن معظم الرجال الراشدين الذين تميزوا فيما قبل بهذه الملكة، قد يقال إنهم لم يفقدوها بالكامل، بل اكتسبوها باستحقاق أكبر. كما ألاحظ عمومًا أن هؤلاء الرجال بالأحرى، يتميزون برقة ووداعة وقدرة على الشعور بالرضا، وهو أيضًا ميراث قد احتفظوا به منذ طفولتهم.

لا يراودني شك في أنني «أستطرد» بالتوقف عند هذا الرأي، ولكن الأمر يقودني إلى ملاحظة أنني أبني بعضًا من هذه الاستنتاجات على تجربتي الخاصة ومراقبتي لنفسي، فإذا أظهر ما أسجله في هذه الرواية شيئًا من أنني كنت طفلًا ذا ملاحظة دقيقة، أو أنني رجل يتمتع بذاكرة قوية لطفولتي، فأنا بلا شك أحظى بكلتا الميزتين.

أعود إلى الماضي، كما كنت أحكي، حيث فراغ طفولتي، فأتذكر الأشياء الأولى التي تبرز من تلقاء نفسها في ذاكرتي وسط غيرها من الذكريات المرتبكة، فأجد أمي وبيجوتي. ماذا أتذكر أيضًا؟ لنرَ.

يظهر منزلنا من بين سحابة الذكريات، لا تبدو صورته جديدة لي، بل مألوفة تمامًا كما عهدته في أقرب صورة له. يقبع المطبخ في الطابق الأرضي، حيث كانت بيجوتي مسؤولة عنه. كان باب المطبخ يفتح على الفناء الخلفي، يعلوه عش للحَمَام محمولًا على عمود في وسطه، من دون أن تسكنه أي طيور. ينتصب في الزاوية بيت للكلاب، من دون أن يسكنه كلب واحد. تلوح لذاكرتي أعداد من دجاجات تبدو لي طويلة بشكل مخيف. تتجول في هيئة خطيرة وشرسة. ثمة ديك وحيد كان قد وقف على عمود ليصيح، وكان يبدو أنه يراقبني بشكل خاص عندما أنظر إليه من نافذة المطبخ، مما جعلني أرتجف، قد كان في غاية

الشراسة. أحلم في ليلي بالإوز القابع خارج البوابة الجانبية؛ يسير ورائي برقابه الطويلة الممتدة بينما أعبر هذا الطريق. أحلم به كإنسان محاط بالوحوش البرية والأسود.

يمتد ممر طويل يصل بين مطبخ بيجوتي والباب الأمامي، ويا له من مشهد عظيم أهاب تذكره! ينبثق منه مخزن مظلم، لا يمكن العبور من خلاله إذا جن الليل، لأنني لا أعرف ما يكمن بين تلك الأحواض وخلف الجرار وصناديق الشاي القديمة، خاصة عندما لا يوجد إنسان يحمل ضوءًا منيرًا ولو بشكل خافت، أو من دون أن نسمح للهواء المتعفن بالخروج من الباب، حيث تنبعث رائحة الصابون والمخللات والفلفل والشموع والقهوة، حين تهب جميعها في نفحة واحدة... ثم ثمة صالتان: نجلس في إحداهما حين يحل المساء، أنا وأمي وبيجوتي - لأن بيجوتي ترافقنا دائمًا بعد الانتهاء من عملها، فنجلس معًا من دون أن يسامرنا أحد. أما الصالون الأفخم فنجلس فيه يوم الأحد في هيئة جليلة، ولكنها ليست مريحة تمامًا. يلف هذه الغرفة طيف خاطف كما أتذكرها. حكت لي بيجوتي عن جنازة أبي، ولا أذكر متى ولكن على ما يبدو أنها منذ زمن طويل، فأخبرتني عن المُعزين الذين تلحفوا بعباءات سوداء وجلسوا فيها. راحت أمي تقرأ لي ولبيجوتي في إحدى ليالي الأحد في هذه الغرفة، كيف أقيم لعازر من الموت[١]. تملكني الخوف بعدها لدرجة أنهم اضطروا بعد ذلك إلى حملي من السرير، وإطلاعي

---

(١) إحياء لعازر هو إحدى معجزات المسيح المذكورة في إنجيل يوحنا، حيث قام المسيح الشاب لعازر من الموت بعد أربعة أيام من دفنه.

على فناء الكنيسة الهادئ عبر نافذة غرفة النوم، حيث يرقد الموتى جميعًا في قبورهم في سكون، تحت أضواء القمر المهيب.

لا أعرف شيئًا أكثر اخضرارًا ونضرة في أي مكان، أكثر من حشائش فناء الكنيسة، ولا شيء يضاهي ظلال أشجاره الباسقة، ولا شيء يعادل سكون شواهد هذه القبور. أما الخراف فأراقبها ترعى هناك، بينما أجلس في الصباح الباكر في سريري الصغير القابع داخل غرفة أمي لأراقبها، فأرى الضوء الأحمر منعكسًا فوق الساعة الشمسية(١)، وأناجي أفكاري متسائلًا: «هل صارت الساعة الشمسية سعيدة، بعد أن عادت إليها قدرتها على تحديد الوقت مرة أخرى؟».

أما هنا فيقبع مقعدنا من الكنيسة. يا له من مقعد عالي الظهر! كانت بجانبه نافذة، يمكن من خلالها رؤية منزلنا، وقد كانت بيجوتي تُطل منها عدة مرات في أثناء خدمتها الصباحية، حيث تحب أن تتأكد بقدر استطاعتها من عدم تعرض البيت للسرقة، أو أن النيران لم تشتعل فيه بعد. كانت عين بيجوتي تجول بين الكنيسة والبيت، إلا أنها تشعر بالإهانة إذا فعلتُ الشيء نفسه، فتوبخني حين أقف على المقعد، وتطلب مني أن أنظر نحو القسيس. لم أكن أستطيع النظر إليه دائمًا - فقد كنت أعرفه من دون ذلك الشيء الأبيض الذي يرتديه، وأخشى أن يتساءل لماذا أحدق به، وربما أوقف الخدمة للاستفسار عن نظراتي إليه - فماذا أفعل؟ أما

---

(١) ساعة شمسية عُرفت باسم المزولة. تتكون من عدة نقاط وخطوط، رسمت على صفيحة عريضة، وفي وسطها عصا مستقيمة أفقية يتحدد الوقت من طول ظلها الناتج عن وقوع أشعة الشمس عليها، حيث تترك ظلًا متحركًا على النقاط والخطوط. تعد من أقدم آلات قياس الوقت، وهي أداة توقيت نهاري فقط.

التثاؤب فأمر مروع، ومن ثمَّ كان عليَّ أن أفعل شيئًا لأنتبه. نظرت إلى أمي، لكنها تظاهرت بعدم رؤيتي. ألقيت نظرة على صبي في الممر بينما يلهو، فظهرت على وجهه تعبيرات مختلفة. نظرت إلى ضوء الشمس المسترسل عبر الباب المفتوح عابرًا نحو الشرفة، وهناك أبصرت خروفًا ضالًّا - ولا أعني هنا إنسانًا مذنبًا[1]، بل إحدى الخراف - قرر نصف جسده أن يدخل إلى الكنيسة. أشعر أنني إذا نظرت إليه بعد الآن، فقد أميل إلى قول شيء ما بصوت عالٍ، فما عاقبة ذلك عليَّ؟! أشحت نظري حيث اللوحات الضخمة المعلقة على الحائط، وحاولت التفكير في السيد بودجرز الذي كان تابعًا لهذه الأبرشية، وفكرت في مشاعر السيدة بودجرز، بعدما تحمل السيد بودجرز آلامه لوقت طويل قبل موته، وكان وجود الأطباء معه بلا فائدة. أتساءل عما إذا كانوا قد استدعوا السيد تشيليب، وقد كان قليل الحيلة معه. وإذا كان الأمر كذلك، فهل عليه أن يتذكر ما حدث ولو لمرة في الأسبوع؟ أنظر نحو السيد تشيليب، فأراه في سترته ذات الياقة التي يرتديها يوم الأحد. أحوِّل نظري إلى المنبر وأفكر في أنه مكان جيد للعب، وأنه يصلح أن يكون قلعة سأبنيها، وأتخيل أني ألاعب صبيًّا يصعد الدرج لمهاجمة قلعتي، فألقي بوسادة مخملية ذات ذيول وزخارف فوق رأسه. أغمض عيني تدريجيًّا مع مرور الوقت، بعد أن يُهيَّأ لي أنني أستمع إلى القسيس بينما يرتل أغنية للنوم في فتور، إلى أن يسكن من حولي كل شيء فلا أسمع شيئًا، حتى أسقط عن مقعدي مرتطمًا بالأرض، فتخرجني بيجوتي، وأنا أقرب للموت من الحياة.

---

(١) يشار إلى الإنسان المذنب في الثقافة المسيحية بالخروف الضال الذي لم يهدِه الإيمان بعد إلى الطريق الصحيح.

أبصر الآن الجزء الخارجي من منزلنا، فأرى نوافذ غرفة النوم وقد انفتحت شبابيكها للسماح بدخول الهواء المنعش طيب الرائحة، بينما لم تزل أعشاش الطيور القديمة الممزقة تتدلى فوق أشجار الدردار في جزء بعيد من الحديقة الأمامية. أتصور الآن الحديقة الخلفية، التي تترامى وراء الفناء، حيث عش الحمام وبيت الكلاب الفارغين - فأتذكرها محفوفة بالفراشات، وبسياج عالٍ وبوابة وقفل، وكذلك تنبثق ثلة من الفاكهة فوق الأشجار ربما أكثر نضجًا وثراءً من الفاكهة التي كانت عليها منذ ذلك الحين، بل وأوفر من أي حديقة أخرى. تجمع أمي بعض الثمار في سلة، بينما أقف متفرجًا، أبتلع عنب الثعلب خلسة، وأحاول ألا أُبدي أي تأثر. أتذكر كيف هبت رياح عظيمة ثم انجلى الصيف في لحظة. كنا نلعب في شفق أيام الشتاء، ونرقص حول الردهة. تنقطع أنفاس أمي وتذهب لتستريح فوق كرسي ذي مسند، فأراقبها بينما تلف خصلات شعرها اللامع حول أصابعها، وتشد خصرها، وأنا على تمام المعرفة أكثر من أي إنسان آخر، بمدى حبها للاعتناء بمظهرها، ومدى فخرها بكونها جميلة للغاية.

كانت هذه اللحظات من بين انطباعاتي المبكرة للغاية. أذكر كذلك الشعور بأننا كنا خائفين قليلًا من بيجوتي، وقد استسلمنا لأوامرها في أغلب الأمور. كانت هذه الفكرة من بين الأفكار الأولى - إذا كان من الممكن تسميتها بهذا الاسم - التي استنتجتها مما رأيته وعايشته.

كنت أنا وبيجوتي جالسين في إحدى الليالي بجوار المدفأة في الصالون. كنت أقرأ لبيجوتي عن التماسيح. لا بد أنني قرأت بوضوح

شديد، أو ربما كانت المسكينة مهتمة بما أقول، لأني أتذكر كيف تكوَّن لديها انطباع غائم، بعد أن أنهيت القراءة، مفاده أن التماسيح نوع من الخُضر. كنت قد تعبت من القراءة وشعرت بنعاس مطبق، فقد سمحوا بالسهر كنوع من الترفيه بعد أن ذهبت أمي لقضاء إحدى الأمسيات مع أحد الجيران. كنت أفضل أن أموت في مكاني (بالطبع) على أن أذهب إلى الفراش. كنت قد وصلت إلى مرحلة من النعاس لدرجة بدأت بيجوتي معها في التضخم والنمو بشكل كبير للغاية أمامي. فتحت جفني بإصبعَي، ورحت أنظر إليها بإصرار، بينما تجلس منشغلة في عملها. كانت قد احتفظت بشمعة صغيرة تعينها على إتمام عملها بالإبرة. كم كانت تبدو لي عجوزًا، وقد تجلت لي كامل ملامحها. أمعنت النظر في المنزل الصغير المسقوف بالقش، حيث تضع المقياس في صندوق بغطاء منزلق، وقد ارتسمت عليه صورة لكاتدرائية القديس بولس تعلوها قبة وردية، حتى أبصرت الكشتبان النحاسي بإصبعها. تراءت لعيني ذات جمال وحسن. شعرت بنعاس شديد، للحد الذي أدركت فيه أنني إذا فقدت رؤية أي شيء للحظة، فقد أغفو من دون صحوة.

تكلمت فجأة قائلًا: «يا بيجوتي، هل تزوجتِ من قبل؟».

أجابت بيجوتي: «يا الله، يا سيد ديفي، ما الذي يجلب فكرة الزواج إلى رأسك؟».

أجابت بهذه البداية التي أيقظتني تمامًا. توقفت بعدها عن عملها، ونظرت إليَّ، وقد مدت إبرتها بطول خيطها أمامي.

قلت: «لكن هل تزوجتِ في يوم من الأيام يا بيجوتي؟ إنكِ امرأة جميلة جدًّا، أليس كذلك؟».

أتصور أنها جميلة بصورة تختلف عن أمي بالتأكيد، لأنها تنتمي إلى مدرسة أخرى للجمال، وقد اعتبرتها مثالًا ممتازًا لهذا النوع. كان ثمة مسند للأقدام لونه أحمر مخملي في الصالون، كانت أمي قد رسمت عليه صحبة من زهور. بدا لي أن أرضية هذا المسند تتناغم مع بشرة بيجوتي. كان المسند أملس، وكانت بيجوتي خشنة، لكن ذلك التباين لم يؤثر على نظرتي.

قالت بيجوتي: «أنا جميلة يا ديفي؟! لا، لا يا عزيزي! ولكن ما الذي جلب فكرة الزواج إلى رأسك؟».

«لا أعرف! - لكن إذا تزوجتِ فلا يجب أن تتزوجي أكثر من شخص واحد في وقت واحد، أليس كذلك يا بيجوتي؟».

تقول بيجوتي في إقرار سريع: «بلى بالتأكيد».

«ولكن إذا تزوجتِ شخصًا ثم مات، قد تتزوجين شخصًا آخر، أليس كذلك يا بيجوتي؟».

تقول بيجوتي: «ربما، إذا أردت يا عزيزي. وهذه مسألة تحمل آراء مختلفة».

قلت: «ولكن ما رأيك يا بيجوتي؟».

سألتها ونظرت إليها بفضول لأنها نظرت إليَّ بالطريقة نفسها.

أجابت بيجوتي بعد قليل من التردد وقد استمرت في عملها: «رأيي

هو... رأيي هو أنني لم أتزوج من قبل يا سيد ديفي، وأنني لا أتوقع أن أصير زوجة. هذا كل ما أعرفه عن الموضوع».

قلت، بعد أن جلست صامتًا لدقيقة: «إنكِ لستِ غاضبة مني، على ما أظن يا بيجوتي، أليس كذلك؟».

ظننت أنها غاضبة مني حقًّا، لكنني كنت مخطئًا تمامًا، لأنها ما لبثت أن تركت عملها - فقد كانت تخيط جوربًا لها - ثم فتحت ذراعيها على مصراعيها، وأخذت برأسي المجعد فاحتضنتني، وقد ضمتني إليها بشدة. أعلم أنه كان عناقًا محببًا، لأنها كانت ممتلئة بعض الشيء. كانت كلما بذلت أي مجهود بسيط لارتداء ملابسها، لا تلبث أن تتطاير بعض الأزرار الموجودة على ظهر ثوبها. ولم أزل أذكر أن زرين قد انفجرا في الجانب الآخر من الردهة، بينما كانت تعانقني.

قالت بيجوتي، والتي لم تكن تنطق الكلمة بشكل صحيح حتى هذه اللحظة: «أما الآن فدعني أسمع المزيد عن «التناسيح» لأنني لم أسمع عنها ما يكفي».

لم أستطع أن أفهم تمامًا لماذا بدت بيجوتي غريبة جدًّا، أو لماذا كانت في غاية الاستعداد للعودة إلى التماسيح. ومع ذلك، عدنا إلى الحديث عن تلك الوحوش، بعد أن انتابتني يقظة جديدة. تركنا بيض التماسيح في الرمال حتى تفقسه الشمس، وهربنا منها، وتركناها حائرة باستمرار، فلم تتمكن من الجري بسرعة لصعوبة عملها وحركتها، فغصنا في الماء من بعدها مثل باقي أهالي البلدة، بعد أن ألقينا بقطع حادة من الأخشاب في حناجرها، وباختصار سخرنا من التماسيح كلها

وأنهينا حكايتها، أو هكذا انتهيت أنا منها على الأقل، لكن ساورتني شكوك حول فهم بيجوتي، التي راحت تغرس إبرتها بعناية في أجزاء مختلفة من وجهها وذراعيها طوال الوقت.

لقد أنهكنا التماسيح، وبدأنا نخصص حديثنا عن التماسيح الأمريكية، وإذا بجرس الحديقة يدق، فانطلقنا نحو الباب. لاحت أمي لعيني فاتنة في صورة لم أعهدها، وقد صحبها رجل نبيل ذو شعر أسود وسوالف سوداء منمقة، كان قد سار معنا من الكنيسة إلى المنزل يوم الأحد الماضي.

راحت أمي تنحني على عتبة الباب لتأخذني بين ذراعيها وتُقبلني، فقال السيد إنني كنت صغيرًا ورقيقًا أتمتع بامتيازات كبيرة تفوق براءة الملائكة - أو شيئًا من هذا القبيل، لأن إدراكي للتعبيرات فيما بعد قاد عقلي وساعدني في صياغة مثل هذه المواقف.

سألته من فوق كتف أمي: «ما معنى ذلك؟».

ربَّت على رأسي، لكن لم أحبه ولم أحب صوته الأجش على نحو ما، وكنت أشعر بالغيرة من أن تلمس يده أمي بينما تلمسني - وهو ما حدث. كنت أبعد يدي قدر استطاعتي.

قالت أمي: «آهٍ يا ديفي!».

قال الرجل: «يا له من صبي ودود! لا أستطيع أن ألومه على إخلاصه».

لم أرَ في حياتي هذا اللون الجميل الذي كسا وجه أمي. وبَّختني

بلطف على وقاحتي، وقد أبقتني على مقربة من شالها، بعد أن استدارت لتشكر الرجل المحترم على بذل كثير من الجهد لإعادتها إلى المنزل. مدت يدها إليه وهي تتكلم وتلقفها بيده، ثم حوَّلت إليَّ نظرتها على ما أذكر.

أبصرت الرجل المحترم بعد أن أحنى رأسه فوق قفاز أمي الصغير، قائلًا: «دعونا نقول ليلة سعيدة، يا طفلي الجميل».

قلت: «ليلة سعيدة».

قال الرجل وهو يضحك: «هيَّا، لنكن أفضل الأصدقاء في هذا العالم، هيَّا صافحني».

كانت يدي اليمنى في يسار أمي، لذلك مددت يدي الأخرى.

ضحك الرجل المحترم قائلًا: «لماذا هذه اليد، إنها ليست للمصافحة يا ديفي».

سحبت أمي يدي اليمنى نحو الأمام، لكنني كنت مصممًا – لسبب ذكرته من قبل – على عدم إعطائها له، ولم أفعل. ناولته يدي الأخرى، فهزها مصافحًا في حرارة، وقال إنني كنت صديقًا شجاعًا، ثم ذهب بعيدًا.

أبصرته في هذه اللحظة بينما يستدير في الحديقة، وقد ألقى نظرة أخيرة نحونا بعينيه السوداوين المشؤومتين، قبل أن يُغلق الباب.

لم تقل بيجوتي كلمة واحدة، ولم تحرك ساكنًا. قامت بغلق الأبواب على الفور، وذهبنا جميعًا إلى الصالون. لم تجلس أمي، خلافًا

لعادتها، على الكرسي بجوار المدفأة، وبدلًا من ذلك ظلت في الطرف الآخر من الغرفة، وجلست تغني لنفسها.

تحدثت بيجوتي، بينما تقف متيبسة مثل برميل في وسط الغرفة، وفي يدها شمعدان، قائلة: «أرجو أن تكوني قد قضيت أمسية ممتعة يا سيدتي».

ردت أمي بصوت مبتهج: «ممتنة لكِ كثيرًا يا بيجوتي. لقد أمضيت أمسية ممتعة جدًّا».

علقت بيجوتي بقولها: «إن معرفة شخص جديد أو نحو ذلك هي نوع من التغيير المقبول».

ردت أمي: «حقًّا، تغيير مقبول للغاية».

ظلت بيجوتي واقفة في منتصف الغرفة من دون حراك، بينما استأنفت أمي الغناء، أما أنا فانتابني النعاس. لم أكن نائمًا تمامًا فرحت أسمع أصواتًا لحديث، من دون تمييز ما يُقال. استيقظت من هذه الغفوة المزعجة، فوجدت بيجوتي وأمي تتحدثان معًا وقد انهمرتا في البكاء.

قالت بيجوتي: «لم يكن السيد كوبرفيلد ليحب رجلًا بمثل هذه الصفات. وإن هذا لقولي، وإنني لأقسم عليه».

صرخت أمي قائلة: «يا إلهي! هل ثمة فتاة مسكينة تستغلها خادمتها مثلي أنا؟! لماذا أظلم نفسي وأطلق على نفسي لفظة «فتاة»؟ ألم أتزوج من قبل يا بيجوتي؟».

أجابت بيجوتي: «يعلم الله أنكِ فعلت يا سيدتي».

قالت أمي: «إذن، كيف تجرؤين على ذلك؟ إنكِ تعلمين أنني لا أقصد أنك تتجرئين عليَّ يا بيجوتي، ولكن كيف يمكنكِ أن تعتصري قلبي - لتجعليني غير مرتاحة ومرتبكة فتقولين لي مثل هذه الأشياء القاسية؟ إنكِ تعلمين جيدًا أنني لا أملك خارج هذا المكان صديقًا واحدًا ألجأ إليه».

أجابت بيجوتي: «إن قولك هذا سبب دامغ لتأكيد قولي بأن أمرك هذا لن ينجح. لا، هذا لن يحدث. لا، لا شيء يبرر ما يمكن أن تفعليه. لا».

ظننت أن بيجوتي على وشك أن تلقي بالشمعدان بعيدًا عن يدها، فقد كانت شديدة الصرامة معها.

قالت أمي بينما تذرف دموعًا أكثر من ذي قبل: «كيف يمكنكِ أن تثوري إلى هذا الحد، وتتحدثين بهذه اللهجة الظالمة؟! كيف يمكنكِ الاستمرار في قولكِ كما لو أن كل الأمور قد حدثت أو تمت وصارت قيدًا للتنفيذ يا بيجوتي؟ إنني أخبركِ مرارًا وتكرارًا، أيتها الفظة القاسية، أن الأمر لم يتجاوز بعض المجاملات المتحضرة الشائعة، أما أنتِ فتتحدثين عن إعجاب، فهل بيدي شيء لأفعله؟ إذا كان الناس سخفاء بالانغماس في التعبير عن مشاعرهم، فهل هذا خطئي؟ فإني أوجه إليكِ سؤالًا: ماذا أفعل؟ هل تتمنين أن أحلق رأسي وأُسوِّد وجهي، أو أُشوِّه نفسي بحروق، أو لسعات، أو شيء من هذا القبيل؟ وإني لأجرؤ على القول إنكِ ستريدين ذلك يا بيجوتي. أجزم أنكِ ستستمتعين به تمامًا».

أحسست أن بيجوتي قد تأثرت بهذا الطرح أشد تأثر.

انحنت أمي نحو الكرسي الذي جلستُ عليه وراحت تقول: «ولدي العزيز، يا حبيبي ديفي الصغير، هل يكون المقصد أن يُلمح أحد إليَّ أنني لا أعشق كنزي الثمين هذا؟ يا أعز رفيق صغير على الإطلاق».

قالت بيجوتي: «لم يلمح أحد لمثل هذا المعنى».

أجابتها أمي: «لقد فعلتِ، بيجوتي، إنكِ تعلمين أنكِ قد ألمحتِ إلى ذلك. ماذا أستنتج مما قلتِه، أيتها الإنسانة القاسية؟ إنكِ تعرفين جيدًا أنني آثرته عليَّ، فلم أشترِ لنفسي مظلة جديدة في فصل الشتاء على الرغم من أن تلك المظلة الخضراء صارت قديمة مهترئة بأكملها، كما صار هيكلها باليًا تمامًا. إنكِ تعرفين ذلك يا بيجوتي. لا يمكنكِ إنكار الأمر».

ما لبثت أمي أن التفتت نحوي في حنان، ثم ألصقت خدي بخدها، قائلة: «هل أنا أم قاسية عليك يا ديفي؟ هل أنا أم سيئة، أم قاسية، أو أنانية، أو شريرة؟ قل إنني كذلك يا طفلي. فلتقل نعم يا ولدي الغالي، وسوف تحبك بيجوتي، وسيكون حب بيجوتي أفضل بكثير من حبي لك يا ديفي. إنني لا أحبك على الإطلاق، أليس كذلك؟».

بكينا جميعًا في هذه اللحظات. أظن أن صوت نحيبي كان الأعلى بينهم، لكنني على يقين من أننا كنا جميعًا مخلصين في هذا البكاء. انكسر قلبي عن كامله حزنًا، وأخشى أنه في أول تأثري وانكساري، قد أطلقت على بيجوتي اسم «الوحش». كان هذا المخلوق الصادق في مأزق عميق، كما أتذكر، ولا بد أن أزرار ثوبها قد طارت كلها في هذه المناسبة، لأني سمعت وابلًا صغيرًا من هذه الانفجارات، فبعد أن تشاجرت مع أمي، راحت تجثو على ركبتيها بجوار الكرسي ذي المسند لتصالحها بي.

ذهب كل منا إلى فراشه في غاية الأسى. أبقاني بكائي يقظًا لوقت طويل. رفعني أحدهم بقوة من الفراش، فوجدتها أمي وقد جلست فوق الأغطية، وراحت تميل فوقي. نمت بين ذراعيها بعد ذلك ورحت في نوم هادئ.

لا أستطيع أن أتذكر هل رأيت ذاك الرجل في يوم الأحد التالي مرة أخرى، أم طال الوقت قبل ظهوره من جديد؟ إنني لا أدعي أنني أذكر التواريخ بدقة، ولكني أبصرته هناك في الكنيسة، ثم عاد معنا إلى المنزل بعد ذلك. لقد دخل أيضًا ليلقي نظرة من نافذة الصالون على شجرة إبرة الراعي الشهيرة التي لدينا. لم يبدُ لي أنه اهتم لأمرها كثيرًا، ولكنه قبل أن يغادر كان قد طلب من أمي أن تعطيه القليل من الأزهار. توسلت إليه أن يختار بنفسه ما يحب من أزهارها، لكنه رفض أن يفعل ذلك - لم أستطع أن أفهم السبب - لذا قطفت أمي له بعضها ووضعتها في يده. قال إنه لن يفرط فيها أبدًا، وظننت أنه أحمق بلا شك، فلا يعرف أنها ستذبل في غضون يوم أو يومين.

بدأت بيجوتي تنسحب من مشاركتنا في المساء عن الحد الذي كانت تقضيه معنا دائمًا. كانت أمي تهتم بها كثيرًا، وقد خطر لي ذلك أكثر من المعتاد، فكنا جميعًا أصدقاء ممتازون، لكننا لم نزل مختلفين عما اعتدنا أن نكونه، ولم نعد مرتاحين فيما بيننا. كنت أتخيل أحيانًا أن بيجوتي ربما اعترضت على ارتداء أمي لأي فساتين جميلة تحويها أدراجها، أو تعترض كثيرًا على ذهابها المتكرر لزيارة جارها. أما أنا فلم أستطع أن أتفهم كيف تسير الأمور بالشكل الذي يرضي تفكيري.

اعتدت تدريجيًّا رؤية الرجل ذي سوالف الشعر السوداء. لم يزِد حبي له شيئًا عن البداية، وظلت تراودني الغيرة المزعجة نفسها منه، ولكن إذا كان لديَّ أي سبب وراء ذلك الشعور يتجاوز كره الطفل الغريزي، فيبدو أنها فكرتي العامة عن أنني مع بيجوتي يمكننا أن نمثل الكثير لمشاعر أمي من دون أي مساعدة من أحد. ويبدو أن هذا السبب كان من الممكن أن أتفهمه لو كنت أكبر سنًّا. لم يخطر ببالي في هذه السن شيء من هذا القبيل أو بالقرب منه. كان بإمكاني أن ألاحظ عددًا من التفصيلات الصغيرة كما هي؛ أما صنع شبكة من علاقات تجمع عددًا من هذه القطع، والتقاط دور أي شخص فيها، فقد كان ذلك بعيدًا عني في هذا العمر.

كنت مع أمي في الحديقة الأمامية في صباح أحد أيام الخريف، بينما مر السيد مردستون - كنت في هذا الوقت أعرفه بهذا الاسم - ممتطيًا جواده. كبح جواده لتحية أمي، وقال إنه ذاهب إلى لويستوفت لرؤية بعض الأصدقاء الذين يعيشون هناك ويملكون يختًا، واقترح بفكاهة أن يأخذني على السرج أمامه إذا كنت أرغب في الركوب معه.

كان الهواء نقيًّا ولطيفًا، وبدا أن الجواد نفسه يحبذ فكرة الركوب كثيرًا، فقد وقف يصهل ويخدش بحافره الأرض عند بوابة الحديقة، للحد الذي أثار رغبة كبيرة عندي في الذهاب. صعدت إلى الطابق العلوي لتعد بيجوتي ثيابي استعدادًا للذهاب؛ وفي هذه الأثناء، كان السيد مردستون قد ترجل عن ظهر الحصان، وقد تناول لجام حصانه بذراعه وسار ببطء جيئة وذهابًا على الجانب الخارجي من سياج

الحديقة. راحت أمي تمشي ببطء جيئة وذهابًا هي الأخرى داخل الحديقة بمحاذاته للحفاظ على مرافقته. أتذكر أنني وبيجوتي اختلسنا النظر إليهما من نافذتي الصغيرة، وأتذكر كيف لاحا متناغمين يفحصان أشجار الليلاب عن كثب بينما يتجولان، ومن ثَم انقلب مزاج بيجوتي تمامًا في لحظة وتحول عنها الوجه الملائكي إلى سخط، وراحت تمشط شعري بطريقة خاطئة وبقوة مفرطة.

سرعان ما خرجت أنا والسيد مردستون، لنسير فوق العشب الأخضر الممتد بجانب الطريق. حملني في سهولة بذراع واحدة، ولا أظن أنني كنت كثير الحركة في العادة، لكنني لم أستطع أن أتمالك نفسي وأن أجلس أمامه من دون أن أدير رأسي أحيانًا لأنظر إلى وجهه. كان يحظى بعين سوداء ضحلة - أريد كلمة أفضل للتعبير عن عين لا تفضي إلى عمق بمجرد النظر إليها - تبدو مشوهة عند انعكاس بعض الضوء عليها، بسبب حولٍ فيها قد ظهر حين شرد للحظة. لاحظت عندما نظرت إليه عدة مرات ذاك المظهر برهبة، وتساءلت عن الشيء الذي يفكر فيه عن كثب. بدا لي شعره وسوالفه أكثر سوادًا وسمكًا من ذي قبل، بعد أن أبصرته من قرب، حتى إنني منحتهما الفضل في الاحتفاظ بوسامته في ذاكرتي. ذكرتني استدارة ذقنه ولحيته السوداء الفاحمة، التي يحرص على حلاقتها كل يوم؛ بمتحف الشمع الذي حلَّ ببلدتنا قبل نحو نصف عام. أما حاجباه المألوفان، وبياض بشرته الناصعة، مع سواد شعره وبعض البقع البنية في بشرته - يا لها من ملامح لم أزل أذكرها! - فأحسبه رجلًا وسيمًا للغاية على الرغم من نفوري

منه. لا يراودني أدنى شك في أن أمي العزيزة المسكينة كانت ترى فيه الوسامة نفسها.

ذهبنا إلى فندق بجانب البحر، حيث وجدنا رجلين يدخنان السيجار في غرفة بمفردهما. كان كل واحد منهما مستلقيًا على أربعة كراسي على الأقل، مرتديًا سترة كبيرة خشنة. تجتمع في الزاوية كومة من المعاطف وأغطية القوارب والأعلام، وقد تكدست معًا.

دخلنا عليهما، فتدحرج الرجلان وانتصبا على أقدامهما في عشوائية، وراحا يقولان: «أهلًا يا مردستون، ظننا أنك ميت».

قال السيد مردستون: «ليس بعد».

قال أحد السادة، وقد أمسك بي: «ومن يكون هذا الصبي؟».

أجاب السيد مردستون: «إنه ديفي».

قال الرجل: «من ديفي؟ هل هو ديفي جونز؟».

أجاب السيد مردستون: «إنه ديفي كوبرفيلد».

صاح الرجل قائلًا: «ماذا؟! هل هذا ابن السيدة كوبرفيلد الساحرة؟ الأرملة الصغيرة الجميلة؟».

قال السيد مردستون: «يا كوينون، لتأخذ حذرك إذا سمحت. إن ثمة شخصًا ذكيًّا بيننا».

سأل الرجل ضاحكًا: «من يكون؟». التفتُّ نحوه بسرعة في فضول لمعرفة من يكون.

قال السيد مردستون: «إنه بروكس أوف شيفيلد، لا غيره».

لقد شعرت بالارتياح عندما اكتشفت أنه لم يكن سوى بروكس أوف شيفيلد، لأنني ظننت في البداية أن الحديث عني حقًّا.

يبدو أن ثمة شيئًا هزليًّا للغاية يصيب سمعة السيد بروكس أوف شيفيلد، فقد أثار ضحك كل السادة بحرارة عندما ذكروه، وقد كان السيد مردستون مسرورًا أيضًا. قال الرجل الذي كان يُسمَّى كوينون بعد انتهاء الضحك:

«وما رأي بروكس أوف شيفيلد في المسألة المتوقع حدوثها؟».

أجاب السيد مردستون: «لماذا تسألني؟ إنني لا أعرف إن كان بروكس يعرف شيئًا عنها في الوقت الحالي أم لا. لكنه ليس راضيًا عنها بشكل عام، على ما أظن».

انتابهم مزيد من الضحك إثر هذا القول، وقال السيد كوينون إنه سيقرع الجرس طلبًا لبعض الخمر ليشرب نخب بروكس، وقد قام بالأمر. جاء النبيذ، فأعطاني قليلًا منه مع البسكويت، وقبل أن أشربه وقف وراح يقول: «في نخب الجاهل بروكس أوف شيفيلد!». استُقبل هذا النخب بتصفيق حار، وضحك شديد جعلني أضحك أيضًا، مما جعلهم يزدادون ضحكًا. باختصار، لقد استمتعنا بأوقاتنا غاية الاستمتاع.

تمشينا أعلى الجرف بعد ذلك، وجلسنا على العشب، ونظرنا إلى المكان عبر التلسكوب - لم أستطع، عن نفسي، رؤية أي شيء عندما وضعت عيني في عدسة التلسكوب، لكنني تظاهرت بأنني أبصرها جيدًا. عدنا بعد ذلك إلى فندق لتناول العشاء مبكرًا. ظل السيدان

يدخنان باستمرار طوال الوقت الذي كنا فيه بالخارج. أظن أنني أستطيع أن أخمن من رائحة معطفيهما الخشنين؛ أنهما يدخنان بلا توقف منذ أن جلباهما أول مرة من الخياط إلى المنزل. يجب ألا أنسى أننا صعدنا إلى متن اليخت، حيث نزل ثلاثتهم إلى الكابينة، وقد انشغلوا بمطالعة بعض الأوراق. رأيتهم منهمكين يعملون بجد، عندما نظرت إليهم عبر النافذة العلوية المفتوحة. تركوني في هذا الوقت مع رجل لطيف للغاية ذي رأس كبير جدًّا من الشعر الأحمر تعلوه قبعة صغيرة لامعة للغاية. كان يرتدي قميصًا أو صدرية بقضبان متقاطعة، مكتوبة عليها كلمة «قُبَّرة» بأحرف كبيرة، حتى ظننت أنها اسمه، وأنه كتبه على صدره لأنه يعيش على متن السفينة، إذ لم يكن لديه باب للشارع ليضع عليه اسمه، فقد آثر وضعه على صدره بهذا الشكل، ولكني حين دعوته باسم السيد قُبَّرة، قال لي إنه اسم السفينة.

لاحظت طوال اليوم أن السيد مردستون كان أهدأ وأكثر ثباتًا من صاحبيه. كانا في غاية المرح والمجون. كان كل منهما يمزح مع الآخر من دون حياء، لكنهما نادرًا ما يمزحان معه. بدا لي أنه أكثر ذكاءً وبرودة مما كانا عليه، وأنهما ينظران إليه بشكل أقرب إلى انطباعي نفسه. لاحظت مرة أو مرتين، أنه عندما يتحدث السيد كوينون، لا يلبث أن ينظر نحو السيد مردستون بطرف عينه، كما لو أنه يتأكد من عدم استيائه. كان السيد باسندج (الرجل الآخر) في حالة مبالغة من اللهو في إحدى المرات، فما لبث أن داس السيد كوينون على قدمه، ورمقه بتحذير خفي بعينيه محذرًا إياه من السيد مردستون، الذي ظل جالسًا جادًّا وصامتًا.

ولا أتذكر أن السيد مردستون ضحك طوال ذلك اليوم، باستثناء نكتة شيفيلد - وأنه ضحك على كلامه هو لا أحد غيره.

عدنا إلى المنزل في أول المساء. كانت أمسية رائعة جدًّا، وقد راحت أمي تتنزه معه مرة أخرى بجوار السياج، بينما ذهبت للحصول على بعض الشاي. رحل الرجل فسألتني أمي عن كل شيء دار في هذا اليوم الذي قضيته، وسألتني عما قالوه وفعلوه. ذكرت لها ما قالوه عنها، فضحكت ومن ثَم أخبرتني أنهم رفقاء وقحون يتحدثون عن توافه الأمور، لكنني علمت أن ذلك يسعدها. أدركت ذلك تمامًا كما أدركه الآن. انتهزت الفرصة لسؤالها عما إذا كانت على دراية بالسيد بروكس أوف شيفيلد، لكنها أجابت بالنفي، إلا أنها افترضت أنه قد يكون صانعًا للسكاكين والشوك.

هل يمكنني أن أسترسل في الحديث عن وجهها - الذي تغير كما أسلفت الذكر، ثم توارى كما عهدته؟ لقد تلاشى من أمامي، لكنني حين أتذكره يتمثل أمامي في هذه اللحظة، متميزًا مثل وجه قد ألتفت إليه لأتفحصه في شارع مزدحم. هل أستطيع أن أخبركم عن جمالها الأنثوي والبريء؟ لقد تلاشى جمالها ولم يعد له وجود. أما الآن فقد حلَّت أنفاسها تهفهف فوق وجنتي كما حدث تلك الليلة. هل يمكنني أن أبوح لكم بأن ملامحها لم تتغير مع الأيام، في كل مرة أعيدها بذاكرتي فأتمثلها على نحو ما على قيد الحياة، فيبدو شبابها الرائق المحبب أكثر صفاء مما كانت عليه، ولم تزل متمسكة بكل ما كانت تعتز به في حياتها؟

أكتب عن هيئتها تمامًا كما كانت قبل أن تذهب إلى الفراش بعد هذا الحديث، وقد جاءت إليَّ لتتمنى لي ليلة سعيدة. ركعت على ركبتيها بجانب السرير، وأسندت ذقنها على يديها، ثم قالت ضاحكة:

«ماذا قالوا يا ديفي؟ أخبرني مرة أخرى. لا أستطيع أن أصدق ذلك».

بدأت أقول لها: «قالوا الساحرة...».

وضعت أمي يديها على شفتي لإيقافي عن الحديث.

قالت وهي تضحك: «لم يكن الأمر ساحرًا قَطُّ. لم يكن من الممكن قَطُّ أن يكون ساحرًا يا ديفي. أعرف الآن أنه لم يكن كذلك».

كررتُ حديثي في تأكيد قائلًا: «نعم، لقد كانت هذه الكلمة: سحر السيدة كوبرفيلد، وقالوا: جميلة».

قاطعتني أمي بوضع أصابعها على شفتي مرة أخرى.

«لا، لا، لم تكن جميلة قَطُّ. ليست جميلة».

«نعم، لقد كانت هذه الكلمات: أرملة صغيرة جميلة».

صرخت أمي ضاحكة وقد غطت وجهها: «يا لها من مخلوقات غبية وقحة! يا لهم من رجال سخفاء! أليس كذلك يا ديفي عزيزي؟».

«حسنًا، أماه».

«لا تخبر بيجوتي؛ قد تكون غاضبة منهم. إنني غاضبة منهم بشدة، لكنني أفضل ألا تعرف بيجوتي هذا الحديث».

وعدتها بالطبع ألا أفعل. وقبَّلتني ثم قبَّلتها مرارًا وتكرارًا، وسرعان ما غصت في النوم.

يبدو لي، بعد هذا الزمن البعيد، وكأن بيجوتي قد تطرقت في اليوم التالي إلى الأمر المذهل والعجيب الذي سأذكره لكم بعد قليل، ولكن في الحقيقة ربما وقع هذا الأمر بعد شهرين تقريبًا من حديث أمي.

كنا نجلس في إحدى الأمسيات كما اعتدنا من قبل - بينما كانت أمي في الخارج كعادتها في ذاك الوقت، وقد جلسنا بصحبة الجورب والمقياس وقليل من الشمع، وصندوق نُقش على غطائه كنيسة سانت بول، وكتاب عن التمساح. تلفتت بيجوتي إليَّ عدة مرات، وفتحت فمها كما لو أنها ستتحدث، من دون أن تتفوه بكلمة - الأمر الذي ظننت أنه مجرد تثاؤب، ولو أنني لم أتصور ذلك التفسير لأرعبني شكلها - ثم قالت بنوع من التنغيم:

«يا سيد ديفي، هل تحب أن نخرج معًا وتقضي أسبوعين معي عند أخي في يارموث؟ ألن يكون ذلك ممتعًا؟».

سألتها مشترطًا: «هل أخوك رجل طيب يا بيجوتي؟».

صاحت بيجوتي بينما تشيح بيديها: «آهٍ، يا له من رجل طيب! وثمة بحر هناك، وقوارب وسفن، وصيادين، وشاطئ وآم سيلعب مع...».

تقصد بيجوتي ابن أخيها هام المذكور في فصلي الأول، لكنها تحدثت عنه باعتباره «آم» لفظة «أكون» من قواعد اللغة الإنجليزية.

شعرت ببهجة من حديثها الذي ذكرته عن هذه المسرات، وأجبت أنني سأحظى بمتعة بالفعل، ولكن ماذا سيكون رأي أمي؟

قالت بيجوتي بينما تحملق في وجهي: «سأراهن إذن على جنيه بأنها ستسمح لنا بالرحيل. سوف أسألها، إذا أردت، بمجرد أن تعود إلى المنزل. ما رأيك الآن؟».

تحدثت بينما أضع مرفقي الصغير على الطاولة لمناقشة هذه النقطة، قائلًا: «ولكن ماذا ستفعل عندما نصير بعيدين؟ إنها لا تستطيع أن تعيش بمفردها».

إذا كانت بيجوتي تبحث عن ثقب فجأة في كعب هذا الجورب، فلا بد أنه كان صغيرًا جدًّا لدرجة لا تستحق الرتق.

«إنني أتحدث، يا بيجوتي، إنها لا تستطيع أن تعيش بمفردها، كما تعلمين».

قالت بيجوتي، وقد نظرت إليَّ أخيرًا مرة أخرى: «آه، فليبارك الله فيك! ألا تعرف؟ ستمكث لأسبوعين مع السيدة جرايبر. سيكون عند السيدة جرايبر كثير من الرفقة».

حقًّا! إذا كان الأمر كذلك، فإنني كنت مستعدًّا تمامًا للذهاب. انتظرت بصبر نافد حتى عادت أمي من منزل السيدة جرايبر (لأنها كانت تلك الجارة محل موضوعنا)، للتأكد من إمكانية السماح لنا بتنفيذ هذه الفكرة الرائعة أم لا. تقبلت أمي الأمر في سلاسة من دون أن تتفاجأ كثيرًا على عكس ما كنت أتصور، ورتبنا كل الأمور في تلك الليلة، وتم الأمر بالاتفاق على أن تدفع أمي أجرة الطعام والسكن في أثناء الزيارة.

جاء يوم سفرنا سريعًا. لقد كان هذا اليوم قريبًا لدرجة أنه حلَّ باكرًا، حتى بالنسبة لي، حيث كنت في انتظاره بشدة وخائفًا في الآن ذاته بعض الشيء من أن زلزالًا أو جبلًا ناريًا، أو أي كارثة أخرى كبيرة من كوارث الطبيعة، قد تتدخل لإيقاف هذه الرحلة. كان علينا السفر في عربة نقل، والتي غادرت في الصباح بعد الإفطار. كنت سأفعل أي شيء ليُسمح لي بالنوم مرتديًا قبعتي وحذائي طوال الليل؛ شوقًا لهذا السفر.

إن حالتي تلك لم تزل تلامس قلبي حتى هذه اللحظة، على الرغم من أنني أحكي عنها باستخفاف، فأتذكر مدى حرصي على مغادرة منزلي السعيد، وتعتصرني مدى ضآلة ظنوني في ما تركته من وقتها وإلى الأبد.

يسعدني أن أتذكر حين وصلت العربة عند البوابة. وقفت أمي عندها تقبلني، فأحسست ساعتها أني مولع بها وبالمكان القديم الذي لم أدِر له ظهري من قبل، وبكيت. يسعدني أن أتذكر أن أمي بكت أيضًا، وأنني شعرت أن قلبها ينبض محبة لقلبي.

يسعدني أن أتذكر وقت أن بدأت العربة في التحرك، فركضت أمي نحو البوابة منادية بالتوقف، حتى تقبِّلني مرة أخرى. يسعدني أن أسهب في الحديث عن الاشتياق والحب اللذين رفعت بهما وجهها ناظرة نحو وجهي، وقد فعلت الأمر نفسه.

تركناها واقفة على قارعة الطريق، فجاء السيد مردستون ودنا منها، وبدا أنه يجادلها لأنها كانت متأثرة للغاية. كنت أنظر إلى الوراء متجاوزًا بنظراتي مظلة العربة، بينما رحت أتساءل عن طبيعة موقفه بيننا. أما

بيجوتي، فقد كانت تنظر إلى الوراء أيضًا من الجانب الآخر. بدت غير راضية، بحيث فضحها وجهها حين أعادته داخل العربة.

جلست أنظر إلى بيجوتي لبعض الوقت، متأملًا هذه الحالة التي أفترضها: ماذا سيحدث لو أضاعتني مثل الصبي في الحكايات الخيالية، إذ يجب أن أتمكن من تتبع طريقي نحو المنزل مرة أخرى من خلال الأزرار التي ستلقيها على الطريق.



الفصل الثالث

تغيير في حياتي

كان جواد العربة أكثر الجياد كسلًا في العالم، على ما أظن، فقد راح يتنقل مطأطئ الرأس، كما لو أنه أحب إبقاء الناس في انتظار طرودهم بفارغ الصبر. لقد تخيلت في الواقع أنه أخذ يضحك أحيانًا بصوت مسموع لتفكيره في هذا التأخير، أما الحوذي فقد قال إنه لا يعاني إلا من سعال. كان للحوذي وسيلة لإبقاء رأسه مطأطئًا مثل حصانه، وقد كان رأسه يتدلى إلى الأمام من النعاس في أثناء اقتياده، بينما أسند ذراعيه على ركبتيه. أقول كلمة «اقتياده» لظني أن العربة ستصل إلى يارموث من دونه أيضًا، فقد كان الجواد هو مَن يوجه نفسه إلى الطريق؛ أما الحوذي فمجمل القول إنه لم يكن يفعل شيئًا سوى الصفير.

حملت بيجوتي على ركبتها سلة من وجبات الطعام الخفيفة، وقد كانت كافية لإطعامنا طوال الطريق، بل كانت لتكفينا إن سافرنا إلى لندن بنفس وسيلة النقل هذه. أكلنا حتى شبعنا، ونمنا لوقت طويل. كانت بيجوتي تنام مسندة ذقنها على مقبض السلة دائمًا من دون أن ترخي قبضتها عنها أبدًا. لم أكُن لأصدق أن امرأة واحدة لا حول لها ولا قوة تستطيع أن تشخر بهذا القدر المبالغ، لولا أنني سمعتها تفعل هذا.

رحنا نجول بين كثير من المنعطفات صعودًا وهبوطًا عبر الممرات، وقضينا وقتًا طويلًا في توصيل عدد من البرقيات إلى بعض المنازل، وأخذنا نتنقل من مكان لآخر، فصرت متعبًا للغاية حتى رأينا يارموث فسعدت أيما سعادة. بدت لي إسفنجية ورشيقة إلى حد ما، على حد ظني، بينما مددت بصري نحو الفضاء الرحب الباهت الذي يمتد عبر النهر، ولا يسعني إلا أن أتساءل، إذا كان العالم حقًّا مستديرًا كما ذكر لي كتاب الجغرافيا، فكيف صار أي جزء منه مسطحًا لهذه الدرجة؟ لكنني فكرت في أن يارموث قد تكون واقعة في أحد القطبين؛ وهذا من شأنه أن يفسر الأمر.

اقتربنا قليلًا، فأبصرنا المشهد المجاور لنا بأكمله، وإذا به يقع على خط مستقيم تظلله السماء. ألمحتُ إلى بيجوتي أن تلًّا أو نحو ذلك ربما يحسِّن ذلك المشهد، وأن الأرض لو كانت منفصلة عن البحر قليلًا لكان المشهد أفضل كذلك، ولو لم يكن المد واليابس مختلطين كثيرًا، مثل اختلاط الخبز المحمص بالماء، لكان الأمر أجمل. لكن بيجوتي قالت في تركيز أكبر من المعتاد، إنه يجب علينا أن نأخذ الأشياء كما وجدناها، وإنها من جانبها، فخورة بأن تطلق على نفسها اسم سمكة يارموث.

وصلنا إلى الشارع الذي بدا لي غريبًا، فهبَّت إلينا روائح السمك، والقار، والبلوط، والقطران، ورأينا البحارة يتجولون، والعربات تجول ذهابًا وإيابًا فوق الحجارة. شعرت أنني أسأت الحكم على مكان مثل هذا مزدحمًا بهذا القدر، وقد قلت الكثير مما كان يشغلني لبيجوتي، وردت بعبارات مبهجة تدل على شعورها بالرضا عن هذا الانطباع،

ثم أخبرتني أنه من المعروف -وأفترض أن قولها معروف يقتصر على أولئك المحظوظين الذين ولدوا في المكان- أن يارموث بشكل عام، هي أفضل مكان في الكون.

صرخت بيجوتي قائلة: «ها هو آم، لقد كبر حتى إنني لم أعرفه».

كان ينتظرنا في واقع الأمر في حانة البلدة. راح يسألني عن أحوالي كما لو أنني أحد معارفه القدامى. لم أشعر، في البداية، أنني أعرفه كما عرفني هو، لأنه لم يأتِ إلى منزلنا منذ الليلة التي ولدت فيها، ومن الطبيعي أنه كان يتمتع بذاكرة أفضل مني. أما صداقتنا فقد تقدمت كثيرًا بعدما حملني فوق ظهره وصحبني إلى المنزل. لقد صار الآن رجلًا ضخمًا وقويًا، يبلغ ارتفاعه ستة أقدام، طويلًا نسبيًا وذا كتفين مستديرتين، ولكنه ظل بوجه فتى بسيط وشعر فاتح مجعد مما أكسبه مظهرًا خجولًا. كان يرتدي سترة من قماش ذي نسيج غليظ، وبنطلونًا شديد الصلابة للدرجة التي قد تقيمه منتصبًا بمفرده تمامًا من دون حاجة لأي أرجل. ولا يمكنك القول بشكل حاسم إنه كان يرتدي قبعة، لأنه كان يغطي رأسه بشيء فاحم مثل مبنى قديم.

حملني هام فوق ظهره وحمل صندوقًا صغيرًا لنا تحت ذراعه، أما بيجوتي فقد حملت صندوقًا صغيرًا آخر لنا. سرنا في الممرات المكتظة بعدد من البقايا وتلال صغيرة من الرمال، وتجاوزنا مصانع الغاز، ومعامل الحبال، وساحات بناء القوارب، وساحات نجار السفن، وساحات تكسير السفن، وساحات الجلفنة، ومحال علوية لعمال الحفر، ومحال الحدادين، ومواضع شتى من هذه الأماكن، حتى وصلنا

إلى فضاء رحب وقد أبصرته بالفعل من مسافة كافية، وعندها قال هام:

«ها هو ذا بيتنا يا سيد ديفي».

نظرت في كل الاتجاهات، بقدر ما استطعت محدقًا في البرية، وفي البحر الممتد، ثم متلفتًا إلى النهر البعيد، لكنني لم أستطع تبين المنزل. كان ثمة سفينة سوداء، أو نوع آخر من السفن القديمة، لا تبعد عنا كثيرًا، وقد انتصبت على الأرض جافة، بمدخنة حديدية بارزة تبعث دخانها في رفق بالغ، ولكن لا شيء آخر بدا لي في الطريق يصلح أن يكون منزلًا.

قلت: «هذا ليس منزلًا، ألا يشبه هذا الشيء السفينة؟».

أجاب هام قائلًا: «بلى، إنه كذلك يا سيد ديفي».

لو ظهر أمامي قصر علاء الدين وبيضة الرُّخ وكل شيء خرافي، فإنني أظن أنها لا يمكن أن تبدو أكثر سحرًا من الفكرة الرومانسية للعيش في هذه السفينة. كان ثمة باب جميل مقطوع من الجانب، وكانت مسقوفة، وبداخلها نوافذ صغيرة؛ أما سحرها الخلاب فيكمن في كونها سفينة حقيقية، وأنها بلا شك حُملت على الماء مئات المرات، ولم يكن من المفترض قَطُّ العيش فيها على اليابسة. كان هذا سر جاذبيتها بالنسبة لي. إذا كان من المفترض أن يعيش الناس فيها، فربما تصورت أنها ضيقة أو غير مريحة، أو موحشة، ولكنها لم تصمم مطلقًا لأي استخدام من هذا القبيل، لذا فقد صارت مسكنًا مثاليًّا.

كانت نظيفة وجميلة من الداخل، ومرتبة قدر الإمكان. احتوت على طاولة، وساعة هولندية، وخزانة ذات أدراج تعلوها صينية للشاي قد ارتسمت عليها لوحة لسيدة تحمل مظلة، تمشي مع طفل يبدو

عسكريًّا كان يلعب بطوق. وضعت هذه الصينية وقد ثبتت فوقها نسخة من الكتاب المقدس لتمنع الدرج من الانهيار، فإذا سقطت تحطمت كمية من الأكواب والصحون وكذلك إبريق الشاي الذي نثر مع أكوابه حول الكتاب. تعلو الجدران بعض الصور الملونة الشائعة، ذات الأطر والأغلفة الزجاجية، والتي تحكي قصصًا من الكتاب المقدس. لم أرَ مثلها في أيدي الباعة الجائلين منذ ذلك الحين إلا واستدعى أمامي هذا المنظر الداخلي الكامل لمنزل شقيق بيجوتي مرة أخرى، في مشهد واحد. كانت إحدى اللوحات لإبراهيم وقد ارتدى ملابس تميل إلى الحمرة في مشهد تضحيته بإسحاق، وقد رسم بلون يميل إلى الزرقة، أما دانيال فرسم بلون أصفر بعد أن ألقي في جب مع الأسود خضراء اللون، وقد كانت لوحته هي الأبرز من بين هذه اللوحات. وضعت فوق الرف الصغير صورة للمركب بشراع يسمى «سارة جين»، والذي تم بناؤه في سندرلاند، مع جزء خشبي صغير وحقيقي من سفينة، قد التصق باللوحة. إنه عمل فني يجمع بين التكوين الفني والنجارة، وقد اعتبرته من أكثر الممتلكات جمالًا في العالم. وجدت أيضًا بعض الخطافات في عوارض السقف، والتي لم أكن أتوقع استخدامها في ذلك الوقت، وبعض الخزائن والصناديق ووسائل الراحة من هذا النوع، والتي تستخدم في تجهيز المقاعد بأنواعها.

رأيت كل هذا منذ النظرة الأولى بعد أن تجاوزت العتبة - مثل الأطفال، وفقًا لنظريتي - ثم فتحت بيجوتي بابًا صغيرًا وأطلعتني على غرفة نومي. كانت غرفة النوم الأكثر اكتمالًا والأكثر راحة على

الإطلاق - تقع في مؤخرة السفينة، وهي غرفة ذات نافذة صغيرة، حيث كانت الدفة تمر خلالها. احتوت الغرفة مرآة صغيرة مسمرة على الحائط، ومؤطرة بقطع من محار، مناسبة بالكاد لطول قامتي، وسريرًا صغيرًا بمساحة صغيرة كافية للوصول إليه، وباقة من الأعشاب البحرية مجموعة في كوب أزرق على الطاولة. كانت الجدران ناصعة البياض كما الحليب، أما الجزء المرقَّع منها فقد جعل عينيَّ تتألمان تمامًا بسبب لمعانها. لاحظت شيئًا واحدًا بشكل خاص في هذا المنزل الرائع، وهو رائحة السمك. كانت الرائحة عبقة، بحيث أخرجت منديلي لأمسح أنفي، فوجدت رائحته تفوح كما لو أنه ملفوف بسرطان البحر. نقلت اكتشافي هذا سرًّا إلى بيجوتي، فأخبرتني أن شقيقها يعمل في بيع السلطعون والكابوريا وجراد البحر، وقد أبصرت بعد ذلك كومة من هذه المخلوقات مجتمعة في تكتل رائع مع بعضها البعض، ولا تترك أبدًا أي شيء من دون أن تمسك به، وكانت عادة ما توضع في صندوق خشبي صغير كانت تحفظ به الأواني والغلايات.

رحبت بنا امرأة بأدب فائق، كانت ترتدي مئزرًا أبيض، كنت قد أبصرتها من قبل واقفة عند الباب عندما كنت على ظهر هام، على بُعد نحو ربع ميل. وبالمثل رحبت بنا أجمل فتاة صغيرة (أو هكذا أحسبها) ذات عقد من الخرز الأزرق، ولم تسمح لي بتقبيلها عندما عرضت عليها ذلك، بل هربت واختبأت. تناولنا العشاء بعد ذلك وقد كان فاخرًا يحوي سمكًا مسلوقًا وزبدًا مذابًا وبطاطا، مع بعض الشرائح المُقطَّعة لي. جاء رجل ذو شعر غزير ووجه لطيف إلى المنزل. راح ينادي بيجوتي بقول

«يا حبيبتي»، وقد أخذ يربت على خديها بقوة، لم يخامرني شك أنه شقيقها بسبب سلوكه معها بشكل عام؛ وهكذا اتضح الأمر - فسرعان ما قدموه لي بصفته السيد بيجوتي، رب المنزل.

قال السيد بيجوتي: «إنني مسرور لرؤيتك يا سيدي. ستجدنا أناسًا خشنين، لكنك ستجدنا في خدمتك يا سيدي».

شكرته، وأجبته بتأكيد أنني سأكون سعيدًا في مثل هذا المكان المبهج.

قال السيد بيجوتي: «كيف حال والدتك يا سيدي؟ هل تركتها في خير حال؟».

أفهمت السيد بيجوتي أنها كانت في حال جيدة بقدر ما أتمنى، وأنها ترسل تحياتها إليهم - وكان ذلك استرسالًا خياليًّا مهذبًا مني.

قال السيد بيجوتي: «إنني بالتأكيد ممتن لها كثيرًا. حسنًا يا سيدي، إذا كنت تستطيع أن تلبث هنا على مدار أربعة عشر يومًا معهم، فإننا سنسعد باستضافتك». وقد أومأ هنا برأسه مشيرًا لأخته، وهام، وإيميلي الصغيرة.

بعد أن رحَّب السيد بيجوتي بي في منزله بهذه الطريقة المضيافة، خرج ليغتسل مع غلاية من الماء الساخن، مشيرًا إلى أن «البرد لن يُزيل الوحل أبدًا». سرعان ما عاد وقد تحسن مظهره بشكل كبير، ولكنه كان شديد الحمرة حتى لم أستطع منع نفسي من التفكير في أن وجهه قد اشترك في حمرته مع السلطعون والكابوريا وجراد البحر، فقد ذهب إلى الماء الساخن شديد السواد وخرج منه في غاية الحمرة.

أغلق الباب بعدما احتسينا الشاي، وصار كل شيء دافئًا، بعد أن كانت الليالي باردة وضبابية في تلك اللحظة. بدا لي المكان ملاذًا بديعًا، أجمل ما يمكن أن يبدعه خيال إنسان. كان سماع صرير الريح بينما تتصاعد حول البحر تنبئ أن الضباب كان يزحف فوق السهول المهجورة بالخارج. أما النظر إلى النار، فكان يجعلك تفكر في هذا المنزل القائم وحده دون غيره، وأن هذه السفينة تشبه السحر. لقد تغلبت إيميلي الصغيرة على خجلها، فجلست بجانبي على صندوق أقل ارتفاعًا من غيره، مثبت عند زاوية المدخنة، يتسع بما يكفي لجلوسنا نحن الاثنين. كانت السيدة بيجوتي ترتدي المئزر الأبيض، تحوك على الجانب الآخر من النار. بدت بيجوتي في انشغالها بأعمال الإبرة كما لو كانت في منزلي مع لوحة كنيسة سانت بول مع قليل من الشمع، كما لو أنهما لم يعرفا أي سقف آخر. كان هام يعطيني درسي الأول في اللعب بالأوراق، وقد كان يحاول أن يتذكر مخططًا لجمع الثروات بطريقة البطاقات القذرة، وكان يطبع بصمات مريبة بإبهامه على جميع البطاقات التي يقلبها. كان السيد بيجوتي يدخن غليونه، وقد شعرت أنه قد حان وقت المحادثة وتبادل الثقة.

قلت: «يا سيد بيجوتي».

أجاب: «نعم، سيدي».

«هل منحت ابنك اسم هام، لأنك عشت في مكان يشبه فلك نوح؟».

بدا أن السيد بيجوتي يعتقد أنها فكرة عميقة، لكنه أجاب:

«لا سيدي، إنني لم أُسمِّه على الإطلاق».

كان سؤالي الثاني الذي وجهته إلى السيد بيجوتي هو: «مَن أطلق عليه هذا الاسم إذن؟».

قال السيد بيجوتي: «ما العجيب يا سيدي؟ لقد أطلق عليه والده هذا الاسم».

«ظننت أنك والده».

قال السيد بيجوتي: «كان أخي جو هو والده».

ألمحت، بعد وقفة محترمة قائلًا: «هل هو ميت يا سيد بيجوتي؟».

قال السيد بيجوتي: «مات غرقًا».

فوجئت للغاية بأن السيد بيجوتي لم يكن والد هام، وبدأت أتساءل عما إذا كنت مخطئًا بشأن علاقته بأي شخص آخر هنا. كنت فضوليًّا جدًّا لتبين الأمر، لدرجة أنني قررت معرفة حقيقة الأمر من السيد بيجوتي.

رحت أنظر إلى إيميلي الصغيرة سائلًا: «هل هي ابنتك يا سيد بيجوتي؟».

«لا يا سيدي، إنها ابنة شقيق زوجتي، توم».

لم أستطع تبين الأمر فسألت بعد صمت آخر: «هل مات يا سيد بيجوتي؟».

قال السيد بيجوتي: «مات غرقًا».

شعرت بصعوبة استئناف الموضوع، لكني لم أصل إلى نهايته بعد، ويجب أن أمضي إلى سبيلي بطريقة ما، ومن ثَم قلت: «أليس لديك أطفال يا سيد بيجوتي؟».

أجاب بضحكة قصيرة: «لا يا سيد، إنني أعزب».

قلت، مندهشًا: «أعزب! لماذا؟ ومَن تكون هذه يا سيد بيجوتي؟». مشيرًا إلى هذه التي ترتدي المريلة وتخيط.

قال السيد بيجوتي: «هذه السيدة جامدج».

«ومَن تكون جامدج يا سيد بيجوتي؟».

جاءت بيجوتي في هذه اللحظة - أعني بيجوتي التي أعرفها - مشيرة إليَّ ببعض الإشارات ألا أطرح المزيد من الأسئلة، بحيث لم يعد بإمكاني سوى الجلوس والنظر إلى جميع الحاضرين في صمت حتى يحين وقت النوم. ما إن وصلت إلى مقصورتي الصغيرة، حتى أبلغتني بيجوتي في خصوصية أن هام وإيميلي يتيمان، وأنهما ابن أخ، وابنة أخت رب المنزل، الذي تبناهما في أعمار متفاوتة من طفولتهما، بعدما تُركا معدومين، وأن السيدة جامدج هي أرملة شريكه في القارب، وقد مات فقيرًا جدًّا. قالت بيجوتي إن السيد بيجوتي لم يكن سوى رجل فقير، لكنه طيب الأصل مثل الذهب، وحقيقي مثل الفولاذ - كانت تلك تشبيهاتها. أخبرتني أن الموضوع الوحيد الذي أبدى فيه عنفًا أو أقسم اليمين عليه يتعلق بكرمه. إذا أشاد أحدهم بكرمه ضرب الطاولة بقوة بيده اليمنى (شقها في أحد هذه المواقف)، وأقسم يمينًا مخيفًا ودعا على نفسه «بهلاك الجحيم» إذا فعل أحدهم ذلك، بل سينقشع هاربًا إلى الأبد إذا ذكر أمر كرمه مرة أخرى. اتضح لي عندما سألتهم عن معنى بعض إجاباتهم، أن لا أحد منهم عنده أدنى فكرة عن أصل هذه الأفعال الرهيبة، بل هي مبنية للمجهول فلا فاعل، لكنهم جميعًا اعتبروا الأمر تافهًا لا يستحق الالتفات.

أدرك قيمة الرجل وطيبته الفائقة إلى حد بعيد، وأنصت إلى خطوات النساء بينما يتوجهن للنوم في سرير صغير آخر مثل سريري في الطرف الآخر من السفينة، وأنصت إلى السيد بيجوتي وهام بينما يعلقان أرجوحتين لأنفسهما على الخطافات التي لاحظتها في السقف. كنت في حالة حالمة للغاية، يعززها شعوري بالنعاس. سرقني النوم تدريجيًّا، إلى أن سمعت صوت الرياح تعوي حول البحر ثم تهب على اليابسة في غاية الشراسة، لدرجة أن انتابني خوف - على الرغم مما أنا فيه من تراخٍ - من ارتفاع ذالك البحر العميق العظيم في الليل. لكنني تذكرت أنني في سفينة في نهاية الأمر، وأن رجلًا صالحًا مثل السيد بيجوتي يقبع على ظهرها ليدافع عنها إذا حدث أي شيء.

ومع ذلك، لم يقع سوء حتى الصباح. أشرق النور على المحار المزين لإطار مرآتي، فنزلت عن السرير، وخرجت مع إيميلي الصغيرة، نلتقط الحجارة المنثورة على الشاطئ.

قلت لإيميلي: «أظن أنكِ تشبهين البحارة، أليس كذلك؟». لم أتصور شيئًا من هذا القبيل، لكنني شعرت أنه من الشجاعة أن أقول شيئًا. كان ظهور شراع لامع قريبًا منا قد ألقى أمامي هذا التصور، إذ انعكس ظله في هذه اللحظة بصورة صغيرة جدًّا في عينيها اللامعتين، مما ألقى بهذا السؤال في رأسي.

أجابت إيميلي وهي تهز رأسها قائلة: «لا، إنني أخاف البحر».

قلت بجرأة بينما أنظر نحو المحيط الهائل: «خائفة؟! إنني لا أخاف».

قالت إيميلي: «آهٍ، لكنه قاسٍ. لقد رأيته بالغ القسوة على بعض رجالنا. لقد رأيته يمزق قاربًا بحجم منزلنا، لقد ترك كل شيء محطمًا».

«آمل ألا تكون هذه هي السفينة».

قالت إيميلي: «التي غرق فيها أبي؟ لا، ليست هذه، فأنا لم أرَ هذه السفينة قَطُّ».

سألتها: «ولا هو؟».

هزت إيميلي رأسها قائلة: «لا أتذكر».

يا لها من مصادفة! رحت أشرح لها على الفور كيف أنني لم أرَ أبي قَطُّ، وكيف عشت أنا وأمي بمفردنا دومًا في أسعد حالة يمكن تخيلها، نعيش هكذا في الوقت الحالي، ونخطط أن نستمر في حياتنا على هذا النحو. رويت لها كيف يقبع قبر أبي في باحة الكنيسة بالقرب من منزلنا، مظللًا بشجرة تحت الأغصان التي مشيت في ظلها، وكم سمعت العصافير تغني كثيرًا في صباحات جميلة. ولكن على ما يبدو كانت ثمة اختلافات بين يُتم إيميلي ويُتمي. كانت قد فقدت والدتها قبل والدها، ولم يكن أحد يعرف قبرًا لوالدها، إلا إن كان في مكان ما في أعماق البحار.

قالت إيميلي وهي تبحث عن المحار والحصى: «كان والدك رجلًا نبيلًا وبالإضافة إلى ذلك فإن أمك سيدة نبيلة، أما أبي فكان صيادًا وكانت أمي ابنة صياد، وكان خالي «دان» صيادًا كذلك».

قلت: «إن دان هو السيد بيجوتي، أليس كذلك؟».

أجابت إيميلي بعد أن أومأت برأسها إماءة نحو السفينة قائلة: «إن العم دان، هناك».

«نعم، إنه مَن أقصده، إنه رجل طيب جدًّا، على ما أظن؟».

قالت إيميلي: «أهو طيب وحسب؟ إنه أكثر من ذلك، لو قُدِّر لي في يوم من الأيام أن أصير سيدة، فإني سأهبه معطفًا أزرق سماويًّا بأزرار ماسية، وسروالًا من الصوف، وصدرية حمراء مخملية، وقبعة، وساعة ذهبية كبيرة، وغليونًا فضيًّا، وصندوقًا من النقود».

قلت إنني لا يخامرني شك في أن السيد بيجوتي يستحق كل هذه الكنوز. يجب أن أعترف بأنني شعرت بصعوبة تخيله بسهولة في مثل هذه الملابس التي اقترحتها له ابنة أخته الصغيرة الممتنة، وأنني كنت متشككًا بشكل خاص بشأن فكرة القبعة الجاهزة، لكني احتفظت بهذه المشاعر لنفسي.

توقفت إيميلي الصغيرة ناظرة إلى السماء بينما تحصي هذه الأشياء، كما لو أنها رؤيا مقدسة. ذهبنا مرة أخرى لنلتقط المحار والحصى.

قلت: «هل تحبين أن تصيري سيدة؟».

نظرت إيميلي إليَّ وضحكت وأومأت قائلة: «نعم، أحب أن أصير سيدة بالتأكيد. سنصير جميعًا إذن سادة معًا؛ أنا وخالي، وهام، والسيدة جامدج. لن نبالي إذن، حين يحل طقس عاصف... لا... أقصد لن نخاف على أنفسنا. سنخاف على الصيادين الفقراء من عواقبه، وسنساعدهم بالمال عندما يتعرضون لأي أذى».

بدت لي تصوراتها بأكملها مُرضِية للغاية، وبالتالي لم تكن صورة غير محتملة الحدوث على الإطلاق. لقد أعربت عن سعادتي في التفكير في الأمر، فتشجعت إيميلي الصغيرة على الحديث بخجل قائلة:

«ألا تظن أنك خائف من البحر الآن؟».

كانت هادئة بما يكفي لطمأنتي، لكن لم يخامرني أدنى شك في أنني لو رأيت موجة كبيرة إلى حد ما قادمة نحوي لهرعت مهرولًا، محملًا بتلك الذكرى المؤلمة للغرقى، ومع ذلك كانت إجابتي: «لا»، وقد أضفت بعدها قائلًا: «لا يبدو أنكِ خائفة أيضًا، على الرغم من أنكِ تقولين إنكِ كذلك» - حيث إنها كانت تمشي بالقرب من حافة رصيف الميناء القديم، أو شيء يشبه الجسر الخشبي الذي كنا نمشي عليه، وكنت خائفًا من سقوطها في البحر.

قالت إيميلي الصغيرة: «إنني لست خائفة من هذه الطريقة التي أسير بها، لكنني أستيقظ عندما تهب الرياح، وأرتجف عندما أفكر في العم دان وهام، وأتصور أنني أسمع صراخهما طلبًا للمساعدة. أود أن أصير سيدة لهذا السبب، لكنني لست خائفة ولو بشكل يسير من الطريقة التي أسير بها هنا. انظر!».

انطلقت من جانبي، وركضت على طول الأخشاب الخشنة البارزة من المكان الذي وقفنا عنده، والذي غطته المياه العميقة على نحو ما، فراحت تركض فوقه من دون أدنى حماية. لقد حُفرت هذه الواقعة في ذاكرتي، حتى إنني إذا كنت رسامًا لتمكنت من رسمها، بل أجرؤ على القول بأني سأرسمها بدقة كما وقعت تمامًا في ذلك اليوم، بينما كانت

إيميلي الصغيرة تقف نحو هلاكها - كما ظننت ساعتها - بنظرة لم أنسَها قَطُّ، بينما تطرق بعيدًا نحو البحر.

استدارت ترفرف بهيئتها الصغيرة الخفيفة والجريئة حتى عادت إليَّ بأمان، وسرعان ما ضحكت على ما انتابني من مخاوف، وسخرت من صراخي الذي أطلقته؛ على أي حال كان صراخي بلا جدوى، فلم يكن ثمة إنسان قريب منا.

كم مرت عليَّ أوقات منذ ذلك الحين، وحتى بلوغ رجولتي، رحت أفكر فيها مرارًا وتكرارًا قائلًا: هل كان من الممكن أن يحدث شيء خفي فتندفع الطفلة بشكل مفاجئ مع نظرتها الجامحة بعيدًا جدًّا؟ هل كان في خيالها أي انجذاب يدفعها إلى الخطر، أو إغراء من قِبل والدها الميت يدفعها تجاهه، حتى تقتنص الفرصة لإنهاء حياتها في ذاك اليوم؟ مر وقت طويل منذ أن تساءلت عما إذا كان من الممكن أن تكشف الحياة لي أقدارها في لمحة من البصر، وقد كُشف لي، لأن الطفل يمكن أن يدرك هذه اللحظات تمامًا، وما إذا كانت نجاتها قد اعتمدت على حركة يدي، فهل كان عليَّ أن أمدها لأنقذها؟ لقد مرت أوقات منذ ذلك الحين -لا أقول إنها استمرت لفترة طويلة، ولكنها ولَّت بما فيها- رحت خلالها أطرح على نفسي سؤالًا: هل كان من الأفضل لإيميلي الصغيرة أن تغمر المياه رأسها في ذلك الصباح أمام ناظري؟ وعندما أجبت كان قولي: «نعم».

قد يكون هذا سابقًا لأوانه، وربما ذكرت ذلك في وقت مبكر جدًّا، لكن سأدع هذا الكلام هنا من دون حذف.

مشينا مسافة طويلة، وحملنا معنا أشياء حسبنا أنها غريبة، وأعدنا إلى المياه بعناية عددًا من نجمات البحر وعددًا من السمكات التائهة - بالكاد أعرف القليل عن الأسماك في هذه اللحظة، فلست متأكدًا تمامًا إن كان عند الأسماك من الأسباب ما يدفعها إلى شكرنا على معروفنا، أو العكس - شققنا بعد ذلك طريقنا إلى منزل السيد بيجوتي. توقفنا عند صناديق جراد البحر وتبادلنا قبلة بريئة، ثم ذهبنا لتناول الإفطار متوهجًا بالصحة ومفعمًا بالمتعة.

قال السيد بيجوتي: «يا لكما من نافشتين صغيرتين». كنت أعلم أن هذا يعني في لهجتنا المحلية، أننا مثل «سمَّانتين صغيرتين»، وقد تلقيت هذه المجاملة برحابة صدر.

كنت بالطبع في حالة حب مع إيميلي الصغيرة. إنني متأكد من أنني أحببت هذه الطفلة حقًّا، حبًّا رقيقًا للغاية، مع قدر كبير من البراءة تخلو من أي أغراض، مما يجعل هذا الحب يندرج في وقت لاحق تحت مسمى أنقى وأنبل وأطهر حب في الحياة. إنني متأكد من أن وجداني قد أحاط تلك الطفلة ذات العينين الزرقاوين بشيء من الرفعة، جعلها تتحول إلى أثير، أو جعلت منها شيئًا ملائكيًّا. لو حلَّ وقت مشمس، ونشرت إيميلي جناحيها الصغيرين وطارت بعيدًا أمام عيني، فما أحسبها جاوزت كثيرًا ما كنت أتوقعه.

اعتدنا أن نتجول في ذلك المنزل القديم المعتم في يارموث بمحبة لساعات طويلة. كانت الأيام التي نعيشها تبدو لنا كما الطفل الذي لم يكبر بعد، بل أخذ يلعب معنا دائمًا. أخبرت إيميلي أنني أعشقها، وأنها

إن لم تعترف بأنها تحبني، فإنني سأضطر إلى قتل نفسي بالسيف. فقالت إنها تحبني بالفعل، وليس لديَّ أدنى شك في ذلك.

لم أواجه أنا وإيميلي أي عقبات مثل الشعور بعدم المساواة، أو فارق العمر، أو أي صعوبة أخرى في طريقنا، لأننا لم نفكر في المستقبل. لم نكن لندخر شيئًا حين نكبر، فقد بذلنا أنفسنا لننمو كشابين. كنا محط إعجاب من السيدة جامدج وبيجوتي، التي اعتادت أن تهمس في إحدى الأمسيات بعدما جلسنا بمحبة على خزانة ملابسنا الصغيرة جنبًا إلى جنب، فراحت تقول: «رباه! أليس هذا الأمر جميلًا؟!». ابتسم لنا السيد بيجوتي من وراء غليونه، وابتسم هام ناظرًا نحونا طوال المساء من دون أن يفعل شيئًا آخر. لقد انتابهم شيء من الفرح بنا، على ما أظن، كما لو أنهم يملكون لعبة جميلة، أو صورة تذكارية من الكولوسيوم[١].

اكتشفت سريعًا أن السيدة جامدج لم تكن لطيفة دائمًا، كما كان من المتوقع أن تفعل في ظل ظروف إقامتها مع السيد بيجوتي. كان تصرف السيدة جامدج مزعجًا إلى حد ما، فقد كانت كثيرة التذمر في كثير من الأحيان إلى الحد الذي لا يتحمله الآخرون في مثل هذا البيت الصغير جدًّا. كنت أرثي جدًّا لحالها. فكرت في بعض اللحظات أنه من الأفضل، على حد ظني، لو أن للسيدة جامدج شقة مريحة خاصة بها لتتقاعد فيها، أو ربما تمكث فيها حتى تستعيد صفاءها.

كان السيد بيجوتي يذهب بين الحين والآخر إلى حانة تسمى «العقل المدبر». اكتشفت ذلك بعد خروجه في المساء الثاني أو الثالث

---

(١) مدرج روماني شهير من أهم المعالم التاريخية، يقع في روما بإيطاليا.

من زيارتي، وحين رأيت نظرات السيدة جامدج المتجهة نحو الساعة الهولندية، بين الثامنة والتاسعة، قائلة إنه كان هناك، والأكثر من ذلك أن قالت إنها تعرف منذ الصباح أنه سيذهب إلى هناك.

كانت السيدة جامدج في مزاج سيئ طوال اليوم، وما لبثت أن انهمرت دموعها منذ الضحى، بعدما أوقدت النيران قائلة: «إنني إنسانة وحيدة، وكل شيء يعارضني». كانت هذه هي كلمات السيدة جامدج، حين يصادفها أي حدث لا يروقها.

أما بيجوتي -أعني بيجوتي التي أعرفها- فراحت تقول: «آه، سنسافر قريبًا، كما أنكِ تعلمين أننا نعتبر الأمر على أي حال ليس أكثر سوءًا بالنسبة لكِ منا».

قالت السيدة جامدج: «إنني أشعر به أكثر».

كان يومًا شديد البرودة وقد صحبته ريح هادرة. بدا لي أن الزاوية التي اعتادت السيدة جامدج الجلوس بها جانب المدفأة هي الأكثر دفئًا في المكان. كان مقعدها ألين المقاعد بالتأكيد، لكنها لم تكن لترضى عن أي شيء في ذاك اليوم على الإطلاق. كانت تشكو باستمرار من البرد، ومن ثَم أخذت تتأفف من شيء يسري في ظهرها تسميه «قشعريرة». أخذت في نهاية الأمر تذرف الدموع وتردد مرة أخرى قولها إنها «امرأة وحيدة»، وإن كل شيء يعارضها.

قالت بيجوتي: «إن الجو بارد بالتأكيد. يمكن لكل إنسان أن يستشعر الأمر نفسه».

قالت السيدة جامدج: «إنني أشعر به أكثر من الآخرين».

أما في العشاء، كان الطعام يُقدم دائمًا إلى السيدة جامدج بعدي مباشرة، فقد أُعطيتُ الأفضلية كزائر متميز. كانت الأسماك صغيرة وكثيرة الشوك، وكانت البطاطس محترقة قليلًا. اعترفنا جميعًا بأننا شعرنا بالاستياء من هذا الطعام، أما السيدة جامدج فقالت إنها شعرت بالأمر أكثر مما شعرنا به، وذرفت الدموع مرة أخرى، وقد ألقت بهذه الكلمات السابقة بمرارة شديدة.

عاد السيد بيجوتي إلى المنزل قرابة الساعة التاسعة صباحًا، بينما كانت السيدة جامدج المتألمة تحوك ثيابًا في زاويتها، وقد بدت في حالة بائسة وفي غاية التعاسة. أما بيجوتي فقد كانت تعمل بمرح. وكان هام يُرمِّم زوجًا عظيمًا من الأحذية المائية، وكنتُ أنا وإيميلي الصغيرة بجانبي نقرأ لهم. لم تتفوه السيدة جامدج قَطُّ بأي تعليق آخر سوى تنهيدة حزينة، ولم ترفع عينيها قَطُّ منذ أن احتسينا الشاي.

قال السيد بيجوتي وهو جالس في مقعده: «حسنًا يا رفاق، وكيف حالكم؟».

قال كل منا شيئًا، أو عقَّبنا بشيء ما للترحيب به، باستثناء السيدة جامدج التي اكتفت بأن هزت رأسها فقط في أثناء حياكتها.

تحدث السيد بيجوتي وهو يصفق بيديه قائلًا: «ماذا حدث؟ ابتهجي أيتها الأم العجوز!». (كان السيد بيجوتي يعني الفتاة العجوز).

يبدو أن السيدة جامدج لم تكن قادرة على الابتهاج. أخرجتْ منديلًا قديمًا من الحرير الأسود ومسحتْ عينيها. ولكن بدلًا من وضعه في جيبها، احتفظ به بالخارج، وأخذت تمسح عينيها مرة أخرى، وأبقته هكذا للاستخدام التالي.

قال السيد بيجوتي: «ما الخطب يا سيدة؟».

أجابت السيدة جامدج قائلة: «لا شيء. هل أتيت من حانة «العقل المدبر» يا دان؟».

قال السيد بيجوتي: «وماذا في الأمر؟ نعم، لقد قضيت فترة قصيرة من الليل في حانة «العقل المدبر»».

قالت السيدة جامدج: «إنني آسفة إذ إنني أدفعك للذهاب إلى هناك».

أجاب السيد بيجوتي وهو يضحك ضحكة صادقة: «تدفعينني! لست بحاجة إلى دفع. إنني على أتم استعداد للذهاب إليها وحدي».

قالت السيدة جامدج وهي تهز رأسها وتمسح دموع عينيها: «مستعدٌّ جدًّا. نعم، نعم، جاهزٌ جدًّا. إنني آسفة كذلك لأنك على استعداد للذهاب إليها بسببي».

رد السيد بيجوتي: «بسببكِ! لم يكن الأمر بسببكِ! لا تظني ذلك أبدًا».

صرخت السيدة جامدج: «نعم، نعم، إن الأمر كما أوضحت لك. أعرف ما أنا عليه. إنني أعلم أنني إنسانة وحيدة، وكل الأشياء تعارضني، وليس ذلك وحسب بل إنني ثقيلة كذلك على الجميع. نعم، حقًّا. إنني أشعر بأكثر مما يشعر به الآخرون، وأُظهر ذلك أكثر من غيري. إنه قدري التعس».

لم أستطع التفكُّر حقًّا، فجلست لبرهة أستوعب هذا الحديث بأكمله،

إلى أن فهمت أن مقصد السيدة جامدج هو أن محنتها قد امتدت إلى أفراد آخرين من تلك العائلة. لكن السيد بيجوتي لم يرد على هذه النقطة، بل أجاب فقط بمناشدة أخرى للسيدة جامدج يدعوها للابتهاج والفرح.

قالت السيدة جامدج: «إنني لست كما أتمنى أن أكون. إنني بعيدة عن صورتي التي أردتها. أعرف تمامًا ما أنا عليه. لقد حولتني مشكلاتي إلى ما لا أرجوه. أتمنى ألا أشعر بها، لكني أدرك وقعها. أتمنى أن أصير أشد صلابة تجاهها، لكنني لست كذلك. إنني أجعل المنزل مكانًا غير مريح. لا عجب من ذلك، فقد جعلت أختك لا تشعر بالراحة أيضًا، وكذلك فعلت بالسيد ديفي».

وهنا كان قلبي قد رق لحالها فجأة. شعرت بكرب كدرني، فصرخت بصوت عالٍ قائلًا: «لا، إنكِ لم تفعلي ذلك يا سيدة جامدج».

قالت السيدة جامدج: «ليس من الصواب أن أفعل ذلك. إنها ليست النهاية المناسبة. كان من الأفضل أن أذهب إلى المنزل وأنتظر الموت. إنني إنسانة وحيدة، وكان من الأفضل ألا أجعل من نفسي عقبة لغيري هنا. إذا كانت الأشياء تعارض ظنوني، كان يجب أن أعارضها بنفسي أيضًا، فدعني أذهب إلى كنيستي يا دان، من الأفضل أن أعود إلى بيتي، وأموت وأهلك مع الهالكين».

انصرفت السيدة جامدج بعد هذه الكلمات، وتوجهت إلى الفراش. رحلت من دون أن يبدي لها السيد بيجوتي أي انفعال سوى شعور بالتعاطف البالغ. استدار السيد بيجوتي حولنا، وأومأ برأسه بتعبير صارخ عن تلك المشاعر التي لم تزل تحيا على وجهه، ثم قال هامسًا:

«لقد كانت تفكر في الراحل».

لم أفهم تمامًا من يكون الراحل الذي ظلت السيدة جامدج تفكر فيه، حتى جاءتني بيجوتي لتطمئن عليَّ في الفراش، فأوضحت لي أنه قصد السيد جامدج الراحل، وأن شقيقها كان دائمًا يعتبر أن تفكيرها فيه هو سبب حالتها في مثل هذه المناسبات، وأنه ظل دائمًا متأثرًا بها ومشفقًا على حالها. سمعته بنفسي بعد فترة من ذهابه إلى الأرجوحة المعلقة في تلك الليلة، وقد أخذ يكرر لهام قائلًا: «مسكينة! كانت تفكر في زوجها الراحل». كلما تغلبت على السيدة جامدج هذه الحالة بطريقة مماثلة خلال الفترة المتبقية من إقامتنا (والتي لم تفارقها سوى مرات معدودات)، كان دائمًا يردد الشيء نفسه تخفيفًا للظروف، مبديًا أرق الرثاء.

انقضى الأسبوعان على هذا النحو، ولم يتغير شيء سوى اختلاف المد والجزر، الأمر الذي جعل السيد بيجوتي يغير أوقات خروجه وعودته، وغيَّر ارتباطات هام أيضًا. كان الأخير يجد نفسه عاطلًا عن العمل، فيسير معنا أحيانًا ليرينا القوارب والسفن، ويصحبنا مرة أو مرتين للتجديف. لا أعرف لماذا ترتبط مجموعة قليلة من الذكريات ارتباطًا وثيقًا بمكان ما أكثر من غيرها، على الرغم من أنني أتصور أن هذا الأمر ينطبق على معظم الناس، خاصة في الأمور التي ارتبطت بذكريات طفولتهم. لم أعد أسمع اسم يارموث أو أقرأ اسم البلدة بأي مكان على الإطلاق، لكنني أتذكر صباح أحد أيام الأحد على الشاطئ، ودقات أجراس الكنيسة ترن، وإيميلي الصغيرة متكئة على كتفي، بينما يقذف هام بالحجارة في الماء، أما الشمس فتغدو بعيدة فوق البحر

تخترق الضباب الكثيف، وتلوح لنا السفن مثل ظلالها.

حان وقت العودة إلى المنزل في النهاية. لقد تحملت الانفصال عن السيد بيجوتي والسيدة جامدج، لكن ألمي النفسي لترك إيميلي الصغيرة كان ثقيلًا وقاسيًا. مشينا متشابكي الأذرع حتى وصلنا الحانة حيث ينتظر الحوذي، ووعدتها في الطريق أن أراسلها. (لقد أوفيت بهذا الوعد بعد ذلك، في خطاب كتبته بأحرف أكبر وأعرض من التي تُكتب للإعلان عن منازل للإيجار). إن كان ثمة حدث في حياتي كاد أن يفجع قلبي، فقد وقع في ذلك اليوم.

كنت حتى هذه اللحظة وطوال الوقت الذي قضيته في زيارتي، لم أشعر باشتياق إلى العودة لبيتي مرة أخرى، ولم أفكر في ذلك كثيرًا أو قليلًا. لكنني لم أكد ألتفت نحوه، حتى راح ضميري يعاتبني مشيرًا إلى هذا الطريق بإصبع الاتهام، وشعرت بألم مضاعف حين ذكرت أنه عُشي الذي كبرت فيه، وأن أمي هي عزائي ورفقتي.

حاوطني هذا الشعور أكثر كلما تقدمنا واقتربنا، حين صارت الأشياء مألوفة أكثر عندما مررنا بها. زاد حماسي للوصول إلى المنزل وزاد اشتياقي للارتماء بين ذراعيها. أما بيجوتي، فلم تشاركني هذه المشاعر، لكنها بدلًا من ذلك حاولت التقليل من انفعالي (على الرغم من كونها مشاعر طيبة للغاية)، وبدت مرتبكة وغير مرتاحة.

أما منزلنا «عش الطيور» الذي يقع في بلدة بلندرستون، فآتٍ لا محالة، على الرغم من جواد الحوذي، وقد فعل. أتذكر هذا اليوم جيدًا، في ظهيرة رمادية باردة وسماء ضبابية، منذرة بهطول المطر.

انفتح الباب. رحت أتلفت بين الضحك والبكاء بانفعال رقيق، باحثًا عن أمي. لم تكن هي من فتحت الباب، بل خادمة غريبة.

قلت بشجن: «ما هذا يا بيجوتي؟! ألم تعد أمي إلى المنزل؟».

ردت بيجوتي قائلة: «بلى، بلى يا سيد ديفي. لقد عادت إلى المنزل. انتظر قليلًا يا سيد ديفي، وسأقول لك شيئًا».

بدت بيجوتي بين انفعالها وإحراجها الطبيعي في أثناء خروجها من العربة، وقد دفعاها إلى الالتفاف حول نفسها كما لو أنها مقيدة بحبل، لكنني لم أستطع أن أخبرها بذلك لما شعرت به من دهشة وذهول. نزلت عن العربة، وأمسكت بيدي. قادتني إلى المطبخ ولم أزل مندهشًا، ثم أغلقت الباب.

قلت بينما أرتجف خوفًا: «يا بيجوتي، ما الأمر؟».

أجابت متظاهرة بالبهجة: «لا شيء، بارك الله فيك، يا سيد ديفي العزيز».

«ثمة شيء ما، إنني متأكد. أين ماما؟».

كررت بيجوتي قائلة: «أين ماما يا سيد ديفي؟».

«نعم. لماذا لم تخرج إلى البوابة، ولماذا أتينا إلى هنا؟ آهٍ، يا بيجوتي».

اغرورقت عيناي بالدموع، وشعرت أنني على وشك الانهيار.

صرخت بيجوتي، ممسكة بي: «حفظك الله يا ولدي الغالي، ماذا بك؟ تكلم يا أليفي الصغير».

«لم تمُت هي أيضًا! آه، إنها لم تمُت يا بيجوتي؟».

صرخت بيجوتي في صوت مذهول قائلة: «لا»، ثم جلست، وبدأت تلهث، وقالت إنني أفزعتها أشد الفزع.

عانقتها لأخفف عنها فزعها، أو لأمنحها منعطفًا آخر صوب الاتجاه الصحيح من الحديث، ثم وقفت أمامها ناظرًا إليها في توجس.

قالت بيجوتي: «انظر يا عزيزي، كان يجب أن أخبرك بالأمر قبل الآن، لكن لم تُتَح لي الفرصة. كان يجب أن أتيح الوقت بنفسي، لكنني لم أستطع فعل ذلك بالظبط -كانت كلمة بالظبط هي البديل الدائم لكلمة بالضبط، في معجم كلمات بيجوتي- لم أستطع إقناع نفسي بالحديث إليك».

قلت بينما ازداد خوفي عن ذي قبل: «هيا يا بيجوتي».

راحت بيجوتي تفك أربطة قبعتها بيد مرتعشة وتكلمت لاهثة فقالت: «يا سيد ديفي. ما رأيك؟ لقد صار لك أب!».

ارتجفت وقد صرت شاحب الوجه. يبدو أن شيئًا ما - لا أعرف ماهيته، أو حاله - مرتبطًا بالمقبرة في باحة الكنيسة، وإقامة الموتى، قد صدمني مثل ريح عاصفة.

قالت بيجوتي: «أبٌ جديد».

كررت: «واحدٌ جديد؟».

شهقت بيجوتي، كأنها تبتلع شيئًا صعبًا للغاية، ثم مدت يدها وقالت:

«تعالَ لرؤيته».

«لا أريد أن أراه...».

قالت بيجوتي: «وأمك؟».

توقفت عن التراجع، وذهبنا مباشرة إلى أفضل صالون، حيث تركتني. أبصرت أمي جالسة على جانب من المدفأة، من ناحية أخرى جلس السيد مردستون. تركت أمي ما يشغلها، وقامت على عجل، لكنني ظننت أنها فعلت ذلك بخجل.

قال السيد مردستون: «الآن، يا عزيزتي كلارا، تذكري! السيطرة على نفسكِ دائمًا، السيطرة على نفسكِ! يا ولد يا ديفي، كيف حالك؟».

مددت يدي نحوه، ثم توجهت بعد لحظةٍ من تشتت نحو أمي وقبلتها، فقبلتني بدورها، وربتت على كتفي في رفق، ثم جلست مرة أخرى إلى عملها. لم أستطع النظر إليها، ولم أستطع النظر إليه، كنت أعرف جيدًا أنه كان ينظر نحونا على حد سواء، فاستدرت نحو النافذة وأشحت ببصري هناك، حيث بعض الشجيرات التي تدلَّت رؤوسها في البرد.

ما إن استطعت التسلل خارج الغرفة، حتى صعدت إلى الطابق العلوي. لقد تغير مكان غرفة نومي العزيزة، وصار عليَّ أن أنام بعيدًا. تجولت في الطابق السفلي لأعثر على أي شيء بقي كما كان فلم أجد. لقد تغير كل شيء. ذهبت أتجول في الفناء، ولكن سرعان ما عدت منه، لأن بيت الكلب الفارغ صار مشغولًا بكلب ضخم - ذي فم عميق وشعر أسود/ مثله - وقد كان غاضبًا جدًّا لرؤيتي، فاندفع منقضًّا عليَّ.

الفصل الرابع

وقعت في المحظور

إذا كانت الغرفة التي نقل سريري إليها تملك حواسَّ تُمكِّنها من أن تُقدم شهادتها عن حالي، للجأت إليها في هذا اليوم - يا ترى مَن ينام هناك الآن؟ إنني أتساءل. كنت سأطلب منها أن تشهد كيف حملت بين جوانحي قلبًا مثقلًا. لقد صعدت إليها، بعد أن سمعت الكلب ينبح في الفناء راكضًا ورائي طوال الطريق، وحينها صعدت الأدراج هربًا. بدت لي الغرفة جوفاء وغير مألوفة بينما بادلتني الغرفة النظرات، فجلست وقد تشابكت يداي الصغيرتان، مشدوهًا مفكرًا.

فكرت في أغرب الأشياء. فكرت في شكل الغرفة وما بها من شقوق في السقف، وورق على الجدران، وما تخللها من عيوب في زجاج النافذة التي تعكس مشهدًا من التموجات والتعاريج. انتبهت لمنشر الغسيل المتهالك منصوبًا على أرجله الثلاث، وقد بدا لي هذا الشيء ساخطًا على حاله تلك، كما ذكرني بالسيدة جامدج في حال تأثرها بالراحل. كنت أبكي طوال الوقت، وباستثناء أنني كنت مدركًا للطقس

البارد والمقبض، إلا أنني على يقين من أنني لم أفكر قَطُّ في سبب بكائي. بدأت في نهاية الأمر أفكر في أنني كنت في حالة حب مروعة مع إيميلي الصغيرة، وقد تم انتزاعي منها للمجيء إلى هنا حيث لا يبدو أن أحدًا يريدني أو يهتم لحالي، بل لا يُقدَّم لي حتى نصف العناية التي أولتها هي لي. حملتني هذه الأفكار إلى حالة من الغم، حتى إنني احتضنت نفسي في زاوية عند اللحاف المقابل، ورحت أبكي حتى غلبني النوم.

استيقظت على صوت شخص ما يقول: «ها هو». وقد كشف الغطاء عن رأسي المحموم. جاءت أمي وبيجوتي للبحث عني، وكانت إحداهما من فعلت ذلك.

قالت أمي: «يا ديفي، ما الأمر؟».

حسبت أنه من الغريب جدًّا أن تسألني، فأجبت: «لا شيء». انكفأت على وجهي، على ما أذكر، لإخفاء شفتي المرتجفة، حتى لا تبوح لها بمزيد من الحقيقة. قالت أمي: «ديفي، يا ديفي يا بُني».

أستطيع أن أقول إن أي كلمة كانت ستلفظ بها ما كانت لتؤثر عليَّ وتأسرني بعد ذلك، أكثر من أن تناديني بقولها بُني. أخفيت دموعي في ملاءات السرير، وضغطت عليها بيدي لأبعدها، بينما كانت ترفعني إليها.

قالت أمي: «أهذا ما تفعلينه يا بيجوتي؟! يا لكِ من قاسية! لا يراودني شك في أنكِ قاسية. أتساءل كيف سمح لكِ ضميرك أن تؤلبي ابني ضدي أو ضد أي شخص عزيز عليَّ؟ ماذا تقصدين بذلك يا بيجوتي؟».

رفعت بيجوتي يديها وعينيها، لم تجب إلا بنوع من إعادة صياغة لكلمات الصلوات التي كنت أكررها عادةً بعد العشاء، فقالت: «سامحكِ الله يا سيدة كوبرفيلد، وغفر لكِ ما قلتِه هذه اللحظة، وأبعد عنكِ الحزن إلى الأبد».

صرخت أمي قائلة: «يكفي أنكِ تشتتين انتباهي في شهر العسل أيضًا، بينما يرق قلب أعدائي الأكثر شرًّا، على حسب ظني، فلا يحسدونني على قليل من راحة البال والسعادة. يا ديفي، يا لك من شقي! بيجوتي، إنكِ مخلوق متوحش! آهٍ، يا عزيزي». كانت أمي تصرخ، بينما تنتقل من أحدنا إلى الآخر، بطريقة متعمدة، وأكملت تقول: «يا له من عالم مزعج، عندما يصير أقصى ما يأمله الإنسان أن يكون مقبولًا قدر الإمكان».

شعرت بلمسة يد كنت أعرف أنها ليست يدها ولا يد بيجوتي، فانزلقت واقفًا على قدمي بجانب السرير. كانت يد السيد مردستون، وقد احتفظ بها فوق ذراعي بينما راح يقول:

«ما هذا؟ كلارا يا حبيبتي، هل نسيتِ؟ - الحزم يا عزيزتي».

قالت أمي: «أنا آسفة جدًّا يا إدوارد. قصدت أن أكون طيبة جدًّا، لكنني في غاية التعب».

فأجاب: «حقًّا! إنني سمعت كلامًا سيئًا، منذ وقت قريب يا كلارا».

أجابت أمي عابسة: «من الصعب جدًّا أن أضطر إلى قول مثل هذا الكلام الآن. إنه شيء في غاية الصعوبة، أليس كذلك؟».

جذبها إليه وهمس في أذنها، ثم قبّلها. فهمت الأمر أنا أيضًا، فعندما رأيت رأس أمي متكئًا على كتفه، وقد لامست ذراعها عنقه، أدركت بدوري كيف يمكن تشكيل طبيعتها المرنة بأي شكل يختاره، كما أفهم الآن أن هذا ما حققه بالفعل.

قال السيد مردستون: «انزلي يا حبيبتي. سآتي إليكم أنا وديفيد معًا. وأنتِ يا صديقتي...». نظر إلى وجه بيجوتي بوجه محتقن، بعدما أبصر أمي وقد خرجت من الغرفة، فطردها بإيماءة وابتسامة قائلًا: «هل تعرفين اسم سيدتك؟».

أجابت بيجوتي: «إنها ولية نعمتي منذ وقت طويل يا سيدي، يجب أن أكون على علم به».

رد قائلًا: «هذا صحيح، لكنني ظننت أنني سمعتكِ، عندما صعدت إلى الطابق العلوي، تخاطبينها باسم لم يعد اسمها. لقد أخذت مني لقبي كما تعلمين. هل تتذكرين ذلك؟».

تلفتت بيجوتي نحوي ببعض النظرات المضطربة متفحصة وجهي، ثم خرجت من الغرفة من دون رد، وعلى ما أظن أنها فهمت أن المقصود هو أن تذهب، فلم يبقَ لديها عذر للبقاء. صرنا وحدنا نحن الاثنين، فأغلق الباب، وجلس على كرسي، وأمسك بي وأنا واقف أمامه، ونظر بثبات إلى عيني. شعرت بنفسي منجذبًا على النحو ذاته للنظر إلى عينيه. أتذكر المشهد بينما أقف مقابلًا له وجهًا لوجه، فيخيل لي أنني أسمع مرة أخرى دقات قلبي تسارع الخفقان وتعلو.

أخذ يتحدث مُشَكِّلًا شفتيه لتصيرا نحيفتين بالضغط عليهما معًا،

وقال: «يا ديفيد، إذا كان لديَّ حصان أو كلب عنيد أتعامل معه، فبرأيك ماذا أفعل؟».

«لا أدري، لا أعرف».

«أضربه».

كنت قد أجبت بنوع من الهمس، لكنني شعرت بعد صمتي أن أنفاسي صارت أقصر في هذه اللحظة.

«سأجعله عظة وعبرة، فأقول لنفسي: «سأنتصر على هذا المخلوق»، ولن يمنعني شيء عن الأمر حتى لو كلفه هذا كل ما في عروقه من دماء. ما هذا الذي على وجهك؟».

قلت: «إنه وسخ».

لقد كان يعلم أنها آثار البكاء وكذلك أعرف بدوري ماذا تكون، ولكن إن طرح السؤال عشرين مرة، وضربني في كل مرة عشرين ضربة، لانشق قلبي الصغير قبل أن يخبره بذلك.

قال بابتسامته الشرسة المعروفة عنه: «إنك تتمتع بقدر من الذكاء أكبر من صغير في مثل سنك، وقد فهمتني جيدًا، على ما أظن. اغسل هذا الوجه يا سيد وانزل معي».

أشار إلى حوض الغسيل بإيماءة من رأسه لأطيعه مباشرة. تراءى الحوض أمامي في صنيعه مثل السيدة جامدج. لم يكن يخامرني أدنى شك في ذلك الوقت، وليس لديَّ شك إلى الآن، في أنه كان سيضربني من دون أدنى قدر من الندم، إذا ترددت في تنفيذ أوامره.

نفذت أوامره، ثم اقتادني إلى الصالون ويده لم تزل فوق ذراعي، وراح يقول: «يا كلارا، يا عزيزتي، انعمي بالراحة وكفي عن التعب بعد الآن. آمل أن نعدل قريبًا سلوك هذا الشاب ومزاجه».

كان الله في عوني. كان من الممكن أن أتحسن بقية حياتي، وربما صرت مخلوقًا جديدًا مدى الحياة، بكلمة طيبة في تلك السن، أو كلمة تشجيع وتفسير، شفقة على جهلي الطفولي البريء، مع الترحيب بي في المنزل، وطمأنتي بأنه كان منزلي حقًّا ولم يزل. كنت لأصير مطيعًا له من كل قلبي من هذه اللحظة وإلى الأبد، من دون أن أتزلفه وأنافقه، وربما كنت لأبجله احترامًا بدلًا من أن أكرهه. ظننت أن أمي حزينة لرؤيتي في الغرفة وقد وقفت أمامها خائفًا وفي غاية الذهول، فقد رحت في هذه اللحظة أتسلل للجلوس على مقعدي، فأخذت تتبعني وعيناها لا تزالان مغمومتين لحالي -ربما لأنني كنت قد فقدت بعض خطوات طفولتي البريئة الحرة- ولكن هذه الكلمات لم تُلفظ أمامي، وقد ضاع عهدها.

تناولنا العشاء وحدنا، وقد اجتمع ثلاثتنا معًا. بدا مغرمًا بأمي للغاية - أخشى أن حبه لها لم يقلل من كراهيتي له - وكانت مغرمة ومولعة به. فهمت مما قالاه، أن أخته الكبرى كانت ستأتي للمكوث معهما، وكان من المتوقع أن تأتي في ذلك المساء. لست متأكدًا مما إذا كنت قد اكتشفت في ذلك الوقت أو بعده؛ أنه لم يكن له أي دور في أي نشاط أو عمل تجاري، لكنه حاز بعض الأسهم، أو بعض الرسوم السنوية على أرباح محل تاجر نبيذ في لندن، حيث كانت عائلته على علاقة به منذ جده، وكان لأخته

نصيب مماثل؛ ها أنا أذكر هذا الأمر هنا وإن لم أكن على تمام التيقن منه.

جلسنا بعد العشاء إلى جوار المدفأة. رحت أفكر في الهروب إلى بيجوتي من دون أن أتجرأ على الفعل، خشية أن أسيء إلى رب البيت. جاءت عربة واقتربت من بوابة الحديقة فخرج لاستقبال الزائرة. تبعته أمي. كنتُ أتبعها بخجل، فما لبثت أن استدارت عند باب الصالون، في هذا الضوء الخافت وأخذتني في أحضانها كما اعتادت أن تفعل، همست لي بأن أحب أبي الجديد وأن أطيعه. قامت بذلك بسرعة خاطفة وسرية، وكأنها اقترفت خطأ خامره الحنان. مدَّت يدها خلفها، وأمسكت بيدي، حتى اقتربنا من المكان الذي كان يقف فيه في الحديقة، وحينها تركت يدي، وخللت يدها عبر ذراعه.

وصلت الآنسة مردستون. كانت سيدة ذات مظهر مُقبض؛ مكفهرة الوجه مثل أخيها، بل كانت تشبهه في ملامحها وصوتها، لها حاجبان كثيفان للغاية، وقد كادا أن يلتقيا فوق أنفها الكبير، ومنعها كونها امرأة أن تطلق شاربًا، فحملت خصلاته على حاجبيها. أحضرت معها صندوقين أسودين صنعا من صُلب لا يلين، وقد حُفِرت على غطاءيهما الأحرف الأولى من اسمها بمسامير نحاسية صلبة. دفعت إلى الحوذي أجرته، وقد أخرجت نقودها من محفظة فولاذية صلبة، ثم أعادت المحفظة إلى مكانها المحكم للغاية حيث كانت حقيبتها معلقة على ذراعها بسلسلة معدنية ثقيلة، وما لبثت أن أغلقتها بإحكام. لم أرَ منذ ذلك الحين سيدة معدنية صلبة تشبه الآنسة مردستون.

أدخلوها إلى الصالون مع العديد من مظاهر الترحيب، وهناك اعترفت رسميًّا بمكانة أمي كفرد جديد وقريب من أفراد عائلتها. ثم نظرت نحوي وقالت:

«هل هذا ابنكِ يا زوجة أخي؟».

أجابت أمي بالموافقة.

قالت الآنسة مردستون: «إنني لا أحب الأولاد بشكل عام. كيف حالك يا فتى؟».

أجبت، في ظل هذه الظروف المشجعة، بأنني في حالة جيدة جدًّا، وأنني آمل أن تكون في حالة جيدة كذلك. أجبت بنغمة لا مبالية خالية من الاحترام، فما لبثت أن حكمت عليَّ الآنسة مردستون بكلمتين قائلة:

«غير مهذب».

ما لبثت أن تفوهت بهذه الكلمات الواضحة حتى استأذنت بالذهاب إلى غرفتها، والتي صارت بالنسبة لي منذ ذلك الوقت مصدرًا للرعب والهلع، حيث لم يُرَ الصندوقان الأسودان مفتوحين مطلقًا ولم يُتركا مفتوحين قَطُّ، وحيث إنني كنت قد اختلست النظر مرة أو مرتين بينما كانت بالخارج، فقد أبصرتُ العديد من الأصفاد والمسامير الفولاذية الصغيرة، والتي كانت الآنسة مردستون تزين نفسها بها عندما ترتدي ملابسها، معلقة على المرآة في نظام حتى لتبدو كما لو أنها معروضات تراثية.

وبقدر ما أسعفني ذهني، فقد فهمت أنها جاءت لتستقر، ولم تكن لديها نية للعودة مرة أخرى. بدأت في «مساعدة» أمي في صباح اليوم

التالي، وكانت تدخل وتخرج من المخزن طوال اليوم، وتضع الأمور في نصابها الصحيح، وتُغيِّر الكثير من نظام ترتيبنا القديم. كان أول ما لاحظته في الآنسة مردستون أنها دائمة الشك، فتظن باستمرار أن الخدم يخبئون رجلًا في مكان ما في البيت. غاصت في قبو الفحم تحت تأثير هذا الوهم، لأكثر من ساعة في الصباح الباكر، وقلما كانت تفتح باب الخزانة المظلمة وتقفله من دون أن تتبعه بحركة أخرى مفاجئة، ظنًّا منها أنها قد أوقعت بالرجل المُخبأ.

لم تكن الآنسة مردستون تتمتع بأي نوع من الخفة، إلا أنها كانت مثل قبَّرة[١] مثالية في مسألة الاستيقاظ مبكرًا. كانت تستيقظ قبل أن يتحرك أي شخص في المنزل (وإنني لأظن حتى هذه الساعة أنها كانت تستيقظ لتبحث عن ذاك الرجل المُخبأ). كان رأي بيجوتي أنها تنام فتُبقي عينًا مفتوحة، لكنني لم أستطع الموافقة على هذه الفكرة، لأنني جربت ذلك بنفسي بعد سماع اقتراحها هذا، ومن ثَم وجدت استحالة تنفيذه.

استيقظت في صباح اليوم الأول بعد وصولها مع صياح الديك، ثم قرعت جرسها. نزلت أمي بعد سماعه لتناول الإفطار وكانت بصدد تحضير الشاي، حينها أعطتها الآنسة مردستون نقرة على خدها، والتي كانت أقرب ما تفهمه عن القبلة، ثم قالت:

«الآن، يا كلارا، يا عزيزتي، لقد جئت إلى هنا، كما تعلمين، لأريحك من كل المتاعب بالقدر الذي أستطيعه. إنكِ جميلة للغاية

---

(١) طائر من رتبة العصفوريات.

وقليلة الحيلة -وهنا احمرت أمي خجلًا لكنها ضحكت، وبدا أنها لا تكره هذه السمات- إلى حد أنه لا يمكن أن تُفرض عليكِ أي واجبات يمكنني أن أقوم بها. إذا ناسبكِ الأمر يمكنك تسليم مفاتيحك لي، يا عزيزتي، لأدبر كل هذه الأمور في المستقبل».

احتفظت الآنسة مردستون منذ ذلك الوقت بالمفاتيح في محفظتها الصغيرة طوال اليوم، وتحت وسادتها طوال الليل، ولم يعد لأمي أي علاقة بها مثلي تمامًا.

لم تتحمل أمي زوال سلطتها من دون أدنى قدر من الاحتجاج. كانت الآنسة مردستون في إحدى الليالي تضع خططًا لإدارة المنزل وتَعرضها على أخيها، والذي أبدى بدوره استحسانًا لها؛ شرعت أمي بالبكاء فجأة، وقالت إنها ظنت أن عليهما استشارتها.

قال السيد مردستون في حزم وصرامة: «كلارا، يا كلارا، ما أعجبك!».

انفجرت أمي باكية تقول: «آهٍ، من السهل جدًّا أن تقول إنك تتعجب لأمري يا إدوارد! وكم من السهل أن تتحدث عن الحزم، لكنك لن تحب أن ينطبق الأمر نفسه عليك».

يمكنني أن ألاحظ أن الصلابة هي الصفة العظيمة التي ميزت السيد مردستون والآنسة أخته على حد سواء. كان من الممكن أن أُعبر عن فهمي لهذه الصفة فيهما في ذلك الوقت، إذا ما طلب مني الرأي، فقد فهمت بوضوح وبطريقتي الخاصة، أنها كانت وجهًا آخر للاستبداد ولبعض من الروح الشيطانية الكئيبة والمتغطرسة، وقد حمل كلاهما

هذه الصفات. أستطيع الآن أن ألخص ما كانوا يعتقدونه، وهو أن السيد مردستون حازم، ولا أحد في عالمه سيكون أكثر حزمًا منه، أو لم يكن لأي إنسان آخر في العالم أن يتصف بكونه حازمًا على الإطلاق، بل على الجميع الانصياع أمام حزمه. كانت الآنسة مردستون استثناءً، فقد تكون حازمة، ولكنها بالمقارنة به أدنى منزلة، وهي تابعة له. كانت أمي استثناء آخر، فقد تصير حازمة، ويجب أن تكون كذلك، ولكنها ليست كذلك إلا في تحمل حزمهما، واعتقادها الراسخ بأنه ليس ثمة صلابة أخرى على الأرض تضاهي حزمهما.

قالت أمي: «إنه صعب للغاية، أن يحدث في منزلي...».

كرر السيد مردستون: «منزلي؟ كلارا!».

تلعثمت أمي وبدا عليها الخوف بشكل واضح وراحت تقول: «منزلنا، أعني منزلنا. آمل أن تعرف ما أعنيه، يا إدوارد - من الصعب جدًّا ألا يكون لي رأي في منزلك بشأن الأمور المنزلية. إنني متأكدة من أنني أحسنت التصرف بصورة لائقة جدًّا قبل الزواج». أكملت أمي وهي تبكي: «وإن ثمة دليلًا. اسأل بيجوتي إذا لم أكن قد أحسنت التصرف من دون أن يتدخل أحد في الأمر».

قالت الآنسة مردستون: «يا إدوارد، سأضع حدًّا لهذا الأمر. سأرحل غدًا».

قال شقيقها: «يا جين مردستون، اصمتي! كيف تجرؤين على التلميح بأنكِ لا تعرفين شخصيتي بمثل ما توحي به كلماتك؟».

واصلت أمي المسكينة حديثها في وضع صعب للغاية، وقد

انهمرت منها الدموع، قائلة: «إنني متأكدة، لا أريد أن يرحل أحد. سأصير في غاية الحزن والكآبة إذا رحل أي شخص. لا أطلب الكثير. أنا لا أبالغ في أمنياتي. أريد فقط أن يؤخذ برأيي في بعض الأحيان. إنني في غاية الامتنان لأي إنسان يساعدني، وأريد أن يؤخذ برأيي فقط في بعض الأحيان. أحسب أنك كنت مسرورًا ذات مرة، لكوني قليلة الخبرة وساذجة يا إدوارد - إنني متأكدة من أنك قلت ذلك - لكن يبدو أنك تكرهني لنفس السبب الآن، إنك بالغ القسوة».

كررت الآنسة مردستون كلماتها مرة أخرى قائلة: «يا إدوارد، فليكن هذا نهاية الأمر. سأرحل غدًا».

صاح السيد مردستون متوعدًا: «يا جين مردستون هلا تصمتين؟ كيف تجرؤين على هذا القول؟».

أعتقت الآنسة مردستون منديلا من حوذتها، ثم رفعته أمام عينيها.

تابع السيد مردستون حديثه وهو ينظر نحو أمي: «يا كلارا، لقد فاجأتني! أذهلتني! نعم، لقد شعرت بالرضا من فكرة الزواج من امرأة عديمة الخبرة والمهارة، لتشكيل شخصيتها، وإدخال قدر من الحزم والصرامة بالقدر الذي تحتاجه. ولكن عندما تكون جين مردستون كريمة بما يكفي لتقديم مساعدتها لي في هذا المسعى، وتقبل هذا العمل من أجلي، في حالة تشبه كونها مدبرة لشؤون المنزل، فإذا بها تلقى جزاء منحطًّا».

صرخت أمي: «آهٍ، أرجوك، أتوسل إليك يا إدوارد، لا تتهموني بأنني جاحدة. إنني على يقين من أنني لست امرأة جاحدة. لم يقل أحد من قبل إنني أتصف بهذه الصفة. عندي كثير من العيوب، باستثناء هذا

العيب. آهٍ يا عزيزي لا تقل هذا».

تابع حديثه بعد أن انتظر حتى سكتت أمي عن الكلام، وراح يقول: «أقول عندما تلقى جين مردستون جزاء منحطًّا، فإن شعوري هذا سيزول ويتبدل».

ناشدته أمي وتوسلت قائلة: «لا، يا حبيبي، لا تقل هذا. آهٍ، لا يا إدوارد. لا أستطيع تحمل سماع ما تقول. مهما كان من أمر فأنا عطوفة. أعلم أنني عطوفة. لن أقول ذلك، إذا لم أكن متأكدة. اسأل بيجوتي. إنني متأكدة من أنها ستخبرك بأنني عطوفة».

أجاب السيد مردستون: «ليس ثمة شيء أحط من هذا يا كلارا، إنني لا أقيم وزنًا لمثل هذه المذلات. إنكِ تفقدين أنفاسك».

قالت أمي: «أستحلفك أن نصير أصدقاء. إنني لا أستطيع العيش في جفاء أو قسوة. إنني في غاية الأسف. أتسم بكثير من العيوب، وإني لعلى علم بها، وإنها لطيبة خالصة منك أن تحاول تقويم شخصيتي يا إدوارد، إنك بحكمة عقلك، ستحاول تصحيح عيوبي من أجلي. يا جين، إنني لا أعترض على أي شيء. إنني سأصبح في غاية الحزن إذا فكرتِ في المغادرة».

صارت أمي في حالة متعبة جدًّا إلى الحد الذي منعها من الاستمرار في الحديث.

قال السيد مردستون لأخته: «يا جين مردستون، إن أي كلمات قاسية بيننا أمر غير شائع على ما أظن. ما حدث الليلة من حديث غير معتاد ليس لخطأ مني. لقد خذلني شخص ما، كما أن الذنب ليس ذنبك،

فقد خذلك هذا الشخص كذلك. دعونا نحاول أن ننسى ما حدث. إن هذا...». أضاف، بعد هذه الكلمات المشجعة قائلًا: «إن هذا المشهد ليس لائقًا أمام الصبي. يا ديفيد، اذهب إلى فراشك».

استطعت بالكاد أن أتبين ملامح الباب، من خلال الدموع التي انحشرت في عيني. كنت في غاية الحزن على مصاب أمي. لكنني تلمست طريقي للخروج، وشققت الطريق إلى غرفتي في الظلام، من دون أن يطاوعني قلبي على قول «ليلة سعيدة» لبيجوتي، ومن دون القدرة على الذهاب إليها للحصول على شمعة. جاءت لتتفقدني، بعد ساعة أو نحو ذلك، فأيقظتني، ثم قالت إن أمي قد أوت إلى فراشها في حالة سيئة، وإن السيد مردستون والآنسة أخته جالسان منفردين.

نزلت في صباح اليوم التالي في وقت أبكر من المعتاد، ووقفت خارج باب الصالون عندما سمعت صوت أمي. كانت تتوسل وتتذلل بطلب العفو من الآنسة مردستون، وقد منحتها تلك السيدة عفوها، وتمت المصالحة على أكمل وجه. لم أعرف أن أمي قد أبدت رأيها بعد ذلك في أي مسألة، ولم تتصرف في شيء من دون استشارة الآنسة مردستون، أو من دون التأكد أولًا عبر بعض الأمور المؤكدة من رأي الآنسة مردستون في المسألة. كلما رأيت بعدها الآنسة مردستون خارجة عن أعصابها في نوبة غضب (وقد كان هذا الغضب داءها) تأخذ في التلويح بيدها نحو حقيبتها، كما لو أنها ستخرج المفاتيح وتعرض على أمي التنازل عنها، وإذا بي أبصر أمي وقد انتابتها حالة من الفزع الرهيب.

طغت الصبغة القاتمة التي سرت في دماء السيد مردستون والآنسة أخته على ممارسات الدين، فراحا يتعبدان في صرامة وتجهم. لقد تصورت منذ ذلك الحين، أن ظهورهما بهذه الشخصية كان نتيجة ضرورية لحزم السيد مردستون، تلك الصفة التي لن تسمح له بإبعاد أي شخص عن تحمل العبء الأكبر من العقوبات القاسية، وإن وجد له ما يعذره. قد أكون محقًّا أو مخطئًا فيما أقول، لكني أتذكر جيدًا الهيئة المتجهمة التي اعتدنا أن نذهب بها إلى الكنيسة، والهواء القاتم الذي يحاوطنا. يحل مرة أخرى[1] يوم الأحد المخيف، بينما ألتزم مكاني من الصحن القديم، أتقدمهم ماشيًا كما الأسير الخاضع للحراسة، والذي أُحضر إلى عقوبته بعد أن صدر الحكم عليه. أرى الآنسة مردستون، مرة أخرى، في ثوب أسود مخملي، يبدو كما لو كان مصنوعًا من غطاء لنعش، تتبعني على مقربة مني، ثم تتبعها أمي ثم زوجها. أما بيجوتي فقد اختفت الآن، ولم يعد الأمر كما كان في سالف عهده. أستمع إلى الآنسة مردستون مرة أخرى، بينما تتمتم بالردود، وتؤكد كل الكلمات المروعة باستمتاع قاسٍ. أرى عينيها الداكنتين مرة أخرى زائغتين تلفان الكنيسة وهي تقول: «خطاة مذنبون»، كما لو أنها تلعن جميع المصلين بأسمائهم. ألحظ لمحات نادرة من أمي مرة أخرى، بينما تحرك شفتيها بخجل بين الاثنين، وقد أخذ كل منهما يتمتم في أذن الآخر بتمتمات تشبه الرعد الخافت. أتساءل مرة أخرى في خوف مفاجئ عن احتمالية أن يكون هذا القسيس العجوز الطيب مخطئًا، ويكون السيد مردستون

---

(١) ستتكرر «مرة أخرى» عدة مرات في الفقرات التالية عمدًا.

والآنسة أخته على حق، وأن جميع الملائكة في الجنة يمكن أن يدمروا ملائكة أخر. إذا حركت مرة أخرى إصبعًا أو أرخيت إحدى عضلات وجهي المتجهم، فلا تلبث الآنسة مردستون أن توخزني بكتاب صلاتها، فتحدث ألمًا في جانبي.

حقًّا، كنا في طريق عودتنا إلى المنزل، لاحظت مرة أخرى أن بعض الجيران ينظرون إليَّ وإلى أمي ويتهامسون. يسير ثلاثتهم مرة أخرى، متشابكي الأذرع، وأبقى وحيدًا، أتابع بعضًا من هذه النظرات، وأتساءل عما إذا كانت خطوة أمي لم تعد خفيفة حقًّا كما عهدتها، وإذا كانت صاحبة هذا الجمال تخاف جدًّا من زواله. أتساءل مرة أخرى، عما إذا كان أي من الجيران يتذكرني، كما أتذكر، كيف اعتدنا أن نسير إلى المنزل معًا، هي وأنا، وأظل أتساءل في غباء عن كل ذلك طوال اليوم القاتم الكئيب.

تناثرت الأحاديث في بعض المناسبات حول ذهابي إلى المدرسة الداخلية. كان السيد مردستون والآنسة أخته قد اقترحا الفكرة، ومن ثَم وافقت أمي عليها بالطبع. ومع ذلك، لم يتم التوصل إلى أي قرار بشأن هذا الموضوع حتى هذه اللحظة. رحت أتلقى دروسي في هذا الوقت في المنزل. فهل أنسى هذه الدروس! كانت أمي تترأس وتشرف على دروسي صوريًّا، أما السيد مردستون وشقيقته، فقد كانا في الحقيقة حاضرين دائمًا، وكان حضورهما فرصة مناسبة لإعطاء أمي درسًا في هذا الحزم الظالم، والذي لم يكن سوى لعنة حلت بحياتنا. أحسب أنني أبقيت في المنزل لهذا الغرض. لقد كنت مؤهلًا بما يكفي للتعلم،

وأبديت رغبة في تحصيله، عندما كنت أعيش أنا وأمي معًا. أستطيع أن أتذكر كيف تعلمت حروف الهجاء جالسًا على ركبتيها. أنظر في يومنا هذا إلى الأحرف ذات الخطوط الكبيرة سوداء اللون في كتاب الأطفال التمهيدي، فأتأمل أشكالها المحيرة، وانسيابية كتابة أحرف مثل (و - ق - ص)، حتى ليبدو أنها تقدم نفسها أمامي مرة أخرى كما كانت تفعل، من دون أن تُذكرني بأي شعور بالاشمئزاز أو التردد، بل على العكس، يبدو لي أنني سرت على درب من الزهور حتى وصلت إلى كتاب التمساح، وقد استمتعت بصوت أمي العذب وصبرها على مشقة تعليمي طوال الوقت. أما الدروس الجليلة التي تلت دروسي الأولى، فلا أتذكر إلا أنها ضربة قاتلة أطاحت بسكوني، وليست سوى كدح وبؤس يومي مؤلم. كانت طويلة للغاية، كثيرة جدًّا، وفي غاية الصعوبة - لم تكن مفهومة على الإطلاق، أو على الأقل بعضها - وظللت متحيرًا بشكل عام، مهمومًا وأتصور أن أمي المسكينة كانت على الحال نفسه.

اسمحوا لي أن أتذكر كيف كانت تسير هذه الدروس، وأعيد مرة أخرى حكاية صباح أحد الأيام.

جلست في الصالون الأقل رونقًا بعد الإفطار، وقد اصطحبت كتبي بما فيها كتاب التدريبات، وسبورة. تأهبت أمي وجلست على مكتبها، ولكنها لم تكن تضاهي نصف استعداد السيد مردستون في كرسيه المريح بجوار النافذة (على الرغم من أنه كان يتظاهر بأنه يقرأ كتابًا)، ولا تشبه على الإطلاق تأهُّب الآنسة مردستون، الجالسة بالقرب من أمي؛ تلضم حبات عقد صلبة. كان لمرأى هذين الشخصين تأثير كبير

حتى إنني شعرت بثقل الكلمات لا تكف عن إيلامي بلا توقف من دون أن تصل إلى رأسي، ولا تلبث أن تنزلق كلها بعيدًا، ولا أعرف إلى أين تبتعد. كنت دومًا أتساءل إلى أين تذهب؟

أعطيت أمي الكتاب الأول، ربما كان كتاب نحو، أو ربما تاريخ، أو جغرافيا. ألقيت نظرة أخيرة على الصفحة وهي تتوارى بينما أضعه بين يديها، وأبدأ في الترديد بصوت عالٍ ووتيرة مسرعة قبل أن أنسى ما رأيته لتوِّي. أتعثر في كلمة، فيُحوِّل السيد مردستون نظراته نحوي. أتلعثم في كلمة أخرى، فترمقني الآنسة مردستون. يحمر وجهي، وأتعثر في أكثر من ست كلمات، ثم أتوقف. أحسب أن أمي كانت لتناولني الكتاب لأتذكر الكلمات، لكنها لا تجرؤ على فعل ذلك، وراحت تقول بهدوء:

«آهٍ يا ديفي، ديفي!».

أخذ السيد مردستون يقول: «أما الآن يا كلارا، فلتكوني حازمة مع الصبي. لا تقولي: «آهٍ، يا ديفي، ديفي!» إنه تصرف صبياني، بل هل يعرف درسه أم لا؟».

تتدخل الآنسة مردستون بصوت فظ قائلة: «إنه لا يعرف».

تقول أمي: «أخشى حقًّا أنه لا يعرفه».

ترد الآنسة مردستون قائلة: «إذن، كما ترين يا كلارا، عليكِ أن تعيدي إليه الكتاب، فيستذكر دروسه».

قالت أمي: «نعم، بالتأكيد. هذا ما أنوي القيام به يا عزيزتي جين. الآن، يا ديفي، حاول مرة أخرى، ولا تكن غبيًّا».

أطيع البند الأول من الأمر من خلال المحاولة مرة أخرى، لكنني لم أنجح في البند الثاني، لأنني لست غبيًا. لقد تعثرت قبل أن أصل إلى النقطة القديمة، فأتلعثم في موضع كنت فيه جيدًا من قبل، ثم أتوقف محاولًا التذكر، لكنني لا أستطيع التفكير في الدرس. أفكر في طول الشِّباك التي تلتف حول قبعة الآنسة مردستون، أو سعر رداء السيد مردستون، أو أي مشكلة سخيفة لا علاقة لي بها، فلا أريد أن أفعل شيئًا على الإطلاق. يقوم السيد مردستون بحركة تشي بنفاد صبره، وقد كنت أتوقعها منذ فترة طويلة. وتفعل الآنسة مردستون الشيء نفسه. تنظر أمي إليهما بخنوع، ثم تغلق الكتاب، وتنحيه جانبًا كشيء ثانوي سنعود إليه بعد الانتهاء من مهام أخرى.

ستتراكم كومة من هذه المتأخرات في القريب العاجل، وستتضخم مثل كرة ثلج متدحرجة؛ كلما زاد حجمها، زاد غبائي. صارت القضية ميؤوسًا منها، وصرت أشعر أنني غارق في مستنقع من الهراء، لدرجة تدفعني إلى أن أتخلى عن كل فكرة عن النجاة، وأترك نفسي غارقًا في مصيري. أتبادل نظرات يائسة مع أمي. أتخبط، فتزداد حزنًا، لكن العاقبة الأكبر في هذه الدروس البائسة تحل عندما تحاول أمي التي تحسب ألا أحد يراقبها؛ أن تذكرني بإشارة من خلال حركة شفتيها. فلا تلبث الآنسة مردستون التي لم تشغل نفسها بأي شيء طوال الوقت سوى التربص لهذه اللحظة، فتقول بصوت تحذير عميق:

«يا كلارا!».

يتحول وجه أمي فتعلوه حمرة، وتبتسم ابتسامة باهتة. ينهض السيد مردستون من كرسيه، ويأخذ الكتاب، ويصفعه في وجهي أو يشد أذني نحوه، ثم يخرجني من الغرفة بينما يدفع كتفي.

قد تنتهي الدروس، من دون أن ينقضي الأسوأ الذي لم يقع بعد، فيحل في هيئة عملية حسابية مروعة يخترعها السيد مردستون من أجل أن أحسبها، فيتلوها على مسامعي لأتمها. يبدأ في القول: «إذا ذهبت إلى متجر لبيع الجبن، واشتريت خمسة آلاف قطعة جبن من نوع جلوستر ذات القشدة المضافة، مقابل أربعة بنسات ونصف، فكم تدفع؟». هنا أرى الفرحة تستولي على الآنسة مردستون سرًّا. أفكر في مسألة الأجبان هذه من دون أن أصل إلى أي نتيجة أو فهم حتى وقت العشاء. أكون ساعتها قد لطخت نفسي ببعض من جير السبورة، وقد تبعثرت وغطت مسام بشرتي، فلا يكون جزائي سوى شريحة من الخبز وقطعة من جبن على أمل مساعدتي للتوصل إلى نتيجة، كما يلازمني العار لبقية المساء.

يخيل إليَّ، بعد مرور هذه الفترة الزمنية، كما لو أن دراساتي السيئة قد سلكت هذا الدرب بشكل عام. كان بإمكاني أن أتفوق في أدائي لو أنني بعيد عن عائلة مردستون. لكن تأثير مردستون كان يبدو لي مثل شبح ثعبان شرس على فرخ صغير بائس. لم أكن لأحصل على أكثر من نصيب من العشاء، لو أنني قضيت دروس فترة الصباح باستذكار مقبول، حيث كانت الآنسة مردستون لا تستطيع أبدًا تحمل رؤيتي من دون إسناد مزيد من الواجبات لي. أما إذا عرضت عليهم بتهور فكرة أنني عاطل عن العمل، فلا تلبث الآنسة مردستون أن تلفت انتباه أخيها إليَّ بقوله:

«يا كلارا، يا عزيزتي، لا يوجد شيء أفضل من العمل - أعطِ ابنك تمرينًا». مما يجعلني أتورط في عمل جديد بعد قولها بلحظات. أما بالنسبة للترفيه مع أطفال آخرين في مثل سني، فلم يكن لي سوى نصيب ضئيل، لأن شريعة آل مردستون الكئيبة جعلت من جميع الأطفال سربًا من الأفاعي الصغيرة (على الرغم من وجود طفل في وسط التلاميذ)[1]، فلا يجدون فيهم إلا عدوى تستشري بينهم ويتداولونها.

كانت النتيجة الطبيعية لهذا المسلك الذي استمر، على حسب ظني لمدة تزيد على ستة أشهر، أن صرت متجهمًا وملولًا، ومتعنتًا. تعمق شعوري بالحرمان من أمي أكثر فأكثر، وقد صرت منزويًا ومنفصلًا عنها. أحسب أنني كنت على وشك الجنون لولا ظرف واحد.

كان هذا ما وقع... كان أبي قد ترك مجموعة صغيرة من الكتب في غرفة صغيرة بالطابق العلوي، وكنت أستطيع الوصول إليها (لأنها كانت ملاصقة لحجرتي) ولم ينشغل بأمرها أي إنسان آخر في منزلنا. خرج من هذه الغرفة الصغيرة المباركة، رودريك راندوم[2]، وبيريجرين

---

(١) يقصد تلاميذ السيد المسيح في إحالة إلى الإصحاح الثامن عشر من إنجيل متى: فدعا المسيح إليه ولدًا وأقامه في وسطهم، وَقَالَ: «اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ لَمْ تَرْجِعُوا وَتَصِيرُوا مِثْلَ الأَطْفَالِ فَلَنْ تَدْخُلُوا مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ».

(٢) بطل رواية «مغامرات رودريك راندوم» للكاتب توبياس سمولِت، وهي تقدم عرضًا تفصيليًّا لحياة البحارة البريطانيين.

بيكل[1]، وهمفري كلينكر[2]، وتوم جونز[3]، ونائب ويكفيلد[4]، ودون كيشوت[5]، وجيل بلاس[6]، وروبنسون كروزو[7]، وقد كانوا أعظم صحبة، وأفضل رفقة. أبقوا ذهني يقظًا ينبض بالحياة، وصار أملي يتجاوز ذلك المكان والزمان، بالإضافة إلى الليالي العربية[8]، وحكايات الجان، من دون أن يمسوني بضرر، فكل ما أوتوا من حيل ما كانت لتمسسني، ولم أكن أعلم شيئًا عنهم من قبل. وإني لأعجب من حالي الآن، فأتساءل كيف وجدت الوقت لقراءة هذه الكتب الشيقة، في خضم التساؤلات والتخبطات في موضوعات دراسية ثقيلة، ولكني قد فعلت. أندهش حين أتخيل كيف كان بإمكاني مواساة نفسي في ظل مشكلاتي الصغيرة (التي كانت مشكلات كبيرة في نظري)، من خلال تخيل شخصياتي المفضلة وتقمص أدوارها - فعلت هذا مرارًا - بينما وضعت السيد مردستون والآنسة أخته في محل كل الشخصيات

---

(١) بطل رواية «مغامرات وبيريجرين بيكل»، وهي أيضًا لتوبياس سمولِت، تستعرض شخصية ضابط بحار متقاعد، يتصرف على اليابسة حسب شروط وقوانين البحر، وكأنه على متن إحدى السفن الحربية البريطانية.

(٢) بطل رواية «بعثة همفري كلينكر»، وتعد أهم روايات سمولِت، وآخرها.

(٣) بطل رواية تحمل الاسم نفسه للكاتب هنري فيلدنج.

(٤) رواية للكاتب أوليفر جولدسميث. إحدى أشهر روايات القرن الثامن عشر، وأكثرها قراءة في العصر الفيكتوري.

(٥) رواية للأديب الإسباني ثيربانتس.

(٦) بطل رواية «مغامرات جيل بلاس دي سانتللاني» للكاتب ألان رينيه لساج. كانت من أكثر الروايات تأثيرًا في فرنسا.

(٧) رواية للكاتب دانيال ديفو؛ تحكي عن فتى متهور، فر من أهله ليعيش حياة البحَّارة.

(٨) يقصد ألف ليلة وليلة.

الشريرة - وهو ما راق لي أيضًا. لقد تقمصت شخصية توم جونز - ذلك الطفل توم البريء الساذج - لأسبوع متواصل. احتفظت في مخيلتي بانطباعاتي الخاصة عن رودريك راندوم لشهر كامل. أحسب أنني تقمصت الشخصيات على أكمل وجه. راقت لي بضعة مجلدات من كتب الرحلات والأسفار، وقد نسيت الآن أسماء الكتب التي كانت موجودة على تلك الرفوف. أذكر أنني رحت أتجول لأيام عدة في منطقتي الآمنة في منزلنا، مسلحًا بقطعة معدنية قديمة كانت تتوسط قالب الأحذية - فصرت على هيئة تشبه أحد ضباط البحرية الملكية البريطانية، بينما يلوح في خطر من حصار المتوحشين، وقد عزم على دفع ثمن الحرية وبذل حياته بثمن غالٍ. ولم يفقد القبطان كرامته قَطُّ، وإن قُرصت أذنه بسبب عدم إتقانه للقواعد اللاتينية. هكذا تمت الحكاية؛ أما القبطان فقد كان قائدًا وبطلًا، على الرغم من كل القواعد النحوية لجميع لغات العالم الموجودة أو المندثرة.

وجدت في هذه الكتب راحتي الوحيدة والدائمة. أفكر في الأمر، فتتجلى دائمًا صورة ما في ذهني، لإحدى الأمسيات الصيفية، حيث يلعب الأطفال في فناء الكنيسة، بينما أجلس على سريري، كما لو أنني سأقرأ مدى الحياة. كانت كل حظيرة في الحي، وكل حجر في الكنيسة، وكل قدم في فناء الكنيسة، لها ذكرى مميزة تلوح في خاطري، ترتبط فيما بينها بهذه الكتب، وتتوثق ذكراها ببعض الأماكن التي اشتهرت بها. لقد تمثل أمامي توم بايبس يتسلق برج الكنيسة. أبصرت ستراب، يحمل حقيبته على ظهره، وقد توقف ليستريح على بوابة الويكيت؛ وأدركت أن الكومودور ترونيون

قد أقام اجتماعه مع السيد بيكل، في ردهة حانة قريتنا الصغيرة[1].

يفهم القارئ الآن، كما أدركت بدوري الأمر نفسه، حالي التي وصلت إليها في هذه المرحلة من شبابي، الذي استرجعته في هذه اللحظة مرة أخرى.

توجهت ذات صباح إلى الصالون مصطحبًا كتبي، فإذا بي أجد أمي وقد بدا عليها القلق، ولاحت الآنسة مردستون حازمة، أما السيد مردستون فكان يربط شيئًا حول قاع قصبة - عصا رفيعة ورشيقة، وما لبث أن تركها عندما دخلت وأخذ يلوح بها في الهواء.

قال السيد مردستون: «أقول لكِ يا كلارا، لقد تعرضت للجلد في كثير من الأحيان».

قالت الآنسة مردستون: «بكل تأكيد».

تلعثمت أمي وقالت في خنوع: «بالتأكيد، يا عزيزتي جين، لكن - ولكن هل تعتقدين أن الأمر أفاد إدوارد؟».

سأل السيد مردستون بجدية: «هل تعتقدين أن الأمر أضر بإدوارد يا كلارا؟».

قالت أخته: «هذا بيت القصيد».

أجابت أمي بدورها: «بالتأكيد، يا عزيزتي جين». ولم تزد كلمة واحدة.

شعرت بخوف من أن أكون الشخص المعني بهذا الكلام، وقد ثبتُّ

---

(١) أبطال وأحداث من «مغامرات وبيريجرين بيكل».

عينيَّ في عين السيد مردستون بينما لاحت لناظري تتوهج.

راح يتحدث وهو يسدد نحوي هذه النظرة مرة أخرى قائلًا: «الآن يا ديفيد؛ عليك أن تصير منذ اليوم أكثر حرصًا من المعتاد». أخذ يلوح بالعصا مرة أخرى، وبعد أن انتهى من تحضيرها وضعها بجانبه في مشهد مثير للعجب ثم تناول كتابه.

كان هذا المشهد منعشًا جيدًا لذاكرتي في البداية. شعرت أن كلمات دروسي تنزلق، ليست واحدة تلو الأخرى، أو سطرًا تلو الآخر، ولكنها تنزلق في صفحات كاملة. حاولت أن أمسك بها، لكن يبدو أنها، إن جاز لي التعبير، قد ارتدت زلاجات، وراحت تبتعد عني بسلاسة من دون سبيل إلى إيقافها.

كانت بدايتنا سيئة، ثم انزلقنا نحو الأسوأ. خطرت لي فكرة أن أظهر تميزي لا فشلي، وتصورت أنني في غاية الاستعداد لذلك، لكن اتضح أنني كنت مخطئًا تمامًا. ألقى كل كتاب تلو الآخر كومة من الإخفاقات على كاهلي. كانت الآنسة مردستون تتربص بنا طوال الوقت. وصلنا أخيرًا إلى مسألة الأجبان الحسابية ذات الخمسة آلاف (لكنه جعل المسألة تدور حول ضربات العصا التي صنعها في ذلك اليوم، على ما أذكر)، ومن ثَم انفجرت أمي في البكاء.

قالت الآنسة مردستون بنبرة تحذيرية: «يا كلارا!».

قالت أمي: «أظن أنني لست على ما يرام يا عزيزتي جين».

رأيته يغمز لأخته في هيئة مخيفة بينما ينهض حاملًا عصاه، وراح يقول:

«لماذا يا جين تتوقعين أن تتحمل كلارا، في حزم تام، مثل هذا القلق والعذاب الذي سببه لها ديفيد اليوم؟ سيكون الأمر فوق الاحتمال. لقد تحسنت كلارا وتطورت بشكل كبير، لكننا لا نستطيع أن نتوقع منها المزيد. يا ديفيد، سنصعد أنت وأنا يا فتى».

أخرجني من الباب، فركضت أمي نحونا. تدخلت الآنسة مردستون قائلة: «يا كلارا! هل أنتِ حمقاء؟»، ثم رأيت أمي تسد أذنيها، وسمعتها تبكي.

أخذني إلى غرفتي ببطء وحزم - إنني متأكد من أنه شعر بالسرور من هذا العرض الرسمي لتنفيذ العدالة - وعندما وصلنا إلى هناك، لف رأسي فجأة تحت ذراعه.

صرخت قائلًا: «يا سيد مردستون، يا سيدي، لا تفعل، ارحمني، لا تضربني. لقد حاولت أن أتعلم يا سيدي، لكنني لا أستطيع أن أتعلم بينما تجلس أنت والآنسة مردستون بجانبك تراقباني. لا أستطيع حقًّا».

قال: «ألا يمكنك حقًّا يا ديفيد؟ سنجرب هذه الطريقة إذن».

صار رأسي يشبه المنجل، لكنني قمت بالالتواء حوله بطريقة ما، وأوقفته للحظة، وناشدته ألا يضربني. أوقفته لحظة واحدة فقط، لكنه ما لبث أن جرحني بشدة بعد ذلك بوقت قصير. قبضت على يده في نفس اللحظة التي أطبقها على فمي، ورحت أعضها بين أسناني. وإني لم أزل أذكر وقع أسناني عليه.

أخذ يزيد في ضربي كما لو أنه أراد أن يطرحني هالكًا. ارتفعت أصوات الضجيج الذي أحدثناه، فسمعت وقع أقدام صعودهم وهم

يصرخون. سمعت صراخ أمي وصراخ بيجوتي كذلك. رحل بعدها، ثم أغلق الباب من الخارج. كنت مستلقيًا، محمومًا وساخنًا، وممزقًا ومتوجعًا وساخطًا، أصرخ في وهنٍ، وأنا منطرح فوق الأرض.

أتذكر جيدًا، سكوني بعد ذلك، وكيف بدا غير معتاد، ثم أخذ يسود ويعم أرجاء المنزل! كم أتذكر جيدًا، شعوري بعد أن هدأ غضبي وطابت أوجاعي، وكيف راودني مشاعر خبيثة.

جلست ساكنًا أنصت لفترة طويلة من دون أن أسمع صوتًا. زحفت حتى نهضت من فوق الأرض، وأبصرت وجهي في المرآة منتفخًا، محمر اللون، وقبيحًا إلى حد كاد يخيفني. كانت مواضع الضرب مؤلمة ويابسة، مما جعلني أبكي من جديد كلما تحركت. أما هم فلم يراودهم أي شعور بذنب. إني لأجرؤ على القول بأن الأمر أثقل صدري بذنب أعظم من لو كنت مجرمًا عاتيًا.

حل الظلام، فأغلقت النافذة. كنت مستلقيًا أغلب الوقت، مسندًا رأسي على العتبة، أتناوب البكاء والنعاس، وأنظر بين الحين والآخر حولي في فتور. سمعت صوت دوران المفتاح، وإذا بالآنسة مردستون قد جاءت ببعض الخبز واللحم واللبن. وضعت هذه الأطعمة فوق المنضدة من دون أن تنبس ببنت شفة، بينما ظلت تحدق في وجهي بصرامة مفرطة، ثم تراجعت وأغلقت الباب وراءها.

جلست بعد أن ساد الظلام قابعًا في مكاني لوقت طويل، أتساءل هل سيأتي أي شخص آخر لرؤيتي؟ بدا الأمر غير محتمل في هذه الليلة، فخلعت ملابسي وأويت إلى الفراش، وهناك رحت أتساءل في خوف

عما سيحدث لي. هل قمت بعمل إجرامي؟ هل ثمة شيء يستدعي احتجازي ودفعي إلى سجن؟ هل سأتعرض بطريقة ما لخطر الإعدام؟

لن أنسى لحظة استيقاظي في صباح اليوم التالي، حين كنت مبتهجًا ومنتعشًا في اللحظات الأولى، ثم صرت كئيبًا مغمومًا مع ثقل ما تذكرته من أحداث سالفة. ظهرت الآنسة مردستون أمامي مرة أخرى قبل أن أنهض من الفراش. أخبرتني، في كلمات كثيرة، أنني حر، أستطيع السير في الحديقة لمدة نصف ساعة ليس أكثر، ثم مشت وقد تركت لي الباب مفتوحًا حتى أستفيد من هذا الإذن وأنفذه.

كان هذا ما قمت به، وكررته كل صباح طوال سجني الذي دام خمسة أيام. لو كان بإمكاني رؤية أمي على انفراد، لجثوت على ركبتي عندها طالبًا منها المغفرة والعفو، لكنني لم أرَ أحدًا طوال الوقت باستثناء الآنسة مردستون، وباستثناء اجتماعنا لصلاة المساء في الصالون. كانت الآنسة مردستون ترافقني بعد أن يجلس الجميع في أماكنهم، فأجلس في مكان بعيد، كما لو أنني شاب خارج عن القانون، فأقبع وحيدًا شريدًا بالقرب من الباب. يقودني سجاني الخاص بهيئة رسمية لأعود أدراجي، قبل أن ينهض أحد من ركوعه. لم ألحظ سوى أن أمي كانت بعيدة عني بقدر المستطاع، وقد حافظت على وجهها بعيدًا عني حتى لا أراه أبدًا، بينما كانت يد السيد مردستون مربوطة بلفافة عريضة من الكتان.

لا أستطيع أن أنقل إليكم مشاعري طوال تلك الأيام الخمسة. إنها تحتل في ذاكرتي مكانًا لسنوات لا لأيام. لقد أنصت إلى كل وقائع المنزل، بالإضافة إلى صوتي وهمساتي. سمعت رنين الأجراس،

وأصوات فتح وإغلاق الأبواب، غمغمة الأصوات، وخطى الدرج، بالإضافة إلى الضحكات أو الصفير أو الغناء في الخارج، والذي بدا لي أكثر كآبة من أي شيء آخر في وحدتي وسجني. كان صوت عقارب الساعات مضللًا، خاصة في الليل، فقد رحت أستيقظ متوهمًا أنه قد حلَّ الصباح، بينما لم تأوَ العائلة إلى الفراش بعد، ولم ينقضِ الليل ولم تبدأ ساعاته الأولى بعد. ظلت تراودني أحلام وكوابيس كئيبة. يحل نهار تلو الآخر، تبدأ الظهيرة وتنتهي، فيحل المساء، ويبدأ الأولاد في اللعب في فناء الكنيسة. أراقبهم من مسافة بعيدة داخل الغرفة، لخجلي من إظهار نفسي عند النافذة؛ خشية أن يعرفوا أنني صرت سجينًا. راودني إحساس غريب بأنني لم أعد أسمع صوتي أبدًا عندما أتكلم، كما تلاشت مع صوتي أي فواصل عابرة من البهجة، التي كانت تحل بين حين وآخر مع الأكل والشرب. هطل المطر في إحدى الأمسيات، فحلَّ برائحته المنعشة في الهواء. أخذ يتسارع حتى حال بيني والكنيسة. بدا الليل لي وقد اتحد بقطرات المطر ليزيد من كآبتي وخوفي وندمي. مرت أمامي هذه الحوادث بأسرها في دوائر متتالية، كما لو كانت سنوات لا أيامًا. صار أثرها مطبوعًا في صورة واضحة وقوية في ذاكرتي. استيقظت في الليلة الأخيرة من سجني، وقد سمعت اسمي يُنادى بصوت هامس. استويت في الفراش، وبسطت ذراعي في الظلام قائلًا:

«هل هذه أنتِ يا بيجوتي؟».

لم أسمع إجابة في الحال، لكنني سمعت في هذه اللحظة اسمي مرة أخرى، بنبرة شديدة الغموض والبشاعة، لدرجة أنني أحسست أنني

على وشك فقدان وعيي، لولا أن خطر ببالي أن الصوت يجب أن يكون قد جاء من ثقب المفتاح.

تلمست طريقي نحو الباب، ووضعت شفتي على ثقب المفتاح، وهمست: «هل هذه أنتِ يا بيجوتي العزيزة؟».

فأجابت: «نعم، يا عزيزي ديفي. كن خافتًا مثل الفأر، وإلا سوف تسمعنا القطة».

لقد فهمت أن هذا التعبير يعني الآنسة مردستون، وأدركت أهمية الأمر، فقد كانت غرفتها قريبة.

«كيف حال ماما يا عزيزتي بيجوتي؟ هل هي غاضبة جدًّا مني؟».

كنت أسمع بيجوتي تبكي في هدوء من ثقب المفتاح، كما كنت أفعل الأمر ذاته من جانبي، قبل أن تجيب: «لا، ليست غاضبة جدًّا».

«ما الذي سيفعلونه معي يا عزيزتي بيجوتي؟ هل تعرفين؟».

«كان جواب بيجوتي أن قالت: «مدرسة، بالقرب من لندن».

اضطررت إلى أن أطلب منها تكرارها، لأنها حين قالتها في المرة الأولى، كنت قد نسيت أن أرفع فمي عن ثقب المفتاح وأضع أذني لأسمع، وعلى الرغم من أن كلماتها كانت تدغدغني للغاية، فإنني لم أسمعها في المرة الأولى.

«متى يا بيجوتي؟».

«غدًا».

«هل هذا هو سبب إخراج الآنسة مردستون للملابس من أدراجي؟»، هذا ما فعلته، على الرغم من أنني نسيت أن أذكر ذلك.

قالت بيجوتي: «نعم، في صندوق».

«ألن أرى ماما؟».

قالت بيجوتي: «بلى، في الصباح».

ثبتت بيجوتي فمها بالقرب من ثقب المفتاح، وألقت هذه الكلمات من خلاله بقدر من الإحساس والجدية، كما لو أن ثقب المفتاح كان وسيلة التواصل دائمًا، وإنني لأجرؤ على تأكيد أنها توهجت في كل جملة صغيرة مقتضبة، وأحدثت انفجارًا صغيرًا متشنجًا من جراء مشاعرها.

«ديفي، يا عزيزي، إذا لم أكن على تواصل حميم معك في الآونة الأخيرة، كما اعتدت أن أكون، فليس لأنني لا أحبك. إن حبي لك يزداد يا صغيري الجميل. لكنني منعت نفسي عن التواصل معك لأنني ظننت أن ذلك أفضل لك، وأنفع لشخص في حالتك. يا ديفي، يا حبيبي، هل تسمعني؟ هل تستطيع سماعي؟».

رحت أبكي مجيبًا: «نع... نع... نع... نعم، يا بيجوتي».

قالت بيجوتي بتعاطف لا حدود له: «حبيبي، إن ما أريد قوله هو ألا تنساني أبدًا، لأنني لن أنساك أبدًا. وسأعتني بأمك يا ديفي، كما اعتنيت بك، بل أكثر من أي وقت مضى، ولن أتركها. قد يأتي اليوم الذي تسعد فيه بوضع رأسها المسكين فوق ذراع بيجوتي الحمقاء مرة أخرى. وسأراسلك يا عزيزي، على الرغم من أنني لست متعلمة. وسأفعل الكثير... سوف أفعل».

راحت بيجوتي تقبل ثقب المفتاح، لأنها لم تستطع تقبيلي.

قلت: «شكرًا لكِ عزيزتي بيجوتي، شكرًا لكِ، هلا وعدتني بشيء واحد يا بيجوتي؟ هل ستكتبين رسالة إلى السيد بيجوتي والصغيرة إيميلي والسيدة جامدج وهام، فتخبريهم أنني لست سيئًا للغاية كما قد يفترضون، وأنني أبعث إليهم بوافر حبي - وخاصةً إلى الصغيرة إيميلي؟ هل يمكنكِ فعل ذلك، إذا سمحتِ، يا بيجوتي؟».

وعدتني هذه الروح الطيبة بتنفيذ الأمر، وقد قبَّل كلانا ثقب المفتاح بأكبر قدر من المودة. أذكر أنني أخذت أربت عليه، كما لو أنني أربت على وجهها الصادق، ثم افترقنا. نشب في صدري منذ تلك الليلة شعور لا يمكنني تحديده جيدًا تجاه بيجوتي. لم تكن لتحل مكان أمي، فلا أحد يستطيع فعل ذلك، لكنها احتلت مكانًا شاغرًا في قلبي، وأحكمت عليه، وشعرت تجاهها بشيء لم أشعر به قَطُّ تجاه أي إنسان سواها. لقد كان نوعًا من المودة ممزوجًا بالفكاهة أيضًا، فماذا أصنع إذا ماتت، لا يمكنني التفكير في الأمر، أو كيف سأتصرف في المأساة التي ستحل عليَّ حينها؟

ظهرت الآنسة مردستون في الصباح كعادتها، وأخبرتني أنني سأذهب إلى المدرسة. لم يكن هذا الخبر جديدًا بالكامل على مسامعي كما كان من المفترض أن يكون. كنت أرتدي ملابسي، فأخبرتني أيضًا أن عليَّ النزول إلى غرفة الطعام في الطابق السفلي، لأتناول وجبة إفطاري. وجدت أمي هناك، تجلس شاحبة للغاية وقد احمرت عيناها. ركضت نحو ذراعيها، وطلبت منها العفو من أعماق روحي المعذبة.

قالت: «آهٍ، ديفي، كيف استطعت أن تؤذي إنسانًا أحبه؟! حاوِل أن تصير أفضل، صلِّ داعيًا أن تكون أفضل. إنني أسامحك، لكنني حزينة للغاية يا ديفي، على مثل هذه المشاعر السيئة التي تكمن في قلبك».

لقد أقنعوها بأنني غلام شرير، إلى الحد الذي جعلني أشعر أنها حزينة من هذا الأمر أكثر من حزنها على رحيلي. حاولت أن أتناول فطور الفراق، لكن دموعي سقطت على الخبز والزبدة، وتقطرت في فنجان الشاي. رأيت أمي تتلفت نحوي أحيانًا، ثم تلقي نظرة إلى الآنسة مردستون المتربصة، ثم تنظر إلى الأسفل أو تشيح ببصرها بعيدًا.

سمعت صوت عجلات العربة عند البوابة، وصوت الآنسة مردستون تقول: «ضع صندوق السيد كوبرفيلد هنا».

رحت أبحث عن بيجوتي، لكنني لم أجدها؛ لم تظهر هي ولا السيد مردستون. كان الحوذي الذي عرفته فيما سبق واقفًا بالباب، وقد حمل الصندوق إلى عربته وثبته بها.

قالت الآنسة مردستون بنبرة تحذيرية: «كلارا!».

أجابتها أمي قائلة: «إنه جاهز يا عزيزتي جين. وداعًا يا ديفي. إنك ذاهب إلى مصلحتك. وداعًا يا طفلي. ستعود إلى المنزل في الإجازات، وستصير ولدًا صالحًا».

كررت الآنسة مردستون قولها: «كلارا!».

ردت أمي وهي تحتجزني: «بالتأكيد، يا عزيزتي. إنني أسامحك يا ولدي الغالي. حفظك الله».

كررت الآنسة مردستون قائلة: «كلارا!».

كانت الآنسة مردستون طيبة بما يكفي لتصحبني إلى العربة، بينما تقول لي في الطريق إنها تأمل أن أتوب، قبل أن أهوي إلى نهاية سيئة، ثم صعدت إلى العربة، وسار الحصان الكسول مبتعدًا.



الفصل الخامس

بعيدًا عن البيت

ما إن قطعنا مسافة نصف ميل تقريبًا، حتى صار منديلي بعدها مبتلًّا تمامًا. أوقف الحوذي العربة، فرحت أتلفت لأتأكد مما أبصرته وأدهشني، فقد هرعت بيجوتي نحونا وصعدت إلى العربة. أخذتني بين ذراعيها، وضغطتني بين أحضانها حتى آلمني أنفي للغاية من شدة الضغط، على الرغم من أنني لم أفكر في أمر هذا الألم إلا فيما بعد، حينما اكتشفت أن أنفي حساس للغاية. لم تتفوه بيجوتي بكلمة واحدة. أطلقت إحدى ذراعيها، ودسته في جيبها حتى مرفقها، ثم أخرجت أكياسًا ورقية مملوءة بالكعك، فوضعته في جيبي، وأخرجت محفظة ووضعتها في يدي، لكنها لم تقل كلمة واحدة. نزلت من العربة بعد عناق آخر وضغط أخير بكلتا ذراعيها حولي، ثم هربت. أحسب أن ثوبها لم يبقَ فيه ولو زر وحيد. التقطت زرًّا من بين العديد من الأزرار التي تدحرجت حولي، واحتفظت به كتذكار عزيز إلى الأبد.

نظر لي الحوذي، كما لو كان يستفسر عما إذا كانت ستعود أم لا. أومأت برأسي وقلت إنني لا أظن أنها ستعود. قال الحوذي للحصان الكسول: «هيا انطلق». وقد نفذ الأمر.

بكيت في هذه الأوقات أشد البكاء، ثم بدأت التفكير في أن البكاء لم يعد مجديًا، خاصة وأن رودريك راندوم، وقائد البحرية البريطانية الملكية، لم يبكيا قَطُّ، وهذا ما يمكنني تذكره، في مواقفهما العصيبة. لاحظ الحوذي القرار الذي اعتزمته بالكف عن البكاء، فاقترح أن أنشر منديلي على ظهر الحصان حتى يجف. شكرته ووافقت على ذلك، وقد بدا منديلي صغيرًا بصورة مميزة في ظل هذه الظروف.

صار لديَّ وقت فراغ كافٍ في هذه اللحظة لأفحص المحفظة. لقد كانت حقيبة جلدية صلبة، بها ثلاثة شلنات لامعة، وكان من الواضح أن بيجوتي قد صقلتها بمُلمِّع أبيض، لأبتهج بها أكثر. أما أثمن ما حوته المحفظة فكان نصفَي كروان مطويان معًا داخل قطعة من ورق، كتب عليهما بخط أمي: «من أجل ديفي. مع حبي». لقد غلبني هذا الأمر لدرجة أنني طلبت من الحوذي أن يتعطف عليَّ بطيبته ويناولني منديلي مرة أخرى، لكنه قال إنه يظن أنه من الأفضل الاستغناء عنه، وأحسب أنني فعلت ذلك حقًّا، لذلك مسحت عيني في كمي ومنعت نفسي عن البكاء.

كان الكف عن البكاء لمصلحتي، إلا أنني على الرغم من إدراكي للأمر لم تلبث مشاعري السالفة تراودني بين حين وآخر، ولم أزل أتألم في نوبة بكاء عاصفة. سرنا لبعض الوقت، فإذا بي أسأل الحوذي عما إذا كان سيمضي على طول الطريق.

استفسر الحوذي عن مقصدي: «على طول الطريق إلى أين؟».

قلت: «هناك».

تساءل الحوذي: «أين هناك؟».

قلت: «بالقرب من لندن».

قال الحوذي وهو يهز اللجام مشيرًا إلى حصانه: «إن هذا الحصان سيصير أثقل من لحم خنزير سمين قبل أن نصل إلى نصف المسافة».

سألته: «هل ستذهب إلى يارموث فقط؟».

قال الحوذي: «هذا كل ما أستطيع. وهناك سآخذك إلى حوذي العربة المستطيلة، والذي سينقلك بعربته إلى... أينما تريد».

مضى الأمر على مضض نظرًا لأن الحوذي (الذي يدعى السيد باركس) اجتهد ليتحدث هذا الحديث؛ إنه كما لاحظت في فصل سابق، من أصحاب المزاج البلغمي[1]، وليس متحدثًا على الإطلاق - قدمت له كعكة دليلًا على تقديري له، وقد ازدردها مرة واحدة تمامًا مثل فيل، من دون أن يبدي أي انطباع على وجهه الكبير، بل أقل مما قد يبدو على وجه الفيل.

تحدث السيد باركس وهو يميل بجسده إلى الأمام بتراخٍ كعادته، وقد أسند ذراعيه على ركبتيه، فأخذ يقول: «هل طهوتها لتوِّها؟».

«هل تقصد بيجوتي يا سيدي؟».

قال السيد باركس: «آه! أقصدها».

«نعم، إنها تخبز كل معجناتنا، وتقوم بكل أعمال الطبخ لنا».

(١) يقصد أنه لا يحب إجراء المحادثات، ويجد صعوبة في الكلام.

قال السيد باركس: «حقًّا، تفعل؟». لوى فمه كأنه يُصفر، لكنه لم يُصفر. جلس ينظر إلى أذني الحصان وكأنه رأى شيئًا جديدًا هناك، وظل على هذه الحال لفترة طويلة. ثم قال:

«ليس لها أحباء، أليس كذلك؟».

«هل قلت حلواء يا سيد باركس؟».

لقد ظننت أنه يريد شيئًا آخر ليأكله، وربما ألمح بهذا الوصف بينما يقصد الحلوى.

قال السيد باركس: «قلوب عاشقة. قلوب حلوة، ألا يحبها أحد ويتقابل معها؟!».

«مع بيجوتي؟».

قال: «آه، معها».

«آهٍ، لا. لم يكن لديها حبيب قَطُّ».

قال السيد باركس: «أليس كذلك!».

لوى فمه مرة أخرى للصفير، من دون أن يصفر، بل جلس ينظر إلى أذني الحصان.

قال السيد باركس، بعد فترة طويلة من التفكير: «إنها تصنع كل قطع حلوى التفاح، وتطبخ كل شيء، أليس كذلك؟».

أجبته أن هذا حقًّا ما تفعله.

قال السيد باركس: «حسنًا، سأخبرك بأمر. ربما ستراسلها وتكتب لها؟».

فقلت: «سأكتب لها بالتأكيد».

قال وهو يدير عينيه في بطء نحوي: «آه، حسنًا، إذا كتبت لها، فلتذكر لها أن باركس راغب؛ هل بامكانك كتابة هذا لها؟».

كررت في براءة قوله: «إن باركس راغب. هل هذه هي كل الرسالة؟».

قال بعد تروٍّ وتفكير: «نعم، باركس راغب».

راودتني فكرة وجودي بعيدًا عنها في ذلك الوقت، فتلعثمت قليلًا ورحت أقول: «لكنك ستعود غدًا إلى بلندرستون مرة أخرى يا سيد باركس، ويمكن أن تبلغ رسالتك الخاصة بصورة أفضل مني بكثير».

لكنه رفض هذا الاقتراح بهزة من رأسه، وأكد طلبه السابق مرة أخرى قائلًا بجدية بالغة: «باركس راغب. هذه هي الرسالة». وعدته بالفعل بنقل رسالته. رحت أنتظر الحافلة في فندق في يارموث بعد ظهر ذلك اليوم. اشتريت ورقة ومحبرة، وكتبت رسالة صغيرة إلى بيجوتي، والتي كان نصها: «عزيزتي بيجوتي. لقد وصلت إلى هنا بأمان. إن باركس راغب. خالص حبي لماما. تفضلوا بقبول فائق الاحترام. ملاحظة. يقول إنه يريدك تحديدًا أن تعرفي أن باركس راغب».

أخذت على عاتقي تنفيذ هذه المهمة فيما بعد. عاد السيد باركس إلى صمته التام، وكنت قد شعرت بالإرهاق الشديد بسبب كل ما حدث مؤخرًا، فاستلقيت على حاوية في العربة ونمت. رحت في نوم هادئ حتى وصلنا إلى يارموث. بدت جديدة تمامًا وغريبة عني بينما نتجه نحو ساحة النزل الذي وصلنا إليه، لدرجة أنني تخليت في الحال عن أمل

كامن في قلبي، من أنني قد أقابل بعض أفراد عائلة السيد بيجوتي هناك، وربما كنت لأصادف إيميلي الصغيرة نفسها.

كانت العربة تقف في الفناء، يلمع كل جزء فيها غاية اللمعان. كانت من دون خيول تتقدمها حتى هذه اللحظة. كان من المستحيل أن تبدو العربة في هذه الحالة قادرة على السفر إلى لندن. كنت أفكر في هذا الأمر، وأتساءل كذلك عن مصير صندوقي، بعد أن وضعه السيد باركس على رصيف الفناء بجانب العمود - لقد قاد السيد باركس العربة حتى نهاية الفناء ليستدير بها - وأتساءل أيضًا عن مصيري في النهاية. التفت ساعتها إلى سيدة تطل من نافذة وقد برزت منها بعض الطيور وعناقيد من لحم معلقة، وما لبثت أن قالت:

«هل هذا هو الرجل المحترم الصغير من بلندرستون؟».

أجبت: «نعم يا سيدتي».

سألت السيدة: «ما اسمك؟».

قلت: «كوبرفيلد يا سيدتي».

ردت السيدة: «هذا الاسم لن يكفي لإثبات الأمر. لم يدفع أحد ثمن الغداء هنا لشخص بهذا الاسم».

قلت: «هل الاسم المدون هو مردستون يا سيدتي؟».

قالت السيدة: «إذا كنت تعرف أنه باسم السيد مردستون، فلماذا تعطي اسمًا آخر من البداية؟».

شرحت للسيدة حقيقة الأمر، ومن ثَم قرعت جرسًا، ثم صرخت قائلة: «يا ويليام، اصطحب الضيف إلى غرفة القهوة»، لبى النادل النداء، وظهر قادمًا من المطبخ على الجانب الآخر من الفناء ليريني الغرفة، وبدا أنه مندهش جدًّا عندما عرضها عليَّ بمفردي.

كانت الغرفة كبيرة وطويلة، تحوي بعض خرائط كبيرة. أشك في أنني كنت سأشعر بغرابة أكبر لو كانت هذه الخرائط دولًا حقيقية، وقد ألقيت وسطها. أحسست أنني في غاية الجرأة، إذ جلست على زاوية الكرسي القريب من الباب، حاملًا القبعة في يدي. بسط النادل أمامي مفرشًا فوق المائدة، ووضع مجموعة من الحاويات عليها، وأحسب أن لوني تحول إلى الأحمر من شدة الخجل.

أحضر لي بعض قطع اللحم والخضراوات، وراح يرفع الأغطية عن الطعام بطريقة مفاجئة، للحد الذي جعلني أخشى أن أكون قد أسأت إليه بصورة ما. لكنه خفف شرودي كثيرًا بعد أن وضع لي كرسيًّا عند المنضدة، وقال بحنان شديد: «الآن، هيا يا من يزيد طوله على ستة أقدام!».

شكرته وجلست على مقعدي المخصص. لكنني وجدت صعوبة بالغة في التعامل مع السكين والشوكة ببراعة، ولم أستطع تجنب إغراق نفسي بالمرق، بينما كان يقف في الجهة المقابلة يحدق إليَّ بشدة، مما جعلني أحمرُّ خجلًا إلى أقصى حد في كل مرة لفتُّ انتباهه. رمقني بينما أتناول قطعة اللحم الثانية، وأخذ يقول:

«ثمة نصف لتر من البيرة لك. هل ستحصل عليه الآن؟».

شكرته وقلت: «نعم». سكبها من إبريق في كأس كبيرة، ورفعها أمام الضوء، فبدت لي جميلة.

قال: «ما أحلاها! تبدو رائقة وكميتها كبيرة، أليس كذلك؟».

أجبت بابتسامة: «تبدو الكمية كبيرة». لقد سرَّني أن وجدته لطيفًا جدًّا معي. كان رجلًا متلألئ العينين، تملأ البثور وجهه، وينتصب شعره على مقدمة رأسه. وقف وقد ثنى إحدى ذراعيه، ورفع الزجاج باليد الأخرى نحو الضوء، وقد بدا ودودًا للغاية.

تحدث قائلًا: «كان عندنا رجل نبيل هنا بالأمس؛ رجل شجاع، يدعى توبساوير - ألا تعرفه؟».

أجبت: «لا، لا أظن أنني أعرفه».

قال النادل: «ارتدى بنطالًا قصيرًا وحذاءً خاصًّا، مع قبعة عريضة الحواف، ومعطفًا رماديًّا، وقلادة منقطة».

أجبت على استحياء: «لا، لم أتشرف بمعرفته من قبل».

قال النادل بينما ينظر إلى الضوء من خلال الكأس: «لقد جاء إلى هنا، وطلب كأسًا من هذه البيرة - كان قد طلبها لتوِّه ونصحته ألا يحتسيها - لكنه شربها، ثم سقط ميتًا. كانت معتقة جدًّا وثقيلة فلم يتحملها. لم يكن عليه شربها... هذه هي الحقيقة».

لقد صُدمت كثيرًا وهالني سماع هذا الحادث الكئيب، وقلت إنني أظن أنه من الأفضل أن أحصل على بعض الماء بدلًا من شرب البيرة.

قال النادل بينما لم يزل ناظرًا إلى الضوء من خلال الكأس، وقد أغمض إحدى عينيه: «كما ترى، إن أصحاب الفندق لا يحبون أن تجهز

الأشياء ثم تترك كما هي. إن هذا الأمر يسيء إليهم، لكنني سأشرب البيرة بدلًا عنك، إذا أردت. لقد اعتدت شربها، والاعتياد هو أصل كل شيء. لا أظن أنها ستؤذيني، إذا أطحت برأسي إلى الخلف وتجرعتها بسرعة. فهل يمكنني أن أشربها؟».

أجبته أنني سأكون ممتنًّا إذا شربها، ما دام أنه يستطيع فعل ذلك بأمان من دون أن تؤثر عليه بأي حال من الأحوال. أشاح برأسه إلى الوراء، وتجرعها بسرعة. أعترف أن خوفًا شديدًا قد تملكني، فربما يقابل مصير السيد توبساوير المنكوب، ومن ثَم سيسقط ميتًا على السجادة. لكن ذلك لم يؤذِه، بل على العكس، أحسب أن وجهه قد بدا أكثر نضارة.

قال: «ماذا لدينا هنا؟»، ثم وضع شوكة في طبقي. وأكمل قائلًا: «أليست هذه قطعًا من اللحم؟».

قلت: «بلى، إنها قطع من اللحم».

صاح قائلًا: «ليغفر الله لي! لم أكن أعرف أنها قطع اللحم. إن اللحم هو الشيء الذي يزيل الآثار السيئة لتلك الجعة! ألستُ محظوظًا؟».

تناول قطعة من اللحم وأمسك عظمها في يده، وأخذ شرائح البطاطس باليد الأخرى، وأكلها بشهية ونهم، في مشهد أسعدني للغاية. تناول بعد ذلك قطعة بطاطس أخرى، وتبعها بقطعة ثانية فثالثة. انتهينا، ثم أحضر لي حلوى، ووضعها أمامي. إلا أنه بدا كما لو أنه يتأرجح، ويغيب عن الانتباه لبعض اللحظات.

قال منتبهًا بعد ذلك: «كيف حال الفطيرة؟».

أجبت: «إنها حلوى».

صاح قائلًا: «حلوى! صحيح، يا الله؛ حقًّا إنها كذلك! ماذا!».

نظر إليها عن قرب ثم قال: «هل تقصد أن تقول إنها حلوى «البودينج»؟!».

قلت: «نعم، إنها هي بالفعل».

تناول مقدار ملعقة منها، وأخذ يقول: «ما هذا؟ إنها حلوى البودينج، إنها حلواي المفضلة! ألستُ محظوظًا؟ هيا أيها الرجل الصغير، فلنرَ من منا سيحصل على المقدار الأكبر منها».

بالتأكيد حصل النادل على معظم الحلوى. لقد ناشدني أكثر من مرة لمحاولة التقدم عليه والفوز، ولكن ما فائدة التشجيع أمام حجم ملعقة المائدة التي أكل بها بالمقارنة بملعقة الشاي التي استخدمتها. وكيف أقارن أكله السريع بأكلي المتباطئ، وشهيته المفتوحة بشهيتي. خسرت جولتي أمامه منذ الملعقة الأولى، فلم تسنح لي فرصة الفوز أمامه. أحسب أنني لم أرَ أي إنسان يستمتع بأكل الحلوى بهذا القدر؛ وما لبث أن ضحك بعدما انتهت، كما لو أن استمتاعه بها لم يزل مستمرًّا.

وجدته ودودًا للغاية ورفيقًا بي، فطلبت منه قلمًا وحبرًا وورقًا لأكتب إلى بيجوتي. لم يحضرها على الفور فحسب، بل كان طيبًا جدًّا للحد الذي جعله يشرف عليَّ في أثناء كتابتي للرسالة. ما إن انتهيت من كتابتها، حتى سألني عن المدرسة التي سأذهب إليها.

قلت: «بالقرب من لندن». كان ذلك كل ما أعرفه.

بدا أنه منكسر ومتعاطف، وقد قال: «يااااه! يا للأسف! كم يؤسفني سماع ذلك».

سألته: «لماذا؟».

قال وهو يهز رأسه: «آهٍ، يا رب! هذه هي المدرسة التي كسروا فيها ضلوع الصبي - ضلعين - كان طفلًا صغيرًا. دعني أقول إنه كان في سن - دعني أتذكر - كم عمرك، بالتقريب؟».

أخبرته أنني بين الثامنة والتاسعة من العمر.

قال: «كان هذا هو عمره بالضبط. كان عمره ثماني سنوات وستة أشهر عندما كسروا ضلعه الأول، ثم ثماني سنوات وثمانية أشهر عندما كسروا الثاني، ومن ثَم قضوا عليه».

لم أستطع أن أخفي عن نفسي أو عن النادل أن هذه صدفة مزعجة، واستفسرت كيف وقع هذا الأمر. لم تكن إجابته تروق لي، لأنها لم تتكون إلا من كلمتين كئيبتين، هما: «من الضرب».

سمعت نفخ بوق في الفناء وكان بمثابة تحول لحالي، فقد دفعني إلى النهوض. كنت في حال من التردد واختلطت مشاعري بين الكبرياء والخوف بينما أخرج المحفظة التي أحوذها من جيبي، وأسأل عما إذا كان ثمة شيء لأدفعه.

أجاب: «إنها ورقة من ورق الرسائل. هل اشتريت من قبل ورقة من ورق البريد؟».

لم أستطع تذكر ما إذا كنت فعلت الأمر قبل ذلك أم لا.

قال: «إنه غالٍ، بسبب الجمارك. ثمن الورقة ثلاثة بنسات. هذه هي الطريقة التي يتم بها فرض الضرائب علينا في هذا البلد. لم يتبقَّ شيء من دون ضرائب سوى النادل. لا تهتم بثمن الحبر، فسأترك لك ثمنه».

تلعثمت خجلًا، وقلت: «ماذا يجب أن - ما الذي يجب أن أفعله - كم أدفع - ما الذي يجب أن أدفعه للنادل، إذا سمحت؟».

قال النادل: «لولا أنني رب عائلة، وهذه العائلة مصابة بداء الجدري، لما أخذت منك البنسات الستة. لولا أنني أعول أمًّا مسنة، وأختًا جميلة - هنا صار النادل مضطربًا للغاية - لن آخذ الكثير. إذا كنت أعيش في مكان جيد، وعاملوني هنا بصورة لائقة، لكنت قد توسلت إليك لقبول هذا الشيء البسيط مني، بدلًا من أخذ ثمنه. إلا أنني أعيش على الفتات، وأنام على فحم مكسور». وهنا انفجر النادل في البكاء.

صرت مهمومًا راثيًا لحاله الصعبة، وشعرت أن إعطاءه أقل من تسعة بنسات سيكون نوعًا من الوحشية وقسوة القلب. من ثَم أعطيته واحدًا من شلناتي الثلاثة اللامعة، فتناولها بتواضع جم وتبجيل عظيم، ولفها وأطبق عليها إبهامه بعد ذلك مباشرة، ليتأكد من أنها ليست مزيفة.

صرت في دهشة من أمري؛ بعدما اكتشفت بينما أتلقى المساعدة للجلوس خلف سائق المركبة، أن أناس الفندق ظنوا أني تناولت الغداء كامله من دون أي مساعدة من أحد. اكتشفت الأمر، بعد سماع السيدة التي تطل من النافذة وهي تقول للحارس: «اعتنِ بهذا الطفل يا جورج، وإلا فسوف ينفجر من كثرة الأكل». لاحظت أن الخادمات اللواتي كن في المكان خرجن لإلقاء نظرة عليَّ وضحكن على هذه الظاهرة

الفريدة. أما صديقي النادل الكئيب، فقد استعاد معنوياته تمامًا، ولم يبدُ أنه منزعج من هذا الأمر، بل انضم بنظراته إلى هذه الدهشة العامة من دون أن يبدو عليه أي نوع من الارتباك على الإطلاق. لم أشعر بأدنى شك تجاهه، إلا أنني أحسب أن تصرفه هذا أثار ظنوني، لكنني أميل إلى الاعتقاد – بثقة طفل ساذج، واعتماده الفطري في سنواته الأولى على غيره (وهي صفات أشعر بالأسف الشديد على أن أجد طفلًا لا يتحلى بها ويفتقدها قبل الأوان من أجل حكمة دنيوية تبعد براءته)، أنه ليس هناك ما يجعل الشك يخامرني في أمره كله، حتى هذه اللحظة.

شعرت بقسوة بالغة، يجب أن أعترف بذلك، فقد جعلوني محلًّا للسخرية من دون أن أستحق ذلك. سخر مني سائق المركبة والحارس، فقد أخذ السائق يشير إلى العربة التي صارت تتأرجح بشدة بعد جلوسي، وأن توازنها قد اختل بوجودي، بل كان من الأفضل لي السفر في عربة نقل البضائع. راحت قصة شهيتي المفترضة تسري بين الركاب في الخارج، وأخذوا يتضاحكون عليها أيضًا، وسألوني عما إذا كنت سأحصل في المدرسة على نصيب أخوين أو ثلاثة إخوة، وما إذا كنت متعاقدًا مع المدرسة بشكل استثنائي، أم أتبع الشروط العادية، بالإضافة إلى أسئلة أخرى مضحكة. كان أسوأ ما في الأمر هو أنني صرت خجلًا من تناول أي شيء، ولم أفعل ذلك حتى عندما أتيحت لي الفرصة. سأغدو بعد هذا الغداء الخفيف إلى حد ما، جائعًا طوال الليل، خاصة بعد أن تركت كعكاتي ورائي في الفندق، لأنني كنت في عجلة من أمري. تحققت مخاوفي. عندما توقفنا لتناول العشاء لم أستطع التجرؤ

على تناول أي منه، على الرغم من أنني كنت لأقدم عليه جدًّا، لكنني بدلًا من ذلك جلست بجانب النار وقلت إنني لا أريد شيئًا. لم ينقذني ما فعلته من مزيد من النكات أيضًا. ظل رجل ذو صوت أجش ووجه متجهم، يأكل من صندوق الشطائر طوال الطريق تقريبًا، ولا يكف عنه إلا عندما يشرب من الزجاجة. راح الرجل يقول إنني مثل الحية، تأكل ما يكفيها في وجبة واحدة وتبقى عليه لفترة طويلة. جلب الرجل لنفسه بعدها نوعًا من الطفح الجلدي من جراء إكثاره من تناول لحم البقر المسلوق.

كنا قد بدأنا المسير من يارموث في الساعة الثالثة بعد الظهر، وكان من المقرر أن نصل إلى لندن في نحو الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي. كنا في منتصف فصل الصيف، وكان المساء لطيفًا للغاية. مررنا بقرية، فشرد ذهني متخيلًا هيئتها من الداخل وكيف تبدو منازلها، وما حال سكانها. ظهر بعض الغلمان يركضون خلف العربة، وراحوا يتأرجحون على مؤخرتها قليلًا. تساءلت عما إذا كان آباؤهم على قيد الحياة، وهل هم سعداء في منازلهم؟ كان لديَّ الكثير لأفكر فيه، إلى جانب التفكير الدائم الذي يجول بخاطري عن طبيعة المكان الذي كنت في طريقي إليه - وقد كانت خواطري موحشة. أتذكر أنني استسلمت أحيانًا لذكريات الوطن وبيجوتي، وسعيت بطريقة مشوشة لأتذكر حقيقة مشاعري تجاههما، وأي نوع من الصبية كنته قبل أن أعض السيد مردستون، وهو فعل لم أستطع أن أرضى عنه بأي وسيلة، فلم يكن ثمة شيء يشي بهذه الفعلة في مثل هذه الأوقات القديمة البعيدة.

لم يكن الليل لطيفًا جدًّا مثلما كانت فترة المساء، فقد كان باردًا عليلًا. جلست بين سيدين؛ أحدهما الرجل الخشن ورجل آخر. وقد جلست بينهما لمنع سقوطي من العربة. كنت على وشك النوم بينهما، لكن نومهما الثقيل منعني من النعاس تمامًا. كانا يضغطان عليَّ بشدة في بعض الأحيان، لدرجة أنني لم أستطع منع نفسي من الصراخ قائلًا: «آهٍ! إذا سمحتما!». لم يعجبهما صراخي على الإطلاق، لأنه أيقظهما. كانت أمامي سيدة مسنة ترتدي عباءة كبيرة من الفرو، بدت في الظلام أشبه بكومة قش لا سيدة، لكثرة الألحفة التي التفت بها. احتفظت هذه السيدة بسلة، ولم تكن تعرف ماذا تفعل بها لفترة طويلة، حتى اكتشفت أن ساقي قصيرة، ومن ثَم يمكنها أن تدسها تحتي. كانت السلة تزعجني وتؤلم ساقي لدرجة أنني صرت في غاية البؤس. كنت إذا تحركت ولو بصورة هينة، أو صدر صوت من اصطدام كوب في السلة بشيء آخر (الأمر الذي كان له أن يحدث بلا شك)، راحت السيدة تلكزني بقدمها لكزات قاسية، وأخذت تقول: «صه، لا تتحرك بهذه الطريقة. إن عظامك لم تزل صغيرة جدًّا، إنني متأكدة!».

أشرقت الشمس أخيرًا، وبدا أن رفاقي قد استساغوا النوم واستسلموا له. لا يمكن تصور الصعوبات التي عانوا منها تحت وطأة الليل، فقد أطلقوا أفظع الشهقات وأعلى أصوات الشخير. أصبح نومهم أخف وطأة مع طلوع الشمس، وبالتالي استيقظوا واحدًا تلو الآخر. أتذكر أنني كنت في غاية الدهشة من التظاهر الخادع من الجميع، إذ إنهم تظاهروا بعدم النوم على الإطلاق، وصدوا جميعًا تهمة النوم بسخط غير مألوف. لم أزل تحت وطأة الدهشة نفسها منذ ذاك اليوم حتى يومنا هذا، بعد

أن لاحظت أنه من بين جميع نقاط الضعف البشرية، فإن هذا النوع من الاعتراف بطبيعتنا المشتركة، هو أقل ما نسعى للاعتراف به - لا أستطيع أن أتعرف على الأسباب - ألا وهو ضعف الاستسلام للنوم في عربة.

أبصرت لندن عن بُعد. كم بدت رائعة خلابة، وقد حسبت أن جميع مغامرات أبطالي المفضلين كلهم قد تجسدت أمامي وأعادوا تمثيلها طوال الوقت. لا داعي لأن أتوقف هنا لأصف كيف خيلت إليَّ لندن مليئة بالعجائب والمكر دونًا عن مدن الأرض بأسرها. اقتربنا منها خطوة وراء خطوة حتى وصلنا في الوقت المناسب، إلى النزل حيث وجهتنا في منطقة وايت تشابل. لقد نسيت اسم الفندق ربما كان الثور الأزرق أو الخنزير الأزرق، لكنني أعلم أنه كان يدعى شيئًا أزرق، وقد رُسمت صورته على ظهر العربة.

لمعت عين الحارس واستقرت نحوي بينما يسير، وراح يقول عند باب مكتب الحجز:

«هل هناك أي شخص هنا من بلدة بلندرستون بإقليم سافوك، ينتظر طفلًا يُدعى مردستون؟ سنتركه هنا حتى يستدعيه أحد».

لم يجب أحد.

رحت أنظر بلا حول ولا قوة قائلًا: «جرِّب اسم كوبرفيلد، إذا سمحت يا سيدي».

قال الحارس: «هل هناك أي شخص هنا من بلدة بلندرستون بإقليم سافوك، ينتظر طفلًا يدعى مردستون، لكنه ينادى باسم كوبرفيلد؟ هيا! هل من أحد بانتظاره؟»).

لا، لم يظهر أحد. نظرت حولي في قلق. لم يترك السؤال أي انطباع عند المارة، إلا عند رجل أعور، يرتدي جُرموقًا، قال إنه من الأفضل وضع طوق نحاسي حول رقبتي، وربطي في الإسطبل.

أحضروا سلمًا، ونزلت عليه وراء السيدة التي كانت مثل كومة قش، ولم أجرؤ على التحرك إلا بعد أن أزاحت سلتها. صارت الحافلة بحلول ذلك الوقت خالية من الركاب، وسرعان ما أخرجت منها الأمتعة، وفُكَّت الخيول قبل الأمتعة، ثم نقلت الحافلة نفسها في هذه اللحظة وأزاحها بعض المضيفين بعيدًا عن الطريق. لم يظهر أحد على الرغم من مرور هذا الوقت ليسأل عن شاب من بلدة بلندرستون بإقليم سافوك.

ذهبت إلى مكتب حجز التذاكر في شعور بالوحدة يفوق وحدة روبنسون كروزو الذي لم يلتفت إليه أحد في عزلته وانفراده. لبيت دعوة من الموظف المناوب، فمررت خلف المنضدة، وجلست على الميزان الذي يزن الأمتعة. كنت جالسًا أنظر إلى الطرود والحزم والكتب، وأستنشق رائحة الإسطبلات، وقد ظلت رائحتها عالقة بذهني منذ ذلك الحين تذكرني بصباح ذلك اليوم. أخذت سلسلة من الهواجس الهائلة تسري في ذهني، فافترضت أنه لن يأتي أحد ليصطحبني، وتساءلت إلى متى سيوافقون على إبقائي على هذه الحال؟ هل سيبقوني حتى أنفق سبعة شلنات؟ هل يجب أن أنام ليلًا في أحد الصناديق الخشبية مع باقي الأمتعة؟ هل سأغتسل من صنبور مضخة الفناء في الصباح؟ أم سأطرد من المكان كل ليلة، ثم أعود مرة أخرى لأُترك حتى يتم استدعائي، حين يفتح

المكتب في اليوم التالي؟ لنفترض أن ما حدث لي ليس خطأ، وأن السيد مردستون ابتكر هذه الخطة للتخلص مني، فماذا أفعل؟ إذا سمحوا لي بالبقاء هناك حتى أنفق الشلنات السبعة، فلن أتمنى أن أظل في المكان ذاته عندما أتضور جوعًا. سأصير متعبًا وبائسًا ولن تسر العملاء رؤيتي على هذه الحال، إلى جانب أنهم لن يستطيعوا تحمل نفقات جنازتي مهما كان الأمر. إذا انطلقت في الحال، وحاولت العودة إلى المنزل، فكيف أستطيع أن أهتدي إلى طريقي نحوه؟ كيف يمكنني أن أستمر في المسير، وكيف أتأكد من أنني لن أقابل أي إنسان سوى بيجوتي، إن وصلت إلى البيت؟ لنفترض أنني وصلت إلى أقرب سلطة مختصة، وعرضت عليها التطوع لأصير جنديًا أو بحارًا، فإنني لم أزل غضًا صغيرًا ومن المرجح أنهم لن يقبلوني بينهم. جعلتني مثل هذه الأفكار، ومئات من الأفكار الأخرى على شاكلتها، أشعر بالحرارة الشديدة، وزادت من إحساسي بالخوف والفزع. صرت في ذروة الحمى عندما دخل رجل وهمس إلى الموظف، فما لبث أن أزاحني بعيدًا عن الميزان، ودفعني إلى الرجل، كما لو كان قد وزن شيئًا، وابتاعه، فسلمني بعد أن قبض الثمن.

خرجت من المكتب، جنبًا إلى جنب مع هذا الشخص الجديد. ألقيت نظرة عليه، فإذا به شاب هزيل شاحب، نحيف مجوف الوجنتين، لديه ذقن سوداء تشبه لون شعيرات السيد مردستون، ولكن يختلف الشبه فيما سوى ذلك، لأن هذا الرجل يحلق سوالف ذقنه، أما شعره فكان خشنًا بلون الصدأ، بدلًا من أن يكون لامعًا. كان يرتدي بذلة سوداء وخشنة وبلون الصدأ أيضًا، قصيرة الأكمام والأرجل. ارتدى

ربطة عنق بيضاء متسخة. لم أفترض ولن أفترض حتى هذه اللحظة؛ أن ربطة عنقه تلك كانت كل ما يرتديه من الكتان، لكنها كانت كل ما ظهر منه، أو أعطت تلميحًا عن حالة ملابسه الكتانية التي يرتديها تحت بذلته.

سأل قائلًا: «هل أنت الولد الجديد؟».

أجبت: «نعم يا سيدي».

ظننت أنني الولد الجديد على الرغم من أنني لم أكن متيقنًا من الأمر.

قال: «إنني أحد أساتذة مدرسة سالم هاوس».

انحنيت له احترامًا وبجلته للغاية. شعرت بخجل شديد من أن أُذكره بشيء بديهي أفتقده مثل صندوقي، فهو معلم وأستاذ في سالم هاوس. كنت خجلًا إلى الحد الذي جعلنا نبتعد قليلًا عن الفناء قبل أن أستطيع التلميح بالأمر. عدنا أدراجنا، وشعور يتسلل إليَّ على استحياء بأنه قد يصير مفيدًا لي فيما بعد. وقد ذهب فأخبر الموظف أن الحمَّال لديه تعليمات للتواصل معه ظهرًا لأخذ الصندوق.

تحدثت بعد أن سرنا مسافة مساوية لما أنجزناه من قبل تقريبًا، قائلًا: «إذا سمحت يا سيدي؛ هل المكان بعيد؟».

قال: «إنه قريب من بلاكهيث».

سألته متململًا: «هل هذا المكان بعيد يا سيدي؟».

قال: «إنه على بُعد خطوات. سنصل إلى المكان بعربة. إنها تبعد نحو ستة أميال».

كنت ضعيفًا ومتعبًا للحد الذي كانت معه فكرة الصمود لمسافة ستة أميال أخرى أمرًا شاقًّا لا يحتمل بالنسبة لي. تشجعت لأخبره أنني لم أتناول أي شيء طوال الليل، وأنني سأكون في غاية الامتنان لو أنه سمح لي بشراء شيء لآكله. بدا متفاجئًا من قولي - أذكر حتى هذه اللحظة وقفته ونظراته نحوي- وبعد تفكير لبضع لحظات، قال إنه يريد التحدث لشخص مسن يعيش في مكان قريب من هنا، وإن أفضل شيء لي هو شراء خبز، أو أي شيء أحب تناوله. وإنه من الأفضل لو تناولت إفطاري في منزل العجوز، حيث يمكننا الحصول منها على بعض الحليب.

توجهنا إلى دكان الخباز وفقًا لهذا الاتفاق، وبعد أن قدمت سلسلة من المقترحات لشراء كل المخبوزات الدسمة من المحل، راح يرفضها واحدة تلو الأخرى، ثم قررنا شراء رغيف صغير لطيف من الخبز البني كلفني ثلاثة بنسات. اشترينا من متجر بقالة بعد ذلك بيضة وشريحة من لحم الخنزير المقدد المخطط الذي ترك لي من باقي ثمنه مبلغًا لا بأس به من أصل الشلن الرابع اللامع، مما جعلني أعتبر لندن مكانًا رخيصًا للغاية. وضعت هذه الأطعمة في لفافة، ثم مررنا بضجة كبيرة أربكت رأسي المرهق بما يفوق الوصف. مررنا بعدها بجسر كان بلا شك هو جسر لندن (في الواقع أتصور أنه أخبرني بذلك، لكنني كنت شبه نائم)، حتى وصلنا إلى بيت العجوز المسكينة، والذي كان جزءًا من بعض بيوت الصدقات، فقد عرفته من مظهره، ومن نقش على حجر عند البوابة يقول إنها أقيمت لخمس وعشرين امرأة فقيرة.

رفع معلم سالم هاوس مزلاج أحد الأبواب السوداء الصغيرة، والتي كانت جميعها متشابهة، وكانت لكل منها نافذة زجاجية صغيرة على جانب واحد، ونافذة صغيرة أخرى من الزجاج تعلو هذه المنازل. كنا قد توجهنا إلى منزل صغير لإحدى هؤلاء العجائز المسنات، ووجدناها تشعل نارًا لتغلي فوقها قدرًا صغيرًا. ما إن أبصرت المرأة العجوز هذا السيد يدخل، حتى توقفت عن منفاخها القابع فوق ركبتها، وقالت شيئًا أظن أنه يشبه: «شارلي الصغير!». ما إن أبصرتني قادمًا أيضًا معه، حتى قامت وفركت يديها وبدا عليها الارتباك وانحنت نصف انحناءة.

قال معلم سالم هاوس: «هل يمكنكِ تحضير فطور لهذا الشاب، إذا سمحتِ؟».

قالت المرأة العجوز: «هل يمكنني ذلك؟ نعم يمكنني بالتأكيد».

نظر المعلم نحو امرأة عجوز أخرى تجلس فوق كرسي كبير بجوار المدفأة، والتي بدت مثل حزمة من الملابس؛ وإنني لأشعر بالامتنان حتى هذه الساعة لأنني لم أخطئ فأجلس عليها. راح السيد يقول: «كيف حال السيدة فيبتسون اليوم؟».

أجابت المرأة العجوز الأولى: «آه، إنها مسكينة. إن اليوم لهو أحد أيامها السيئة. لو انطفأت النيران في أي حادث طارئ، أحسب حقًّا أنها ستنطفئ هي أيضًا، ولن تعود للحياة مرة أخرى».

ظلا ينظران نحوها، فنظرت إليها أنا أيضًا. بدا أنها لم تفكر في شيء سوى النار على الرغم من أنه كان يومًا دافئًا. تخيلت أنها كانت تغار من القدر الموضوع فوق النيران، بل أحسب أنها تضايقت من سلق

بيضتي وشواء لحم الخنزير المقدد الذي اشتريته، لأنني رأيت عينيها المنزعجتين، وقد هزت قبضتها في وجهي مرة، بينما كانت عملية الطهي هذه مستمرة، ولم يكن أحد آخر ينظر نحوها. كانت الشمس تتدفق من النافذة الصغيرة، لكنها جلست وقد حجبت بظهرها وظهر الكرسي الكبير ضوءها. كانت تحجب النار كما لو كانت تحافظ على دفئها من الهرب، بدلًا من أن تبقيها الشمس دافئة، وتراقبها في طريقة مريبة للغاية. ما إن تمت كل الاستعدادات لتناول إفطاري، ورُفع من فوق النار، حتى انتابتها فرحة عارمة لدرجة أنها ضحكت بصوت عالٍ - ولا بد لي من أن أشير إلى أن ضحكتها كانت مزعجة وغير لائقة.

جلستُ أمام رغيفي البني وبيضتي، وطبق لحم الخنزير المقدد مع وعاء من الحليب بجانبه، وأقدمت على تناول وجبتي اللذيذة. كنت أستمتع بها كاملة، وإذا بسيدة المنزل العجوز تقول للسيد:

«هل معك الناي؟».

أجاب: «نعم».

قالت المرأة العجوز بتنغيم: «اعزف عليه لنا. أسمعنا!».

استجاب السيد لهذه الدعوة، فدس يده داخل طيات معطفه، وأخرج نايًا مكونًا من ثلاث قطع وربطها معًا، وبدأ على الفور بالعزف. أما انطباعي، والذي ظل نفسه بعد سنوات عديدة من التفكير، أنه لا يمكن أن يعزف أي شخص في العالم بشكل أكثر كآبة منه. لقد أصدر أكثر الأصوات حزنًا، فلم أسمع على الإطلاق ما يضاهيها بأي وسيلة طبيعية أو اصطناعية. لا أعرف مسمى الألحان - وإذا كانت ثمة نغمات تشبه

هذا الأداء بأي صورة على وجه العموم، وأنا أشك في أن يشابهه شيء - أما تأثيرها عليَّ فكان موجعًا منذ البداية. جعلتني هذه الألحان أفكر في كل أحزاني، حتى إنني لم أستطع أن أمنع دموعي من الانهمار، وانطفأت شهيتي عن تناول الطعام. جعلتني في النهاية أشعر بالنعاس لدرجة أنني لم أستطع إبقاء عيني مفتوحتين، بل راحتا تنغلقان مرة أخرى، وبدأ رأسي ينزلق، وقد غلبني النوم. جالت الذكريات في خاطري كلما تفكرتُ في تلك اللحظة، فأتذكر الغرفة الصغيرة ذاتها، والخزانة المفتوحة القابعة في ركن من أركانها، وكراسيها ذات الظهر المربع، وسلمها الصغير في الزاوية المؤدي إلى غرفة في طابق علوي، وريشات الطاووس الثلاث المعلقة فوق رف الموقد؛ وأتذكر أنني تساءلت عندما دخلت لأول مرة، عن حال ذاك الطاووس لو عرف ما وصلت إليه ريشاته التي زينت مظهره الأنيق. راحت كل المظاهر تتلاشى من أمامي، وأطرقت برأسي، ورحت في النوم. تلاشى صوت الناي، وقد حلت على مسامعي أصوات عجلات العربة بدلًا منه، بينما أسير في رحلتي، تهتز العربة، فأستيقظ وأعود لما كنت عليه سابقًا، وتعود أصوات الناي مرة أخرى، بينما يجلس المعلم في سالم هاوس وساقاه متقاطعتان، يعزف في هدوء، بينما تبدو المرأة العجوز في المنزل سعيدة. تتلاشى المرأة بدورها من جديد، ويتلاشى كل شيء، فلا ناي، ولا معلم، ولا سالم هاوس، ولا ديفيد كوبرفيلد، ولا شيء سوى نوم ثقيل.

أظن أنني حلمت أن المرأة العجوز التي في المنزل راحت تقترب من المعلم في إحدى المرات أكثر فأكثر، وقد كان ينفخ في هذا الناي

الحزين، حتى انحنت على ظهر كرسيه مبدية نوعًا من الإعجاب والنشوة، فعانقته من رقبته عناقًا حنونًا حتى توقف عزفه للحظة. كنت في حالة بين النوم واليقظة، إما في هذه اللحظة أو بعدها مباشرة، لأنه عندما استأنف عزفه - كانت حقيقة أنه توقف عن العزف - رأيت وسمعت المرأة العجوز نفسها تسأل السيدة فيبتسون: «أليست رائعة؟» (تقصد أنغام الناي)، فأجابت السيدة فيبتسون قائلة: «بلى، بلى، بلى!» وأومأت برأسها مطرقة نحو النار، وإني أظن أنها ترجع الفضل في هذا الأداء الرائع بكامله إلى النار ذاتها.

بدا لي أني غفوت لفترة طويلة، فقام المعلم في سالم هاوس بفك الناي إلى قطعه الثلاث، ووضعها كما كانت من قبل، وأخذني بعيدًا. وجدنا عربة قريبة جدًّا منا، فصعدنا إلى متنها. كاد النعاس أن يرديني قتيلًا إلى الحد الذي جعلهم يحملوني نحو الداخل حين توقفنا على الطريق لاصطحاب راكب آخر. كانت الحافلة غير مزدحمة بالركاب، فرحت في نوم عميق، حتى شعرت بها تسير فوق تل شديد الانحدار وسط أفرع الأشجار. توقفت بعد وقت، وقد وصلت إلى وجهتها.

مشينا في نزهة قصيرة - أقصد أنا والمعلم - حتى وصلنا إلى مدرسة سالم هاوس، التي كانت محاطة بجدار مرتفع من الطوب، وقد بدت باهتة للغاية. تعلو باب هذا الجدار لوحة كتب عليها «سالم هاوس». نظر شخص إلينا عبر شبكة في هذا الباب، بعدما قرعنا الجرس. استقبلنا عندما انفتح الباب رجل ذو ملامح خشنة، قوي البنية برقبة ثور، ورجل خشبية، بصدغين متدليين، وقد قص شعر رأسه عن كامله.

قال المعلم: «إنه الولد الجديد».

رمقني الرجل ذو الساق الخشبية وأحاطني بنظراته - لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا، لأن جسمي لم يكن كبير الحجم - ثم أغلق البوابة خلفنا، وأخرج منها المفتاح. مشينا بين بعض الأشجار الكثيفة الداكنة، وكنا في طريقنا للصعود، فإذا بصوت الرجل ينادي رفيقي المعلم قائلًا: «مرحبًا!».

نظرنا إلى الوراء، فإذا به يقف عند بوابة كوخ صغير حيث يعيش، بينما يحمل زوجًا من الأحذية بين يديه.

قال: «انتبه! جاء الإسكافي بعد أن خرجت يا سيد ميل، وهو يقول إنه لا يستطيع إصلاحهما بعد الآن. يقول إنه لم يتبقَّ شيء من الحذاء الأصلي، ويتساءل لماذا تطلب إصلاحهما؟».

ألقى الحذاء تجاه السيد ميل بعد هذه الكلمات، وقد تراجع المعلم بضع خطوات لالتقاطهما، ونظر إليهما بقلق شديد جعلني أشعر بالخوف، بينما أكملنا طريقنا معًا. لاحظت بعد ذلك ولأول مرة، أن الأحذية التي يرتديها كانت سيئة جدًّا، وأن جوربه كاد ينفجر من مكان ما مثل برعم خرج من زهرته.

كانت سالم هاوس مبنى مربعًا من طوب ذي أجنحة تحمل مظهرًا مكشوفًا يخلو من الأثاث. بدا كل شيء بها هادئًا جدًّا، حتى إنني قلت للسيد ميل إنني ظننت أن الأولاد قد انصرفوا، لكنه بدا متفاجئًا لجهلي أنه وقت الإجازة السنوية. عاد جميع الأولاد إلى منازلهم. أما مالك المدرسة السيد كلارك فيقضي إجازته على البحر مع زوجته وابنته، وأنا

أُرسلت في وقت الإجازة كعقوبة على سوء تصرفاتي، وقد أوضح لي الأمر كله في أثناء سيرنا.

حدقت في قاعة الدرس التي أخذني إليها، وقد رأيت أنها أكثر الأماكن بؤسًا وقفرًا على الإطلاق. لم أزل أذكر تفاصيلها حتى هذه اللحظة. إنها غرفة طويلة بها ثلاثة صفوف طويلة من المكاتب، مقسمة إلى ستة فصول، وكلها مليئة بحوامل القبعات والسبورات. تتناثر على الأرض المتسخة قصاصات من كتب قديمة وأوراق عمل. تتبعثر في أرجائها وفوق المكاتب بعض بيوت دود القز مصنوعة من المواد نفسها. ترك شخص ما وراءه فأرين صغيرين أبيضين، راحا يركضان جيئة وذهابًا في قلعة قذرة مصنوعة من الألواح والأسلاك؛ يبحثان في جميع الزوايا بأعين حمراء عن أي شيء يأكلانه. أبصرت طائرًا في قفص أكبر منه بقليل، يصدر حشرجة حزينة بين الحين والآخر، قافزًا فوق غصن بارتفاع بوصتين، أو هابطًا منه من دون أن يغني أو يغرد كالطيور. انبعثت رائحة غريبة كريهة من الغرفة، تبدو كرائحة سروال قصير متعفن، أو تفاح عطن لافتقار الهواء، وكتب فاحت منها رائحة عطنة. لو كان المبنى بلا سقف منذ بنائه الأول، أو لو كانت السماء تمطر وتتساقط الثلوج أو تنضح حبرًا متطايرًا خلال مواسم السنة المختلفة، لما كان المبنى متسخًا بالأحبار إلى هذا الحد الذي لم أعهده من قبل.

تركني السيد ميل بينما أخذ حذاءه الذي لا يمكن إصلاحه إلى الطابق العلوي. سرت بهدوء إلى طرف بعيد من الغرفة، ملاحظًا كل هذا بينما كنت أتسلل في أرجائها. عثرت فجأة على لافتة مكتوب عليها

بخط جميل على لوح لاصق. كانت ملقاة على المكتب، وقد كتبت عليها هذه الكلمات: «احترس منه. إنه يعض».

صعدت فوق المكتب في الحال، خوفًا من أن يكون تحته كلب ضخم. رحت أتلفت حولي بعينين قلقتين، إلا أنني لم أرَ شيئًا ولم ألحظ وجوده. كنت ما زلت منخرطًا في التحديق، حتى عاد السيد ميل، وسألني ماذا أفعل هناك؟

قلت له: «أستميحك عذرًا يا سيدي، إذا تفضلت، فإنني أبحث عن الكلب».

سأل: «كلب؟ أي كلب؟».

«أليس كلبًا يا سيدي؟».

«ما الشيء الذي تسأل إن كان كلبًا أم لا؟».

«يجب علينا الحذر يا سيدي من هذا الشيء الذي يعض».

أجاب بجدية قائلًا: «لا، يا كوبرفيلد. إنه ليس كلبًا. إنه ولد. إن التعليمات يا كوبرفيلد تقول أن تضع هذه اللافتة على ظهرك. يؤسفني أن أبدأ بهذا معك، لكن يجب أن أنفذ بالأمر». أنزلني وربط اللافتة التي تم إنشاؤها بدقة لهذا الغرض، على كتفي مثل حقيبة الظهر، وكنت أينما ذهبت بعد ذلك، أحملها وأدرك وجودها.

لا يستطيع إنسان أن يتخيل الألم الذي عانيته من جراء هذه اللافتة. رحت دومًا أتخيل أن إنسانًا ما كان يقرأها؛ سواء كان من الممكن أن يراني الناس أم لا. لم يكن الالتفاف وعدم العثور على أحد يراقبني

يخفف عني هذا الألم. صرت أتخيل إنسانًا يتأملني دومًا أينما أوليت ظهري. لقد فاقم ذاك الرجل القاسي ذو الساق الخشبية معاناتي، إذ كان صاحب سلطة في المدرسة. أما إذا رآني متكئًا على شجرة أو جدار أو مبنى، فإذا به يخرج من باب مسكنه صارخًا بصوت جهور: «أهلًا يا سيدي، أنت كوبرفيلد! أظهر تلك اللافتة بشكل واضح، وإلا سأبلغ عنك». كان الملعب ساحة خالية مفروشة بالحصى، مفتوحًا على جزء خلفي من المبنى والمكاتب، وعلمت أن الخدم قد قرأوا لافتتي وقرأها كذلك الجزار والخباز. خلاصة القول أن جميع من ذهبوا أو جاءوا ومروا بالمبنى، وأينما مررت في أي صباح وسرت عبر الفناء، قد قرأوا أنه يجب الاحتراس مني. أذكر أنني تأثرت وانتابني شعور بالخوف الحقيقي من نفسي لأنني نوع من الصبية المتوحشين الذين يعضون.

كان في هذا الفناء باب قديم، وكان من عادة الأولاد نحت أسمائهم عليه، حتى صار مغطى بالكامل بهذه النقوش. كنت أخشى نهاية الإجازة وعودتهم، لم أقرأ اسمًا من أسماء الصبية المنقوشة، من دون أن أتساءل عن النغمة التي سيقرأ بها جملة اللافتة: «احترس منه. إنه يعض». كان ثمة ولد - يُدعى ج. ستيرفورث - نقش اسمه وحفره بعمق بالغ، فإذا بي أتخيله يقرأ بصوت قوي إلى حد ما، ثم يشد شعري بعد ذلك. كان ثمة اسم لفتى آخر يدعى تومي ترادلز، وقد خشيت أن يلعب باللافتة، ويتظاهر بأنه في شدة الخوف والفزع مني. أما الاسم الثالث فكان جورج ديمبل، وقد تخيلت أنه سيغني ما كُتب على اللافتة. رحت أنظر إلى هذا الباب كمخلوق يتقلص أمامه خوفًا، إلى أن حضر أصحاب

هذه الأسماء جميعهم - كانوا خمسة وأربعين طالبًا في المدرسة آنذاك كما أخبرني السيد ميل. اتفقوا جميعًا فيما بينهم على أن يقاطعوني، وقد أخذ كل منهم يصرخ على طريقته، قائلًا: «احترس منه. إنه يعض».

لقد قاطعني كل شيء، فكان الأمر نفسه مع المكاتب والأدوات. كان الأمر نفسه مع فراش الأسرة المهجورة التي أتطلع إليها وأنا في طريقي إلى السرير أو في عزلتي فوقه. أذكر أنني كنت أحلم ليلة بعد ليلة، بأنني مع أمي كسابق عهدنا، أو أنني ذاهب إلى حفلة في منزل السيد بيجوتي، أو أنني سأسافر تنتظرني العربة، أو أنني أتناول الطعام مرة أخرى مع صديقي النادل النهم. كنت في كل هذه الأحلام أجد أناسًا يصرخون ويحدقون، وقد كشف حظي التعس أنني لم أرتدِ شيئًا سوى قميصي الليلي الصغير ولم تزل ترافقني تلك اللافتة.

صار كل شيء في حياتي رتيبًا، وفي ظل تخوفي المستمر من إعادة فتح المدرسة، بات مثل هذا البلاء لا يُطاق! كنت أؤدي واجبات كثيرة كل يوم مع السيد ميل، لكنني أديتها جميعها، إذ لم يكن ثمة السيد مردستون والآنسة أخته هنا، وقد أديتها وتخطيتها من دون وصمة عار. رحت أتجول أحيانًا قبل العمل في الواجبات أو بعدها، تحت إشراف الرجل ذي الساق الخشبية الذي سلف ذكره. لم أزل أذكر بوضوح رطوبة المبنى، والأحجار المكسوة بالعشب الأخضر المتشققة في الفناء، وبرميل الماء القديم الذي يتسرب منه ماؤه، وجذوع بعض الأشجار القاتمة، التي يبدو أنها تقطر متدلية في المطر أكثر من غيرها، بينما تصبح أقل تأهبًا تحت أشعة الشمس! تناولنا الغداء في إحدى

المرات، أنا والسيد ميل، في طرف بعيد عن غرفة طعام طويلة مكشوفة، مليئة بالطاولات الخالية من المقاعد، تفوح منها رائحة الدهون. ما لبثنا أن عكفنا على مزيد من الواجبات حتى يحين وقت احتساء الشاي، الذي شربه السيد ميل في فنجان أزرق، بينما شربته في وعاء من الصفيح. راح السيد ميل طوال اليوم، وحتى الساعة السابعة أو الثامنة مساءً، يعمل بجد في مكتبه المنفصل في حجرة الدراسة ممسكًا بقلمه والمحبرة والمسطرة والكتب وورق الكتابة، وقد أعد - كما فهمت - قوائم رسوم النصف الثاني من الدراسة حتى آخر العام. كان كلما أنهى أعماله، أخرج نايه، وأخذ ينفخ فيه طوال الليل، حتى ظننت أنه سيلفظ كل أنفاسه تدريجيًّا في الثقب الكبير أعلى الناي، إلى أن تخرج روحه من المفاتيح.

أتخيل جسدي الصغير تحويه غرفة ذات إضاءة خافتة، جالسًا مسندًا رأسي فوق يدي، أستمع إلى النغمات مكتظة الأنفاس من السيد ميل، بينما أستذكر دروس الغد. أتذكر نفسي مصطحبًا كتبي الصامتة، بينما لم أزل مصغيًا إلى الأداء المسلي للسيد ميل، متذكرًا من خلاله أصواتًا كانت تدوي في منزلي، ومستمتعًا بصوت هبوب الرياح على بيوت يارموث، بينما أشعر بحزن بالغ ووحدة مفزعة. أتمثلني آويًا إلى الفراش بين الغرف غير الفارغة، بينما أجلس منزويًا إلى جانب سريري، أبكي راجيًا كلمة حانية من بيجوتي. أتذكر نفسي هابطًا إلى الطابق السفلي في الصباح، بينما أتطلع من خلال كسر مروِّع طويل في نافذة الدرج، ناظرًا إلى جرس المدرسة المعلق على الجزء العلوي من مبنى خارجي يعلوه

عمود. يختلجني خوف من الوقت الذي سيصل فيه ج. ستيرفورث وباقي الأولاد لبداية الدراسة، وقد كان هذا الجزء الأخير من مخاوفي منذرًا بالخطر. كانت أقصى مخاوفي هو الوقت الذي سيفتح فيه الرجل ذو الساق الخشبية البوابة الصدئة؛ سامحًا بدخول السيد كريكل. لا أستطيع أن أحسب أنني كنت شخصية في غاية الخطورة بأي صورة من الصور، لكني صرت أحمل التحذير نفسه ووصمته على ظهري.

لم يتحدث السيد ميل إليَّ كثيرًا، لكنه لم يكن قاسيًا معي قَطُّ. أفترض أننا كنا صحبة يؤنس كل منا الآخر من دون حديث. نسيت أن أذكر أنه كان يتحدث إلى نفسه أحيانًا، ويبتسم، ويقبض يده، أو يطحن أسنانه، أو ينتف شعره بطريقة غير مألوفة. كان يملك هذه الخصائص الغريبة، وقد أخافتني في البداية، لكني سرعان ما اعتدت عليها.



الفصل السادس

أزيد من دائرة معارفي

عشت على هذا المنوال لشهر تقريبًا، حتى بدأ الرجل ذو الساق الخشبية يتجول بممسحة ودلو به ماء. استنتجت من أفعاله أن الاستعدادات تجري لاستقبال السيد كريكل والتلاميذ. لم أكن مخطئًا، لأن الممسحة وصلت إلى حجرة الدراسة أخيرًا وبعد فترة طويلة، فخرجت أنا والسيد ميل، بعد أن كنا نتجول أينما أردنا، وكنا نعيش على النحو الذي نريده لعدة أيام. صرنا خلال هذه الأيام نقابل في الطريق شابتين أو ثلاث شابات، كن نادرًا ما يظهرن أمامنا قبل ذلك، وكن دائمًا ينظفن وسط غبار غزير لدرجة أنني عطست مرات عديدة كما لو كانت سالم هاوس عبارة عن صندوق سعوط[١] هائل.

أبلغني السيد ميل ذات يوم أن السيد كريكل سيعود إلى المبنى هذا المساء. سمعت أنه جاء بعد أن شربت الشاي هذه الليلة. اصطحبني الرجل ذو الساق الخشبية قبل موعد النوم للمثول أمامه.

---

(١) مسحوق يتم استنشاقه يحث على العطس، وقد استُخدم لأغراض علاجية قديمًا.

كان الجزء المخصص من المبنى للسيد كريكل أكثر راحة من الجزء المخصص لنا. كانت لديه حديقة دافئة تبدو ممتعة، بعد الملعب المغبر بالتراب كأنه صحراء صغيرة الحجم، لدرجة أنني لم أفكر أنه لا يمكن أن يناسب أحدًا أو يشعر فيه بالارتياح سوى جمل أو ناقة عربية. بدا لي أنني أتجرأ بالحملقة في الردهة المريحة، بينما كنت أسير في طريقي مرتعشًا، نحو ملاقاة السيد كريكل. انتابتني حيرة شديدة بعد أن دخلت إليه، لدرجة أنني لم أنتبه إلى وجود السيدة كريكل أو الآنسة كريكل، على الرغم من أنهما كانتا حاضرتين في الصالون، لم أنتبه إلى وجود أي شيء سوى السيد كريكل. بدا رجلًا نبيلًا يحمل مجموعة من سلاسل الساعات المكتظة بالأختام. يجلس على كرسي كبير بذراعين، وبجانبه كوب وزجاجة.

قال السيد كريكل: «إذن! هذا هو الشاب النبيل الذي ستبرد أسنانه! أدر ظهره».

أدارني الرجل ذو الأرجل الخشبية ليعرض اللافتة التي أحملها، وبعد أن أتاح له الوقت رؤية محتواها كاملًا، أدارني مرة أخرى، ووجهني إلى السيد كريكل، وتوجه إلى جانبه. كان وجه السيد كريكل محمرًّا كالنار، وعيناه صغيرتان وغائرتان في رأسه، تلوح عروق غليظة في جبهته، وأنفه صغير، وذقنه كبيرة. كانت مقدمة رأسه صلعاء، إلا من بعض الشعر الرقيق المبلل يتخلله اللون الرمادي، وقد مشطه وأرسله لأعلى من صدغيه إلى جبينه حتى التقى طرفاه. كان أكثر ما أثار إعجابي أنه بدا لي بلا صوت، فقد كان يتحدث همسًا، وقد بذل جهدًا ليتحدث

بصوت خافت، مما جعل وجهه الغاضب يبدو أكثر غضبًا، وعروقه السميكة تبدو أكثر غلظة كلما أقدم على الحديث. إنني لست متفاجئًا من سيطرة هذه التفاصيل الرئيسة على رأسي كلما عدت بذاكرتي إلى الوراء. قال السيد كريكل: «الآن. ماذا عن تقرير هذا الصبي؟».

رد الرجل ذو الساق الخشبية: «لا يوجد شيء ضده بعد. لم تسنح له فرصة».

أحسب أن السيد كريكل قد أُصيب بخيبة أمل. أظن أن السيدة كريكل والآنسة كريكل لم تشعرا بخيبة أمل، إذ ألقيت نظرة خاطفة عليهما في هذه اللحظة للمرة الأولى، وقد كانتا نحيفتين وهادئتين على حد سواء.

قال السيد كريكل، مشيرًا إليَّ: «تعالَ إلى هنا يا سيد».

قال الرجل ذو الساق الخشبية مكررًا الكلام في إيماءة: «تعالَ إلى هنا».

همس السيد كريكل وقد جذبني من أذني قائلًا: «يسعدني أنني أعرف زوج أمك. إنه رجل محترم ذو شخصية قوية. إنه يعرفني وأنا أعرفه حق المعرفة. فهل تعرفني أنت؟». كان حديث السيد كريكل مقرونًا بقرص لأذني في صورة دعابة شرسة.

أجبته بينما أرتعش من الألم: «لم أعرفك بعد يا سيدي».

كرر السيد كريكل قولي: «لم تعرفني بعد؟ يااا، لكنك ستعرفني قريبًا يا هذا».

كرر الرجل ذو الساق الخشبية الحديث قائلًا: «إنك قريبًا سوف تعرف يا هذا».

أدركت بعد ذلك أنه يعمل بشكل عام بصوته العالي كمترجم للسيد كريكل أمام الأولاد.

صرت خائفًا جدًّا، فقلت إنني أتمنى أن أعرفه لو كان الأمر يرضيه، بينما استمر شعوري بحرقة أذني طوال هذا الوقت كما لو أنها مشتعلة، لأن قرصته كانت قوية.

همس السيد كريكل، بعد أن ترك أذني أخيرًا، وقد اغرورقت عيناي بالدموع: «سأخبرك من أنا. إنني تتري».

ردد الرجل ذو الساق الخشبية: «تتري».

قال السيد كريكل: «حين أقول إني سأفعل شيئًا ما، فإني أفعله. وعندما أقول إنني سأقوم بشيء ما، فإنني أقوم به».

كرر الرجل ذو الساق الخشبية: «... سأفعل شيئًا، فأفعله».

قال السيد كريكل: «إنني شخصية حازمة. هذه طبيعتي الآن. إنني أؤدي واجبي، وهذا ما أقوم به. إذا رأيت لحمي ودمي - نظر إلى السيدة كريكل بينما يقول هذا الكلام - يعصيان قولي، لا يعودان لحمي ودمي، بل أنبذهما». راح يكمل حديثه إلى الرجل ذي الساق الخشبية قائلًا: «هل عاد إلى هنا مرة أخرى؟».

كان جواب الرجل: «لا».

قال السيد كريكل: «لا. إنه يعرف طبيعة عمله. إنه يعرفني. دعه يبتعد».

راح السيد كريكل يتحدث بينما يضرب بيده فوق الطاولة وينظر إلى السيدة كريكل، قائلًا: «دعه يبتعد، لأنه يعرفني. لقد بدأت أيضًا تعرفني الآن يا صديقي الصغير، هيا فلتذهب. انصرف بعيدًا».

صرت سعيدًا جدًّا بعد أن أمرني بالانصراف، لأن السيدة كريكل والآنسة كريكل كانتا تمسحان أعينهما من أثر الدموع، وقد شعرت برثاء لهما ولحالي. دار في خاطري شيء أثار قلقي إلى حد ما، ولم أستطع كبح جماح نفسي عن قوله، لكنني على الرغم من قلقي رحت أقول بشجاعة:

«إذا سمحت يا سيدي».

همس السيد كريكل قائلًا: «ها! ما هذا؟»، ثم ثبَّت عينيه نحوي، كما لو أنه يود أن يحرقني بنظراته.

تلعثمت قائلًا: «إذا سمحت يا سيدي. إذا كنت تسمح لي، فإنني آسف جدًّا يا سيدي، لما فعلته، وأطلب إلغاء هذه اللافتة قبل عودة الأولاد».

لا أعرف هل كان السيد كريكل جادًّا، أم أنه قد سلك مسلكه هذا فقط لإخافتي. لقد هبَّ من مقعده، ومن ثَم تراجعت على عجل من الخوف. لم أنتظر مرافقة الرجل ذي الساق الخشبية، واندفعت منطلقًا من دون أن أتوقف ولو لمرة واحدة، حتى وصلت إلى غرفة نومي. أدركت أن أحدًا لا يلاحقني، فأويت إلى الفراش، فقد حان وقت النوم، واستلقيت مرتجفًا لبضع ساعات.

عاد السيد شارب في صباح اليوم التالي. كان السيد شارب المعلم الأول والذي يرأس السيد ميل. كان السيد ميل يؤدي مهمات عمله مع الأولاد، أما السيد شارب فكان يتناول الغداء ثم العشاء على طاولة السيد كريكل. لقد كان رجلًا ضعيف البنية، رقيق المظهر، كما أنني أحسب أن له أنفًا كبيرًا، وطريقة خاصة يلوي بها رأسه على جانب واحد، كأنه ثقيل جدًّا يصعب حمله. كان شعره ناعمًا ومموجًا للغاية. أبلغني أول الصبية العائدين أن شعر السيد شارب كان مستعارًا، وأن السيد شارب يصلح بعد ظهر كل سبت تجعيداته.

كان تومي ترادلز هو مَن نبهني إلى هذه الملاحظة الفطنة. لقد كان أول الصبية العائدين. قدم نفسه إليَّ فأخبرني أنني سأجد اسمه في الزاوية اليمنى للبوابة، فوق القفل العلوي، فقلت له: «ترادلز؟»، فأجاب: «نعم، بالفعل»، ثم طلب مني سردًا كاملًا عن نفسي وعائلتي.

لقد كان من دواعي سروري أن عاد ترادلز أولًا. لقد ألقى نكاته المثيرة على لافتتي، مما أنقذني من الإحراج والارتباك بين الإفصاح والإخفاء. تولى تقديمي إلى كل صبي جديد عائد إلى الدراسة فور وصوله، كبيرًا كان أم صغيرًا. راح ترادلز يقدمني بهذا الشكل: «انظر هنا! يا لها من لعبة!». عاد جزء كبير من الأولاد بروح منخفضة، ومن حسن حظي أنهم لم يتندروا على حسابي كما توقعت. راح بعضهم بالطبع يتراقص حولي مثل هنود شرسة، أما الجزء الأكبر فلم يستطع مقاومة إغراء التظاهر بأنني كلب، فأخذوا يربتون عليَّ لتهدئتي حتى لا أعض، وراحوا يقولون: «استلقِ يا سيدي!»، كما راحوا يدعونني

باسم الكلب تاوزر. كان من الطبيعي أن تصير هذه التصرفات محفزة لارتباكي أمام العديد من الغرباء، وقد كلفتني بعض الدموع، لكن الأمر بشكل عام كان أفضل بكثير مما توقعت.

مضت كل هذه الأحداث من دون أن يتم استقبالي رسميًّا في المدرسة، حتى وصل ج. ستيرفورث. اشتهر هذا الصبي بكونه على علم عظيم، وكان مظهره جميلًا للغاية، وكان يكبرني بستة عشر عامًا على الأقل. قدموني إليه بعد أن حُمِلت كما لو أنني أساق إلى قاضٍ للتحقيق. سألني، تحت سقيفة في الملعب، عن تفاصيل عقابي، ثم تكرم وأبدى رأيه عن الأمر قائلًا: «إنه عقاب شنيع»، ثم صرت مرتبطًا به بعد ذلك الحين.

كان يتمشى معي بعد أن تكرم عليَّ بهذا الرأى فقال: «كم من المال معك يا كوبرفيلد؟». أخبرته أنه سبعة شلنات.

قال: «إنه من الأفضل أن تعطيني إياها لأحافظ عليها. إذا أردت بنفسك. أما إذا كنت لا تحتاج إلى هذا فكما تحب».

سارعت إلى الامتثال لاقتراحه الودي، وفتحت محفظة بيجوتي، وقلبتها رأسًا على عقب في يده.

سألني: «هل تريد أن تنفق أي شيء الآن؟».

أجبته: «لا، شكرًا».

قال ستيرفورث: «يمكنك، إذا أردت، كما تعلم فقط قل إنك تريدها».

كررت إجابتي: «لا، شكرًا لك يا سيدي».

قال ستيرفورث: «ربما ترغب في إنفاق بضعة شلنات أو نحو ذلك، فتشتري زجاجة من النبيذ اليوم أو غدًا وتأخذها إلى غرفة النوم. إنك من أعضاء غرفة نومي، على حد معرفتي».

بالتأكيد لم يخطر ببالي الأمر من قبل، لكنني قلت: نعم، أحب ذلك.

قال ستيرفورث: «جيد جدًّا. سيكون من دواعي سروري أن تنفق ما يقارب شلنًا آخر، في شراء كعك اللوز، هل أجرؤ على هذا الاقتراح؟».

قلت: «نعم، أود ذلك أيضًا».

قال ستيرفورث: «وشلن آخر أو نحو ذلك لشراء البسكويت، وآخر للفاكهة، ما رأيك؟ أقول لك أيها الشاب كوبرفيلد إنك ستشتري كل هذا!».

ابتسمت لأنه ابتسم، لكنني أيضًا كنت مضطربًا ومشوشًا بعض الشيء.

قال ستيرفورث: «حسنًا! يجب أن نبقي على هذه النقود لأطول فترة ممكنة؛ هذا كل ما تملك. سأبذل قصارى جهدي من أجلك. إنني أستطيع الخروج وقتما رغبت، وسأهرب ما اتفقنا عليه».

وضع المال في جيبه بعد أن أتم هذه الكلمات، وطلب مني ألا أشعر بالقلق، لأنه سوف يحرص على أن تسير الأمور على ما يرام. أوفى بوعده، إذا كان ما قاله هو أحسن حالًا، لأنني شعرت بشك خفي من أن

كل الأمور خاطئة تقريبًا. كنت أخشى أن تكون مضيعة لنصف الكروان الذي منحته أمي لي، إلا أنني احتفظت بقطعة الورق التي غلفت الأموال إذ كانت مدخرًا ثمينًا بالنسبة لي. صعدنا إلى الطابق العلوي لننام، أخرج ستيرفورث كل ما اشتراه بالشلنات السبعة كاملة، ووضعها فوق سريري في ضوء القمر، قائلًا:

«ها أنت ذا أيها الشاب كوبرفيلد. إنك تحوز طعامًا ملكيًّا».

لم أستطع أن أتخيل أنني سأجهز على هذه الوليمة بمفردي في مثل هذه السن الصغيرة. وقف بجانبي ينتظر، بينما راحت يداي ترتعشان من جراء التفكير في الأمر. توسلت إليه أن يتفضل بقبول الإشراف على الأمر، وقد أيد الأولاد الآخرون الذين كانوا في هذه الغرفة رأيي، ثم وافق على الأمر. جلس على وسادتي، وراح يوزع الأنصبة من الطعام - عليَّ أن أقول إنه كان في غاية الإنصاف - وأخذ يوزع النبيذ في كأسه الصغيرة التي كانت بلا قاعدة. أما أنا فقد جلست بجانب يده اليسرى، والتف الباقي حولنا مجتمعين على أقرب الأسِرَّة وعلى الأرض.

أتذكر جلوسنا هناك، وكيف كنا نتحدث في همسات. لا بد أن أقول إنني لم أزل أتذكر كلامهم، وإنصاتي لهم باحترام. كان القليل من ضوء القمر يتخلل الغرفة عبر النافذة، فيرسم خيالًا لنافذة شاحبة على الأرض. يبقى الجزء الأكبر منا في الظل، إلا عندما يغمس ستيرفورث عود ثقاب في صندوق فوسفور، كلما أراد البحث عن أي شيء على السبورة، فإذا به يلقي وهجًا أزرق فوقنا، ما يلبث أن ينطفئ مباشرة! يا له من شعور غامض وخفي، ينتابني حين أتذكر جلوسنا في الظلام

وتهامسنا الذي قيل فيه كل شيء. تأسرني الذكريات حين أتذكر أنني أصغيت إلى كل ما أخبروني به بوقار ورهبة، وقد سرني أنهم جميعًا صاروا قريبين مني جدًّا، وقد راودني الذعر (على الرغم من أنني تظاهرت بالضحك) عندما تظاهر ترادلز أنه رأى شبحًا في الزاوية.

سمعت كل شيء عن المدرسة وعرفت كل ما يتعلق بها. سمعت أن السيد كريكل لم يفضل وصف نفسه بأنه من التتار من دون سبب، بل لأنه كان أشد المعلمين قسوة وأشدهم حزمًا على الأولاد، فقد راح في كل يوم من أيام حياته، يندفع بين الأولاد، فيضربهم يمينًا ويسارًا كما لو أنه جندي يهشهم بلا رحمة. إنه لا يعلم شيئًا سوى فن الضرب، فقد كان أكثر جهلًا من أدنى فتى في المدرسة (على حد تعبير ج. ستيرفورث). كان يعمل منذ سنوات عديدة، تاجرًا لحشيشة الدينار[1] في «بورو»، ثم اتجه للعمل في مجال التعليم بعد إفلاسه في تجارته، واستولى على أموال السيدة كريكل. قيل الكثير من الأخبار على غرار هذا النوع، ورحت أتساءل كيف عرفوا كل هذه الأشياء.

سمعت أن الرجل ذا الساق الخشبية، الذي يدعى تانجاي، كان بربريًّا عنيدًا ساعد قبل ذلك في العمل بتجارة حشيشة الدينار، لكنه دخل عملًا في مجال التعليم مع السيد كريكل بعد خسارته. شاع بين الأولاد أن ساقه كسرت في خدمة السيد كريكل، بعد أن أدى عملًا

---

(١) عشبة الدينار أو حشيشة الدينار، وتُعرف أيضًا باسمها الإنجليزي هوب أو هووبس، هي الزهور لجنجل شائع. يتم استخدامها بشكل أساسي كعامل مرير، منكه، ومثبت في الجعة، والتي، بالإضافة إلى المرارة، تعطي نكهات ورائحة الأزهار والحمضيات للبيرة. تستخدم أيضًا لأغراض مختلفة في المشروبات الأخرى والأدوية العشبية.

مشبوهًا من أجله، وقد أذيعت أسراره. سمعت أنه باستثناء العمل مع السيد كريكل، فإن تانجاي يعتبر المؤسسة بأكملها بمن فيها من معلمين وتلاميذ، أعداءً له، وأن البهجة الوحيدة في حياته هي أن يصير مؤذيًا لهم وحاقدًا عليهم. سمعت أن السيد كريكل كان لديه ابن لم يكن صديقًا لتانجاي، لكنه كان يساعد أباه في المدرسة. أظهر بعض الاحتجاجات على معاملة والده في إحدى المرات التي عامله فيها بقسوة بالغة، كما قيل إنه ربما احتج أيضًا على الطريقة التي يعامل بها والدته. سمعت أن السيد كريكل طرده لهذه الأسباب، وأن السيدة كريكل والآنسة كريكل صارتا في حالة حزن عميق منذ ذلك الحين.

أما أغرب ما سمعته عن السيد كريكل؛ أن ثمة صبيًّا واحدًا في المدرسة لم يجرؤ على مد يده عليه بأذى. كان الصبي هو ج. ستيرفورث. أكد ستيرفورث نفسه هذا عندما ذكر الأمر، وقال إنه يود لو أُقدم أمامه على فعل أي شيء. سأله صبي لطيف (وليس أنا) كيف سيتصرف إذا أقدم السيد كريكل على فعل شيء من هذا القبيل؟ فما كان منه إلا أن غمس عود ثقاب في صندوق الفوسفور عن قصد لإلقاء نظرة على رد فعله، وقد قال إنه سيبدأ بضربه وطرحه أرضًا بضربة على جبهته بزجاجة الحبر الموجودة دائمًا على رف الموقد، والتي تساوي سبعة شلنات وستة بنسات. جلسنا بعد هذا الكلام لاهثي الأنفاس في الظلام لبعض الوقت.

سمعت أن السيد شارب والسيد ميل يتقاضيان أجورًا هزيلة، وأن اللحوم الساخنة والباردة لا تُقدَّم في العشاء إلا على طاولة السيد

كريكل، وقد كان من المتوقع دائمًا أن يقول السيد شارب إنه يفضل اللحم البارد. أكد ج. ستيرفورث هذه الأمور مرة أخرى، حيث كان الوحيد الذي يأكل على هذه المائدة. سمعت أن «باروكة» السيد شارب لا تناسبه، وأنه لا يحتاج إلى أن يتباهى بها بغروره - على حد تعبير شخص ما عن هذا الأمر - لأن خصلات شعره الحمراء كانت واضحة جدًّا أسفل «باروكته».

سمعت أن أحد الصبية، كان ابنًا لتاجر فحم، وقد جاء ليتعلم في المدرسة كنوع من المقايضة مقابل فاتورة الفحم. أطلق على الصبي اسم «الحساب» أو «المقايضة» - وقد اختير اسمه من كتاب الحساب للتعبير عن هذه العملية. سمعت أن البيرة لم تكن سوى عملية سطو على أموال الآباء، إذ كانت لا تقدم للأولاد على المائدة، وكذلك كانت الحلوى المزعومة. سمعت أن المدرسة كانت تعتبر الآنسة كريكل مغرمة بستيرفورث. كنت على يقين من أن الأمر ليس ببعيد، إذ رحت أفكر وأنا جالس في الظلام في صوته الجميل، ووجهه الناعم، وطريقته العذبة، وشعره المموج، فحسبت أن الأمر صحيح. سمعت أن السيد ميل لم يكن رجلًا سيئًا، لكنه لا يملك أقل القليل من المال ليصلح حاله، وأن والدته العجوز السيدة ميل العجوز، كانت بلا شك فقيرة كفقر وظيفته. تذكرت وقتها إفطاري الذي تناولته عندهم، وقولها الذي كنت أحبه «شارلي يا بني!». أسعدني أن أتذكر ما حدث، لكني لم أقل شيئًا عنه أمام الأولاد فكنت أخرس كالفأرة.

رحت أسمع كل هذه الأحاديث، بل أكثر منها بكثير، حتى نهاية المأدبة وما بعدها لبعض الوقت. ذهب الجزء الأكبر من الأولاد إلى أسرتهم بمجرد الانتهاء من الأكل والشرب، أما نحن فقد بقينا نتهامس ونستمع إلى الأحاديث بينما نرتدي أنصاف ملابسنا، إلى أن أوينا أخيرًا إلى أسرتنا أيضًا.

قال ستيرفورث: «ليلة سعيدة أيها الشاب كوبرفيلد. سأعتني بك».

أجبته بامتنان بالغ: «إنك لطيف للغاية، وإنني ممتن جدًّا لك».

قال ستيرفورث وهو يتثاءب: «ألديك أخت؟».

أجبته: «لا».

قال ستيرفورث: «إنه أمر مؤسف. لو كانت لديك أخت، فإني أحسب أنها ستكون فتاة جميلة، وخجولة، صغيرة وتتمتع بعينين مشرقتين. كنت سأحب التعرف عليها. ليلة سعيدة يا أيها الشاب كوبرفيلد».

أجبته: «ليلة سعيدة يا سيدي».

فكرت فيه كثيرًا بعد أن أويت إلى الفراش، وأذكر أنني نهضت بجسدي متطلعًا إلى حيث يرقد في ضوء القمر، وقد ارتفع أمامي وجهه الوسيم، ورأسه يتكئ على ذراعه بليونة. بدا لي شخصًا شديد القوة؛ كان هذا بالطبع، سبب انشغالي بأمره. أبصرته من دون أن يبعد شعاع القمر حجاب الغيب عن وجهه. لم أتنبأ بخطواته المستقبلية بل ظلت في طي الغموض، يخطو في الحديقة التي رحت أحلم بالسير فيها طوال الليل.

الفصل السابع

«النصف الدراسي الأول»

في مدرسة سالم هاوس

بدأت الدراسة بجدية بداية من اليوم التالي. أتذكر شعورًا عميقًا انتابني بعد أن تأثرت بصخب الأصوات في قاعة الدراسة، التي صارت فجأة هامدة كالموت بعد أن دخلها السيد كريكل عقب الإفطار، وقد وقف في المدخل يتطلع إلينا مثل عملاق حكايات خرج من كتاب ليباشر أسراه.

وقف تانجاي محاذيًا لمرفق السيد كريكل. لم تُتح له فرصة، بحسب ظني، ليصرخ بشراسة قائلًا: «الزموا الصمت»، فقد كان الأولاد جميعهم صامتين بلا حراك.

راح السيد كريكل يتحدث، وأخذ تانجاي يردد حديثه من خلفه.

«الآن، يا شباب، إنه نصف عام جديد. فلتنتبهوا لما أنتم بصدده في هذا النصف الجديد. أقبلوا على دروسكم بجدية، هذه نصيحتي إليكم، لأني سأجازي بالعقاب. لن أتوانى في عملي. لن يجدي ساعتها إن فركتم جلودكم بأنفسكم، فلن تنمحي علامات الضرب إن نزلت بكم. فليذهب الآن كل منكم إلى عمله، ليجتهد كل فتى».

انتهى هذا البيان المخيف، وانتهى ما ردده تانجاي مرة أخرى. اقترب السيد كريكل من مجلسي، وأخبرني أنني إذا كنت مشهورًا بالعض، فقد اشتهر هو بالعض أيضًا. ثم أراني العصا، وسألني عن رأيي فيها... هل تشبه الأسنان؟ وهل لها أسنان حادة؟ هل تملك هي الأخرى فكًّا يا هذا؟ هل هي ذات جوف عميق يا هذا؟ هل تعض يا هذا؟ هل تقضم؟ كان يهوي عليَّ بضربة منها بين كل سؤال يطرحه مما جعلني أعاني متألمًا، ولكن سرعان ما تحررت من مدرسة سالم هاوس (كما قال ستيرفورث)، وسرعان ما انخرطت في البكاء أيضًا.

لا أقصد أنني اشتهرت بهذه العلامات المميزة الخاصة، والتي حظيت بها دون سواها، بل على العكس من ذلك، فقد حصلت الغالبية العظمى من الأولاد (خاصة الصغار) على حوادث وإشعارات مماثلة، حين قام السيد كريكل بجولة في قاعة الدراسة. أخذ نصف تلاميذ الصف يتلوون ويبكون قبل أن يبدأ اليوم الدراسي؛ وكم من صبي ظل يتلوى ويبكي حتى نهاية اليوم الدراسي، لكني أخشى حقًّا أن أذكرهم، خوفًا من أن أبدو مبالغًا.

لا أحسب أن هناك أي رجل يستمتع بمهنته أكثر من السيد كريكل. كان يسعد بضرب الأولاد، كما لو أنه يُقدِم على إشباع شهية شغوفة متلذذة بالطعام. إنني على ثقة من أنه لم يستطع مقاومة ضرب الصبي السمين، خاصة أنه بدا مغريًا له كما لو أن ثمة سحرًا في أمره. ظل منشغلًا لا يهدأ له بال حتى يهوي عليه ويبرحه ضربًا، تاركًا أثره كل يوم. كنت بدينًا، وكان عليَّ أن أختبر الأمر ذاته بنفسي. إنني على يقين

من أنني حين أفكر في هذا الرجل في هذه الأيام، فإن دمائي تغلي في عروقي ساخطًا، وأكن له غضبًا خالصًا كان من الممكن أن أشعر به حتى لو أنني لم أقع تحت رحمته. أدركت أنه لم يكن سوى وحش ضارٍ، ولم يكن ليستحق تلك الثقة الكبيرة التي خُولت إليه، بل إن اللورد صاحب السمو، والقائد العام، أو أيًا منهما كان أقل ضررًا من أذاه المتخطي كل الحدود.

لم نكن في نظره سوى حفنة من العبيد المهانين أمام سيدهم الذي لا يرحم، كم كنا أذلاء أمامه! أحسب أنني بعد انطلاقي في الحياة الآن، وبعد تذكر هذا الماضي المنصرم، فإني أعجب من هذه المذلة والخنوع لرجل بمثل هذه المكانة التي يشغلها وهذه الادعاءات التي تحيطه!

هنا أعود لتذكر جلوسي أمام المكتب مرة أخرى، وإذا بي أراقب عينيه - أراقب عينيه في مذلة، بينما يضرب بعصاه كتابًا كان لضحية أخرى، بعد أن تورمت يده منذ لحظات من أثر هذه العصا بعد أن هوت عليه، فإذا به يحاول مسح أثر الضربة بمنديل. كان أمامي الكثير من العمل. لم أكن أراقب عينيه خاملًا، بل لأنني كنت منجذبًا إليهما في بلادة، ورغبة مخيفة في توقع ما سيفعله بعد ذلك، وما إذا كان دوري في المعاناة قد حان أم أنه دور شخص آخر. صار عدد من الأولاد الصغار خلفي، يراقبون عينيه كذلك بالاهتمام والترقب أنفسهما. أحسب أنه يدرك ذلك، على الرغم من أنه يتظاهر بتجاهل أمرهم. يلوي فمه بحركات مهيبة بينما يشير بعصاه إلى هذا الكتاب، ثم يلقي نظراته بعدها نحو صفنا، فإذا بنا ننكب على كتبنا بخوف ورعدة. ما نلبث أن نتطلع

إليه مرة أخرى بعدها بلحظة واحدة، فيظهر صبي تعس الحظ، لم يؤدِّ واجباته على أكمل وجه، فيأمره بالاقتراب. يقدم المجني عليه الأعذار ويعلن عزمه على القيام بعمل أفضل في الغد. يلقي السيد كريكل نكتة قبل أن يضربه، ونضحك عليها، نضحك نحن الكلاب الصغيرة، وقد علا وجوهنا بياض كما الرماد، بينما تغرق قلوبنا في أحذيتنا رهبة.

هنا أعود وأتذكر جلستي على مكتب الدراسة مرة أخرى، بعد ظهر يوم صيفي مثير للنعاس، يعلو فيه الأزيز وتتصاعد الهمهمات من حولي، كما لو أن الأولاد نحلات تطير حول الورود. ينتابني إحساس بالثقل بسبب دهن اللحم الفاتر (إذ كنا قد تناولنا الغداء قبل ساعة أو ساعتين). صار رأسي ثقيلًا كما لو أنه معبأ برصاص. أود أن أبذل العالم كله ثمنًا للنوم. أجلس وعيني مثبتة نحو السيد كريكل، وأومض بعيني مثل بومة صغيرة، إلى أن يغلبني النوم لدقيقة. لم تزل صورته تلوح أمامي في الأفق خلال سباتي، بينما يشير بعصاه نحو هذه الكتب المشفرة، إلى أن يأتي ورائي بهدوء، ثم يوقظني فأنتبه أكثر وأدرك وجوده، مع وجود أثر ضربة حمراء على ظهري.

هنا أتذكرني في الملعب، بينما لم تزل عيني مفتونة بالنظر إليه، حتى وإن لم أستطع رؤيته. كانت النافذة التي أعلم أنه يتناول الغداء عندها، تقع على مسافة قريبة مني. وقفت بجانبها، بينما أتطلع نحوها بدلًا من أن أنظر إليه. أما إذا لاح وجهه بالقرب منه، فإنني أبدي ملامح التوسل والخضوع. كان إذا أطل عبر الزجاج، فإن أكثر الصبية جرأة (باستثناء ستيرفورث) لا يلبث أن يتوقف عن الصراخ أو الصياح، ويصير واجمًا.

حدث في يوم من الأيام، أن كسر ترادلز (الفتى الأسوأ حظًا في العالم) هذه النافذة بالكرة عن طريق الخطأ. تسري فيَّ رجفة في هذه اللحظة كلما تذكرت رهبتي الهائلة حين أبصرت ما حدث، وتخيُّلي أن الكرة قد ارتطمت برأس السيد كريكل المقدس.

يا لترادلز المسكين! كان يرتدي بدلة ضيقة باللون الأزرق السماوي كانت تجعل ذراعيه وساقيه يبدون مثل النقانق الألمانية، أو حلوى البودينج الممتلئة بكراميل، كان أكثر الأولاد مرحًا وبؤسًا على الإطلاق. كان يُضرب بالعصا دومًا -أظن أنه كان يُضرب كل يوم بالعصا في هذا النصف من العام، باستثناء يوم واحد من أيام الاثنين عندما أحكم يديه- وكان دائمًا يقول إنه سيكتب إلى عمه عن هذا الأمر، لكنه لم يفعل ذلك قَطُّ. كان يضع رأسه على المنضدة لفترة قصيرة بعد أن يُضرب، ثم يعود مرحًا بطريقة ما، ويبدأ في الضحك مرة أخرى، ويشرع في رسم الهياكل العظمية في كل مكان، قبل أن تجف عيناه. اعتدت في البداية أن أتساءل عن الراحة التي يجدها ترادلز في رسم الهياكل العظمية. رحت أنظر إليه لبعض الوقت كما لو كان ناسكًا، يذكر نفسه برموز الفناء، وأن العصا فانية لا يمكن أن تستمر إلى الأبد. إلا أنني أحسب أنه لا يرسمها إلا لأنها سهلة، ولم تحمل أي ملامح.

لقد كان ترادلز في غاية النبل، وكان يرى أن من واجب الأولاد أن يدعم كل منهم الآخر. عانى ترادلز في مناسبات عديدة من جراء فكرته هذه، ففي ذات مرة على وجه الخصوص؛ ضحك ستيرفورث في الكنيسة، وظن الكاهن أن من ضحك هو ترادلز، فطرده خارجًا. أتذكره

في هذه اللحظة، في طريقه إلى حجرة العقاب بعيدًا، وقد أظهر المصلون له احتقارًا لأفعاله. لم يقُل قَطُّ مَن الجاني الحقيقي، على الرغم من أنه ضُرب في اليوم التالي ضربًا قاسيًا، وسُجن لساعات عديدة رسم خلالها ساحة كنيسة واسعة تتكدس بالهياكل العظمية داخل صفحات قاموسه اللاتيني بأسرها. حصل بعد ذلك على مكافأته، حين قال ستيرفورث إن نفس ترادلز تخلو من روح المذلة والخنوع، وشعرنا جميعًا أن هذا القول أعظم ثناء يقال. أما من ناحيتي، فكان بإمكاني الفوز بمثل هذا المديح (على الرغم من أنني أقل شجاعة من ترادلز، ولا أتصف بشيء كهذا في مثل هذا العمر) ومن ثَم أنال مثل هذه المكافأة.

كانت رؤية ستيرفورث متقدمًا نحو الكنيسة أمامنا، جنبًا إلى جنب مع الآنسة كريكل، واحدة من أعظم المشاهد في حياتي. لم أكن أحسب أن الآنسة كريكل تضاهي إيميلي الصغيرة جمالًا، ولم أحبها (لم أجرؤ على ذلك)، لكنني ظننت أنها فتاة شابة تتمتع بجاذبية استثنائية لا تفوقها فتاة في الرقة واللطف. كنت أشاهد ستيرفورث يحمل لها المظلة، مرتديًا بنطاله الأبيض، فينتابني نوع من التباهي والفخر بمعرفته. وأحسب أنها لا تستطيع أن تتجاوز معرفته من دون أن تتخذه عشيقًا فتحبه من كل قلبها. كان السيد شارب والسيد ميل من الشخصيات البارزة في نظري كذلك، أما ستيرفورث فكان بالنسبة إليهما في منزلة الشمس بين نجمين.

واصل ستيرفورث رعايته لي، وأثبت أنه صديق نافع للغاية، إذ لم يجرؤ أحد على مضايقتي بعدما عرفوا مكانتي عنده. لم يستطع أن يدافع

عني أمام السيد كريكل، أو لم يدافع عني على الإطلاق، بينما كان السيد كريكل شديد القسوة عليَّ، ولكنه ظل يخبرني كلما تلقيت معاملة أسوأ من المعتاد، أنني في حاجة دائمة إلى مزيد من الشجاعة، وأنه إن كان في موقفي فلن يتحمل الأمر. أحسست أنه يقصد تشجيعي وقد اعتبرت الأمر لطفًا لا بأس به منه. كانت ثمة ميزة واحدة وحيدة فقط أدركتها من جراء شدة السيد كريكل. كانت اللافتة المعلقة على ظهري تحول دونه دومًا إذا ما أقدم على ضربي من ورائي من وقت لآخر، فما لبثت أن تخلخلت وانخلعت من ورائي، ثم لم أرَها منذ ذلك الحين.

توثقت علاقتي بستيرفورث وصارت أكثر حميمية بعد أن وقع حادث ما، وقد ألهمني مزيدًا من الفخر والاعتزاز والرضا، على الرغم من أنه أدى في بعض الأحيان إلى بعض الإزعاج. تكرم عليَّ بحديث في إحدى المرات، حين كنا نسير في الفناء، فأبديت ملاحظة بأن شيئًا ما أو شخصًا ما - نسيت ما هو الآن - كان يشبه شيئًا ما أو شخصًا ما في قصة بيريجرين بيكل[1]. لم يعلق ستيرفورث بشيء في ذلك الوقت، ولكن عندما كنت في طريقي للنوم ليلًا، سألني إذا كان هذا الكتاب بحوزتي أم لا؟

أجبته بالنفي، ورحت أشرح له كيف قرأته، وحدثته عن الكتب الأخرى التي ذكرتها سالفًا.

---

(١) مغامرات «*Peregrine Pickle*» هي رواية خيالية للكاتب الاسكتلندي توبياس سموليت، نُشرت لأول مرة عام ١٧٥١ وتم تنقيحها ونشرها مرة أخرى عام ١٧٥٨. تحكي قصة رجل أناني يعاني من الحظ والمآسي في ذروة المجتمع الأوروبي في القرن الثامن عشر.

سألني ستيرفورث: «وهل تتذكرها؟».

أجبته: «آهٍ نعم». أتمتع بذاكرة جيدة، وأحسب أنني تذكرتها على أكمل وجه.

قال ستيرفورث: «انتبه لما أقول أيها الشاب كوبرفيلد، عليك أن تقصها عليَّ. إنني لا أستطيع النوم في وقت مبكر جدًّا من الليل، على الرغم من أنني أستيقظ مبكرًا في الصباح. ستحكيها لي واحدة تلو الأخرى. سنجعل منها حكايات تشبه الحكايات العربية مثل ألف ليلة وليلة».

شعرت بإطراء شديد نتيجة لهذا الترتيب، وبدأنا تنفيذه في هذا المساء نفسه. لست في موضع يسمح لي بقص تفاصيل ما أضفيته على أحداث قصص المؤلفين المفضلين عندي في أثناء حكايتي عنهم، ولا أرغب الآن في إدراك ما فعلته آنذاك، لكني كنت على إيمان عميق بهم، وعلى حد ظني فإني كنت أتمتع بطريقة سلسة وميسرة في سرد ما قصصته عنهم؛ وهي مميزات سرت على نهجها لأجل طويل.

أما العيب الذي عرقلني فكان أنني شعرت بالنعاس في كثير من الأحيان في أثناء الليل، أو تراجعت رغبتي أحيانًا في استئناف القصة، لذلك كنت أجد هذا العمل شاقًّا إلى حد ما. لم أجد مفرًّا من مواصلة ما أقوم به، إذ كنت لا أقوى على إغضاب ستيرفورث، كما أن عدم إرضائه بالطبع أمر غير وارد. صرت أشعر بالإرهاق في الصباح أيضًا، وكنت في أشد الحاجة إلى أن أتمتع بساعة أخرى من الراحة. كان الأمر مرهقًا إذ أستيقظ، مثل السلطانة شهرزاد، وأجبر على الانتهاء من قص حكاية

طويلة قبل أن يدق جرس الاستيقاظ. كان ستيرفورث مصرًّا على سماع الحكايات، وفي المقابل صار يشرح لى ما يستعصي عليَّ من المسائل الحسابية وأي شيء في واجباتي، ولم أكن لأخسر هذه الصفقة. سأنصف نفسي، وأقول إنني لم أتأثر بأي دافع أناني أو مصلحة خاصة، ولم تكن دوافعي هي الخوف منه. لقد أعجبت به وأحببته، وكانت موافقته على مبادلتي هذا الإعجاب شفيعًا كافيًا. كان الأمر ثمينًا للغاية بالنسبة لي حتى إنني أتذكر ما وقع من هذه الأشياء الصغيرة الآن، بقلب متأثر موجع.

كان ستيرفورث مراعيًا لخاطري أيضًا، وقد بيَّن هذا الأمر في واقعة معينة، بطريقة قاطعة وجريئة بعض الشيء، حتى إنني أظن أن ذلك أثَّر على ترادلز المسكين وبقية الأولاد. وصلت رسالة بيجوتي الموعودة -يا لها من رسالة رائعة!- بعد بضعة أسابيع من بداية «النصف الدراسي»، وقد أرسلت معها كعكة في سلة ممتازة من البرتقال، وزجاجتين من نبيذ نباتات الربيع. كان هذا بمثابة كنز، وكما هي الحال في مثل هذه الأمور، وضعته عند قدمَي ستيرفورث، وتوسلت إليه أن يتصرف فيه.

قال: «الآن، سأخبرك بما سنفعله أيها الشاب كوبرفيلد. يجب الاحتفاظ بالنبيذ حتى يبلل حلقك بينما تحكي القصص».

خجلت من هذه الفكرة، وتوسلت إليه بتواضع أن يستبعدها. لكنه قال إنه لاحظ أن صوتي كان أجش في بعض الأحيان -قال تحديدًا إن صوتي كان يبدو أحيانًا مبحوحًا- ويجب أن تُخصص كل قطرة من النبيذ للغرض الذي ذكره. وفقًا لذلك، أغلق عليه صندوقه، وحفظه

بنفسه في قنينة، وكان يعطيني ما أشربه في قطعة من فلين أو غطاء، عندما كان من المفترض أن أكون بحاجة إلى شيء يقويني. كان في بعض الأحيان يجعله أكثر رونقًا، فإذا به يضيف إليه عصير البرتقال، أو يقلبه مع الزنجبيل، أو يُذوِّب قطرة من النعناع فيه، وعلى الرغم من أنني لا أستطيع أن أؤكد أن الطعم قد تحسن بإضافة هذه النكهات، أو أنه صار بالضبط المزيج الذي كان يمكن للمرء أن يختاره لراحة المعدة، فإن هذا النبيذ كان آخر شيء أتجرعه في الليل وأول شيء أتجرعه في الصباح. شربته بامتنان وكنت في غاية الامتنان لرعايته لي.

أحسب أننا قضينا شهورًا في حكاية بيريجرين على حد ظني. وقضينا شهورًا أخرى في باقي القصص الأخرى. إنني على يقين من أن أسمارنا لم تخلُ قَطُّ من حكاية، بينما استمر تقديم النبيذ بالقدر ذاته تقريبًا. أما ترادلز المسكين - فإنني لم أتذكر هذا الفتى قَطُّ إلا وانتابتني نزعة غريبة إلى الضحك بينما تغزو الدموع عيني - كان مثل الجوقة التابعة بشكل عام، فيتظاهر بالمرح في الأجواء الهزلية، أو يتغلب عليه الخوف عندما يظهر أي مقطع لشخصية مقلقة في سرد مسرحي. كان هذا بالأحرى يغيظني كثيرًا. أتذكر مزحة غاية في المجون له، أتذكر تظاهره بأنه لا يستطيع منع أسنانه من الصرير، كلما ورد ذكر الوزراء في مغامرات جيل بلاس، وأتذكر مشهدًا في القصة التقى فيه جيل بلاس بقبطان اللصوص في مدريد؛ هذا الجوكر الزائف التعيس المثير لقشعريرة الرعب، وحينها سمعه السيد كريكل بينما كان يتجول في الممر، فما لبث أن جلده بقسوة بالغة بسبب هذا السلوك غير المنضبط

في غرفة النوم. تحفزت داخلي كل الأحاسيس الرومانسية والحالمة، إذ كانت كثرة سرد القصص مشجعة لاستثارتها في الظلام؛ وفي هذا الصدد، ربما لم تكن متابعة مثل هذه الأحاسيس شيئًا مجديًا بالنسبة إليَّ. أما كوني محبوبًا أبدو في غرفتي مثل نوع من الألعاب، وإدراكي أن هذا إنجاز كبير جعل الألسنة تتحدث عني بين الأولاد، وجذب انتباه الكثيرين لي على الرغم من أنني كنت أصغر الأولاد هناك، وقد حفزني هذا الأمر على بذل مجهود أكبر. في مدرسة تعتصرها القسوة المطلقة، سواء كان يرأسها غبي أم لا، ليس من المحتمل أن ننال فيها تعليمًا ذا قيمة. أظن أن أولادنا لم يكونوا بشكل عام سوى مجموعة من الجهلاء مثل سائر التلاميذ في أي مكان. كان الأولاد في غاية الاضطراب ومنصرفين بخوفهم عن التعلم؛ لم يعد بإمكانهم تحصيل الاستفادة من أي شخص، كما أنهم لن يسهموا بشيء مفيد في الحياة نتيجة للضرب والعذاب والقلق المستمر الذي تعرضوا له. أما الغرور الغض الذي انتابني ومساعدة ستيرفورث لي، فقد حثاني بطريقة ما للمضي قدمًا، وإن لم يساعداني في كل الأمور أو في التخلي عن العقاب دومًا، إلا أنني صرت في الوقت الذي قضيته في المدرسة استثناءً للحالة العامة، لدرجة أنني التقطت بعض فتات العلم بشكل مطرد.

ساعدني السيد ميل كثيرًا في تحصيل الدروس، فقد أحبني وصار يسعدني تذكره. لطالما شعرت بألم من ملاحظة سوء معاملة ستيرفورث له وإصراره على التقليل من شأنه، ونادرًا ما كان يُفوِّت الفرصة لإيذاء مشاعره، أو حث الآخرين على القيام بذلك. أزعجني

هذا الأمر كثيرًا لوقت طويل، لأنني سرعان ما أخبرت ستيرفورث بالأمر، إذ لم يعد بإمكاني الاحتفاظ بمثل هذا السر أكثر من ذلك، كما لا يمكنني الاحتفاظ بكعكة أو أي شيء ملموس آخر. كنت قد أخبرته عن المرأتين العجوزين اللتين أخذني السيد ميل إليهما، وكنت أخشى دومًا أن يبوح ستيرفورث بهذا السر ويعيره به.

إني لأجرؤ على القول، إنه لم يفكر أي منا كثيرًا، بعدما تناولت إفطاري في ذاك الصباح الأول لي في المدرسة، وبعد أن ذهبت للنوم تحت ظلال ريش الطاووس على صوت الناي. لم نفكر في العواقب التي ستترتب على دخول شخص تافه مثلي في هذه الملاجئ الخيرية. أما تلك الزيارة فقد كانت لها نتائج غير متوقعة، بل نتائج جادة أيضًا.

لزم السيد كريكل منزله في أحد الأيام لإعياء ألم به. أدى الأمر بطبيعة الحال إلى نشر السعادة المفعمة بالحيوية في جميع أنحاء المدرسة، وسادت ضوضاء عارمة في أثناء فترة العمل الصباحي. أما الارتياح والرضا الذي شعر به الأولاد، فقد جعل من الصعوبة السيطرة عليهم، على الرغم من أن تانجاي اللعين قد أخذ يجر ساقه الخشبية مرتين أو ثلاث مرات، ودوَّن ملاحظات بأسماء الجناة الرئيسيين، فإنه لم يترك أثرًا يُذكَر، لأنهم كانوا على يقين تام من أنهم واقعون في مشكلاتهم غدًا، ولذا فقد وجدوا أنه من الحكمة أن يفعلوا ما يريدونه الآن ويستمتعوا بوقتهم اليوم.

وقع الأمر في يوم سبت حيث كان نصف اليوم الدراسي. كانت ضوضاء الملعب من شأنها أن تزعج السيد كريكل، ولم يكن الطقس

مناسبًا للخروج للتمشية في الفناء، لذلك فقد بقينا داخل فصول المدرسة حتى فترة ما بعد الظهر، وقمنا بأداء بعض التدريبات الأخف من المعتاد، والتي أُعِدت لمثل هذه الظروف. كان هذا اليوم من الأسبوع هو اليوم الذي يخرج فيه السيد شارب ليهذب شعره المستعار، لذا فقد تولى السيد ميل العمل بدلًا منه. كان السيد ميل يتولى أي عمل كان، لذلك تولى بنفسه الإشراف على المدرسة. لو أنني استطعت أن أربط بين صورة الثور أو الدب مع أي شخص وديع مثل السيد ميل، لما فكرت في سواه بعد ظهيرة ذاك اليوم عندما كانت الضجة في أوجها. تصورته كما لو أنه مثل أحد هذه الحيوانات، التي مزقها ألف كلب. أتذكره بينما يحني رأسه المتألم فيسنده إلى يده ذات العروق البارزة، وينحني فوق الكتاب الموجود على مكتبه، ويحاول عبثًا متابعة عمله الممل، وسط ضجة ربما أصابت رئيس مجلس العموم نفسه بالصداع. راح الأولاد يدخلون ويخرجون من أماكنهم، يلعبون لعبة القط والفأر في الزاوية مع غيرهم. كان هناك أولاد يضحكون، وآخرون يغنون، وأولاد يتحدثون، وآخرون يرقصون، وغيرهم يزمجرون. راح الأولاد يضربون الأرض بأقدامهم، وآخرون يدورون حول السيد ميل مبتسمين، يعبثون بوجوههم، ويقلدونه خلف ظهره وأمام عينيه؛ يقلدون فقره، وحذاءه، ومعطفه، ووالدته، وكل شيء يخصه مما جذب انتباههم وأخذوه بعين الاعتبار.

نهض السيد ميل فجأة وضرب مكتبه بالكتاب، ثم صرخ قائلًا: «الزموا الصمت، ما معنى هذا؟! يستحيل تحمله. إنه جنون. كيف يمكنكم أن تفعلوا هذا بي يا أولاد؟».

كان كتابي هو الذي ضرب به مكتبه، بينما كنت أقف بجانبه، وأتابع عينيه تدوران في أرجاء الغرفة. أبصرت الأولاد جميعًا يتوقفون عن أفعالهم؛ تفاجأ بعض منهم، وصار البعض الآخر خائفًا، وربما شعر البعض بالأسف.

كان مكان ستيرفورث في أقصى المدرسة، حيث الطرف المقابل من الغرفة الطويلة. كان يتسكع مسندًا ظهره إلى الحائط ويداه في جيبيه، أخذ ينظر إلى السيد ميل وقد أغلق فمه كما لو أنه يصفر، إلى أن نظر إليه السيد ميل كذلك.

قال السيد ميل: «التزم الصمت يا سيد ستيرفورث».

قال ستيرفورث وقد احمر وجهه: «اصمت أنت. مع من تتحدث؟».

قال السيد ميل: «اجلس».

قال ستيرفورث: «اجلس أنت، واعتنِ بعملك».

ارتفعت الصيحات وتعالى بعض التصفيق. لكن وجه السيد ميل كان شديد البياض من الغضب، ونجح ذلك في إسكات الأولاد على الفور. انطلق غلام وراءه ليبدأ في تقليد والدته مرة أخرى، إلا أنه غير رأيه وتظاهر بأنه يريد إصلاح قلمٍ.

قال السيد ميل: «إذا كنت تحسب يا ستيرفورث أنني لست على دراية بالسلطة التي يمكنك التأثير بها على أي عقل هنا - وضع يده على رأسي، من دون التفكير في ما يفعله على حسب ظني - أو أنني لم

ألحظك، في غضون بضع دقائق، تحث صغارك على إبداء كل نوع من الأذى ضدي، فإنك مخطئ».

قال ستيرفورث في هدوء: «إنني لا أعطي نفسي عناء التفكير بك على الإطلاق. لذلك فإنني في الواقع لم أكن مخطئًا».

تابع السيد ميل حديثه بشفة ترتجف بشدة قائلًا: «وعندما تستغل مكانتك هنا يا سيدي لإهانة رجل نبيل».

قال ستيرفورث: «ماذا؟ أين هو؟».

هنا صرخ أحدهم قائلًا: «عار عليك يا ج. ستيرفورث، إنه لأمر مشين».

كان المتحدث هو ترادلز، لكن السيد ميل قاطعه على الفور وطالبه بأن يمسك لسانه. راح السيد ميل يتحدث بشفتيه المرتعشتين: «إنك كبير وعاقل كفاية لفهم الأسباب العديدة التي تمنعك عن إهانة شخص بائس في الحياة، لم يسبق أن أساء إليك بشيء ولو هين». أخذ يرتجف أكثر فأكثر قائلًا: «إنك ترتكب فعلًا وضيعًا. يمكنك الجلوس أو الوقوف كما يحلو لك يا سيدي. هيا يا كوبرفيلد».

قال ستيرفورث وهو يتقدم إلى مكانه في الغرفة: «يا كوبرفيلد الصغير، توقف قليلًا. اسمع قولي يا سيد ميل، لمرة واحدة إلى الأبد. عندما تأخذ حريتك في مناداتي بالوضاعة أو الدناءة، أو أي شيء من هذا القبيل، فإنك متسول وقح. إنك كما تعلم متسول دائمًا، ولكن عندما تقدم على هذا القول، فإنك متسول وقح».

لست متأكدًا ما إذا كان سيضرب السيد ميل، أم أن السيد ميل هو من أبدى نية لضربه، أم أنه لم تكن ثمة نية من هذا القبيل لدى أي من الجانبين. رأيت جمودًا ساد المدرسة بأسرها، كما لو أنهم تحولوا إلى صخور جامدة، ووجدت السيد كريكل في وسطنا، مصطحبًا تانجاي. أطلت السيدة كريكل والآنسة كريكل تنظران من الباب وقد انتابهما ذعر. جلس السيد ميل، وقد أسند مرفقيه إلى مكتبه ممسكًا بوجهه في يديه، ساكنًا تمامًا لبعض اللحظات.

تحدث السيد كريكل وهو يهزه من ذراعه، وقد صار همسه مسموعًا نقيًّا في هذه اللحظة، ولم يكن تانجاي في حاجة إلى تكرار كلماته، حين قال: «يا سيد ميل. هل آمل ألا تكون قد نسيت نفسك؟».

أجاب السيد ميل، بعد أن أظهر وجهه، وهز رأسه، وفرك يديه في هياج شديد، قائلًا: «لا يا سيدي، لا. لا سيدي، لا. إنني عارف بحدودي، لا، يا سيد كريكل، لم أنسَ نفسي، لم أنسَ. لقد تذكرت نفسي يا سيدي. كنت... كنت أتمنى لو كنت تذكرني قبل هذا بقليل يا سيد كريكل. كان من الممكن أن يصير الأمر أكثر رحمة يا سيدي، أكثر عدلًا يا سيدي. كان سيوفر عليَّ العناء بعض الشيء يا سيدي».

نظر السيد كريكل بجدية إلى السيد ميل، ووضع يده على كتف تانجاي، وأسند قدميه إلى المنصة القريبة منه، ثم جلس على المكتب. وبعد أن أطال النظر بجدية نحو السيد ميل من فوق عرشه هذا، أخذ يهز رأسه ويفرك يديه، وظل في نفس حالة الانفعال هذه. التفت السيد كريكل إلى ستيرفورث، ثم قال:

«أما الآن يا سيدي، وعلى أنه لن يتنازل ليحكي لي، فلتقل أنت ما الخطب؟».

تهرب ستيرفورث من إجابة السؤال لبعض الوقت. أخذ ينظر بازدراء وغضب إلى خصمه، والتزم الصمت. لا أستطيع منع نفسي من التفكير حين أتذكر هذا المشهد، فأندهش كيف كان مظهر ستيرفورث رفيعًا نبيلًا، وكيف بدا السيد ميل بسيطًا وساذجًا لا يقدر على مواجهته.

قال ستيرفورث في النهاية: «ماذا كان يقصد بالحديث عن المفضلين بالوساطة إذن؟».

كرر السيد كريكل وقد تورمت عروق جبهته بسرعة، قائلًا: «المفضلين؟ من تحدث عن مفضلين؟».

قال ستيرفورث: «هو من قالها».

استدار السيد كريكل في غضب نحو مساعده، وأردف يقول: «رحماك يا ربي، ماذا قصدت بهذا القول يا سيدي؟».

أجاب بصوت منخفض: «لقد قصدت مما قلته يا سيد كريكل، أنه لا يحق لأي تلميذ أن يستغل مكانته عن طريق المحسوبية ليهينني».

قال السيد كريكل: «ليهينك؟ يا للعجب! ولكن اسمح لي أن أسألك يا سيد؛ ما اسمك؟».

وهنا طوى السيد كريكل ذراعيه وعصاه وكل شيء فوق صدره، وعقد حاجبيه مما جعل عينيه الصغيرتين بالكاد تظهران تحتهما، ثم أكمل يقول: «اسمح لي بسؤال؛ هل عندما تتحدث عن المفضلين، تكون قد أظهرت لي أنا الاحترام المناسب؟». وهنا دفع السيد كريكل

برأسه مشرئبًّا إليه فجأة، ثم طأطأه مرة أخرى قائلًا: «إنني مدير هذه المؤسسة، ومدير عملك هذا».

قال السيد ميل: «إنني على استعداد للاعتراف بأن الأمر لم يكن حكيمًا من جهتي يا سيدي. ما كان يجب لأتصرف بهذه الطريقة لو كنت هادئًا».

تدخل ستيرفورث في هذه اللحظة، قائلًا: «ثم إنه قال إنني لئيم، ثم قال إنني حقير، ثم دعوته متسولًا. لو كنت هادئًا، ربما لم أكن لأصفه بالمتسول. إلا أنني قد فعلت، وإنني على استعداد لتحمل عواقب الأمور».

شعرت بتوهج شديد إثر هذا الخطاب الشجاع، ربما من دون تفكير فيما إذا كانت ثمة عواقب يجب تحملها أم لا. ترك موقفه أثرًا على الأولاد أيضًا، حيث سرى فيهم انفعال بسيط، من دون أن ينبس أي منهم ببنت شفة.

قال السيد كريكل: «إنني مندهش يا ستيرفورث - على الرغم من صراحتك التي تُحترم عليها. وإنك تستحق التقدير بالطبع عليها - وإنني لأعجب منك يا ستيرفورث، إذ إنك تنسب مثل هذه الصفة لأي شخص يعمل لصالح مدرسة سالم هاوس يا سيدي».

أطلق ستيرفورث ضحكة قصيرة.

قال السيد كريكل: «هذه ليست إجابة ملاحظتي يا سيدي. أتوقع منك أكثر من هذا يا ستيرفورث».

بدا السيد ميل ساذجًا في عيني، أمام هذا الصبي الوسيم. ولم يكن من السهل القول بأن السيد كريكل قد بدا ساذجًا كذلك. قال ستيرفورث: «دعه ينكر ذلك».

صرخ السيد كريكل: «أينكر أنه متسول يا ستيرفورث؟ لماذا تراه متسولًا، أين تراه يتسول؟».

قال ستيرفورث: «إذا لم يكن متسولًا، فإن أحد أقربائه متسول، والأمر سيان إذن».

رمقني بنظرة من عينيه، ثم ربتت يد السيد ميل بلطف على كتفي. تطلعت إليه وحمرة تعلو وجهي وندم يمزق قلبي، لكن عينَي السيد ميل كانتا ثابتتين على ستيرفورث. استمر في التربيت على كتفي بلطف، لكنه ظل ناظرًا إليه.

قال ستيرفورث: «بما أنك تتوقع مني يا سيد كريكل أن أبرر موقفي، فإنني سأصرح بما أعنيه، فما أردت قوله هو أن والدته تعيش في ملجأ في بيت قائم على الصدقات».

كان السيد ميل لم يزل ينظر إليه، ولم يزل يربت على كتفي بلطف، وقد قال في نفسه هامسًا، ما قد سمعته جيدًا: «نعم، صدقت ظنوني».

التفت السيد كريكل إلى مساعده بعبوس شديد وأدب مصطنع قائلًا:

«الآن، سمعت ما قاله هذا الرجل يا سيد ميل. فهلا تكرمت إذا سمحت، لترد على ما قاله مباشرة أمام المدرسة مجتمعة».

أجاب السيد ميل، وسط صمت مميت، قائلًا: «إنه على حق يا سيدي، لا داعي لتصحيح كلامه. إن ما قاله صحيح تمامًا».

قال السيد كريكل، مطرقًا رأسه إلى أحد جانبيه، وقد أدار نظرات عينيه في أرجاء المدرسة: «كن صالحًا وأعلن أمام الملأ، إذا تمكنت من ذلك، هل كنتُ على علم بهذا الأمر حتى هذه اللحظة؟».

أجاب: «لا أظن أنك على علم به بشكل مباشر».

قال السيد كريكل: «لماذا تقول إنك لا تظن. أليس الأمر كذلك يا رجل؟».

أجاب المساعد: «أفهم أنك لم تفترض قَطُّ أن ظروفي الحياتية جيدة جدًّا. إنك تعرف حالي، وكيف كنت دائمًا وأنا أعمل هنا».

قال السيد كريكل وقد انتفخت عروقه مرة أخرى أكثر من أي وقت مضى: «ما أفهمه، طالما وصلنا إلى هذه النقطة، أنك كنت في مركز خاطئ تمامًا، وقد أخطأت حين تصورت أن هذا المكان مدرسة خيرية. إذا سمحت يا سيد ميل، سوف نفترق هنا، ومن الأفضل أن يتم ذلك في أقرب وقت».

أجاب السيد ميل بينما ينهض: «لا يوجد وقت أنسب من هذه اللحظة».

قال السيد كريكل: «لك ما أردت يا سيدي».

قال السيد ميل بينما يلقي نظرة خاطفة إلى أرجاء الغرفة، وقد أخذ يربت على كتفي برفق مرة أخرى: «إنني أستأذنك يا سيد كريكل،

وأستأذنكم جميعًا. أما أنت يا جيمس ستيرفورث، فأفضل ما يمكنني أن أتمناه لك هو أن تشعر يومًا بالخجل مما فعلته. أما في الوقت الحالي، فأفضِّل أن أراك أي شيء سوى أن تصير صديقًا لي أو لأي شخص أهتم بأمره».

وضع يده على كتفي مرة أخرى، ثم أخذ الناي وبعض الكتب من مكتبه، وترك المفتاح في الدرج لمن سيخلفه، ثم خرج من المدرسة متأبطًا ممتلكاته. ألقى السيد كريكل خطابًا، من خلال تانجاي، شكر فيه ستيرفورث (وإن كان قد بالغ في الأمر) على ما أكده من استقلالية مدرسة سالم هاوس واحترامها؛ وانتهى به الأمر بمصافحة ستيرفورث، بينما صحنا بثلاثة هتافات - لم أكن أعرف تمامًا ماذا كان هذا الهتاف، ولكنني أحسب أنه لستيرفورث، وانضممت إليهم بحماس، على الرغم من أنني شعرت ببؤس وغم. ضرب السيد كريكل تومي ترادلز بالعصا لأنه اكتشف أنه يبكي، بدلًا من أن يهتف، بسبب رحيل السيد ميل، ثم ما لبث أن عاد ترادلز إلى أريكته أو سريره أو أي مكان أتى منه.

لقد تُركنا وحدنا الآن، وعلى ما أتذكر فقد بدأ كل منا ينظر إلى الآخر بدهشة بالغة. أما أنا، فقد شعرت بتوبيخ وندم عارمين على ما حدث. ما كان لشيء أن يحبس دموعي، لولا الخوف من أن يظن ستيرفورث، الذي غالبًا ما كان ينظر نحوي، أنني مستاء - أو عليَّ القول بدلًا من ذلك، إنني آخذ في الاعتبار تباين الأعمار بيننا، وأخاف أن يشعر أنني ناقم - إذا ما أظهرت العواطف التي تعتصرني. صار ستيرفورث غاضبًا جدًّا من ترادلز، وقال إنه سعيد لأنه اكتشف أمره.

أما ترادلز المسكين، الذي تجاوز مرحلة أن يستلقي مسندًا رأسه إلى المنضدة، فقد كان يتغلب على حالته كالمعتاد برسم مجموعة من الهياكل العظمية، ثم قال إنه لا يهتم بما أصابه، وإن ظل يؤكد أن السيد ميل قد أسيء إليه.

قال ستيرفورث: «من الذي أساء إليه أيتها الفتاة؟».

أجاب ترادلز: «أنتَ، فماذا لديك؟».

سأل ستيرفورث: «ما الذي فعلته؟».

رد ترادلز: «أتسأل ماذا فعلت؟ لقد جرحت مشاعره، وأفقدته وظيفته».

كرر ستيرفورث بازدراء: «مشاعره؟ سوف تتحسن مشاعره قريبًا، سأكون ملازمًا لتحسن مشاعره. إن مشاعره ليست مثل مشاعرك يا آنسة ترادلز. أما وظيفته - أكانت ثمينة، أليس كذلك؟ - هل تفترض أنني لن أكتب إلى عائلتي، وأحرص على حصوله على بعض المال؟ أليس كذلك يا بولي[1]؟».

لقد حسبنا أن ما ينتوي ستيرفورث فعله كان ناتجًا عن شعور نبيل للغاية، كانت والدته أرملة وغنية، وستفعل أي شيء يطلبه منها تقريبًا؛ هكذا قيل لي. صرنا جميعًا سعداء للغاية بعد أن رأينا ترادلز قد انهار. أما ستيرفورث فقد ارتفعت مكانته إلى السماء، خاصة عندما أخبرنا، أو تفضل علينا بأن أخبرنا، أن ما فعله كان لمصلحتنا ومن أجل قضيتنا،

(١) اسم يُطلق على الفتيات.

وأنه منحنا نعمة عظيمة بفعله هذا من دون أي أنانية منه. يجب أن أبوح أنني كنت أحكي قصة في الظلام تلك الليلة، فإذا بناي السيد ميل القديم قد بدا لي يشدو حزينًا في أذني أكثر من مرة، وأنه عندما شعر ستيرفورث بالتعب أخيرًا استلقيت على سريري، ورحت أتخيله يعزف بحزن بالغ في مكان ما، للحد الذي جعلني أشعر بأسى شديد.

نسيت أمر السيد ميل سريعًا بعد أن استغرقني التفكير في ستيرفورث الذي راح يُدرس، كما الهواة في سهولة، من دون أن يستعين بأي كتاب. بدا لي أنه يعرف كل شيء عن ظهر قلب. أخذ يُدرس لبعض الفصول إلى حين العثور على معلم جديد. جاء المعلم الجديد من إحدى المدارس الابتدائية، وقبل أن يبدأ مهامه التعليمية، راح يتناول الغداء في صالة الاستقبال ذات يوم، ليتم تقديمه إلى ستيرفورث. أشاد ستيرفورث به، وأخبرنا أنه كان ذا مظهر جيد. لم أفهم بالضبط ما المقصود من التعليق على مظهره وعلاقة ذلك بتعليمه. إلا أنني احترمته كثيرًا، ولم يكن لديَّ أدنى شك في علمه الفائق، على الرغم من أنه لم يعتنِ بي العناية نفسها التي كانت من السيد ميل، وإن لم أكن من الشخصيات ذات الشأن في المدرسة.

لم يقع سوى حدث واحد آخر في هذا النصف من العام من الحياة المدرسية اليومية، وقد أثر فيَّ تأثيرًا لم يزل قائمًا حتى الآن. ظل هذا الحدث مؤثرًا في حياتي لأسباب عديدة.

كنا جميعًا نعمل تحت وابل من المضايقات، بعد ظهر أحد الأيام، صرنا في حالة من الارتباك الشديد، وكان السيد كريكل يتجول

في الأرجاء ناشرًا الذعر، إلى أن جاء تانجاي وصرخ بطريقته القوية المعتادة، قائلًا: «زوار لك يا كوبرفيلد».

تبادل بضع كلمات مع السيد كريكل، ربما عن الزوار، والغرفة التي سيصطحبهم إليها. وقفت بعد ذلك، كما هو العرف في هذه الحالة، مستجيبًا للخبر الذي أعلن عنه، فإذا بي أشعر بالإغماء والإعياء الشديد من فرط دهشتي. قالوا لي أن أذهب من السلالم الخلفية وأرتدي ملابس نظيفة، قبل أن أتوجه إلى غرفة الطعام. أطعت هذه الأوامر، في اضطراب وعجلة يناسبان صغر سني وقلة خبرتي حيال شيء لم أعرفه من قبل. وصلت إلى باب غرفة الاستقبال، وخطر ببالي أنها قد تكون أمي، ولم أكد أتذكر السيد مردستون أو الآنسة مردستون في ذلك الحين، حتى سحبت يدي من مقبض الباب، وتوقفت لأمنع انتحابي قليلًا قبل أن أدخل.

لم أرَ أحدًا في البداية. شعرت بضغط على الباب، فتلفتُّ ناظرًا حولي، وهنا كانت دهشتي، فقد رأيت السيد بيجوتي وهام يلوحان أمام وجهي بقبعتيهما، ويضغط كل منهما الآخر نحو الحائط. لم يسعني إلا الضحك. كنت في غاية السعادة والمرح لرؤيتهما أكثر من سعادتي بالمشهد الذي صنعاه. تصافحنا بود بالغ. ازدادت ضحكاتي حتى أخرجت منديلًا ومسحت دموعي عن عيني.

أظهر السيد بيجوتي (الذي لم يغلق فمه ولو لمرة واحدة في أثناء الزيارة، على ما أذكر) قلقًا بالغًا عندما رآني أكفكف دموعي، ودفع هام ليقول شيئًا.

قال هام بطريقته الساخرة: «ابتهج يا سيد ديفي الكبير، ما هذا؟! لقد كبرت!».

تحدثت بينما أجفف عيني قائلًا: «هل تراني كبرت حقًّا؟». لم أكن أبكي على أي شيء أعرفه على وجه الخصوص، ولكنني رحت أبكي بطريقة ما لرؤية أصدقائي القدامى.

قال هام: «لقد كبرت يا سيد ديفي، ألم يكبر؟!».

قال السيد بيجوتي: «ألم يكبر؟!».

جعلاني أضحك مرة أخرى بعد أن رأيت كلًّا منهما يضحك على الآخر، ثم ضحكنا جميعًا حتى أصبحت في خطر البكاء مرة أخرى.

قلت: «هل تعرف شيئًا عن أحوال ماما يا سيد بيجوتي؟ وكيف حال عزيزتي، غاليتي بيجوتي العجوز؟».

أجاب السيد بيجوتي: «في أتم صحة وحال».

«وكيف حال الصغيرة إيميلي والسيدة جامدج؟».

أجاب السيد بيجوتي: «في أتم صحة وخير حال».

ساد صمت. أخذ السيد بيجوتي يخفف من حدة هذا السكون، فأخرج من جيوبه اثنين من سلطان البحر الضخم، مع سلطعون هائل، وحقيبة قماشية كبيرة تحمل الجمبري، وراكمها بين ذراعي هام.

قال السيد بيجوتي: «كما ترى، إننا علمنا إقبالك على «المُشهِّيات» عندما كنت معنا، فسمحنا لأنفسنا أن نجلب لك منها. طهته السيدة جامدج. نعم هي من قامت بطهوه». قال السيد بيجوتي هذه الكلمات في بطء،

وأحسب أنه تمسك بالحديث عن هذا الموضوع لأنه لم يجد كلامًا غيره يقال. عاد يقول مرة أخرى: «أؤكد لك أن السيدة جامدج هي التي طهته».

أعربت عن شكري. أخذ السيد بيجوتي ينظر إلى هام، الذي وقف مبتسمًا في خجل محاولًا عدم إفلات المحار، من دون أن يحاول مساعدته، ثم قال:

«لقد جئنا كما تعرف، بينما كانت الرياح وحركة المد والجزر في صالحنا. ركبنا في أحد المراكب من يارموث إلى «جرافسند». كتبت لي أختي اسم هذا المكان، وقالت لي إنه لو صادفت المجيء إلى جرافسند، فإن عليَّ أن آتي وأستفسر عن السيد ديفي، فأبلغه سلامًا، وأتمنى له بكل تواضع التوفيق، وأطمئنه أن الأسرة كلها بخير، مجتمعين كأصابع اليد الواحدة. سوف تكتب إيميلي الصغيرة، كما تعرف، إلى أختي عندما أعود، لتخبرها برؤيتي لك، وأنك بدوت بصحة جيدة، وهكذا قمنا بهذه الرحلة الممتعة تمامًا».

اضطررت إلى التمهل في التفكير قليلًا قبل أن أفهم ما يعنيه السيد بيجوتي بهذا التعبير، الذي يعبر عن دائرة كاملة من الأخبار. شكرته بعد ذلك بحرارة. وقلت بعد أن احمر وجهي خجلًا؛ إنني افترضت أن إيميلي الصغيرة قد تغيرت أيضًا، حيث كنا قد اعتدنا على التقاط القذائف والحصى من الشاطئ.

قال السيد بيجوتي: «ستصير امرأة، هذا ما ستؤول إليه. اسأله». كان يقصد هام، الذي ابتسم ببهجة موافقًا بينما يحمل كيس الجمبري.

قال السيد بيجوتي، وقد لمعت عيناه ببريق: «كم يبدو وجهها جميلًا!».

قال هام: «وعلمها!».

قال السيد بيجوتي: «كتابتها! وخط يدها الأسود الذي يبدو مثل الطائرات! كبير جدًّا، حتى إنك تراه من على بعد أي مكان».

كان من دواعي سروري أن أرى هذا الحماس الذي استولى على السيد بيجوتي بعدما فكر في صغيرته المدللة. أتذكره واقفًا أمامي مرة أخرى، بوجهه المزهو المشعر الذي يشع حبًّا وافتخارًا وبهجة، فلا أجد له وصفًا. تشتعل عيناه الصادقتان وتتألقان، وكأنهما يحركان في أعماقي شيئًا مشرقًا. كان صدره العريض يتنفس في سرور. كان يعتصر قبضتيه القويتين في جدية، وقد أخذ يؤكد ما يقوله بذراعه اليمنى التي لاحت أمام ناظري مثل مطرقة.

كان هام جادًّا تمامًا مثله. أجرؤ على القول إنهم كانوا على وشك قول الكثير عنها، لولا أنهم شعروا بالحرج بعد دخول ستيرفورث غير المتوقع، فقد رآني في الزاوية أتحدث مع اثنين من الغرباء. توقف ستيرفورث عن أغنية كان يغنيها، وراح يقول: «لم أكن أعلم أنك هنا، يا أيها الشاب كوبرفيلد». (لأنها لم تكن غرفة الزيارة المعتادة) وقد عبرناها في طريقنا للخروج.

لست متأكدًا مما إذا كنت أفتخر بصداقة ستيرفورث، أم أنني رغبت في أن أشرح له كيف صرت صديقًا لإنسان مثل السيد بيجوتي، لذلك قمت ناديته حين همَّ بالذهاب بعيدًا. لكني أقول، بتواضع الآن- يا إلهي، كيف أتذكر كل هذا بعد هذا الوقت الطويل!

«لا تذهب يا ستيرفورث، إذا سمحت. هذان اثنان من رجال المراكب في يارموث -شخصان طيبان للغاية- تربطهما صلة قرابة بمربيتي، وقد أتيا من جرافسند لرؤيتي».

قال ستيرفورث ملتفتًا نحونا: «آه، نعم، إنني سعيد برؤيتهما. كيف حالكما؟».

كان أسلوبه بسيطًا - كان أسلوبه ناعمًا وخفيفًا، ولكنه لم يكن مبتهجًا - ولم أزل أحسبه متسمًا بنوع من السحر. ما زلت أصدقه، بحكم هذه السمات وبما يتمتع به من حيوية ونشاط. كان صوته مبهجًا، تضفي عليه سمات وجهه بما فيها من ملامح وسيمة - على حد علمي - نوعًا من الجاذبية الفطرية (والتي أظن أن قلة من الناس يمتلكونها). لقد حمل سحرًا كان من الطبيعي الخضوع له، دون أن يستطيع أي إنسان الانفلات من أسره. لم يسعني إلا أن أرى مدى سعادتهما به، وكيف بدا أنهما فتحا له قلباهما في لحظة.

قلت: «يجب أن تخبرهم في المنزل، إذا سمحت، يا سيد بيجوتي، عندما ترسل هذه الرسالة، أن السيد ستيرفورث لطيف جدًّا معي، وأنني لا أعرف ماذا كنت لأفعل هنا من دونه».

قال ستيرفورث ضاحكًا: «هراء! يجب ألا تخبرهم بأي شيء من هذا القبيل».

فقلت: «أما يا سيد بيجوتي؛ إذا جاء السيد ستيرفورث إلى نورفك أو سافوك في أثناء وجودي هناك، فيمكنك الاعتماد عليَّ، لأنني سأحضره إلى يارموث -إذا سمحت لي- لرؤية منزلك. إنك لم ترَ مثل هذا المنزل

الرائع من قبل يا ستيرفورث. إنه منزل مصنوع من قارب!».

قال ستيرفورث: «مصنوع من قارب، أليس كذلك؟ إنه نوع المنازل المناسبة لملاح ماهر».

قال هام مبتسمًا: «حسنًا يا سيدي، إنه كذلك يا سيدي. إنك على حق أيها الجنرال الشاب! يا سيد ديفي الصغير، إن الجنرال على حق. إنه لملاح ماهر، مهارته واضحة كالشمس، هذا ما هو عليه بالفعل».

لم يكن السيد بيجوتي أقل سعادة من ابن أخيه، على الرغم من أن تواضعه منعه من الرد على مجاملة شخصية بصوت عالٍ، فقال بينما ينحني ثم يضحك، وقد أخذ يفرك نهايات منديل رقبته المنسدل على صدره: «حسنًا يا سيدي. أشكرك يا سيدي، شكرًا. إنني أبذل جهدي في دروب الحياة يا سيدي».

قال ستيرفورث: «إن أمهر الرجال لا يستطيعون فعل ما هو أكثر يا سيد بيجوتي». كان ستيرفورث قد عرف اسمه بالفعل.

قال السيد بيجوتي بينما يهز رأسه: «سأكمل دربي، وقد أدركت أنك تفعل الشيء نفسه يا سيدي، لقد أدركت أنك تقوم بعمل جيد - حسنًا! شكرًا يا سيدي. إنني مدين لك يا سيدي بهذا الترحيب. إنني رجل غليظ يا سيدي، لكنني مستعد - أو على أقل تقدير أتمنى أن أكون جاهزًا كما تعرف، لاستقبالك. إن منزلي ليس بالكبير لتفقده يا سيدي، لكنه ممتع وسنكون في خدمتك إذا جئت إلينا مع السيد ديفي لزيارته. إنني حلزون، نعم إنني كذلك». كان يقصد بالحلزون إشارة إلى كونه بطيئًا في التحرك بين الجمل، لأنه حاول متابعة كل جملة، وكانت لديه

طريقة ما يكمل بها الحديث مرة أخرى. استطرد قائلًا: «ولكني أتمنى لكما التوفيق، وأتمنى لكما السعادة».

ردد هام هذه المجاملة، وودعناهما بأحرّ ما يكون الوداع. كدت أميل للغاية في هذا المساء إلى التكلم مع ستيرفورث عن إيميلي الصغيرة، لكنني كنت خجولًا جدًّا من ذكر اسمها، وخائفًا جدًّا من ضحكه وسخريته. أتذكر أنني فكرت بقلق عارم واضطراب حول قول السيد بيجوتي إنها ستصير امرأة، لكنني قررت أن هذا القول لم يكن سوى محض كلام فارغ.

نقلنا المحار، أو «المُشهِّيات» كما تواضع وأسماها السيد بيجوتي، إلى غرفتنا من دون أن يلاحظنا أحد، وأعددنا عشاءً رائعًا في المساء. أما ترادلز، فلم يكن سعيدًا ليظفر به. لقد كان بالغ الأسى حتى أنه لم يُقبل على تناول العشاء بشهية مثل أي شخص آخر. أعياه سلطعون البحر وظهر مرضه في الليل، فصار ملازمًا لفراشه تمامًا. أخذ يتناول سوائل سوداء وحبوبًا زرقاء، إلى الحد الذي قال فيه ديمبل (كان والده طبيبًا) إنه يكفي لتقويض بنية الحصان. إلا أنه تلقى ضربًا بالعصا وعوقب بكتابة ستة فصول من العهد القديم لرفضه الاعتراف بما حدث.

أما ما تبقى من نصف العام فلم يزل خليطًا من ذكرياتي عن الصراع اليومي والنضال في حياتنا. ذكريات عن انقضاء الصيف وتغير الموسم، وما في كل صباح بارد نهب فيه من الفراش، ثم الرائحة الباردة والمنعشة في الليالي المظلمة عندما نغوص في الفراش مرة أخرى. ذكريات عن حجرة الدراسة المسائية المضاءة بشكل خافت من دون أن يتخللها دفء،

ثم قاعة الدراسة الصباحية التي لم تكن سوى آلة ترتجف. تناوب رائحة اللحم البقري المسلوق مع لحم البقر المشوي، وتناوب رائحة لحم الضأن المسلوق مع لحم الضأن المشوي، وروائح كتل الخبز والزبدة. ذكريات عن هيئة الكتب ذات الثنيات، والألواح المتشققة، وكتب النسخ الممزقة بالدموع، والعصا، والمسطرة، وقصاصات الشعر، وأيام الآحاد الممطرة، والحلوى، والمحيط القذر ملطخ بالحبر، يحيط بكل شيء.

أتذكر جيدًا؛ كيف بدأت فكرة الإجازات تغدو بعيدة، بعد أن بدت لي لفترة طويلة كما لو أنها بذرة جامدة، إلى أن أخذت تنمو وتقترب منا. كيف انتقلنا من حساب الشهور إلى عد الأسابيع ثم الأيام، وكيف بدأت أشعر بالخوف بعد ذلك من عدم إرسالي للبيت. علمت من ستيرفورث أنهم دعوني بالفعل، وأنه من المؤكد أنني سأعود إلى المنزل، إلا أنني شعرت بنذير شؤم لدرجة أنني تخيلت أنه قد تكسر ساقي قبل أن أعود. أتذكر كيف انقضى يوم الرجوع بسرعة، فصار أخيرًا، من الأسبوع بعد القادم إلى الأسبوع التالي، ثم من هذا الأسبوع إلى بعد الغد، ثم إلى الغد، ثم صار اليوم والليلة - فإذا بي داخل عربة يارموث، في طريقي إلى المنزل.

لقد غفوت كثيرًا داخل عربة يارموث، وقد انتابتني أحلام كثيرة غير متسقة تضمنت أشياء متنوعة. إلا أنني استيقظت على فترات متقطعة، وانتبهت أن الأرض خارج نافذة العربة لم تكن هي ملعب مدرسة سالم هاوس، والصوت الذي يتناهى إلى أذني لم يكن صوت السيد كريكل بينما يضرب ترادلز، ولكنه صوت الحوذي يضرب الخيول.

الفصل الثامن

عطلتي

ذات أصيل خاص سعيد

وصلنا قبل انقضاء النهار إلى الفندق حيث توقفت العربة، ولم يكن الفندق نفسه الذي يعيش فيه صديقي النادل. نزلت في غرفة نوم صغيرة لطيفة، تعلو بابها رسمة دولفين. أعلم أنني كنت أشعر ببرودة بالغة؛ على الرغم من الشاي الساخن الذي قدموه لي، وجلوسي قبالة المدفأة في الطابق السفلي. كنت سعيدًا للغاية حين توجهت إلى سريري الذي يرتسم الدولفين على بابه، وسحبت بطانيات فندق الدولفين فوق رأسي، ورحت في سبات.

كان المتفق عليه أن يأتي السيد باركس الحمَّال، في الساعة التاسعة صباحًا. استيقظت في الثامنة، بينما أشعر بالدوار نتيجة قصر فترة نومي ليلًا، إلا أنني كنت على أتم الاستعداد قبل الموعد المحدد. استقبلني السيد باركس كما لو لم يمضِ على فراقنا آخر مرة سوى خمس دقائق لا غير، وكما لو أنني لم أغب عنه إلا بدخولي الفندق فقط للحصول على فكة لستة بنسات، أو شيء من هذا القبيل.

استقللت أنا وصندوقي العربة، فاتخذ الحوذي مجلسه، ثم سار الحصان الكسول بنا جميعًا بوتيرته المعتادة.

تحدثت إليه بعد أن حسبت أنه يريد محادثتي، قائلًا: «إنك تبدو في حالة جيدة جدًّا يا سيد باركس».

فرك السيد باركس خده بسواره، ثم نظر إلى طرف السوار كما لو كان يتوقع أن يجد بعض الاحمرار كأثر لهذه الحال الجيدة عليه، لكنه لم يقدم أي رد سوى هذا الفعل على هذه المجاملة.

قلت: «لقد أرسلت رسالتك يا سيد باركس، لقد كتبت إلى بيجوتي».

قال السيد باركس: «آه!».

بدا السيد باركس عابسًا، وقد أجاب في جمود.

سألته بعد قليل من التردد: «أليس هذا الفعل جيدًا يا سيد باركس؟».

قال السيد باركس: «لماذا يكون جيدًا، نعم».

«هل الرسالة ليست جيدة؟».

قال السيد باركس: «الرسالة كانت صحيحة بما فيه الكفاية، ربما، لكنها تنتهي عند هذا الحد».

لم أفهم ما كان يقصده، كررت سؤالي بفضول: «هل وصلت إلى النهاية يا سيد باركس؟».

أوضح بينما ينظر إليَّ بطرف عينه: «لم تؤثر بشيء. لم تأتِ الإجابة».

كانت هذه الإجابة جديدة بالنسبة إليَّ، فاتسعت عيناي ورحت أقول: «هل ثمة إجابة متوقعة يا سيد باركس؟».

قال السيد باركس بينما يوجه نظره ناحيتي ببطء مرة أخرى: «عندما يقول الرجل إنه راغب، فنقول، ونتوقع بقدر ما، أن هذا الرجل ينتظر الحصول على إجابة».

«حسنًا يا سيد باركس».

قال السيد باركس بينما يحول نظرات عينيه إلى أذني حصانه: «حسنًا؛ إن هذا الرجل ظل ينتظر إجابة منذ ذلك الحين».

«هل أخبرتها بذلك يا سيد باركس؟».

راح يفكر في الأمر السيد باركس بينما أخذ يتمتم قائلًا: «لا... لا، لم تقع بيننا أي محادثة لأذهب إليها وأخبرها بذلك. لم أتحدث معها ولو بست كلمات كاملة، ولن أقول لها ذلك الآن».

قلت له في تردد: «هل تريدني أن أقوم بالأمر يا سيد باركس؟».

قال السيد باركس بينما ينظر نحوي نظرة أخرى بطيئة: «قد تخبرها، إذا أردت ذلك، فتقول إن باركس كان ينتظر منكِ الإجابة. يقول لكِ يا... ما اسمها؟».

«أتسأل عن اسمها؟».

قال السيد باركس بإيماءة من رأسه: «نعم!».

«بيجوتي».

قال السيد باركس: «هل هو لقبها المسيحي؟ أم أنه اسمها الطبيعي؟».

«آهٍ، إنه ليس اسمها المسيحي. إن اسمها المسيحي هو كلارا».

قال السيد باركس: «هل هذا صحيح؟».

بدا أنه وجد مصدرًا هائلًا للتفكير في هذا الأمر، فجلس يفكر ويصفر لبعض الوقت.

استطرد بعدها قائلًا: «حسنًا! إنه يقول لكِ يا بيجوتي إن باركس ينتظر إجابة. ربما تقول لك «عن أي شيء أجيب؟». ستقول لها: «على ما قلته لكِ». ستسألك: «ما هو؟». ستقول لها: «إن باركس راغب»».

كان هذا الاقتراح شديد البراعة من السيد باركس مصحوبًا بنكزة أوجعتني من مرفقه إلى جانبي. انحنى بعد ذلك فوق حصانه بطريقته المعتادة، ولم يعاود الحديث في الأمر. إلا أنه تناول بعد نصف ساعة، قطعة من الطباشير من جيبه، وأخذ يكتب داخل مظلة العربة، «كلارا بيجوتي» - كتب اسمها على ما يبدو كملاحظة خاصة.

آهٍ، يا له من شعور غريب أن أعود إلى المنزل بعد غياب طويل عنه. رحت أنظر إلى كل شيء أمر به، فأتذكر المنزل القديم السعيد، الذي كان بمثابة حلم لا يسعني أن أحلم به مرة أخرى. أذكر أيامًا كنت فيها أنا وأمي وبيجوتي مجتمعين، دون أن يُفرِّق بيننا دخيل. لاحت هذه الأيام أمامي وقد أحزنتني ذكراها طوال الطريق، إلى الحد الذي جعلني غير متأكد من أنني سأسعد بالرجوع - بالتأكيد ليس لأنني أُفضِّل أن

أبقى بعيدًا، أو أنني سأنسى الأمر في صحبة ستيرفورث - فها أنا في طريق العودة إلى منزلي. وصلت إلى المنزل سريعًا، حيث تتدلى أشجار الدردار القديمة العارية تطوح أياديها في الهواء الشتوي القاتم، بينما تلاشت أعشاش الطيور القديمة مع الريح.

وضع الحوذي صندوقي عند بوابة الحديقة وتركني. مشيت على طول الطريق المؤدي إلى المنزل، وألقيت نظرة خاطفة على النوافذ، بينما أرتعب في كل خطوة من رؤية السيد مردستون أو الآنسة مردستون يطلان من إحداها. لم يظهر أي وجه. وصلت إلى البيت، بعد أن عرفت كيفية فتح الباب قبل حلول الظلام، فلم أطرق الباب، ودخلت بخطوات هادئة على مهل.

يعلم الله كيف استيقظت داخلي ذاكرة الطفولة، حين سمعت صوت أمي في الصالون القديم، عندما وطأت قدماي القاعة. كانت تغني بنبرة منخفضة. يخيل لي أنني استلقيت بين ذراعيها، وسمعتها تغني لي حين كنت طفلًا. كانت هذه النغمات جديدة على مسامعي، ومع ذلك كان وقعها قديمًا جدًّا حتى إنها ملأت قلبي وأسرته، كما لو كانت صديقًا حميمًا عاد بعد طول غياب.

كنت على يقين، من الطريقة الموحشة والبائسة التي تتمتم أمي بها أغنيتها؛ إنها تجلس وحيدة. دخلت الغرفة في هدوء. أبصرتها جالسة إلى جانب النار، تُرضع طفلًا صغيرًا بينما تضع يده الصغيرة على عنقها. كانت عيناها تنظران إلى وجهه، وقد راحت تغني له. تأكدت أنني على حق حتى الآن، فلم يكن لديها رفيق آخر.

ناديتها، فهمَّت واقفة، ثم صرخت، لكنها عندما أبصرتني نادتني قائلة: «عزيزي ديفي، يا ولدي!». تجاوزت منتصف الغرفة واقتربت لمقابلتي، ثم ركعت على الأرض وأخذت تُقبِّلني، ووضعت رأسي بالقرب من هذا المخلوق الصغير الذي كان يعشش على صدرها، وقد وضع يده على شفتي.

تمنيت الموت. كنت أتمنى لو أنني متُّ حينها، بعد هذا الشعور الذي اجتاح قلبي! لم أتمنَّ يومًا أن تُطلق روحي إلى السماء أكثر مما تمنيته ذاك الحين.

قالت أمي وهي تداعبني: «إنه أخوك يا ديفي، يا بني الجميل، يا طفلي المسكين»، ثم أخذت تزيد من تقبيلي، وتعانقني. كانت على هذه الحال حتى جاءت بيجوتي مهرولة، وانبطحت جانبنا أرضًا، حتى كادت تجن، وقد بقينا على هذه الحال لربع ساعة كاملة.

يبدو أنهم لم يتوقعوا وصولي قريبًا، حيث أوصلني الحوذي قبل وقت عودتي المعتاد. وبدا أيضًا أن السيد مردستون والآنسة أخته كانا قد خرجا في زيارة للحي، وأنهما لن يعودا قبل حلول الليل. لم أكن أتمنى شيئًا كهذا قَطُّ. إذ لم أكن أحسب قَطُّ أنه من الممكن أن يكون ثلاثتنا معًا من دون إزعاج مرة أخرى، ولذا فقد شعرت في ذاك الوقت أن الأيام الخوالي قد عادت إلينا.

تناولنا الغداء معًا بجانب المدفأة. كانت بيجوتي حاضرة لخدمتنا، لكن أمي لم تسمح لها بالقيام بذلك، وجعلتها تتناول الغداء معنا. وُضِع أمامي طبقي القديم، الذي ترتسم عليه سفينة ناشرة شراعها كاملًا. كانت

بيجوتي قد حفظته طوال الوقت الذي كنت فيه بعيدًا في مكان ما. قالت إنها لم تكن لترضى أن تكسر الطبق أو تُفرِّط فيه ولو مقابل مائة جنيه. وضعت أمامي كذلك كوبًا قديمًا يعلوه اسم ديفيد، وسكيني وشوكتي الصغيرة القديمة والتي صارت لا تقطع شيئًا.

جلسنا على الطاولة، فحسبت أنها لحظة مناسبة لإخبار بيجوتي عن السيد باركس، لكنها راحت تضحك قبل أن أنتهي مما يجب أن أقوله لها، وألقت بمئزرها على وجهها تخفيه.

قالت أمي: «ما الأمر يا بيجوتي؟».

زادت بيجوتي من ضحكاتها أكثر، وأمسكت مئزرها بإحكام على وجهها بينما حاولت أمي إزاحته بعيدًا، بينما ظلت جالسة كما لو أن رأسها محشورًا في كيس.

قالت أمي ضاحكة: «ماذا تفعلين أيتها المخلوقة الحمقاء؟».

صاحت بيجوتي: «آهٍ، يا لهذا الرجل! إنه يريد الزواج مني».

قالت أمي: «سيكون مناسبًا لكِ للغاية، أليس كذلك؟».

أجابت بيجوتي: «يااا! لا أعرف. لا تسأليني. لن أريده ولو كان مصنوعًا من الذهب. ولن أريد أى شخص آخر».

قالت أمي: «إذن، لماذا لا تخبرينه بذلك، أيتها السخيفة؟».

ردت بيجوتي بينما تتطلع إلينا من مئزرها: «أخبره بذلك! إنه لم يقل لي كلمة واحدة عن الأمر، ومن الأفضل أنه لم يقل. فإذا تجرأ بقول مثل هذه العبارات لي، فإنني سأصفعه على وجهه».

كان وجهها -على حد ظني- أكثر حمرة من أي وقت مضى، لكنها غطته مرة أخرى. لم تكن تظهر وجهها سوى بضع لحظات في كل مرة، بينما غرقت في نوبة ضحك شديدة، وبعد نوبتين أو ثلاث من تلك النوبات، واصلت تناول الغداء.

لاحظت أن أمي، على الرغم من ابتسامتها حين نظرت إلى بيجوتي، صارت أكثر جدية ووقارًا. لاحظت تغيرها منذ البداية. كان وجهها في غاية السكينة، لكنه بدا شاحبًا ومهمومًا للغاية. أما يدها فصارت رفيعة وبيضاء لدرجة أنها بدت لي شفافة. أما التغير الأكبر الذي أشير إليه الآن بالإضافة إلى ما سبق، فكان في طريقتها، التي صارت أكثر قلقًا واضطرابًا. تحدثت أخيرًا بعد أن بسطت يدها إلى يد خادمتها العجوز في حنان، قائلة:

«يا عزيزتي بيجوتي، هل ستتزوجين؟».

ردت بيجوتي محدقة فيها قائلة: «أنا يا سيدتي؟ باركك الله، لا!».

قالت أمي برقة: «ليس بعد الآن؟».

صرخت بيجوتي: «أبدًا».

أمسكت أمي بيدها وقالت:

«لا تتركيني يا بيجوتي. ابقي معي. ربما لن يدوم الأمر طويلًا. كيف سأتصرف من دونك؟!».

صرخت بيجوتي: «أنا أتركك يا عزيزتي! أنتِ أغلى عندي من العالم كله. لماذا تفكرين هكذا؟ ما الذي وضع في رأسك الصغير هذا

الكلام السخيف؟» - كانت بيجوتي، تتحدث إلى أمي في بعض الأحيان كما لو أنها طفلة صغيرة.

لكن أمي لم تجب إلا بشكرها، ثم واصلت بيجوتي حديثها بهذه الطريقة الخاصة التي تعودتها.

«أنا أتركك؟ أحسب أنني أكثر الناس معرفة بحالي. بيجوتي لن تذهب بعيدًا عنكِ. أود أن أقبض عليها لو فعلت ذلك!». أكملت بيجوتي بينما تهز رأسها وتطوي ذراعيها: «لا، لا، لا. ليست هي من تفعل ذلك يا عزيزتي. لا يعني ذلك أنه لا توجد بعض القطط التي ستسعد للغاية إن رحلت عنكِ بيجوتي، لكنها لن تتركها تنعم بذلك. يجب أن تتكبد العناء. سأبقى معكِ حتى أصير امرأة عجوزًا غريبة الأطوار، بل حتى أصير صماء، وشديدة العرج، وفي كامل العماء، ثم أصير متلعثمة للغاية بسبب سقوط أسناني، بحيث لا أصير ذات فائدة على الإطلاق، فإن لم أجد نفعًا من وجودي، فإني سأذهب إلى ديفي، وأطلب منه أن يأخذني معه».

قلت: «وإنني يا بيجوتي، سأسعد برؤيتك، وسأرحب بكِ كملكة».

صرخت بيجوتي قائلة: «بارك الله قلبك الغالي، أعلم أنك ستفعل ذلك».

كانت بيجوتي قد قبَّلتني قبل إجابتها؛ تقديرًا لما أكننته من حسن استقبالي لها. غطت بعد ذلك رأسها بمئزرها مرة أخرى، ثم عاودت الضحك على عرض السيد باركس. حملت بعدها الطفل من مهده الصغير وأخذت تهدهده. نظفت طاولة العشاء، ثم دخلت مرتدية

طاقيتها، ومصطحبة صندوق عملها، ومازورة القياس، وقليلًا من الشمع، وكل أدواتها التي اعتدت دومًا رؤيتها.

جلسنا حول نار المدفأة ورحنا نتحدث في سعادة. أخبرتهم كم كان السيد كريكل قاسيًا، فأشفقوا عليَّ جدًّا. أخبرتهم عن ستيرفورث الرائع، وكيف كان رفيقًا بي ومراعيًا لحالي، ثم قالت بيجوتي إنها تتمنى لو تمشي عشرات الأميال لرؤيته. حملت الطفل الصغير بين ذراعي عندما استيقظ، وأخذت أدلـله بمحبة. عاد إلى نومه مرة أخرى، فتسللت بالقرب من أمي كما هي عادتي القديمة التي انقطعت قبل هذه اللحظة لفترة طويلة. جلست وقد طويت ذراعي ليحتضن خصرها، بينما أسندت وجنتي الصغيرة الحمراء على كتفها، وشعرت مرة أخرى بشعرها الجميل يتدلى فوقي -كان كما أتذكره مثل جناح الملائكة- وصرت في غاية السعادة حقًّا.

مكثت جالسًا على هذا النحو، أنظر إلى نار المدفأة، فأتخيل صورًا تتشكل من الفحم الملتهب. رحت أظنني لم أسافر بعيدًا، وأن السيد مردستون والآنسة أخته كانا يتمثلان لي في هذه الصور، وأنهما سوف يختفيان حالما تخبو النار، وأن لا شيء حقيقي في كل ما تخيلته، سوى أمي، وبيجوتي، وأنا.

كانت بيجوتي معتكفة بعيدًا على إصلاح جورب، ما دامت تستطيع رؤيته. جلست وبسطته على يدها اليسرى مثل القفاز، بينما تناولت إبرتها بيدها اليمنى، تستعد لحياكة غرزة أخرى كلما توقدت النيران بضوئها.

لا أستطيع أن أتخيل صاحب هذه الجوارب التي كانت بيجوتي تحوكها دائمًا، أو من أين يمكن أن يأتي مثل هذا الإمداد الثابت من الجوارب الذي يحتاج إلى رتق. يبدو أنها ظلت تعمل دائمًا منذ طفولتي المبكرة في هذا النوع من الحياكة بالإبرة، ولم تكن قَطُّ تسنح لها الفرصة لحياكة أي أنواع أخرى.

قالت بيجوتي التي كانت تتساءل أحيانًا عن بعض الموضوعات غير المتوقعة: «أتساءل، ما الذي حدث لعمة ديفي الكبرى؟».

قالت أمي وقد انتبهت من غفلتها: «يا الله، يا بيجوتي! ما هذا الهراء الذي تتحدثين عنه؟!».

قالت بيجوتي: «حسنًا، لكنني أتساءل حقًّا يا سيدتي».

سألتها أمي قائلة: «ما الذي يستدعي مثل هذه المرأة في رأسكِ؟ ألا يوجد أي شخص آخر في العالم لتفكري فيه؟».

قالت بيجوتي: «لا أعرف كيف تخطر بذهني، إلا إذا كان غبائي هو السبب، فرأسي لا يمكنه أبدًا انتقاء واختيار من يفكر فيه. يأتون ويذهبون، أو لا يأتون ولا يذهبون كما يحلو لهم. أتساءل عن مصيرها».

عادت أمي تقول: «كم أنتِ سخيفة يا بيجوتي! قد يحسب المرء أنكِ تريدين زيارة ثانية منها».

صرخت بيجوتي قائلة: «معاذ الله!».

قالت أمي: «حسنًا، لا تتحدثي عن مثل هذه الأشياء المقلقة، فليحفظنا الله. إن الآنسة بيتسي تعيش منعزلة في كوخها بجوار البحر،

وستبقى بلا شك هناك. ليس من المحتمل في جميع الأحوال أن تزعجنا مرة أخرى».

عقَّبت بيجوتي وهي ساهمة تقول: «لا! لا، هذا غير محتمل على الإطلاق... إني أتساءل، إذا ماتت، فهل ستترك لديفي أي شيء؟».

ردت أمي: «ارحمني يا الله! يا لكِ من امرأة تخرف يا بيجوتي، تعلمين أنها كانت مستاءة من ولادته، كما لو أنها لم ترد لهذا العزيز المسكين القدوم على الإطلاق».

ألمحت بيجوتي قائلة: «أفترض أنها لن تميل إلى مسامحته الآن».

قالت أمي في حدة: «لماذا تميل إلى مسامحته الآن؟».

قالت بيجوتي: «أعني أنه الآن قد صار لديه أخ».

بدأت أمي في البكاء على الفور، واندهشت لجرأة بيجوتي على قول شيء من هذا القبيل.

قالت: «كما لو أن هذا المسكين الصغير البريء قد تسبب في مهده في أي ضرر لكِ أو لأي شخص آخر، يا لكِ من غيورة! كان من الأفضل لكِ أن تذهبي فتتزوجي من السيد باركس، تزوجي هذا الحوذي. لمَ لا؟».

قالت بيجوتي: «لو فعلت ذلك لأسعدت الآنسة مردستون بزواجي هذا».

أثنت أمي تقول: «يا له من تصرف سيئ يا بيجوتي! إنكِ تغارين من الآنسة مردستون كما يفعل أي مخلوق سخيف. لا تريدين سوى

الاحتفاظ بالمفاتيح، وامتلاك زمام كل الأشياء، على ما أظن؟ يجب ألا أتفاجأ إذا كننتِ هذه الغيرة. إنكِ تعلمين أنها لا تفعل ذلك إلا بدافع من الود والنيات الطيبة! إنكِ تعرفين أنها تقوم بالأمر يا بيجوتي - إنكِ تعرفين الأمر جيدًا».

تمتمت بيجوتي شيئًا ما فهمت منه أنها تقول: «يا لها من أسوأ النيات!». وشيء آخر يشير إلى وجود الكثير من النيات غير الطيبة.

قالت أمي: «إنني أفهم ما تعنينه، إنكِ تخطئين في تقدير كل شيء. إنني أفهمك تمامًا يا بيجوتي. تعرفين أنني أفهمك، وأتساءل كيف لا يحمر وجهك خجلًا مما تقولين! لنفند الأمر نقطة نقطة: إن الآنسة مردستون هي النقطة الرئيسة الآن يا بيجوتي، ولن تهربي من أمرها. ألم تسمعيها تقول، أكثر من مرة، إنها تظن أنني لا أستطيع تدبر الأمور، وإنني أيضًا... أ... أ...».

أضافت بيجوتي قائلة: «جميلة».

أكملت أمي حديثها نصف ضاحكة وراحت تقول: «حسنًا، وإن كانت سخيفة حقًّا للحد الذي يجعلها تقول ذلك، فهل يمكن أن أُلام على ذلك؟».

قالت بيجوتي: «لم يقل أحد إنكِ ستُلامين».

راحت أمي تقول: «لا، آمل ألا يلومني أحد في الواقع! ألم تسمعيها تقول أكثر من مرة، إنها كانت ترغب لهذا السبب في تخفيف قدر كبير من المتاعب؟ إنها تظن أنني لست مناسبة لإدارة الحسابات، وإنني

أعرف حقًّا أنني لست مناسبة لهذا الأمر. ألا تستيقظ مبكرًا وتذهب للنوم متأخرًا، وتظل تتجول ذهابًا وعودة باستمرار - فتتفقد جميع الأشياء، وتراقب كافة الأماكن، فتطمئن على الفحم وعلى المخازن وعلى أماكن أخرى لا أعرفها؟ ما تقولينه لن يصير مقبولًا أبدًا... وهل تقصدين التلميح بأن هذا العمل كله لا يشي بنوع من الإخلاص؟».

قالت بيجوتي: «إنني لا ألمح إلى شيء على الإطلاق».

عادت أمي تقول: «إنكِ تلمحين يا بيجوتي. إنكِ لا تفعلين أي شيء آخر، باستثناء هذا الشيء. إنكِ تلمحين دائمًا. إنكِ تستمتعين بهذا الأمر. وإذا تحدثت عن نيات السيد مردستون الطيبة».

قالت بيجوتي: «لم أتحدث عنها قَطُّ».

أردفت أمي قائلة: «لا يا بيجوتي؛ إنكِ تلمحين. هذا ما قلته لكِ الآن. إن هذا أسوأ ما فيكِ. سوف تلمحين. إن هذا ما قلته لكِ منذ لحظات، إنني أفهمك، وأنتِ تدركين أنني فهمتك. تتحدثين عن النيات الحسنة للسيد مردستون، وتتظاهرين بالاستخفاف بها -لأنني لا أحسب أنكِ تستخفين بها حقًّا من أعماق قلبك يا بيجوتي- يجب أن تقتنعي تمامًا بمدى روعتها مثلما أقتنع بها تمامًا، وكيف أنها المحرك لكل شيء يفعله. أما إذا بدا صارمًا مع شخص معين على وجه العموم يا بيجوتي - إنكِ تفهمين مقصدي، وإنني متأكدة من أن ديفي يفهمني، فأنا لا ألمح إلى أي شخص من الحاضرين - فذلك فقط لأنه مقتنع بأن الأمر سيعم بالفائدة على شخص بعينه. وإنه من الطبيعي أن يحب شخصًا معينًا لأجلي؛ ولا يعمل شيئًا سوى لمصلحة هذا الشخص. إنه أفضل

مني في الحكم على الأمور، لأني أعلم جيدًا أنني مخلوقة ضعيفة، واهنة وساذجة، أما هو فرجل قوي ورزين وجاد».

راحت أمي تقول، بينما تذرف الدموع، وتنسال على وجهها كما هي طبيعتها الحنونة: «إنه يقسو على نفسه كثيرًا من أجلي؛ وليس عليَّ سوى أن أصير شاكرة جدًّا له ومنصاعة تمامًا له ولو في أفكاري. إذا لم أكن على هذه الحال يا بيجوتي، فإنني سأشعر بالقلق وسأدين نفسي، وستراود الشكوك قلبي، فلا أعرف ماذا أفعل».

جلست بيجوتي وقد أسندت ذقنها على قدم الجورب بينما تنظر نحو النار في صمت.

تحدثت أمي بعد أن غيرت نبرتها قائلة: «هيا يا بيجوتي، دعينا لا نتشاجر معًا، لأنني لا أستطيع تحمل الشجار. إنني متأكدة من أنكِ صديقتي الصدوقة، إذا كانت لي أي صديقة في هذا العالم. إنني حين أدعوكِ مخلوقة سخيفة، أو شيئًا مزعجًا، أو أي شيء من هذا القبيل يا بيجوتي، فإنني لا أعني به سوى أنكِ صديقتي المفضلة. هكذا كنتِ دائمًا، منذ الليلة التي اصطحبني فيها السيد كوبرفيلد إلى المنزل لأول مرة، وخرجتِ إلى البوابة لاستقبالي».

لم تكن بيجوتي بطيئة الاستجابة، فأكدت عهد الصداقة بأن منحتني واحدة من أفضل معانقاتها. أحسب أنني أدركت بعض اللمحات عن الوجه الحقيقي لهذه المحادثة في ذلك الوقت. إذ إنني على يقين الآن، أن هذه المخلوقة الطيبة قد استدعت هذا الحديث واشتركت فيه، لتتيح لأمي قدرًا تُنفِّس فيه عن نفسها عبر هذا الحوار الملخص الصغير

المتناقض الذي انغمست فيه. كان الأمر فعالًا، فإنني أتذكر كيف بدت أمي مرتاحة أكثر بقية المساء، وقد صارت بيجوتي تراقبها بدرجة أقل.

تناولنا الشاي، وأبعدنا الرماد عن المدفأة، ثم أوقدنا الشموع. قرأت بيجوتي فصلًا من كتاب التماسيح، على غرار الأيام الخوالي - كانت قد أخرجته من جيبها؛ لا أعرف ما إذا كانت قد احتفظت به في جيبها منذ ذلك الحين أم لا - ثم تحدثنا عن مدرسة سالم هاوس، مما أعادني مرة أخرى للحديث عن ستيرفورث، الذي كان أعظم مجال لحديثي. كنا سعداء أيما سعادة. أما ذاك المساء، فلن أنساه أبدًا إذ كان الأخير، قبل أن تنمحي هذه السعادة من حياتي.

كادت الساعة تقترب من العاشرة حين سمعنا صوت عجلات العربة، فنهضنا جميعًا، ثم قالت أمي على عجل إن الوقت صار متأخرًا جدًّا، وإن السيد مردستون والآنسة أخته يفضلان نوم الأولاد في ساعات مبكرة، فربما من الأفضل أن آوي للفراش حتى أنام. قبَّلتُها، ثم صعدت مباشرة إلى الطابق العلوي مهتديًا بشمعتي، قبل أن يصلا. خيل إليَّ خيالي الطفولي، بينما أصعد إلى غرفة النوم أنني في طريق سجني، وأن مجيئهما قد جلب إلى المنزل هبة باردة من الهواء وقد طيَّر شعورنا القديم المألوف مثل ريشة في مهب الريح.

شعرت بقلق من فكرة نزولي لتناول الإفطار في الصباح، لأنني لم أرفع عيني إلى السيد مردستون منذ اليوم الذي ارتكبت فيه جرمي الذي لا يُنسى. نزلت على الرغم من ذلك، كان الأمر واجبًا على كل

الأحوال، وقد نزلت بعد أن تراجعت مرتين أو ثلاث مرات من منتصف الطريق، فقد ركضت عائدًا على أطراف أصابعي إلى غرفتي كثيرًا، إلى أن تجرأت على الدخول إلى الصالون.

كان السيد مردستون يقف أمام النار مديرًا ظهره إليها، بينما كانت الآنسة مردستون تعد الشاي. نظر إليَّ في ثبات عندما دخلت، لكنه لم يظهر أي علامة على أنه عرفني على الإطلاق. اقتربت منه بعد لحظة من الارتباك وقلت: «أستميحك عذرًا يا سيدي. إنني آسف جدًّا على ما فعلته، وآمل أن تسامحني».

أجاب قائلًا: «إنني سعيد لسماع أسفك يا ديفيد».

كانت اليد التي ناولني إياها هي اليد التي عضضتها. لم أستطع منع عيني من التركيز للحظة على بقعة حمراء عليها، لكنها لم تظل متوهجة كما كانت من قبل، ما لبثت بعدها أن رأيت تعبيرًا شريرًا يرتسم على وجهه.

قلت للآنسة مردستون: «كيف حالك يا سيدتي؟».

تنهدت الآنسة مردستون، وناولتني ملعقة لعلبة الشاي بدلًا من أن تبسط إليَّ أصابعها، وراحت تقول: «آه، يا عزيزي! ما مدة العطلة؟».

«شهر يا سيدتي».

«متى يبدأ احتسابه؟».

«من اليوم سيدتي».

قالت الآنسة مردستون: «آهٍ! إذن ها قد مر يوم من أيام العطلة».

ظلت تحسب أيام الإجازة على هذا النحو، وأخذت تتحقق كل صباح من انقضاء يوم من أيام العطلة بالطريقة نفسها تمامًا. راحت تعد الأيام بعبوس حتى وصلت إلى اليوم العاشر. صارت الأيام المتبقية للعطلة تتكون من رقمين، فكانت أكثر تفاؤلًا، ومع مرور الوقت ازدادت مرحًا.

أما يومي الأول فلم ينقضِ إلا بعد أن اتهمتني بسوء الطالع. على الرغم من أنها لم تكن ممن ينتبه لمثل هذا التشاؤم بشكل عام، فإنها كانت في حالة من الذعر البالغ. كنت قد دخلت الغرفة حيث جلست؛ هي وأمي والطفل (الذي كان عمره لم يتجاوز بضعة أسابيع فقط). كان الطفل مستلقيًا في حجر أمي، فحملته بحذر شديد بين ذراعي. فإذا بالآنسة مردستون وقد أطلقت صرخة مدوية؛ جعلتني أوشك على إسقاط الطفل من بين يدي.

صرخت أمي: «عزيزتي جين».

صاحت الآنسة مردستون: «يا إلهي يا كلارا، هل ترين؟».

قالت أمي: «ماذا أرى يا عزيزتي جين؟ أين؟».

صرخت الآنسة مردستون: «لقد أخذه. الصبي أخذ الطفل».

صارت متصلبة من شدة الفزع. لكنها مطت نفسها لتقترب من وجهي، وتنتزع الطفل من بين ذراعي، ثم فقدت وعيها. اشتد بها الإعياء للحد الذي اضطرهم إلى إعطائها كأسًا من نبيذ الكرز. لقد منعتني تمامًا، بعدما أفاقت، من لمس أخي بعد هذه اللحظة، لأي ذريعة مهما كانت. أما أمي المسكينة، فلم تستطع إلا أن تؤيدها، وإن كانت تتمنى

خلاف ذلك، إلا أنها أكدت بخنوع، قائلة: «لا شك إنكِ على حق يا عزيزتي جين».

صار ثلاثتنا معًا في مناسبة أخرى، وقد كان هذا الطفل العزيز نفسه معنا - لقد كان عزيزًا حقًّا عليَّ، من أجل والدتنا. تسبب الطفل البريء في دخول الآنسة مردستون في حالة من الهياج. كانت أمي قد قالت، بعدما أخذت تنظر إلى عيني الوليد الملقى في حجرها:

«ديفي، تعالَ إلى هنا» وراحت أمي تنظر إليَّ.

رأيت الآنسة مردستون تضع حبات عقدها على الأرض، بينما راحت أمي تقول بلطف: «إنني متأكدة من أنهما متشابهان تمامًا. أظن أنهما يشبهاني. أحسب أن لون أعينهما قد ورثاه مني. إنهما متشابهان بشكل رائع».

قالت الآنسة مردستون: «ما الذي تتحدثين عنه يا كلارا؟».

تراجعت أمي عن حديثها، بعد أن اندهشت قليلًا من النغمة القاسية لهذا الاستفسار، وراحت تقول: «عزيزتي جين، إنني أجد أن عيني الطفل وعيني ديفي متماثلتان تمامًا».

قالت الآنسة مردستون بينما تنهض من مجلسها غاضبة: «يا كلارا، إنكِ أحيانًا تبدين مغفلة بلا شك».

اعترضت أمي قائلة: «عزيزتي جين».

قالت الآنسة مردستون: «مغفلة بلا شك. مَن غيرك يمكن أن يقارن ابن أخي بطفلك؟ إنهما ليسا متشابهين على الإطلاق. إنهما على عكس

ذلك بالضبط. إنهما مختلفان تمامًا من جميع النواحي. آمل أن يظلا مختلفين. لن أجلس هنا، وأستمع إلى مثل هذه المقارنات». خرجت بعدها، ودفعت الباب من وراءها.

باختصار، لم أكن مقبولًا عند الآنسة مردستون. باختصار، لم أكن مقبولًا هناك عند أي شخص، ولم أكن راضيًا عن نفسي كذلك. لم يتمكن الذين أحبوني من إظهار محبتهم لي، أما الكارهون فقد أظهروا بغضهم بوضوح شديد للحد الذي جعلني أشعر أنني أبدو دائمًا مقيدًا وبائسًا ومملًّا.

شعرت أنني أضايقهم بالمثل كما يفعلون. كنت أدخل إلى الغرفة التي يتواجدون بها، حيث يتحدثون معًا وقد بدت أمي مبتهجة، فإذا بسحابة من القلق تغزو وجهها منذ لحظة دخولي. أما إذا كان السيد مردستون في أفضل حالات الدعابة، فإن دخولي كان يغير من حالته. إذا كانت الآنسة مردستون في أسوأ حالاتها، فإن قدومي يضاعف من استيائها. صارت عندي رؤية واضحة لأدرك أن أمي هي الضحية دائمًا، فقد كانت تخشى التحدث معي أو إبداء الود لي؛ خشية أن تسبب لهم إساءة من جراء طريقتها الودودة معي، وخشية أن تتلقى محاضرة بعد ذلك عن دورها. كما أن مخاوفها من أفعالي التي قد تتسبب في إهانتهما -لا من إهانتي وحسب- لم تنقطع قَطُّ. فلم تلبث تراقب مظهرهما بقلق إذا تحركت. عقدت العزم على إبقاء نفسي بعيدًا عن طريقهما قدر المستطاع. قضيت العديد من ساعات الشتاء أستمع إلى صوت دقات ساعة الكنيسة، بينما أجلس وحيدًا في غرفة نومي البائسة، ملتحفًا

بمعطفي الصغير، منكفئًا على كتاب.

كنت أذهب في المساء إلى بيجوتي، فأجلس أحيانًا معها في المطبخ. طاب لي المكان هناك، ولم يراودني خوف من التصرف على سجيتي. إلا أن هذا التصرف لم يوافق عليه أعضاء الصالون. لم يلبث أن دفعهما شعورهما بالسخط إلى منعي. صرت محتجزًا بعد أن أكدا ضرورة ملازمتي لأمي، لتقوِّم سلوكي وتربيتي، فلم يعد من المسموح لي أن أتغيب أو أخلو بنفسي.

قال السيد مردستون بعد انتهاء غداء أحد الأيام بينما كنت في طريقي إلى مغادرة الغرفة كالمعتاد: «يا ديفيد، يؤسفني أن ألاحظ أنك متجهم كئيب في تصرفاتك».

قالت الآنسة مردستون: «إنه عابس كالدب».

وقفت بلا حراك، مطأطأ الرأس.

قال السيد مردستون: «الآن يا ديفيد، إن الطبع العنيد المتجهم هو الأسوأ من بين جميع الطباع».

قالت أخته: «أما هذا الصبي، فإن سلوكه العنيد هو الأكثر سوءًا من بين جميع السلوكيات التي رأيتها على الإطلاق. أحسب أنكِ لاحظت سلوكه يا عزيزتي كلارا، أليس كذلك؟».

قالت أمي: «أستميحكِ عذرًا يا عزيزتي جين، ولكن هل أنتِ متأكدة تمامًا من أمره -إنني متأكدة من أنكِ ستعذرينني يا عزيزتي جين- هل تفهمين ديفي؟».

عادت الآنسة مردستون تقول: «إنني أشعر بخجل من نفسي إلى حد ما يا كلارا، إذ لم أستطع فهم الصبي أو أي صبي غيره. إنني لا أصرح بأنني عميقة الفهم، لكني أفهم ما تمليه الفطرة السليمة».

أردفت أمي قائلة: «لا شك في ذلك يا عزيزتي؛ إن فهمك قوي جدًّا».

قاطعتها الآنسة مردستون غاضبة: «آهٍ يا عزيزتي، لا! أرجوكِ لا تقولي ذلك يا كلارا».

استأنفت أمي كلامها: «لكنني متأكدة مما قلت. يدرك الجميع ذلك. إنني أستفيد للغاية من تفكيرك بنفسي، بطرق شتى - على الأقل يجب أن أستفيد من تفكيرك - بحيث لا يمكن لأحد أن يقتنع بكلامك أكثر مني، ولذلك فإنني أتحدث على استحياء بالغ يا عزيزتي جين، أؤكد لكِ ذلك».

ردت الآنسة مردستون، بينما تنسق الأساور حول معصميها، قائلة: «لنفترض أنني لا أفهم الصبي يا كلارا، بل لنتفق، إذا سمحتِ، أنني لا أفهمه على الإطلاق. وأنه أعمق بكثير من أن أفهمه بنفسي. أما بصيرة أخي فقد تخترق أسبار شخصيته وطباعه. وأحسب أن أخي كان يتحدث بشأن هذا الموضوع عندما قاطعته - بشكل لم يكن لائقًا».

قال السيد مردستون بصوت منخفض ونبرة جادة: «أظن يا كلارا، أن ثمة من يحكمون في هذا الأمر بصورة أفضل منكِ وبانفعال أقل».

ردت أمي متلعثمة: «يا إدوارد، إنك أفضل من يحكم على الأمور جميعها. أنت وجين كلاكما سيحكمان أفضل مني. إنني لم أقل سوى...».

أجاب: «إنكِ لم تقولي سوى أقوال واهية ومن دون مراعاة لوضعك. حاولي ألا تسلكي هذا الدرب مرة أخرى يا عزيزتي كلارا، وتحكَّمي في نفسك».

تحركت شفتا أمي كما لو أنها أجابت بقولها: «حاضر، يا عزيزي إدوارد»، لكنها لم تقل شيئًا بصوت مسموع.

قال السيد مردستون بعد أن أدار رأسه وحول عينيه نحوي في حركة عنيفة: «كنت أقول لك إنه يؤسفني يا ديفيد أن ألاحظ أنك متجهم. لا أستطيع أن أجد هذا الطبع يتطور أمام ناظري من دون بذل جهد في تغييره. يجب أن تسعى يا سيدي، لتغيير طبعك. وعلينا أن نسعى لتغييره من أجلك».

تلعثمت قائلًا: «أستميحك عذرًا يا سيدي، إنني لم أقصد قَطُّ أن أكون متجهمًا منذ عودتي».

أجابني في غضب بالغ، لدرجة أنني لمحت أمي بينما تمد يدها المرتجفة عنوة كما لو أنها تريد التدخل بيننا، راح يقول: «لا تلجأ إلى الكذب يا سيدي! لقد خلوت بنفسك في حزنك في غرفتك الخاصة. مكثتَ في غرفتك بينما كان من المفترض أن تكون هنا. إنك ستتعلم الآن، لمرة واحدة وأخيرة، أنني أريد منك أن تجلس هنا لا هناك. أريد منك، علاوة على ذلك، أن تمثل أمامي طائعًا هنا. إنك تعرفني يا ديفيد. سأجعلك تمتثل لما أريد».

أطلقت الآنسة مردستون ضحكة مكتومة خشنة.

تابع بعدها السيد مردستون قوله: «سأحظى منك بتقديم الاحترام

لي، وبسرعة تنفيذ ما أريده منك؛ هذا بالنسبة لي، وبالنسبة لجين مردستون، ولوالدتك أيضًا. لن أتجنب هذه الغرفة كما لو أنها مصدر لوباء، من أجل لهو طفل. فلتجلس».

أمرني كما يأمر كلبًا، وأنا أطعته طاعة الكلاب.

قال: «ثمة شيء آخر. إنني ألاحظ أنك تحب مخالطة المنحطين والعامة. لا ترتبط بالخدم بعد الآن. لن يربيك المطبخ، ولن يهذبك في العديد من النواحي التي تحتاج فيها إلى تهذيب. أما المرأة التي تحرضك، فإنني لا أقول شيئًا عنها، لأنكِ يا كلارا...». راح هنا يخاطب أمي بصوت خفيض قائلًا: «لم تستطيعي التخلص من روابطك القديمة بها وأوهامك الراسخة عنها، بما لديك من ضعف أمامها، من دون أن تتغلبي عليه بعد».

صاحت الآنسة مردستون: «إنه الوهم الذي يخلو من المنطق».

استأنف مخاطبتي قائلًا: «ما أود قوله هو أنني لا أوافق على تفضيلك هذا بمجالسة بيجوتي الخادمة، ويجب عليك عدم مرافقتها. إنك تفهمني الآن يا ديفيد، وتدرك العاقبة إذا ما فشلت في طاعة أي حرف مما أقول».

كنت أعرف جيدًا - ربما أدرك بصورة أفضل مما ظنَّ، خاصة فيما يتعلق بأمي المسكينة - لذا فقد أطعته تمامًا. لم أعد إلى غرفتي، ولم أعد ألجأ إلى بيجوتي، لكنني رحت أجلس في الردهة هامدًا يومًا بعد يوم، متطلعًا إلى حلول الليل وموعد النوم.

أي قيد كريه شعرت به، بينما كنت أمكث في المكان نفسه لساعات

وساعات، خائفًا من تحريك ذراع أو ساق، لئلا تشكو الآنسة مردستون من إزعاجي لها - كعادة شكواها من أقل همهمة. كنت أتحاشى أن تتحول عيني نحوها خشية أن تفضحني نظرة كراهية أو تمحيص، فتجد سببًا جديدًا للشكوى. يا له من ملل لا يحتمل! كنت أجلس مستمعًا إلى دقات الساعة المتتالية ومراقبة الآنسة مردستون بينما تلضم حبات الخرز اللامع. رحت أتساءل عما إذا كانت ستتزوج يومًا ما، وإذا كان الأمر على هذا النحو، فأي رجل تعس هذا الذي سيتزوجها. رحت أحسب أعداد القوالب المرصوصة حول المدخنة، كما رحت أتجول بعيني ساهمًا نحو السقف، ومحملقًا في ثنيات الورق المنبسط على الحائط.

كم تمشيت وحيدًا في الممرات الموحلة، تحت وطأة برد الشتاء، أعاني ثقل تحمل الجلوس في هذا الصالون الذي يحوي السيد مردستون والآنسة أخته. كنت أحمل همومي معي في كل مكان. يا لها من حمولة قاسية كنت مضطرًا إلى تحملها! يا لها من حمولة أثقلت كاهلي وأخذت تضعفني من دون أمل في انزياحها من على كاهلي!

كم من الواجبات رحت أؤديها في صمت وارتباك، بينما لازمني شعور دائم أن ثمة مبالغة واتهامًا يصحبان أي شيء يخصني. إن كان ثمة صوت لسكينة أو شوكة، فإنهما لي، وإن كان ثمة شهية نهمة أكثر من الطبيعي، فهي لي، وإن كان ثمة طبق أو كرسي غير ملائمين، فهما لي، وإن كان ثمة إنسان غير مألوف، فإنه أنا!

كم من أمسيات، جيء إليَّ فيها بالشموع لأعمل على إنجاز عملي، من دون أن أتجرأ على قراءة كتاب ترفيهي. لم أكن لأطالع سوى بعض

الموضوعات الجافة والمسائل الرياضية المجحفة، بينما أردد جدول الضرب وأتغنى بأسماء الأوزان والمقاييس، كما لو أنني أنشد «احكمي يا بريطانيا» أو «ابتعد أيها الحزن». لا يثبت حفظي لها على الرغم من ذلك ولا أتعلمها، كما لو أنها تعبر من إبرة جدتي تاركة رأسي المسكين. يدخلون من أذن ويخرجون من أخرى! كم من تثاؤب ونعاس رحت أسقط فيه! على الرغم من مقاومتي للنوم، رحت أنتفض بين غفوة وأخرى. كم من إجابات ضلت طريقها، فلم أحصل على أي منها إلا فيما ندر! كم كنت مجرد مساحة من فراغ قد أغفله الجميع، وكنت على الرغم من ذلك عقبة في طريق الجميع! كم أخذ يلفني ارتياح بالغ حين سماع الآنسة مردستون تنطق معلنة مع دقات الساعة الأولى أنها التاسعة ليلًا، فتأمرني بالنوم!

وهكذا انقضت العطلة ببطء، حتى الصباح الذي قالت فيه الآنسة مردستون: «إنه آخر أيام الإجازة»، ثم ناولتني كوب الشاي الأخير الذي سيختم الإجازة.

لم أكن آسفًا على الرحيل. كنت قد سقطت في دوائر حمقاء، لكنني على وشك أن أتعافى قليلًا وأتطلع إلى لقاء ستيرفورث، وإن كان السيد كريكل يلوح لي خلفه في الأفق. ظهر أمامي السيد باركس من جديد عند البوابة، وإذا بالآنسة مردستون ترد بنبرتها التحذيرية، عندما انحنت أمي فوقي لتودعني قائلة: «يا كلارا».

قبَّلتها وقبَّلت أخي الصغير، صرت في غاية الأسى حينها، لكنني لم أكن آسفًا للذهاب بعيدًا الآن، لأن الفجوة بيننا كانت متعمقة، وقد

لاح بيننا الفراق كل يوم. لم يكن العناق الذي منحته لي هو الماثل في خاطري إلى اليوم، على الرغم مما كان فيه من حرارة وصدق، إلا أن ما أعقب هذا العناق ظل ماثلًا أمامي.

كنت قد جلست في العربة حين سمعتها تنادي. نظرت إلى الخارج فإذا بها واقفة عند بوابة الحديقة وحدها، وقد حملت طفلها بين ذراعيها حتى أستطيع أن أراه. كان الجو باردًا ساكنًا، فلم تتحرك شعرة من رأسها، ولم تهفهف ثنية من ثنيات ملابسها، بينما تنظر نحوي باهتمام وتحمل طفلها.

هكذا فقدتها. وهكذا رحت أراها بعد ذلك، في نومي في المدرسة -بهذا الحضور الصامت بالقرب من سريري- تنظر إليَّ النظرة نفسها - بينما تحمل طفلها بين ذراعيها.





الفصل التاسع

عيد ميلاد لا يُنسى

تجاوزت عن كل ما حدث في المدرسة، إلى أن حل عيد ميلادي في شهر مارس. أما ستيرفورث فقد صرت معجبًا به أكثر من أي وقت مضى، وباستثناء ذلك الإعجاب فإني لا أتذكر شيئًا آخر. كان من المفترض أن يرحل مع نهاية نصف العام الدراسي، إن لم يكن قبل ذلك، وقد لاح في عيني حينها أكثر نشاطًا ومرحًا من ذي قبل، لكنني لا أتذكر شيئًا بعد هذا اليوم. يبدو أن الذكريات العظيمة التي تميز هذا الوقت تحديدًا في ذهني من دون غيره، قد ابتلعت ما عداها من الذكريات وبقيت وحدها.

إنه من الصعب أن أصدق أن فجوة قد امتدت طوال شهرين كاملين بين عودتي إلى سالم هاوس وصولًا إلى يوم عيد ميلادي من دون أن أتذكر وقائعها. إلا أنني لا أستطيع سوى الإقرار بهذه الحقيقة. أعلم أن ثمة زمنًا عشته تعاقبت فيه الأحداث واحدًا تلو الآخر لا أذكره؛ وإلا فإنني سأقتنع بأن فاصلًا زمنيًّا قد تلاشى.

كيف أحتفظ في ذاكرتي بأحداث ذاك اليوم! لم أزل أشم رائحة الضباب العالق في المكان. أبصر أمامي غيوم الصقيع الشبحي الهائج، فأشعر بشعري المموج ينسدل فوق خدي. أمد بصري نحو نهاية القاعة الدراسية المعتمة، فإذا بشمعة يتلألأ ضوؤها من مكان لآخر لتنير هذا الصباح الضبابي، أما أنفاس الأولاد فتتردد بينما تتداخل كقرع الكؤوس في البرد القارس فينفخون سخونتها بين أصابعهم، وينقرون بأقدامهم على الأرض طلبًا للدفء. كانت هذه الوقائع تمضي بعد الإفطار، ثم ما لبثنا أن نودينا إلى الملعب، حينها دخل السيد شارب وأخذ يقول:

«إن ديفيد كوبرفيلد سيذهب إلى الردهة».

توقعت أن أتلقى سلة طعام من بيجوتي، فابتسمت ممتثلًا لهذا الأمر. التف بعض الأولاد من حولي راجين ألا أنسى نصيبهم من الأشياء الجيدة، لأنني كنت قد فارقت مقعدي بحماسة كبيرة.

قال السيد شارب: «لا تستعجل يا ديفيد. أمامك وقت كافٍ يا ولدي، لا تستعجل».

كنت لأفاجأ بهذه النبرة المشحونة بالعاطفة التي تحدث بها، إلا أنني لم أهتم بالتفكير في الأمر إلا فيما بعد. أسرعت متجهًا إلى الردهة. وجدت السيد كريكل جالسًا على مائدة الإفطار، أمامه عصاه وصحيفة، ووجدت السيدة كريكل تحمل بين يديها خطابًا مفتوحًا. لكني لم أجد السلة التي أملت أن أتلقاها.

تحدثت السيدة كريكل بعد أن قادتني إلى الأريكة وجلست بجانبي، قائلة: «يا ديفيد كوبرفيلد، أريد أن أتحدث إليك حديثًا خاصًا

للغاية. أريد أن أقول لك شيئًا يا طفلي».

أومأ السيد كريكل برأسه من دون أن يلتفت نحوي، كنت بالطبع قد نظرت إليه، وما لبث أن أوقف تنهيدة أراد أن يطلقها بابتلاع قطعة كبيرة جدًّا من الخبز المحمص بالزبدة.

قالت السيدة كريكل: «إنك أصغر من أن تعرف كيف يتغير العالم كل يوم، وكيف يحيا أو يموت الناس فيه. لكن علينا جميعًا أن نتعلم يا ديفيد؛ البعض منا يتعلم دروب العيش صغيرًا، والبعض منا يتعلم حين يصير كبيرًا، والبعض منا يستمر في التعلم مدى الحياة».

نظرت إليها في جدية.

قالت السيدة كريكل، بعد لحظات من صمت: «هل كانوا جميعًا على ما يرام عندما خرجت من المنزل في نهاية الإجازة؟ هل كانت والدتك بخير؟».

ارتجفت من دون أن أدرك السبب بوضوح، ولم أزل أنظر إليها بجدية واهتمام، من دون أن أحاول الإجابة.

قالت: «إنني حزينة جدًّا لإخبارك أنني سمعت هذا الصباح أن والدتك مريضة جدًّا».

لاح ضباب بيني والسيدة كريكل، وبدت أن صورتها تنمحي من أمامي للحظة. شعرت بالدموع المحترقة تنهمر على وجهي، ثم توقفت الدموع مرة أخرى.

استطردت قائلة: «إنها مريضة للغاية».

بت أعرف كل شيء الآن.

«لقد ماتت».

لم تكن ثمة حاجة لإخباري بالأمر. لقد انفجرت في صرخة بائسة، وشعرت أنني صرت يتيمًا في هذا العالم الواسع.

كانت لطيفة جدًّا معي وقد أبقتني بصحبتها طوال اليوم، وأحيانًا كانت تتركني لأخلو بنفسي. بكيت، ثم نمت واستيقظت، ثم عاودت البكاء مرة ثانية. لم أستطع البكاء أكثر من ذلك، ومن ثَم بدأت أفكر. أطبقت الفجيعة على صدري بدرجة أعنف، وصار حزني ألمًا ثقيلًا لا سبيل للخلاص منه.

ظلت أفكاري على الرغم من كل شيء خاملة، غير مدركة لحجم البلاء الذي حلَّ بقلبي بل هائمة شاردة قربه. رحت أفكر في منزلنا الذي ستغلق أبوابه ويلفه السكون. فكرت في الطفل الصغير، الذي، كما قالت السيدة كريكل، كان يتلهف لمزيد من الوقت ليحيا، فقد ظنوا أنه سيموت أيضًا. فكرت في قبر أبي القابع في باحة الكنيسة بجوار منزلنا، وفي أمي التي سترقد هناك تحت الشجرة التي أعرفها جيدًا. وقفت على كرسي عندما تركوني وحدي، ورحت أنظر إلى المرآة لأرى مدى احمرار عيني، وكم ساد وجهي الحزن. فكرت، بعد مرور بضع ساعات، إذا كان من الصعب حقًّا أن تتدفق دموعي كما هي الحال الآن، ورحت أمعن التفكير في مدى تأثير الأمر عليَّ عند اقترابي من المنزل؛ هل سأشعر بالخسارة، لأنني كنت على وشك العودة إلى المنزل لحضور الجنازة؟ أتذكر أنني شعرت بنوع من الرفعة بين بقية الأولاد، وأنني صرت مهمًّا ومحل وقار في محنتي.

إذا كان ثمة طفل عانى من حزن صادق، فإن هذا الطفل هو أنا. إنني أتذكر أن هذه الأهمية مثلت نوعًا من الارتياح لي. كنت أتمشى في الملعب عصر ذلك اليوم حين أبصرت الأولاد في المدرسة يلقون نظراتهم الخاطفة من النوافذ نحوي، بينما يصعدون إلى فصولهم. شعرت أنني مميز، وقد بدوت أكثر حزنًا، وسرت متباطئًا. انتهى اليوم الدراسي، فخرج الأولاد وأقبلوا ليتحدثوا معي. شعرت أنه من الجيد ألا أتكبر على أي منهم، وأن أهتم بهم جميعًا على أكمل وجه، كما كنت أفعل من ذي قبل.

كان من المقرر أن أعود إلى المنزل في الليلة التالية. وألا أسافر عن طريق العربة، بل عن طريق الحافلة الكبيرة التي ستتحرك ليلًا. كانت الحافلة تسمى «الفلاح»، وكان سكان الريف قد اعتادوا على السفر بها لمسافات قصيرة أو السفر إلى قرى مجاورة على الطريق. لم نملك أي حكايات لنقصها في ذاك المساء، وقد أصر ترادلز على إقراضي وسادته ليلتها. لا أعرف ما الفائدة التي ظن أنها ستواتيني بنومي على وسادته، فقد كانت عندي واحدة، ولكنها كانت كل ما يستطيع هذا المسكين أن يقرضني إياه، باستثناء ورقة من ورق الرسائل مليئة برسومات من الهياكل العظمية، وقد منحها لي عند توديعي، كهدية تصلح لأحزاني ومساهمة تبث بداخلي راحة البال.

غادرت مدرسة سالم هاوس بعد ظهر اليوم التالي. لم يخطر ببالي وقتها أنني غادرتها بلا رجعة، وأنني لن أعود إليها أبدًا. تحركنا في سفرنا في بطء شديد انقضى فيه الليل، ولم نصل إلى يارموث قبل الساعة

التاسعة أو العاشرة في صباح اليوم التالي. بحثت عن السيد باركس، لكنني لم أجده. جاءني بدلًا منه رجل عجوز سمين، قصير القامة، مرح، ضئيل الحجم يرتدي ثيابًا سوداء، مع أربطة صغيرة صدئة من الشرائط عند ركبتيه، وجوارب سوداء، وقبعة عريضة الحواف، وقد أسرع لاهثًا إلى نافذة العربة، وراح يقول:

«هل أنت السيد كوبرفيلد؟».

«نعم يا سيدي».

قال بينما يفتح الباب: «هل ستأتي معي يا سيدي الشاب، وسأكون سعيدًا إذا سمحت بإيصالك إلى المنزل».

وضعت يدي في يده، متسائلًا من يكون. ما لبثنا أن سرنا نحو متجر في شارع ضيق، كتب عليه لافتة تقول: «عمر، تاجر وخياط، بائع ملابس، ولوازم جنازات». كان دكانًا صغيرًا وخانقًا مليئًا بجميع أنواع الملابس، المفصلة وغير المفصلة، يحوي المحل واجهة زجاجية واحدة مليئة بقبعات وأغطية للرأس. توجهنا إلى صالون صغير خلف المتجر، حيث التقينا ثلاث شابات يعملن على تفصيل ثلاثة أقمشة سوداء، مكدسة على الطاولة، بينما تناثرت قطع صغيرة من فوائض الأقمشة على الأرض. أبصرت مدفأة جيدة في الغرفة، وقد امتلأت الغرفة برائحة قماش الكريب - لم أكن أعرف تلك الرائحة آنذاك، لكنني عرفتها الآن.

أخذت الشابات الثلاث، اللواتي ظهرن مجتهدات ومنشغلات بعملهن، يرفعن رؤوسهن لينظرن إليَّ، ثم يواصلن عملهن. يعملن

بحياكة غرزة تلو الغرزة، تلو الأخرى. عبر إلى آذاننا في الوقت نفسه، من ورشة عمل عبر ساحة صغيرة خارج النافذة، صوت منتظم للطرق قد احتفظ بنوع من التلحين من دون أدنى خروج عن الإيقاع: «تا تا - رت، تا تا - رت، تا تا - رت».

قال مرشد طريقي لإحدى الفتيات الثلاث: «حسنًا، كيف يسير العمل يا ميني؟».

أجابت في مرح من دون أن ترفع نظراتها إلى الأعلى: «سنكون على استعداد وقت الاختبار. لا تخف يا أبي».

خلع السيد عمر قبعته عريضة الحواف وجلس لاهثًا. كان سمينًا لدرجة أنه اضطر إلى الاستمرار في اللهاث لبعض الوقت قبل أن يبدأ حديثه فيقول:

«هذا صحيح».

قالت ميني مازحة: «يا أبي، كم رحت تنمو مثل الدولفين!».

أجاب بينما يفكر في الأمر بجدية: «حسنًا، لا أعرف كيف استمر الأمر يا عزيزتي، إنني حقًّا أبدو مثل الدولفين».

قالت ميني: «إنك رجل مرتاح، كما ترى. تأخذ الأمور بسهولة».

قال السيد عمر: «لا فائدة من أخذها إلا بهذه الطريقة يا عزيزتي».

راحت ابنته تقول: «لا فائدة حقًّا. إننا جميعًا هانئون هنا، شكرًا لله! أليس كذلك يا أبي؟».

قال السيد عمر: «أرجو ذلك يا عزيزتي. لقد تلقفت أنفاسي الآن، وأحسب أنني سآخذ مقاسات هذا التلميذ الشاب. هلا دخلت إلى المتجر يا سيد كوبرفيلد؟».

تقدمتُ استجابةً لطلب السيد عمر. عرض أمامي لفافة من القماش قائلًا إنها ممتازة جدًّا، وإنها مناسبة جدًّا للحداد على الوالدين. أخذ مقاساتي المختلفة ودونها في دفتر، وبينما كان يكتبها أخذ يلفت انتباهي إلى بضاعته التي يتاجر فيها، وإلى بعض صيحات الأزياء التي قال إنها «ظهرت للتوِّ»، وإلى بعض صيحات الأزياء الأخرى التي قال إنها «خرجت للتوِّ».

قال السيد عمر: «إننا بهذه الطريقة، غالبًا ما نخسر بعضًا من المال. إن صيحات الأزياء مثل البشر؛ تظهر من دون أن يعرف أحد متى أو لماذا أو كيف، ثم ترحل من دون أن يعرف أحد متى أو لماذا أو كيف. إن كل شيء يشبه الحياة، في رأيي، إذا نظرت إليه من وجهة النظر هذه».

كنت حزينًا جدًّا فلم أستطع مناقشة هذه المسألة، وربما كانت أكبر من نطاق إدراكي تحت أي ظرف من الظروف. أعادني السيد عمر إلى الردهة، بينما يتنفس بصعوبة طوال الطريق.

نادى بعد ذلك عبر فتحة درجات صغيرة للسلم القابع خلف الباب قائلًا: «أحضر الشاي والخبز والزبدة». جلست بعد فترة، أراقب وأفكر، بينما أستمع إلى أصوات أعمال الخياطة في الغرفة ويتناهى كذلك إلى أذني اللحن الذي يضرب عبر الفناء، إلى أن ظهرت صينية الفطور، واتضح أنه قد أُعدَّ لي.

أخذ السيد عمر يتحدث إليَّ بعد أن راقبني لبضع دقائق، ولم أكن قد تركت أثرًا كبيرًا خلالها على الإفطار، لأن الأقمشة السوداء كانت قد سدت شهيتي. راح السيد عمر يقول: «لقد تعرفت عليك... تعرفت عليك منذ فترة طويلة يا صديقي الشاب».

«هل فعلت يا سيدي؟».

قال السيد عمر: «عرفتك منذ ولادتك. قد أقول إنني عرفتك قبل مولدك. كنت أعرف والدك قبلك. كان طوله خمسة أقدام وتسع بوصات ونصف، وقد دفن في مساحة خمسة وعشرين قدمًا من الأرض».

تعبر الأصوات من الساحة معلنة: «تا تا - رت، تا تا - رت، تا تا - رت».

قال السيد عمر في مرح: «إنه يرقد في خمسة وعشرين قدمًا من الأرض، إذا وُضع في جزء أصغر، فإنه إما طلب ذلك بنفسه أو كان بأمر من امرأته، وقد نسيت التفاصيل».

فسألت: «هل تعرف كيف حال أخي الصغير يا سيدي؟».

هز السيد عمر رأسه.

تأتي الأصوات: «تا تا - رت، تا تا - رت، تا تا - رت».

قال: «إنه بين ذراعي والدته».

«آهٍ، يا للصغير المسكين، هل مات؟».

قال السيد عمر: «لا تُحمل نفسك في هذه الأمور أكثر من طاقتك. نعم. لقد مات الطفل».

توقدت جراحي من جديد عند سماع هذه الأخبار. تركت الإفطار الذي لم أذق منه إلا اليسير. ابتعدت متجهًا إلى طاولة أخرى في زاوية من الغرفة الصغيرة، ثم أسندت رأسي عليها. كانت ميني قد أزاحت ما عليها على عجل، حتى لا أبللها بدموع الفراق التي تتراءى في عيني. كانت فتاة جميلة وطيبة. أبعدت شعري عن عيني بلمسة ناعمة ولطيفة، لكنها كانت مبتهجة للغاية لأنها أوشكت على الانتهاء من عملها وقضاء وقت ممتع بعده. كانت حالتها مختلفة تمامًا عن حالتي.

توقفت نغمات المطرقة في ذاك الوقت. جاء شاب حسن المظهر وقد عبر الفناء متجهًا إلى الغرفة. كان يحمل مطرقة في يده، وكان فمه مليئًا بالمسامير الصغيرة التي اضطر إلى إخراجها قبل أن يتكلم.

قال السيد عمر: «حسنًا يا جورام، كيف يسير العمل؟».

قال جورام: «حسنًا، لقد أنهيته يا سيدي».

تحول لون وجه ميني قليلًا، وراحت الفتاتان الأخريان تتبادلان الابتسام.

تكلم السيد عمر، وقد أغمض عينيه قائلًا: «ماذا تقول؟! هل بدأت إذن في عملك على ضوء الشموع في الليلة الماضية بينما كنتُ في الملهى؟».

قال جورام: «نعم، لقد فعلت كما قلت، حتى يمكننا القيام بجولة صغيرة والذهاب معًا، إذا ما أنهيت عملي. أذهب أنا وميني - وأنت».

أخذ السيد عمر يتحدث ضاحكًا حتى سعل من كثرة الضحك،

قائلًا: «يااه! لقد ظننت أنكما ستتركاني تمامًا».

استأنف الشاب قائلًا: «كان من الجميل أن تقترح ذلك، فقد كان قولك مشجعًا فأقبلت على العمل، كما ترى. هل أدليت برأيك فيه؟».

أجاب السيد عمر: «سأفعل يا عزيزي»، ثم توقف واستدار نحوي قائلًا: «هل تود أن ترى...؟».

قاطعته ميني قائلة: «لا يا أبي».

قال السيد عمر: «ظننت أنه أمر مقبول يا عزيزتي، لكن ربما تكونين على حق».

لا أستطيع أن أجزم كيف عرفت أنهم ذهبوا لإلقاء نظرة على نعش أمي الغالية. لم أسمع قَطُّ عن صنع النعش، ولم أرَ واحدًا قَطُّ. ولكن كان هذا ما خطر ببالي بعد سماع الضجيج، وبعدما دخل علينا الشاب، صرت متأكدًا من معرفتي بطبيعة العمل الذي أنهاه.

انتهت الفتاتان اللتان لم أسمع أسماءهما، وراحتا تمشطان الخيوط وتزيحان آثارها من فستانيهما، ثم توجهتا إلى داخل المحل لتعدلا مظهريهما، وراحتا تنتظران الزبائن. بقيت ميني في الخلف تلون ما صنعتاه، وتعبئه في سلتين. كانت تقوم بعملها وهي راكعة على ركبتيها، بينما تدندن لحنًا حماسيًّا بسيطًا. جاء جورام - لم يراودني أدنى شك في أنه حبيبها - ثم استرق منها قبلة بينما كانت مشغولة (لم يبدُ أنه اهتم بوجودي على الإطلاق)، وقال إن والدها ذهب ليحضر العربة، ويجب عليه أن يسرع ويستعد للذهاب هو الآخر، ثم خرج بعدها مرة أخرى. وضعت ميني كشتبانها ومقصها في جيبها، وغرست إبرتها بخيطها

الأسود بدقة في حضن ثوبها، ثم لبست معطفها الخارجي في رشاقة، مستعينة بمرآة صغيرة خلف الباب، وقد انعكست فيها صورتها الجميلة ذات الوجه السعيد.

لاحظت هذا كله، بينما أجلس على الطاولة في الزاوية ورأسي متكئ فوق يدي، بينما تدور في رأسي أفكار عن أشياء مختلفة عن بعضها تمامًا. اقتربت العربة سريعًا من باب المتجر، فوضعت السلال فيها أولًا، ثم صعدت متخذًا مكاني بعد ذلك، ثم تبعني هؤلاء الثلاثة. أتذكر هذه العربة التي كان نصفها يشبه العجلة ونصفها الآخر يشبه عربة نقل. كانت مطلية بلون كئيب، يجرها حصان أسود بذيل طويل. كانت كبيرة وقد اتسعت لنا جميعًا.

لا أظن أنني اختبرت هذا الشعور الغريب الذي انتابني وأنا بصحبتهم قبل ذلك طوال حياتي السابقة - ربما أتفهمه لأنني الآن أكثر حكمة. أتذكر كيف كانوا يعملون، وأتذكر منظرهم بينما يستمتعون بالرحلة. لم أغضب منهم، لكنني كنت خائفًا، كما لو أنني أُلقيت بعيدًا بين مخلوقات لا يجمعني بها أي تشابه في مشاعرنا وطباعنا. كانوا مبتهجين للغاية، وكنت على عكسهم تمامًا. جلس الرجل العجوز في المقدمة للقيادة، بينما جلس الشاب والفتاة خلفه. كان كلما تحدث إليهما مال أحدهما إلى الأمام. أخذ أحدهما يميل إلى جانب من وجهه السمين والآخر يميل نحو الجانب الآخر منه، وظلوا هكذا طوال الوقت. حاولوا الحديث معي أيضًا، لكنني تراجعت وانكفأت في زاويتي. كنت منزعجًا من حبهم ومرحهم، على الرغم من أنهم لم يكونوا صاخبين،

لكنني رحت أتساءل كيف لم تحل عليهم اللعنة بسبب قساوة قلوبهم.

توقفوا لإطعام الحصان، ثم أكلوا وشربوا واستمتعوا بأوقاتهم، لكنني لم أتمكن من لمس أي شيء لمسوه. أبقيت على صومي من دون انقطاع. ما إن وصلنا إلى المنزل، حتى تركت الكرسي الخلفي مهرولًا في أسرع وقت ممكن، حتى لا أكون بصحبتهم أمام النوافذ المهيبة، التي تطل عليَّ كما يطل أعمى من أعين صارت مغلقة إلى الأبد. آهٍ، كم كنت بحاجة إلى التفكير فيما قد يدفعني إلى البكاء عندما أعود! كانت دموعي تنهمر إثر رؤية نافذة غرفة أمي، وبجانبها نافذة كانت في أفضل الأوقات، ملكي.

وجدتني بين ذراعي بيجوتي قبل وصولي إلى الباب، وقد اصطحبتني إلى داخل المنزل. انفجر حزنها عندما رأتني لأول مرة، لكنها سرعان ما سيطرت عليه، وأخذت تتحدث في همس، وتسير في هدوء كما لو أنها قد تزعج الموتى. علمت أنها لم تذهب إلى فراشها لفترة طويلة، بل ظلت مستيقظة طوال الليل تنتظر. قالت إنها لن تتخلى أبدًا عن عزيزتها الجميلة المسكينة ما دامت فوق الأرض.

لم يهتم السيد مردستون بي عندما دخلت إلى الصالون الجالس فيه، بل جلس بجانب المدفأة، يبكي في صمت، محملقًا في كرسي ذي مرفقين. أما الآنسة مردستون فكانت مشغولة منكبة فوق مكتبها، الذي صار مغطى بالرسائل والأوراق. أشارت إليَّ بأظافر أصابعها الباردة، وسألتني بصوت هامس وبارد، إذا كنت قد أخذت قياس ملابسي للحداد أم لا.

أجبت قائلًا: «نعم».

قالت الآنسة مردستون: «وهل أحضرت قمصانك معك إلى المنزل؟».

«نعم يا سيدتي. لقد أحضرت إلى المنزل كل ملابسي».

كان هذا الحديث هو كل العزاء الذي منحني الحزم إياه. لا أشك في أنها كانت مستمتعة بما أظهرته من ضبط النفس، وحزمها، وقوة عقلها، وحسها السليم، والوصفة الشيطانية الكاملة لكل صفاتها القميئة التي أظهرتها في هذه الظروف. كانت فخورة بشكل خاص بدورها في العمل؛ وقد أظهرت كل ذلك الآن في اختزال كل شيء وتدوينه بقلم وحبر، من دون أن تكترث لأي شيء. لقد قضت كل ما تبقى من ذاك اليوم، من الصباح حتى المساء وما بعده، وهي جالسة على هذا المكتب، تدون بقلم صلب، وتتحدث بالهمس الجامد نفسه إلى الجميع؛ من دون أن ترخي عضلات وجهها أبدًا، ومن دون أن تلين نبرة صوتها، ومن دون أن تتحرك ثنية واحدة من ثنايا ثوبها.

أخذ شقيقها يتناول بين يديه كتابًا في بعض الأحيان، لكنني رأيت أنه لم يقرأ قَطُّ كلمة منه. كان يفتحه وينظر إليه ويتظاهر أنه يقرأ، لكنه يظل لساعة كاملة من دون أن يُقلب ورقة واحدة، ثم يضعه جانبًا ويمشي ذهابًا وإيابًا في الغرفة. اعتدت أن أجلس طاويًا يدي بينما أراقبه، وأعد خطواته ساعة بعد ساعة. كان نادرًا ما يتحدث إليها، لكنه لم يتحدث معي قَطُّ. بدا أنه الشيء الوحيد الذي لا يهدأ، بينما حل السكون على كل أرجاء المنزل باستثناء دقات الساعات.

لم أرَ بيجوتي إلا فيما ندر خلال هذه الأيام التي سبقت الجنازة. كنت ألمحها في أثناء صعود أو نزول السلالم. أجدها دائمًا قريبة من الغرفة التي ترقد فيها أمي وطفلها، غير أنها كانت تأتي إليَّ كل ليلة، فتجلس بجانب رأس سريري حتى أغط في النوم - أحسب أنه كان يومًا أو يومين قبل الدفن، لكنني أدرك مدى ارتباك وتشوش عقلي فيما يخص ذاك الوقت الثقيل، مع عدم وجود ما ينبهني إلى مرور الزمن وانقضائه. قادتني بيجوتي، ربما قبل يوم أو يومين من الدفن، إلى غرفة أمي. لا أتذكر سوى أنه جسد تحت بعض الأغطية البيضاء على السرير، تحاوطه نظافة بديعة ونضارة من كل مكان. بدا لي وكأنه مشهد يجسد السكون المهيب الذي لفَّ المنزل. أشاحت بيجوتي الغطاء بلطف، بينما صرخت قائلًا: «آهٍ لا! آهٍ لا!»، ثم أمسكت بيدها.

لو كانت الجنازة بالأمس لما استطعت تذكرها بشكل أفضل مما أتذكرها به الآن. لف صالة الاستقبال هواء أنقى. وقفت عند باب الغرفة، فإذا بنيران المدفأة ساطعة النور، وإذا بالنبيذ يتلألأ في الدورق، وتتجلى الأكواب والأطباق، وتفوح الرائحة الحلوة العبقة من الكعك، تمتزج برائحة فستان ملكة جمال مردستون، وكذلك برائحة ملابسنا السوداء. كان السيد تشيليب موجودًا في الغرفة فأقبل إليَّ ليتحدث معي.

راح يقول في لطف: «وكيف حال السيد ديفيد؟».

لم أستطع أن أجيبه بقولي إنني بخير، وبدلًا من ذلك ناولته يدي وصافحته.

راح السيد تشيليب يتحدث مبتسمًا بشيء من خنوع، وقد لمعت عيناه قائلًا: «آه يا عزيزي! كم يكبر أصدقاؤنا الصغار من حولنا. إنهم يترعرعون من دون معرفتنا يا سيدتي؟».

كان يُوجِّه عبارته الأخيرة إلى الآنسة مردستون من دون أن تجيبه بشيء.

استطرد السيد تشيليب قائلًا: «ألاحظ تحسنًا كبيرًا هنا يا سيدتي».

لم ترد الآنسة مردستون إلا بعبوس وجهها وانحناءة رسمية برأسها. انزعج السيد تشيليب، ثم ابتعد إلى الزاوية، وقد أبقاني برفقته، ولم ينبس ببنت شفة بعدها.

ألاحظ هذه الأشياء، لأنني كنت أراقب كل ما يدور من حولي، ليس لأنني أهتم بنفسي أو بأفعالي منذ عودتي إلى المنزل. بدأ الجرس بالدق في هذه اللحظة، فأقبل السيد عمر ومعه رجل آخر لينبه الجميع إلى الاستعداد. عرفت من بيجوتي، منذ فترة طويلة، أن مشيعي أبي كانوا قد مكثوا جاهزين في الغرفة نفسها.

كان يجلس بالغرفة السيد مردستون، وجارنا السيد جرايبر، والسيد تشيليب، وأنا. اتجهنا نحو الباب، بعدما ظهر حمَّالو النعش في الحديقة، وأخذوا يتحركون أمامنا على الطريق، عبر أشجار الدردار، وعبر البوابة حتى فناء الكنيسة، حيث تناهت إلى أذني كثيرًا أصوات الطيور تصدح في صباح أحد أيام الصيف.

وقفنا حول القبر. بدا اليوم مختلفًا عن كل الأيام بالنسبة لي، وقد انعكس ضوء لا يبدو لونه معتادًا بل خالطته ألوان الحزن. ساد صمت

مهيب، صاحَبَنا من المنزل مع هذا الشيء الذي يمكث في جوف الأرض. وقفنا مكشوفي الرؤوس، ورحت أستمع إلى صوت القس، يأتيني من بعيد عبر لفحات الهواء الطلق، لكنه واضح كل الوضوح، وإذا به يقول: «أنا هو القيامة والحياة، يقول الرب!»[١] ثم سمعت تنهدات. كنت أقف بعيدًا بين المتفرجين، أرى هذه الخادمة الصالحة والمخلصة، التي أحبها وأفضلها أكثر من سواها ممن يحيون على هذه الأرض، وإنني متأكد بكل ما يحمله قلبي الطفولي من يقين أن الرب سيقول لي يومًا ما: «قد أحسنت»[٢].

هناك العديد من الوجوه التي أعرفها بين الحشد الصغير، وهي الوجوه نفسها التي كنت أعرفها في الكنيسة، فقد كنت أتأملها دائمًا. كان من هذه الوجوه من رأى أمي لأول مرة، عندما جاءت إلى القرية في زهرة شبابها. إنني لا أهتم بهم - لا أهتم إلا بحزني - ومع ذلك فإنني أراقب هذه الوجوه وأعرفها جميعًا، حتى إنني رحت أنظر إلى ميني القابعة بعيدًا، بينما ألمح عينها التي تراقب حبيبها القريب مني.

انتهى الأمر، وتساوت الأرض، ثم التففنا للانصراف. ينتصب منزلنا أمامنا، جميلًا للغاية من دون أن يتغير، مرتبطًا في ذهني أشد الارتباط بكل ما مضى من ذكريات الطفولة. كانت كل أحزاني تبدو هينة أمام ما لفني من حزن هذه الذكريات. أبعدوني سريعًا، وقد راح

---

(١) آية من إنجيل يوحنا (١١-٢٥).

(٢) «مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ قَدْ أَحْسَنْتَ بِعَمَلِ مَا هُوَ مُسْتَقِيمٌ فِي عَيْنَيَّ» آية من الكتاب المقدس، سفر الملوك الثاني (١٠-٣٠).

السيد تشيليب يتحدث معي. عدنا إلى المنزل، فراح يبلل شفتي بقليل من الماء، وعندما طلبت الإذن بالانصراف إلى غرفتي، وافقني بحنو لا يكون إلا لامرأة.

يدور كل ما أقصة في ذاكرتي كما لو أنه قد حدث بالأمس فقط. لقد تلاشت أحداث من تاريخي اللاحق حيث شاطئ ستظهر فيه كل الأشياء المنسية مرة أخرى، أما هذا الحدث فيقف شامخًا مثل صخرة عالية ثابتة في قلب المحيط.

كنت أعلم أن بيجوتي ستأتي إليَّ في غرفتي. ما أشبه سكون هذا السبت بسكون أوقات يوم الأحد! لقد تشابهت الأيام، وكان هذا السكون مناسبًا لكلينا. جلست بجانبي على سريري الصغير ممسكة بيدي. كانت أحيانًا تقربها نحو شفتيها، وأحيانًا تلاطفها بكفيها، ربما بالطريقة نفسها التي كانت تهدهد بها أخي الصغير. راحت تحدثني بطريقتها، فتخبرني بكل ما كان عليها أن تسرده لي بشأن ما حدث.

قالت بيجوتي: «لم تكن بكامل صحتها قَطُّ لفترة طويلة. كانت مشتتة الذهن ولم تكن سعيدة. ظننت في البداية عندما ولدت طفلها أنها ستتحسن، لكنها صارت أكثر حساسية، وراحت تبللها دموع البكاء كل يوم. كانت تحب الجلوس بمفردها قبل أن يأتي طفلها، ثم تبكي، لكنها بعد ذلك اعتادت أن تغني له. كان صوتها ناعمًا جدًّا، لدرجة أنني ظننت ذات مرة عندما سمعتها، كما لو أن صوتها ممتد في الهواء، آتٍ من فراغ بعيد».

«أحسب أنها باتت أكثر خوفًا، وأكثر فزعًا في أيامها الأخيرة. كانت أي كلمة قاسية تبدو لها بمثابة لكمة، لكنها على الرغم من ذلك بقيت

كما كانت. لم تتغير فتاتي الحلوة قَطُّ أمام بيجوتي الحمقاء».

توقفت بيجوتي هنا، وربتت على يدي بهدوء نسبي.

«أما آخر مرة رأيتها فيها كسابق عهدها، فقد كانت تلك الليلة التي عدتَ فيها إلى المنزل، يا عزيزي، ثم قالت لي في اليوم الذي غادرت فيه: «لن أرى حبيبي الجميل مرة أخرى. ثمة شيء يخبرني بذلك، وهذا الشيء يبوح لي بالحقيقة، وإنني لا يخامرني شك فيه»».

«حاولتْ الصمود بعد ذلك. كانوا يخبرونها في كثير من الأحيان أنها طائشة وخفيفة القلب، لقد ظنوا أنها كذلك حقًّا، أما كل شيء فقد مضى وقته. لم تخبر زوجها قَطُّ بما قالته لي - كانت تخشى أن تقوله لأي شخص آخر سواي - إلى أن راحت في ليلة، قبل أكثر من أسبوع من موتها، فقالت له: «يا عزيزي، أظن أنني أموت»».

«قالت لي عندما أسندتها إلى سريرها تلك الليلة: «لقد ارتاح عقلي الآن يا بيجوتي. سيزداد يقينه أكثر فأكثر في كل يوم يأتي حتى بضعة أيام قادمة، وبعد ذلك سيستريح. أيتها المسكينة، إنني في غاية التعب. إذا حل وقت النوم، فاجلسي بجانبي في أثناء نومي، لا تتركيني. بارك الله في أطفالي! وليحفظ رضيعي وابني اليتيم»».

قالت بيجوتي: «لم أفارقها من بعدها. كانت غالبًا ما تتحدث إليهما من الطابق السفلي، لأنها أحبتهما، ولم تستطع ألا تحب أي شخص ممن حولها. أما عندما كانا يبتعدان عن سريرها، كانت دائمًا تلتفت نحوي، كما لو أن الراحة قابعة حيث تجلس بيجوتي. تطمئن لوجودي فتغفو، ولم تكن لتنام قَطُّ بأي طريقة أخرى».

«قبَّلتني في الليلة الأخيرة، ثم قالت: «إذا مات طفلي أيضًا يا بيجوتي، من فضلك اجعليه بين ذراعي، وقولي لهما أن يدفنانا معًا». كان هذا ما حدث، لأن الحمل المسكين لم يعش سوى يوم بعدها. ثم قالت: «اتركوا ابني العزيز يرافقنا حتى مرقدنا الأخير، وأخبريه أن والدته، عندما كانت مستلقية هنا، راحت تدعو له ليس مرة واحدة، بل ألف مرة»».

ساد صمت آخر، وربتت برفق على يدي مرة أخرى.

أكملت بيجوتي قائلة: «كنا في جوف الليل، حينما طلبت مني شربة ماء، بعدما تجرعته، لاحت لي ابتسامة حانية، ويا لجمالها يا عزيزي! يا لروعة جمالها!».

«حل الفجر، وبدت الشمس في طريقها للبزوغ، حين قالت لي، كيف كان السيد كوبرفيلد لطيفًا ومراعيًا لها دائمًا، وكيف تحملها، وطالما أخبرها عندما كانت تتشكك في صواب أفعالها، أن القلب المحب أفضل وأقوى من الحكمة، وأنه سعيد بها. قالت بعد ذلك: «يا بيجوتي، يا عزيزتي، قربيني منكِ»، لأنها كانت ضعيفة جدًّا لا تقوى على الكلام. راحت تقول: «ضعي ذراعك الطيبة تحت عنقي، وأديري وجهي إليكِ، لأن وجهك بعيد جدًّا، وأريده أن يكون قريبًا». قرَّبتها كما طلبت، وآه يا ديفي! لقد حان الوقت عندما كانت أول كلمات فراق لها صحيحة - كانت سعيدة بوضع رأسها المسكين على صليبها حيث ذراع بيجوتي الحمقاء العجوز - وماتت مثل طفلة نائمة!».

وهكذا انتهت رواية بيجوتي، ومنذ لحظة معرفتي بوفاة أمي، تلاشت فكرتي المتأخِرة عنها. صرت أتذكرها، منذ تلك اللحظة، بصفتها الأم الشابة بصورتها المبكرة المنطبعة في مخيلتي، والتي اعتادت على لف خصلاتها اللامعة حول إصبعها، والرقص معي عند الشفق في الصالون. ما كان كل ما أخبرتني به بيجوتي حتى هذه اللحظة ليبعد عن خاطري الفترات اللاحقة لذكرياتها، بل إنها رسخت الصورة الأولى لها في ذهني. قد يكون الأمر غريبًا، إلا أن هذا حقًّا ما وقع. كأنها قد شقت طريقها بعد وفاتها، عائدة إلى شبابها الهادئ المرح، وقد محت من ذاكرتي كل ما سواه.

كانت الأم التي رقدت في القبر هي أم طفولتي، والمخلوق الصغير القابع بين ذراعيها، لم يكن سواي، كما كنت من قبل، صامتًا في حضنها إلى الأبد.



الفصل العاشر

صرتُ مُهمَلًا، ثم مَحلًّا للرعاية

كان أول عمل قامت به الآنسة مردستون بعد انتهاء يوم العزاء، وبعد أن سرى أول شعاع من الضوء إلى المنزل في حرية؛ أن هددت بيجوتي بالفصل لمدة شهر. كانت بيجوتي تكره البقاء في الخدمة، أظن أنها أبقت على عملها لأجلي لا غير، هكذا فضَّلتني عن أفضل عمل قد تجده على وجه الأرض. قالت لي إننا سنفترق لا محالة، وقد أخبرتني بالأسباب. قدَّم كل منا العزاء للآخر بكل إخلاص.

أما بالنسبة لموقفي أو لمستقبلي، فلم يقل أحد كلمة واحدة ولم يفكر في خطوة مستقبلية. أجرؤ على القول بأنهم كانوا ليسعدوا لو تمكنوا من طردي أيضًا بعد تحذير مدته شهر. استجمعت شجاعتي ذات مرة، ورحت أسأل الآنسة مردستون عن موعد عودتي إلى المدرسة، فما كان منها إلا أن أجابت بجفاء، وقالت إنها تظن أنني لن أعود إليها على الإطلاق. لم يخبراني بأي شيء آخر. كنت فضوليًّا للغاية، ورغبت في معرفة ما سيفعلانه معي، وكذلك كانت بيجوتي، لكنني لم أستطع اكتشاف أي معلومات عن مصيري، ولم تستطع بدورها معرفة أي شيء.

لم يقع سوى تغيير واحد في حالتي، وعلى الرغم من أنه قد خفَّف عني قدرًا كبيرًا من التوتر ذلك الوقت، إلا أنني لو كنت قادرًا على التفكير في الأمر عن كثب، لشعرت بعدم الاطمئنان حيال مستقبلي. كان هذا التغير هو التخلي عن القيد الذي فُرِض عليَّ تمامًا. صرت بعيدًا كل البعد عن مطالبتهما إياي بالمكوث في مكاني الباهت من الصالون، حتى إنني إذا مكثت في عدة مناسبات فوق مقعدي في الصالون، فإذا بالآنسة مردستون تعبس أمامي طالبة مني المغادرة. صرت لا أتعرض لأدنى لوم إذا ما جالست بيجوتي، إذ لم يكن ثمة من يبحث عني أو يسأل عن أحوالي، ما دمت أبتعد عن مرأى ومجلس السيد مردستون. كنت في البداية أشعر بخوف يومي من توليه تعليمي مرة أخرى، أو من تكريس الآنسة مردستون نفسها للقيام بالأمر، لكن سرعان ما أدركت أن مثل هذه المخاوف لا أساس لها من الصحة، وأن كل ما كان عليَّ توقعه بعد الآن ليس سوى الإهمال.

لا أحسب أن هذا الاكتشاف قد جلب لي الكثير من الألم في ذلك الوقت. كنت لم أزل أشعر بالضياع إثر صدمتي في وفاة أمي، ولم ألبث في حالة ذهولي من دون أن أنتبه إلى أي شيء تافه. أستطيع في الواقع أن أتذكر، أنني توقعت في أوقات غريبة، أنني لن أتعلم بعد الآن، ولن أنال أي نوع من العناية، وأنني سأكبر حتى أصير رجلًا كبيرًا رث المظهر، شديد الفقر، منطلقًا بعيدًا عن البلدة. رحت بلا جدوى أحاول التخلص من هذه الصورة، فأتخيل أنني سأرحل بعيدًا إلى مكان ما، مثل بطل في قصة، فأبحث عن ثروتي. كانت هذه رؤى وتخيلات عابرة، ليست سوى أحلام يقظة جلست أتخيلها أحيانًا، كما لو أنها مرسومة بشكل

خافت وباهت أو مكتوبة على جدار غرفتي، ما لبثت أن ذابت تاركة الجدار فارغًا مرة أخرى.

رحت أُحدِّث بيجوتي ذات مساء بصوت منخفض، بينما أحاول تدفئة يدي فوق نار الموقد، قلت: «يا بيجوتي، إن السيد مردستون يهتم بي بشكل أقل مما كان عليه في السابق. تعرفين يا بيجوتي أنه لم يكن يحبني كثيرًا، لكنه يكره الآن رؤيتي، إذا ما سمحت له الظروف».

قالت بيجوتي بينما تمشِّط شعري: «لعل حزنه هو السبب».

«إنني متأكد من ذلك يا بيجوتي، وإنني لحزين أيضًا. إذا كنت أحسب أن الأمر متعلق بحزنه، فما كنت لأفكر في الأمر على الإطلاق، لكن الأمر ليس كذلك. آهٍ، لا، ليس الأمر على هذا النحو».

قالت بيجوتي بعد صمت: «كيف تعرف أن الأمر ليس على هذا النحو؟».

«آهٍ، إن حزنه شيء آخر مختلف تمامًا عن أحزاننا. إنه قد يشعر بالحزن في لحظة ما، بينما يجلس بجانب المدفأة مع الآنسة مردستون؛ أما إذا دخلت عليه يا بيجوتي، فسيتحول إلى شيء آخر».

قالت بيجوتي: «ما هذا الشيء؟».

أجبتها بعد أن قلدت عبوسه القاتم من دون أن أتعمد ذلك، قائلًا: «غاضب. إذا كانت حالته ليست سوى الحزن، فإنه لن ينظر إليَّ كما يفعل. إنني حزين فقط، وهذا يجعلني أشعر بنوع من اللين».

لم تقل بيجوتي شيئًا لبعض الوقت، ورحت أدفئ يدي وأنا صامت مثلها تمامًا.

قالت بعد صمت طويل: «اسمع يا ديفي».

«نعم يا بيجوتي».

«لقد جربت، يا عزيزي، بكل الطرق التي يمكنني التفكير فيها - بكل الطرق المتاحة، وكل الطرق المستطاعة، باختصار - حاولت الحصول على عمل مناسب هنا، في بلندرستون، ولكنني لم أحصل على أي وظيفة من أي نوع يا حبيبي».

قلت في حزن: «وما الذي تريدينه يا بيجوتي؟ هل تقصدين الرحيل والبحث عن عمل تجنين منه مالًا؟».

أجابت بيجوتي: «أتوقع أنني سأضطر للذهاب إلى يارموث والعيش بها».

أشرق وجهي قليلًا، ورحت أقول: «ربما لو ذهبت إلى أبعد من ذلك، كنت سأشقى بفقدانك كثيرًا. سأراك هناك بين الحين والآخر يا عزيزتي العجوز بيجوتي. لن تكوني في الطرف الآخر من العالم، أليس كذلك؟».

صرخت بيجوتي في إيماءات هائجة فقالت: «معاذ الله أن تفرقنا طرق مختلفة! ما دمت تمكث هنا يا صغيري، فسوف آتي كل أسبوع لرؤيتك ما دمت حية. سأداوم على زيارتك يوم واحد، كل أسبوع طوال حياتي».

أزاح هذا الوعد ثقلًا كبيرًا يهيمن على عقلي، لكن هذا الوعد لم يكن كل شيء، فقد راحت بيجوتي تقول:

«إنني ذاهبة يا ديفي، كما ترى. سأذهب لأخي، أولًا لزيارة مدتها أسبوعان - فقط حتى يتاح لي الوقت للتفكير في أموري، وأعود إلى حالتي مرة أخرى. أما الآن، فإنني أحسب أنهما لا يريدانك هنا في الوقت الحالي، وربما يسمحان لك بالذهاب معي».

ما كان لشيء مهما كان، أو لأي علاقة بأي إنسان مهما كانت علاقته بي، أن يمنحني إحساسًا بالمتعة في ذلك الوقت، باستثناء ما عرضته عليَّ بيجوتي حينها. رحت أفكر كيف سأصير محاطًا مرة أخرى بتلك الوجوه الصادقة المرحبة بوجودي، رحت أفكر كيف سيتجدد ذلك الهدوء في صباح يوم الأحد العذب، حيث ستدق الأجراس، وتترامى الحجارة في الماء، وتلوح لي السفن الغامضة تخترق الضباب، كيف سأتجول ذهابًا وإيابًا مع إيميلي الصغيرة فأخبرها بمشكلاتي، بينما تلقي إليَّ سحرًا ورجمًا من وابل القذائف والحصى المتراصة على الشاطئ. لقد هدأ قلبي وسكن بعد هذا التفكير. ارتددت منزعجًا بعدها بلحظات بسبب تشككي في منح الآنسة مردستون موافقتها لي، لكن سرعان ما انزاح عني هذا الهم، فقد جاءت الآنسة مردستون في المساء تتفقد الخزانة، وكنا نتحدث، فإذا ببيجوتي تدهشني بجرأتها بعد أن طرحت أمامها الأمر على الفور.

قالت الآنسة مردستون بينما تنظر في جرة مخلل: «سيصير الصبي عاطلًا هناك، والكسل هو أصل كل الشرور. لكن في رأيي من المؤكد أنه سيصير عاطلًا عن العمل هنا أيضًا أو في أي مكان».

استطعت أن ألاحظ أن بيجوتي قد جهزت إجابة غاضبة، لكنها ابتلعتها من أجلي وسكتت.

قالت الآنسة مردستون، ولم تزل تراقب المخللات: «أُفٍّ! لا شيء عندي ذو أهمية غير عدم إزعاج أخي أو تعكير مزاجه. أحسب أنه يجدر بي أن أوافق».

شكرتها من دون أن أبدي أي فرح لئلا يدفعها ذلك إلى سحب موافقتها. لا يمكنني أن أتصور سوى أنني كنت قد سلكت مسارًا حكيمًا، لأنها أخذت تنظر نحوي عبر جرة المخلل، بعد أن فاضت نظراتها بمرارة فجة كما لو أن عينيها السوداوين قد امتصتا محتويات الجرة. كانت قد أعطتني إذنها على الرغم من ذلك ولم تتراجع عنه. انقضى الشهر، وكنت أنا وبيجوتي مستعدين للرحيل.

جاء السيد باركس إلى المنزل ليحمل صناديق بيجوتي. لم أعهده قَطُّ يمر من بوابة الحديقة من قبل، ولكنني رأيته في هذه المناسبة وقد دخل إلى المنزل. ألقى بنظرة خاطفة نحوي بينما يحمل أكبر صندوق ويخرج من المنزل. أحسب أن نظرته كانت ذات معنى، فإن كان لكل معنى إيماءة لوجدت المعاني سبيلًا إلى وجه السيد باركس.

لفت بيجوتي بطبيعة الحال حالة من الغم، بينما كانت تغادر مكانًا كان بمثابة منزلها لسنوات عديدة، حيث أنشأت أقوى علاقتين في حياتها - أمي وأنا. كانت قد تمشت في ساحة الكنيسة في وقت مبكر للغاية، ثم ما لبثت أن ركبت العربة وجلست داخلها تحمل منديلها تمسح به دموع عينيها.

ظلت على هذه الحالة، فلم يحرك السيد باركس ساكنًا على الإطلاق. جلس في مكانه المعتاد وقد بدا مثل شخصية عظيمة لها

مهابة. بدأت بيجوتي تتلفت وتتحدث معي، فإذا به قد أومأ برأسه وابتسم ابتسامة عريضة، أخذ يكررها عدة مرات. ليست لديَّ أدنى فكرة لم كان يبتسم، أو ماذا قصد بأفعاله هذه.

تحدثت بنوع من التهذيب قائلًا: «يا له من يوم جميل يا سيد باركس!».

قال السيد باركس، بطريقته المتحفظة في الكلام بشكل عام، كما هي عادته دومًا: «لا بأس به».

ألمحت إليه كي أرضيه، فقلت: «إن بيجوتي مرتاحة تمامًا الآن يا سيد باركس».

قال السيد باركس: «هل صارت مرتاحة حقًّا؟».

التفت إليها السيد باركس بعد تفكير في الأمر وأخذ يقول في رشاقة: «هل أنتِ مرتاحة الآن؟».

ضحكت بيجوتي وأجابت بالإيجاب.

دمدم السيد باركس، وقد انزلق من مقعده ليقترب منها، وقد نكزها بمرفقه، قائلًا: «هل أنتِ مستريحة؟ حقًّا وصدقًا، كما تعلمين. هل أنتِ كذلك؟ إنكِ حقًّا وصدقًا مستريحة جدًّا؟ أليس كذلك؟ آه صحيح؟».

اقترب منها السيد باركس مع كل سؤال من هذه الاستفسارات، وأخذ يدفع كتفها مرة بعد الأخرى، حتى تزاحم ثلاثتنا في النهاية في الزاوية اليسرى من العربة، وصرت مضغوطًا جدًّا لدرجة أنني بالكاد استطعت تحمل الأمر.

نبهته بيجوتي إلى معاناتي، فأعطاني السيد باركس مساحة أكبر قليلًا في الحال، وأخذ يتراجع درجة تلو الأخرى. إلا أنني انتبهت إلى أنه قد توصل إلى طريقة رائعة للتعبير عن نفسه في هيئة أنيقة ومقبولة وموجهة لهدفه، من دون تعب في اختراع محادثة واهية. كان من الواضح أنه استمر في الضحك لبعض الوقت، إلى أن استدار إلى بيجوتي مرة أخرى، وكرر قوله: «هل أنتِ مرتاحة جدًّا على الرغم من ذلك؟». تحمَّلنا ما حدث من قبل، حتى كادت أنفاسي تفارق جسدي. ظل يدنو بنفسه من جديد، ويسأل السؤال نفسه وينتهي إلى النتيجة نفسها. رحت في النهاية، أنهض واقفًا عند مسند الأقدام كلما رأيته مقتربًا، متظاهرًا بالنظر إلى الفضاء، وقد كان لعملي هذا أثر جيد جدًّا.

كان في غاية اللطف، إذ توقف عند حانة - لتوجيه التفاتة كريمة إلينا بشكل خاص - وأحضر إلينا قطعًا من لحم الضأن المشوي ومشروبًا من البيرة. كانت بيجوتي تشرب، فإذا به يتقرب منها منقضًّا عليها بأحد طرقه التي كادت أن تخنقها. اقتربنا من نهاية رحلتنا، فوجد أمامه مزيدًا من العمل ووقتًا أقل لمثل هذه الأفعال الجريئة. كنا قد صعدنا إلى رصيف يارموث، وشعرنا جميعًا بإعياء تكرار الاهتزاز والصدمات، وفهمت أن إعياءنا منعنا من استغلال أي وقت فراغ في أي شيء آخر.

انتظَرَنا السيد بيجوتي بصحبة هام في المكان القديم. استقبلاني واستقبلا بيجوتي بترحاب حنون، وصافحا السيد باركس، الذي انزاحت قبعته حتى نهاية رأسه، وقد أخذ يهز ساقيه. أحسب أن مظهره كان دالًّا على حالته. أخذ كل منهما إحدى حقائب بيجوتي، وكنا على

وشك الانطلاق، حينما أشار إليَّ السيد باركس بإصبعه حتى أمر من مكان تحت الباب.

راح السيد باركس يتمتم قائلًا: «أقول؛ لقد كان كل شيء على ما يرام».

نظرت إلى وجهه وأجبته، في محاولة لأكون عميقًا جدًّا قائلًا: «آهٍ!».

قال السيد باركس بينما يهز رأسه في ثقة: «لم ينتهِ الأمر بعد. كان كل شيء على ما يرام».

أجبته مرة أخرى: «آهٍ!».

قال صديقي: «إنك تعرف من كان راغبًا، إنه باركس، ولا أحد سوى باركس».

أومأت بالموافقة.

قال السيد باركس بينما يصافحني: «لا بأس. إنني صديقك. لقد جعلت كل شيء على ما يرام من البداية. كل شيء يسير على أفضل حال».

كانت هذه هي محاولاته لأن يصير واضحًا بشكل خاص، إلا أن السيد باركس لم يزل غامضًا للغاية، لدرجة أنني وقفت أدقق النظر إلى وجهه لمدة ساعة، وبالتأكيد لم أحصل على قدر أكبر من المعلومات منه كما لو أنه ساعة معلقة متوقفة عن الحركة. راحت بيجوتي تناديني فسرت مبتعدًا عنه. سرنا معًا، فأخذت تسألني عما قاله لي، فقلت لها إنه قال إن كل شيء على ما يرام.

قالت بيجوتي: «يا لوقاحته، لكنني لست مستاءة! يا ديفي عزيزي، ما رأيك إذا كنت سأفكر في الزواج؟».

أجبتها بعد قليل من التفكير: «لم تسألين؟ أفترض أنكِ ستبقين على حبكِ لي كثيرًا يا بيجوتي، كما تفعلين الآن».

اندهش مارة الشارع، وكذلك اعترى الذهول من كانا يسيران خلفنا، حين اضطرت هذه الروح الطيبة وتوقفت وعانقتني على الفور، كدليل قاطع على حبها الذي لن يتحول.

سألتني مرة أخرى بعدما انتهت من معانقتي وتأهبنا للمسير: «قل لي ما رأيك يا عزيزي؟».

«هل تقصدين رأيي في فكرة الزواج من السيد باركس يا بيجوتي؟».

قالت بيجوتي: «نعم».

«أظن أنه سيكون أمرًا جيدًا جدًّا. كما تعلمين يا بيجوتي، سيكون بحوزتكِ الحصان والعربة دائمًا، فتستطيعين المجيء لرؤيتي، ويمكن أن تتحركي بهما من دون مقابل، وتتأكدين من سهولة الحضور».

صاحت بيجوتي قائلة: «يا له من شعور ثمين! ما كنت أفكر فيه قَطُّ طوال هذا الشهر! نعم يا غالي. وأحسب أنني سأصير أكثر استقلالية تمامًا. تعلم أنني سأعمل بشكل أفضل في منزلي، يفوق ما سأعمله لأي شخص آخر الآن. إنني لا أعرف هل يناسبني العمل في بيت غريب بعد الآن».

أردفت بيجوتي قائلة بعد أن تفكرت قليلًا: «وسأكون دومًا بالقرب من مكان استراحة الجميلة، وسأصبح قادرة على زيارتها وقتما أحب،

وعندما أستلقي لأرتاح في مرقدي الأخير، فإنني لن أصير بعيدة عن فتاتي العزيزة».

لم يقل أي منا أي شيء لبرهة قصيرة بعد هذا الكلام.

تحدثت بيجوتي في مرح قائلة: «لكنني لن أفكر في الأمر مرة أخرى، إذا كان ديفي معترضًا على الأمر - حتى وإن سُئلت أمام الكنيسة ثلاثين مرة أو ثلاثة أضعاف ذلك، أو حتى إن كنت أحمل خاتم الزواج في جيبي».

أجبتها: «انظري إليَّ يا بيجوتي، وراقبي وجهي السعيد حقًّا، فإنني لا أتمنى إلا أن يتم هذا الأمر حقًّا»، كان هذا ما تمنيته بالفعل من كل قلبي.

قالت بيجوتي: «حسنًا، يا أغلى ما في حياتي، لقد فكرت في الأمر ليلًا ونهارًا، بمختلف الطرق الممكنة، وآمل أن أكون في المسار الصحيح، لكنني سأفكر في الأمر مرة أخرى، وأتحدث مع أخي بشأنه، وخلال هذه المدة سنُبقي الأمر سرًّا بيننا يا ديفي، أنت وأنا. إن باركس إنسان طيب وملتزم، وإذا أديت واجبي سأستريح، وإن لم أسترح فسيكون مرد الخطأ إليَّ أنا». قالت بيجوتي جملتها الأخيرة هذه ضاحكة من كل قلبها. كان هذا الاقتباس من السيد باركس وكان مناسبًا للغاية، وأثار قلقنا كثيرًا، لدرجة أننا ضحكنا لمرات عديدة، وقد لفتنا روح الدعابة والابتهاج حتى وصلنا إلى بيت السيد بيجوتي.

ظهر أمامي البيت كسابق عهدي به، إلا أنه ربما تقلص قليلًا في عيني. كانت السيدة جامدج تنتظر عند الباب كما لو كانت تقف مكانها

منذ ذاك الحين. كان كل ما في الداخل كما هو، وصولًا إلى الأعشاب البحرية في الكوب الأزرق في غرفة نومي. خرجت نحو ساحة البيت لأملِّي عيني بالمكان، فأبصرت السلطعون وسرطان البحر والكابوريا أنفسهم الذين تتملكهم الرغبة ذاتها في عض أي شيء في هذا العالم بشكل عام، وقد بدوا في الحال نفسها في الزاوية القديمة نفسها.

لم أبصر أي أثر لإيميلي ولم أتمكن من رؤيتها، لذلك سألت السيد بيجوتي عنها.

قال السيد بيجوتي وهو يمسح العرق المتصبب فوق جبهته الناتج عن حمل صندوق بيجوتي: «إنها في المدرسة يا سيدي. ستعود إلى المنزل...». أخذ ينظر إلى الساعة الهولندية، ثم أكمل: «في غضون عشرين دقيقة إلى نصف ساعة. كلنا نشعر بفقدانها، بارككم الله».

تنهدت السيدة جامدج.

صرخ السيد بيجوتي قائلًا: «ابتهجي أيتها الأم».

قالت السيدة جامدج: «أشعر أكثر من أي شخص آخر أنني مخلوقة وحيدة، وقد كانت إيميلي في الغالب المخلوقة الوحيدة التي لا تضايقني».

راحت السيدة جامدج تزمجر وتهز رأسها، واتجهت نحو النار لتطفئها. قال السيد بيجوتي بصوت منخفض وهو يدير نظراته حولنا بينما كانت السيدة جامدج مشغولة للغاية، بعد أن أخفى شفتيه بكفه: «الراحل». توقعت مما حدث أنه لم يقع أي تحسن في مزاج السيدة جامدج منذ زيارتي الأخيرة.

كان المكان بأكمله في هذه اللحظة، أو كان ينبغي أن يكون، مكانًا ممتعًا تمامًا كما كان دائمًا، ومع ذلك لم يُثِر إعجابي بالدرجة ذاتها كما كان سابقًا. شعرت بخيبة أمل إلى حد ما. ربما أحسست بذلك لأن إيميلي الصغيرة لم تكن في المنزل. كنت أعرف الطريق الذي ستعود منه، فوجدت نفسي في هذه اللحظة أسير على طول هذا الطريق متطلعًا لمقابلتها.

بدا لي شبح شخص قادم من مسافة بعيدة، سرعان ما تبين لي أنها إيميلي. لم تزل ذات هيئة ضئيلة، على الرغم من أنها صارت أكبر سنًّا. اقتربت أكثر، فإذا بي أبصر عينيها وقد استحالت أكثر زرقة، وبدا وجهها الغامض أكثر إشراقًا. كانت بالملامح نفسها لكنها أكثر جمالًا. شعرت بنوع من الفضول جعلني أتظاهر بعدم معرفتها، ومررت من أمامها كما لو أنني أبحث عن شيء بعيد المنال. لقد تصرفت بالطريقة نفسها في وقت لاحق في حياتي، وأحسب أنني كنت مخطئًا.

لم تهتم «إيميلي الصغيرة» بي على الإطلاق. أبصرتني بوضوح جلي، ولكنها بدلًا من الالتفات لمناداتي، هربت ضاحكة. أجبرني هذا التصرف على الركض وراءها، فركضت هي الأخرى بسرعة حتى أننا كدنا نصل إلى البيت قبل أن أمسك بها.

قالت إيميلي الصغيرة: «آهٍ، إنه أنت، أليس كذلك؟».

قلت: «ولم لا، لقد عرفتِ من أكون يا إيميلي».

قالت إيميلي: «ألم تعرفني أنت كذلك؟»، كنت على وشك تقبيلها، لكنها غطت شفتيها بيديها، وقالت إنها ليست طفلة الآن، ثم هربت وقد زادت ضحكاتها أكثر من أي وقت مضى، ودخلت إلى المنزل.

كانت تبدو سعيدة بإغاظتي، وهو تغيير رحت أسائل نفسي كثيرًا عنه. كانت طاولة الشاي جاهزة، وقد وضعت خزانتنا الصغيرة في مكانها القديم، ولكنها لم تقترب للجلوس بجانبي، بل ذهبت بدلًا من ذلك لتجلس بجوار السيدة جامدج، هذه المرأة المتذمرة. سألها السيد بيجوتي عن سبب عدم جلوسها في مكانها الأثير، فراحت تعبث بخصلات شعرها لتغطي وجهها بالكامل لإخفائه، ولم تتمكن من فعل شيء سوى الضحك.

قال السيد بيجوتي وهو يربت عليها بيده الكبيرة: «كم أنتِ جميلة كقطة!».

صرخ هام قائلًا: «حقًّا إنها كذلك. إنها كذلك حقًّا. يا سيد ديفي إنها كذلك».

جلس وراح يضحك عليها لبعض الوقت في حالة تمزج بين الإعجاب والبهجة، مما جعل وجهه خجلًا وقد توقدت منه حمرة ملتهبة.

كان الجميع في الواقع يدلل إيميلي الصغيرة، ولم يكن أحد منهم يفوق السيد بيجوتي نفسه في تدليله لها، فقد كانت تستطيع إقناعه بأي شيء، ليس عليها سوى التوجه نحوه ووضع خدها الناعم فوق سوالف وجنتيه الخشنة. كان هذا رأيي على الأقل، عندما رأيتها تفعل ذلك. أحسب أن السيد بيجوتي كان محقًّا تمامًا في تدليله لها. كانت حنونة للغاية ولطيفة، تتمتع بأسلوب عذب يجعلها ماكرة وخجولة في الوقت نفسه، حتى إنها أسرتني أكثر من أي وقت مضى.

كانت رقيقة القلب أيضًا. جلسنا نستدفئ حول نيران المدفأة بعد احتساء الشاي، فأشار السيد بيجوتي إلى الخسارة التي تعرضتُ لها بينما يدخن غليونه. احتبست الدموع في عيني إيميلي، ونظرت ناحيتي عبر الطاولة نظرة حنونة، حتى إنني شعرت بامتنان بالغ لها.

تكلم السيد بيجوتي بينما أخذ يمشط جدائل شعرها، فانساب بين يديه كما ينساب الماء، قائلًا: «آه!، ها هي يتيمة أخرى، كما ترى يا سيدي». وهنا، نكز السيد بيجوتي هام في صدره، وراح يقول: «وهذا يتيم آخر، على الرغم من أنه لا يشبه الأيتام كثيرًا».

قلت بينما أهز رأسي: «إذا كنت وليًّا لأمري يا سيد بيجوتي، فلا أحسب أنني سأشعر بهذا اليتم أبدًا».

صاح هام بنوع من نشوة: «حسنًا أيها الشاب السيد ديفي، مرحى! أحسنت قولًا، ولا أكثر من ذلك. مرحى! مرحى!». هنا أعاد اللكزة إلى السيد بيجوتي، ثم نهضت إيميلي الصغيرة وقبَّلت السيد بيجوتي.

سألني السيد بيجوتي: «وكيف حال صديقك يا سيدي؟».

قلت: «أتقصد ستيرفورث؟».

صرخ السيد بيجوتي بعد أن التفت إلى هام قائلًا: «هذا هو الاسم! كنت أعلم أنه يشبه هذا الاسم بطريقة ما».

عقَّب هام على كلامه بينما يضحك قائلًا: «لقد قلت إنه يدعى رودرفورد».

ورد السيد بيجوتي قائلًا: «حسنًا، أليست «ستير» و«رود» تحملان

معنى قيادة الدفة، أليس كذلك؟ إنني لم أبتعد عن الاسم كثيرًا. كيف حاله على أي حال يا سيدي؟».

«لقد كان بصحة جيدة جدًّا حقًّا عندما رجعت إليه يا سيد بيجوتي».

قال السيد بيجوتي بينما يمد غليونه مشيرًا به: «يا له من صديق مخلص! سنذكره إذا تحدثنا عن الأصدقاء. يا إلهي؛ كم أَحَب قلبي رؤيته، فكان من الممتع التعرف عليه».

أردفت قائلًا، وقد سر قلبي بهذا الثناء: «إنه وسيم للغاية، أليس كذلك؟».

صرخ السيد بيجوتي قائلًا: «وسيم! إنه مقارنة بك يبدو مثل... مثل... لا أعرف ما وجه الشبه أو المقارنة بك. إنه جريء جدًّا».

قلت: «نعم! هذه شخصيته. إنه شجاع مثل الأسد، ولا يمكنك تصور مدى صراحته يا سيد بيجوتي».

قال السيد بيجوتي بينما ينظر إليَّ من خلال دخان غليونه: «أفترض الآن أنه ذكي، يلمح ما يطير في الهواء أو يلتقط أي معلومة تقريبًا تظهر أمامه في أي كتاب».

قلت بسرور بالغ: «نعم. إنه شديد الذكاء بشكل مذهل».

غمغم السيد بيجوتي بعد أن أومأ برأسه إيماءة قوية قائلًا: «يا له من صديق رائع!».

قلت: «لا يمكن لأي شيء مهما كان أن يصير عقبة أمامه، إنه يعرف ما ينبغي فعله بمجرد النظر إلى الأمور. إنه أفضل لاعب كريكيت رأيته

على الإطلاق. سوف يمنحك عدد الضربات التي تريدها تقريبًا، ثم يغلبك بكل سهولة».

طوح السيد بيجوتي رأسه مرة أخرى بقوة كما لو أنه يريد أن يقول «بالطبع سيغلبني».

تابعت قائلًا: «إنه متحدث لبق، بحيث يمكنه التغلب على أي شخص بحجته، ولا أعرف ماذا ستقول إذا سمعته وهو يغني يا سيد بيجوتي».

طوح السيد بيجوتي رأسه مرة أخرى بقوة كما لو أنه يريد أن يقول «ليس لديَّ شك في ذلك».

رحت أتحدث متحمسًا تمامًا لموضوعي المفضل قائلًا: «وفوق كل هذا، إنه زميل كريم، ورائع، ونبيل. يصير من الصعب منحه كل الثناء الذي يستحقه. إنني متأكد من أنني لا أستطيع أبدًا أن أقدم له شكرًا وافيًا أمام الكرم الذي حماني به، فأنا أصغر منه بكثير وأضعف منه قدرًا في المدرسة».

كنت أتابع حديثي المتلاحق في غاية السرعة والحماس، إلى أن استقرت عيني على وجه إيميلي الصغيرة، الذي كان منحنيًا للأمام فوق الطاولة، مستمعة لحديثي باهتمام عميق، وقد حبست أنفاسها، وأخذت عيناها الزرقاوان تتألقان مثل الجواهر، وقد كسا اللون الوردي خديها. بدت جادة وفي غاية الجمال، حتى إنني توقفت عن الحديث بنوع من الدهشة، ثم أخذوا يراقبونها جميعًا في الوقت نفسه. كنت قد توقفت عن الحديث، فضحكوا جميعًا وأخذوا ينظرون إليها.

قالت بيجوتي: «إن إيميلي مثلي تمامًا؛ تود رؤيته».

صارت إيميلي في حيرة من أمرها بعد أن صار الجميع يراقبونها. طأطأت رأسها، وقد كست حمرة الخجل وجهها. ألقتْ نظرة خاطفة نحونا عبر خصلات شعرها المبعثرة في هذه اللحظة، فإذا بها تبصرنا جميعًا وقد أطلنا النظر إليها (إنني متأكد من أنني، على سبيل المثال، كان من الممكن أن أبقي نظراتي نحوها لساعات). هربت من أمامنا، وابتعدت مختبئة حتى حان وقت النوم.

استلقيت على السرير الصغير القديم القابع في نهاية السفينة. سرت الريح تئن عبر الشاطئ كما كانت من قبل. لم يسعني إلا أن أتخيل في هذه اللحظة، أن الريح تئن من أولئك الذين رحلوا، وبدلًا من التفكير في أن البحر قد يرتفع في الليل ويطفو القارب بعيدًا، فكرت في البحر الذي ارتفع موجه، منذ أن سمعت هذه الأصوات آخر مرة، ثم أغرق بيتي السعيد. أتذكر حالي مع سماع أول صوت للريح والماء يخفت في أذني، لقد رحت أدعو في صلاتي وألتمس أن أكبر وأتزوج من إيميلي الصغيرة، وهكذا غلبني النوم وأنا واقع في الحب.

مرت الأيام مشابهة إلى حد كبير الأيام التي مرت من قبل، باستثناء شيء واحد - كان استثناءً فارقًا - حيث صار من النادر الآن أن أتجول أنا وإيميلي الصغيرة على الشاطئ. لقد باتت تؤدي واجبات ما تتعلمه، كما صارت تقوم بأعمال الخياطة، وهكذا كانت غائبة منشغلة خلال جزء كبير من النهار. إلا أنني شعرت أننا ما كنا لننعم بلحظات مميزة لو أننا كررنا جولاتنا القديمة، فعلى الرغم مما يراود إيميلي من

خيالات وأهواء طفولية، فإنها صارت امرأة صغيرة ذات أنوثة تفوق ما كنت أتوقعه. بدت وكأنها ابتعدت عني مسافة كبيرة، خلال عام أو أكثر بقليل. كانت تحبني لكنها ضحكت عليَّ وعذَّبتني. كنت أذهب لمقابلتها، إلا أنها سلكت طريقًا مختلفًا إلى المنزل، ثم وقفت تضحك عند الباب بعدما عدت محملًا بخيبة أملي. كانت أفضل الأوقات عندي عندما تجلس للعمل في هدوء على أعتاب المنزل، حينها أجلس على السلم الخشبي عند قدميها، ثم أقرأ لها. يخيل إليَّ في هذه الساعة، أنني لم أرَ قَطُّ مثل هذه الشمس الساطعة بضوئها - كما هي الحال في فترة ما بعد الظهيرة في شهر أبريل - لم أرَ في حياتي قَطُّ مشهدًا صغيرًا رائقًا للشمس كما كنت أراه بينما أجلس عند مدخل القارب القديم. لم أرَ مثل هذه السماء طوال حياتي، ولم أرَ مثيلًا لهذه المياه، ولم أبصر مثل هذه السفن البديعة تبحر بعيدًا في رحاب الهواء الذهبي.

ظهر السيد باركس في الليلة الأولى بعد وصولنا، وقد بانت عليه حالة غريبة ومربكة للغاية. جاء مصطحبًا حزمة من البرتقال مربوطة في منديل، ونظرًا لأنه لم يُشر بأي شيء إلى هذه الحزمة، فقد افترضنا بعدما غادر أنه قد نسيها أو جاء بها عن طريق الصدفة. ركض هام وراءه ليرد حزمته إليه، ثم عاد ليخبرنا أنها هدية لبيجوتي. ظل بعد هذه المناسبة يظهر كل مساء في الساعة نفسها بالضبط، ومعه حزمة صغيرة دائمًا، من دون أن يشير إليها قَطُّ. يضعها بانتظام خلف الباب ثم يغادر. كانت هذه الحزمة متنوعة الأصناف وغريبة في تنوعها. أتذكر أنها ضمت في بعض الأوقات زوجًا من كوارع الخنازير، ووسادة دبابيس ضخمة، ونصف

مكيال من بقوليات أو مقدارًا من التفاح أو نحو ذلك من الأشياء، كما ضمت أحيانًا زوجًا من الأقراط، وبعض البصل الإسباني، وعلبة من الدومينو، أو طائر كناري وقفصًا، وأصابع مخللة من لحم الخنزير.

أتذكر أن غزل السيد باركس كان غريبًا تمامًا. كان من النادر أن يتكلم بشيء. لا يجلس إلا بجانب نيران المدفأة في الهيئة نفسها التي يجلس بها في عربته، ثم يحدق بشدة في وجه بيجوتي، التي تجلس عادة أمامه. أحسب أن الحب قد ألهمه ذات ليلة فعلًا غريبًا، فقد تناول الشمعة التي احتفظت بها بيجوتي للاستعانة بها في الخياطة، ثم وضعها في جيب صدريته وحملها معه. كان من دواعي سروره بعد ذلك إخراجها من جيبه كلما احتاجت إليها بيجوتي، ثم يرجعها إلى بطانة جيبه في حالة ذائبة جزئيًّا، هكذا يعاود إخراجها ثم وضعها في الجيب مرة أخرى عند الانتهاء من استخدامها. بدا أنه يستمتع بهذا الفعل للغاية، من دون أن يشعر أنه بحاجة إلى الحديث مطلقًا. أخذ بيجوتي في نزهة في الهواء الطلق، لم يساور رأسه أي قلق بشأن الحديث معها على ما أظن. كان كل ما اكتفى به هو سؤالها بين الحين والآخر عما إذا كانت مرتاحة للغاية أم لا. أتذكر أنه في بعض الأحيان، بعد رحيله عنا، كانت بيجوتي تطوح مئزرها فوق وجهها ثم تضحك طوال نصف ساعة كاملة. كنا جميعًا في الواقع مستمتعين إلى حد ما بمرافقته، باستثناء السيدة جامدج البائسة، التي كان من الواضح أن الغزل بهذه الطريقة راح باستمرار يذكرها بزوجها الراحل تمامًا، والذي عاملها بمثل هذه المعاملات القديمة نفسها.

أوشكت مدة زيارتي على الانتهاء. أعلنت بيجوتي أنها ستقضي مع السيد باركس عطلة ليوم واحد معًا، وكان علينا مرافقتها؛ أنا وإيميلي الصغيرة. لم أستسغ النوم في الليلة السابقة، كنت متأهبًا لقضاء يوم كامل من السعادة مع إيميلي الصغيرة. صحونا جميعًا في الصباح الباكر، وجلسنا نتناول الإفطار، فإذا بالسيد باركس يظهر من بعيد، يقود عربة باتجاه هدفه ومحبوبته.

كانت بيجوتي كعادتها ترتدي ثوب الحداد الأنيق والهادئ. أما السيد باركس فقد ارتدى معطفًا جديدًا أزرق، قد أحسن الخياط تفصيله لأبعد حد، بحيث كانت الأكمام تغني عن القفازات حتى في أبرد الأجواء. كانت الياقة مرتفعة جدًّا للحد الذي دفعت فيه شعره ليظهر كما لو أنه مصفف إلى أعلى رأسه. كانت أزراره البراقة أيضًا كبيرة الحجم. صار السيد باركس في بنطاله الداكن وسترته البرتقالية، يبدو في هيئة غاية في الوقار والهيبة.

صرنا جميعًا مستعدين نقف في صخب على أعتاب الباب، فإذا بالسيد بيجوتي قد أعد حذاءً قديمًا، كان من المقرر أن يرميه وراءنا طلبًا لطيب الحظ، وقد عرض على السيدة جامدج القيام بهذا الأمر.

قالت السيدة جامدج: «لا، إن من الأفضل أن يقوم بهذا الأمر شخص آخر يا دانيال. إنني إنسانة وحيدة وبائسة، وأي شيء لا يُذكرني بالمخلوقات الوحيدة واليائسة لا يناسبني».

صاح السيد بيجوتي قائلًا: «تعالي أيتها الأم العجوز، خذي الحذاء واقذفيه خلفهم».

قالت السيدة جامدج بينما تئن وتهز رأسها بالرفض: «لا يا دان، إذا لم أكن مرهفة المشاعر، لاستطعت فعل المزيد من الأشياء. إنك لا تشعر بما أحس به يا دان. الأحداث لا تخالف ظنونك. إنه من الأفضل أن تقذف الحذاء بنفسك».

صارت بيجوتي في هذه اللحظة تتنقل من واحد إلى آخر بطريقة سريعة، وقد أخذت تُقبل الجميع، بعد أن أخذت موقعها من العربة، وكذلك كنا جميعًا داخلها في هذا الوقت (أنا وإيميلي على كرسيين صغيرين جنبًا إلى جنب). راحت بيجوتي تتوسل إلى السيدة جامدج أن تفعل الأمر، لذلك استجابت السيدة جامدج وألقت بالحذاء القديم خلفنا.

يؤسفني أن أتحدث عما فعلته السيدة جامدج، لقد ألقت بوابل من النحيب لمغادرتنا، فقد انغمست في البكاء على الفور، ثم اندست بين ذراعي هام، مع إعلانها أنها تعلم أنها عبء، ومن الأفضل حملها إلى المنزل في الحال، وقد ظننتُ أنها حقًّا فكرة منطقية، وربما كان من الأفضل لهام أن ينفذها.

انقضى ذلك كله، وانطلقنا بعيدًا في رحلتنا، وكان أول شيء فعلناه هو التوقف عند الكنيسة، حيث قام السيد باركس بربط الحصان ببعض القضبان ودخل مع بيجوتي، تاركًا إيميلي الصغيرة معي، جالسين وحدنا في العربة. انتهزت هذه الفرصة لأضع ذراعي حول خصر إيميلي، واقترحت عليها أن نقرر أن نصير رقيقين للغاية معًا، وأن نسعد ونمرح طوال اليوم؛ نظرًا لأنني سأغادر قريبًا جدًّا. وافقت إيميلي الصغيرة، وسمحت لي بتقبيلها. صرت في غاية الحماس، فأتذكر أني أخبرتها

أنني لن أستطيع أن أحب إنسانًا آخر أبدًا، وأنني على استعداد لقتل أي شخص يتطلع إلى نيل حبها.

يا للفرحة التي انتابت إيميلي الصغيرة بعد قولي هذا! راحت تتحدث بوقار امرأة قائلة إنها تكبرني سنًّا وأكثر حكمة مني، ثم قالت المرأة الصغيرة الملائكية؛ إنني: «فتى سخيف»، ثم ضحكت بشكل ساحر لدرجة أنني نسيت ألم نعتي بهذا الاسم المهين، بل صار من دواعي سروري أن أنظر إليها.

مكث السيد باركس وبيجوتي في الكنيسة مدة لا بأس بها، لكنهما خرجا في النهاية، ثم انطلقنا بالعربة بعيدًا نحو الريف. سرنا معًا، فإذا بالسيد باركس يلتفت إليَّ، ثم غمز بعينيه - التي ما كنت لأفكر أنه يستطيع أن يغمز بها - قائلًا:

«ما الاسم الذي كتبته على العربة؟».

أجبته قائلًا: «كلارا بيجوتي».

«وما الاسم الذي يجب أن أكتبه الآن، إذا كان هناك ثمة مكان للكتابة على هذه العربة؟».

أجبته: «هل ستكتب كلارا بيجوتي مرة أخرى؟».

قال: «بل كلارا بيجوتي باركس»، ثم انطلق في هدير من الضحك حتى اهتز الكرسي من تحته.

باختصار، لقد تزوجا، ولم يذهبا إلى الكنيسة إلا لهذا الغرض. قررت بيجوتي أن يتم ذلك بهدوء. كان الكاتب قد أتم الزواج من دون

شهود على المراسم. كانت مرتبكة بعض الشيء بعدما صرَّح السيد باركس بهذا الإعلان المفاجئ عن زواجهما. عانقتني أكثر من المعتاد كإشارة إلى عاطفتها التي لم تتأثر بزواجها، لكنها سرعان ما هدأت مرة أخرى، وقالت إنها سعيدة للغاية لإتمام الأمر.

اتجهنا نحو نزل صغير على الطريق، حيث وجدنا من استقبلنا، ثم تناولنا غداء شهيًّا للغاية، وقضينا يومًا بهيجًا سلسًا. لو أن بيجوتي قد تزوجت منذ عشر سنوات ماضية، لما كانت أكثر راحة من الآن، ولما حدث أي فارق في روحها وسلوكها. ظلت بيجوتي كما كانت دائمًا من دون أن تتغير. خرجت في نزهة مع إيميلي الصغيرة، ومعي كذلك، قبل احتساء الشاي. جلس السيد باركس يدخن غليونه في هيئة أشبه بالفيلسوف، وراح يستمتع بوقته، متأملًا -على ما أظن- في مدى سعادته، وقد أثر الأمر عليه، فشحذ شهيته وأقبل على الطعام. وإنني لأذكر بوضوح أنه أكل قدرًا كبيرًا من لحم الخنزير والخضراوات على الغداء، ثم انتهى من تناول دجاجة أو اثنتين، إلا أنه زاد على ما أكله أن تناول لحم الخنزير المقدد المسلوق حين كنا نحتسي الشاي، وقد ابتلع كمية كبيرة منه من دون أي مشقة.

فكرت كثيرًا، منذ ذلك الحين، في غرابة هذا الزفاف، فيا له من زواج بريء وبسيط، بعيد المنال! صعدنا إلى العربة مرة أخرى بعد حلول الظلام بقليل، وعدنا إلى المنزل مرتاحين. أخذنا ننظر إلى النجوم، ونتحدث عنها. كنت أكثر المتحدثين عن النجوم، وقد أثرت بحديثي لُب السيد باركس إلى حد مذهل. حدثته بكل ما أعرفه، لكنه كان سيصدق أي شيء

قد يدور في رأسي وأحدثه به، لأنه كان يكن تبجيلًا عميقًا لقدراتي، حتى إنه قال لزوجته على مرأى ومسمع مني في تلك اللحظة بالذات؛ إنني «شاب معجوز»، وحسب ظني أنه قصد بقوله إنني «معجزة».

استنفدنا الحديث عن أمر النجوم، أو بالأحرى نفدت القدرات العقلية للسيد باركس، فصنعت أنا وإيميلي الصغيرة عباءة من قماش قديم، وجلسنا تحته بقية الرحلة. آهٍ، كم أحببتها! يا لسعادتنا (هكذا ظننت) لو أننا صرنا متزوجين، فنذهب بعيدًا إلى أي مكان لنعيش بين الأشجار أو في الحقول، ولا نكبر أبدًا، ولا تزداد حكمتها أبدًا، بل نبقى طفلين إلى الأبد، يجولان جنبًا إلى جنب مع أشعة الشمس السارية وبين المروج المنمقة، متكئين برأسينا فوق الطحالب ليلًا، غارقين في نوم حلو لا يحاوطه سوى النقاء والسلام، ثم تدفننا الطيور حين نموت! كانت هذه الصور، التي تخلو من العالم الحقيقي، ساطعة بنور براءتنا، وغامضة مثل النجوم البعيدة، قد ثبتت في ذهني طوال الطريق. يسعدني أن أتذكر أن زواج قلبين بريئين مثل زواج بيجوتي والسيد باركس كان ماثلًا بحضوري مع إيميلي الصغيرة. يسعدني أن أتصور أن آلهة الجمال والحب قد حاوطت هذا العرس بأرواحها الشفافة.

وصلنا إلى السفينة القديمة مرة أخرى في وقت مناسب من الليل، وهناك ودعنا السيد باركس والسيدة زوجته، ثم رحلا بهدوء إلى منزلهما. شعرت حينها، ولأول مرة، بأنني فقدت بيجوتي. كان من الممكن أن أخلد إلى الفراش الآن بقلب مثقل بالهموم لو أنني تحت أي سقف آخر، أما هذا السقف فيعلو هو الآخر رأس إيميلي الصغيرة.

عرف السيد بيجوتي وهام ما يدور في خاطري، وكانا قد أعدا العشاء بوجه مضياف لإبعاد هذه الأفكار عني. جاءت إيميلي الصغيرة وجلست بجانبي على الخزانة للمرة الوحيدة طوال تلك الزيارة. وقد كان يومًا رائعًا يختتم أحداثًا رائعة.

بت في ليلة من ليالي المد. ما إن توجهنا إلى الأسرة حتى خرج السيد بيجوتي وهام بعد وقت قصير، فذهبا للصيد. انتابني شعور بشجاعة كبيرة لأنني وحدي في هذا المنزل المنعزل، وقد صرت حاميًا لإيميلي وللسيدة جامدج. لم أتمنى سوى أن يهجم علينا أسد أو ثعبان، أو أي وحش مفترس، فلو هجم علينا، لأرديته قتيلًا وحظيت بوسام المجد. ولكن لم يحدث شيء من هذا القبيل في تلك الليلة في أثناء تجولي في المنزل في يارموث، لذلك قدمت إلى نفسي بديلًا أفضل، فرحت أحلم بمهاجمة التنانين حتى بزوغ الصباح.

جاءت بيجوتي مع الصباح، وقد نادتني كعادتها من تحت نافذتي، كما لو أن السيد باركس الحوذي لم يكن سوى حلم من البداية إلى النهاية. اصطحبتني بعد الإفطار إلى منزلها، وقد كان منزلًا صغيرًا وجميلًا. كان أكثر ما أعجبني من بين جميع الأجهزة الموجودة فيه، مكتبًا قديمًا مصنوعًا من الخشب الداكن يقبع في الصالون - كان المطبخ المكسو بالبلاط هو غرفة الجلوس العامة. كان للمكتب سطح متحرك يُفتح ويغلق ليصير مكتبًا، كانت بداخله طبعة لأجزاء رباعية

ضخمة من كتاب فوكس للشهداء[1]. اكتشفت هذا المجلد الثمين الذي لا أتذكر منه كلمة واحدة الآن. رحت أنهال عليه وألتهمه على الفور. لم أفوت فرصة لزيارة المنزل مطلقًا بعد ذلك، إلا وانحنيت فوق الكرسي، لأفتح هذا النعش حيث تم إخفاء هذه الجوهرة الثمينة، ثم ما ألبث أن أبسط ذراعي فوق المكتب، فأغوص في الأعماق لألتهم هذا الكتاب من جديد. أخشى أن تكون صوره الكثيرة التي مثَّلت كل أنواع الرعب والهلع، هي ما جذبتني إليه بشكل رئيسي. صار كتاب الشهداء ومنزل بيجوتي لا ينفصلان في ذهني منذ ذلك الحين، ولم يزالا على هذا النحو حتى الآن.

استأذنت للاستعداد للسفر، وودعت السيد بيجوتي، وهام، والسيدة جامدج، والصغيرة إيميلي، في ذلك اليوم. قضيت ليلتي في بيت بيجوتي، في غرفة صغيرة تقبع في السطح (كان كتاب التمساح على رف بجانب رأس السرير) وكان من المفترض أن تصير هذه الحجرة دومًا لي، هكذا قالت بيجوتي لي، كما أنها ستحافظ عليها دومًا بنفس هيئتها الأولى تمامًا.

قالت بيجوتي: «أيًا ما كنت صغيرًا أو كبيرًا يا عزيزي ديفي، وما دمت أنا على قيد الحياة ولديَّ هذا المنزل يعلو سقفه فوق رأسي، فإنك ستجد حجرتك كما لو أنك تركتها لتوِّك منذ دقيقة واحدة. سأعتني بها

---

(١) اشتهر جون فوكس بتسجيله لتاريخ شهداء المسيحية، وبالأخص معاناة الإنجليز البروتستانت من القرن الرابع عشر، حتى عهد الملكة ماري الأولى. أثَّر الكتاب في تشكيل الرأي العام الإنجليزي المعادي للكاثوليكية لعدة قرون.

كل يوم، كما اعتدت أن أعتني بغرفتك الصغيرة القديمة يا حبيبي. إذا سافرت إلى الصين، فلتبقَ ذكراها في قلبك كما هي، ولتتمثلها طوال الوقت الذي تصير فيه بعيدًا».

شعرت بصدق مربيتي العجوز التي أكن لها معزة خالصة من كل قلبي. شكرتها بقدر استطاعتي، لكن شكري لم يكن وافيًا. كانت تتحدث معي مطوقة عنقي بذراعيها، وقد كنت أهيئ نفسي للسفر والعودة إلى المنزل في الصباح. وصلت إلى بيتي صباحًا بالفعل، وقد اصطحبتني بيجوتي والسيد باركس في العربة. لم يتركاني عند البوابة في وداع سهل، بل كم كان شاقًّا مؤثرًا! كم كان مشهدًا غريبًا يتراءى أمامي بينما أرى العربة تسير، تأخذ بيجوتي بعيدًا عني، وتتركني تحت أشجار الدردار القديمة التي تنظر إلى المنزل، من دون أن يلتفت إليها وجه إنسان ليبادلها نظرات من الحب أو الإعجاب بعد الآن!

ها أنا الآن في حالة إهمال لا أستطيع أن ألتفت إلى حالتي من دون أن أرثي لحالي وأشفق على نفسي. وقعت في هوة من الوحدة - بعيدًا عن أي عناية أو محبة، نائيًا عن صحبة جميع الأولاد الآخرين الذين في مثل عمري، بعيدًا كل البعد عن كل الرفقة. لا رفيق سوى أفكاري الواهنة - التي يبدو أنها تلقي بظلالها على هذه الورقة بينما أكتب هذه الكلمات.

لم أكن لأُقبل على الحياة ولو ليوم واحد، ما لم أُرسَل إلى مدرسة مهما كانت صعبة أو لا يمكن أن تطاق على الإطلاق. ربما أتعلم شيئًا ما، على أي حال، في أي مكان. لم يبدُ لخاطري أي أمل. لقد كانوا

يكرهونني، ويتجاهلونني فلا ينظرون نحوي إلا بعبوس وحزم. أظن أن السيد مردستون كان يمر بضائقة مادية في هذا الوقت، بسبب قلة الدخل تقريبًا. لم يستطع أن يتحملني، وصار يحاول إبعادي عنه. كان يريد على حد ظني، أن يبعد عن تفكيره ما لديَّ من حقوق مستحقة، وقد نجح فيما أراد.

لم تُوجَّه نحوي أي إساءة. لم أتعرض للضرب أو التجويع. أما الظلم الذي وقع عليَّ، فلم تتخلله فترات من التأنيب أو المراجعة، وقد تم تنفيذه بطريقة منهجية بلا هوادة أو عاطفة. لم يلتفت أحد لأمري يومًا بعد يوم، وأسبوعًا بعد أسبوع، وشهرًا بعد شهر. أتساءل أحيانًا حين أفكر في الأمر؛ ماذا سيفعلون لو أنني أصبت بمرض؛ هل كنت سأستلقي في غرفتي المنعزلة، فأنزلق في مرضي بطريقتي الانفرادية المعتادة، أم ما إذا كان أي إنسان سيمد إليَّ يد العون؟

كنت أتناول وجباتي مع السيد مردستون والسيدة أخته في المنزل، وكذلك اعتدت في غيابهما أن آكل وأشرب وحدي. صرت أتسكع في جميع الأوقات في أرجاء المنزل كاملًا مع تجاهلي التام. صار لي مطلق الحرية باستثناء أنهما يشعران بالغيرة من تكوين أي صداقات. ظنا أنني لو جالست الأصدقاء، فسأشتكي إليهم حالي وأحكي لهم أمري. طلب مني السيد تشيليب كثيرًا أن أزوره، فقد كان أرمل، فقدَ زوجة منذ بضع سنوات. كانت ضئيلة الهيئة ذات شعر فاتح، لا يمكنني سوى تذكرها بهيئة تشبه قطة شاحبة لونها مثل السلحفاة. كنت نادرًا ما أستمتع بقضاء فترة ما بعد الظهيرة في عيادته، فأقرأ بعض الكتب التي أراها جديدة

ومناسبة لي، تخالطها رائحة الأدوية التي يسيطر عبقها على أنفي تمامًا، أو أسحق شيئًا في الهاون تحت توجيهاته اللطيفة.

كانا يخافان من شكواي فلم يسمحا لي بزيارة بيجوتي إلا فيما ندر، بالإضافة إلى كرههما القديم لها. أما هي فكانت تفي بوعدها، فتأتي لزيارتي، أو مقابلتي في مكان قريب، مرة في كل أسبوع، ولم تكن خاوية الوفاض قَطُّ. كم لفتني خيبات الأمل بمرارة على كثرتها، حين لم يسمحا لي بزيارتها في منزلها، لكنهما سمحا لي بزيارتها في بعض المرات، وعلى فترات طويلة. اكتشفت بعد ذلك أن السيد باركس كان بخيلًا بعض الشيء، أو كما عبَّرت بيجوتي بدقة حين وصفته قائلة: «إنه أقرب إلى البخل بعض الشيء». كان يحتفظ بكومة من المال في صندوق تحت سريره، لكنه تظاهر بأن الصندوق لا يحوي سوى بعض المعاطف والسراويل. خبأ ثروته المتواضعة في هذا الصندوق بحرص بالغ، ومن دون أن يغريه أي شيء لإخراج أي مبلغ ضئيل منه إلا بالحيلة، إلى الحد الذي جعل بيجوتي تعدُّ مخططًا طويلًا ومفصلًا، في مؤامرة تشبه مؤامرة البارود[1]، حتى تستطيع الحصول على نفقات الأسبوع في كل يوم سبت.

صرت مدركًا طوال هذا الوقت أنني أفارق كل ما توقعته من أحلام، بعد إهمالي الكامل. كان من الممكن أن يتملكني الحزن تمامًا،

---

(١) تنسب مؤامرة البارود إلى جاي فوكس الذي خطط عام (١٦٠٥م) لاغتيال الملك جيمس الأول، واستعادة الكاثوليكيين للعرش. فأجر فوكس مع زملائه غرفة في قبو أسفل مجلس اللوردات، وملأوها بالبارود استعدادًا لتفجيرها، غير أن معلومات المؤامرة تسربت للسلطات. تم القبض على المتآمرين وأعدموا. يحتفل البريطانيون في يوم ٥ نوفمبر بنجاة الملك من مؤامرة البارود.

إلا أن الكتب القديمة أنقذتني بلا شك. صارت الكتب ملاذي وراحتي الوحيدة، وأخلصتُ لها كما أخلصتْ لي، فرحت أعيد قراءتها مرارًا وتكرارًا من دون أن أعرف عدد مرات قراءتي لها.

اقتربت في تلك الفترة من حياتي من شيء لا أستطيع أن أنساه أبدًا، بل أتذكره كثيرًا حين تراودني الذكريات من دون استدعائي له، كما لو أنه شبح، يطاردني في أكثر الأوقات سعادة.

خرجت ذات يوم، متسكعًا في مكان ما، هائمًا على وجهي بعد أن صارت هذه الطريقة هي دربي في الحياة. انعطفت عند زاوية ممر بالقرب من منزلنا، فإذا بي أصادف السيد مردستون يسير مع رجل نبيل لا أعرفه. ارتبكت، فحاولت مواصلة السير ابتعادًا عنه، وإذا بالرجل يصيح قائلًا:

«مَن؟! أنتَ بروكس!».

قلت: «لا يا سيدي، إنني ديفيد كوبرفيلد».

قال الرجل المحترم: «لا تقل لي هذا. إنك بروكس. نعم، أنت بروكس أوف شيفيلد. هذا اسمك».

انتبهت عند هذه الكلمات، ووقفت أتأمل السيد النبيل باهتمام أكبر. جاءت ضحكته فأنعشت ذاكرتي أيضًا. عرفت أنه السيد كوينون الذي ذهبت إليه مع السيد مردستون لزيارته في لوستوفت -لا يهم- لا أحتاج إلى تذكر متى قمت بهذه الزيارة.

قال السيد كوينون: «كيف تسير أمورك، وأين تتعلم يا بروكس؟».

وضع يده على كتفي وأدارني لأمشي معهما. لم أعرف كيف أجيب، ورحت أتلفت بنظرات مرتابة إلى السيد مردستون.

قال الأخير: «إنه يمكث في المنزل في الوقت الحاضر. لا يتلقى تعليمه في أي مكان. لا أعرف ماذا أفعل به. إنه موضوع صعب».

بدت على ملامحه تلك النظرة القديمة المزدوجة واستقرت على وجهي للحظة، ثم أظلمت عيناه في عبوس قاتم، واستدار في نفوره ناظرًا إلى مكان آخر.

أحسب أنني سمعت السيد كوينون يتحدث بينما ينظر إلينا على حد سواء، قائلًا: «يااه، يا له من طقس جميل!».

ساد صمت، ورحت أفكر في أفضل طريقة لتحرير كتفي من يده، لأذهب بعيدًا، لكنه راح يقول:

«أحسب أنك لم تزل رفيقًا ذكيًّا، أليس كذلك يا بروكس؟».

قال السيد مردستون بعد نفاد صبره: «نعم، إنه ذكي بما فيه الكفاية. من الأفضل أن تتركه يذهب. لن يشكرك على مضايقته».

تركني السيد كوينون بناءً على هذا التلميح، وشققت أسرع الطرق متجهًا نحو المنزل. تلفتُّ إلى الوراء عندما وصلت إلى الحديقة الأمامية، فإذا بي أبصر السيد مردستون متكئًا على باب فناء الكنيسة، والسيد كوينون يتحدث معه. كان كلاهما يراقباني، كما شعرت أنهما يتحدثان عني.

بات السيد كوينون في منزلنا في تلك الليلة. تناولنا الإفطار في صباح اليوم التالي، وحين انتهينا أزحت الكرسي الذي جلست عليه بعيدًا، وهممت بالانصراف والخروج من الغرفة، فإذا بالسيد مردستون يناديني. كان قد جلس على طاولة أخرى، بينما جلست أخته على مكتبها. وقف السيد كوينون، ويداه في جيبيه، ينظر من خلال النافذة، ووقفت أنظر إليهم جميعًا.

قال السيد مردستون: «يا ديفيد، إن هذا العالم قد خُلق للعمل والكد، لم يخلق من أجل التعطل والكسل».

أضافت أخته قائلة: «كما هي حالك الآن».

عاد السيد مردستون يقول: «يا جين مردستون، فلتتركي هذا الأمر لي إذا سمحتِ. إنني أقول يا ديفيد، إن هذا عالم خلق للعمل، وليس للتعطل والكسل. يجب أن تسير الحياة على هذا الدرب، وبشكل خاص لصبي صغير في مثل شخصيتك، يتطلب قدرًا كبيرًا من التقويم والإصلاح، ولا يمكن تقديم خدمة أعظم من إجبارك على الامتثال لأساليب عالم العمل، فتخوض معترك الحياة وتخضع لعملك».

قالت أخته: «لأن العناد لا يفيد في هذه الحياة، بل القضاء على هذا العناد هو المطلوب. وهذا ما يجب أن يكون. وبالطبع سيكون».

ألقى إليها نظرة، يبدو نصفها في حالة من الاحتجاج، ويبدو نصفها الآخر استحسانًا، ومضى يقول:

«أفترض أنك تعلم يا ديفيد أنني لست غنيًّا. ها أنت تعرف ذلك الآن على أي حال. لقد تلقيت بعض التعليم الجيد بالفعل، وقد صار

التعليم مكلفًا الآن. وحتى لو لم يكن الأمر كذلك، أو كنت أستطيع تحمله، فإنني أرى أنه لن يكون من المفيد لك على الإطلاق البقاء في المدرسة. لقد صرت في معركة مع هذا العالم. وكلما بدأت مبكرًا، كان الأمر أفضل لك».

أحسب أنه قد جال في خاطري في هذه اللحظة أنني قد بدأت خوض غمار الحياة بالفعل، بخبرتي الواهنة، لكن هكذا تسير الأمور الآن، شئتُ ذلك أم أبيت.

قال السيد مردستون: «لقد سمعتَ في بعض الأحيان أمر مكتب المحاسبة».

كررت قائلًا: «أتقول مكتب المحاسبة يا سيدي؟».

أجاب: «نعم، مكتب مردستون وجرينبي لتجارة النبيذ».

أظن أنني ارتبكت ولم أفهم قوله، لأنه مضى يقول على عجل:

«لقد سمعت عن مكتب المحاسبة سالف الذكر، أو الشركة، أو الأقبية، أو رصيف الميناء، أو شيء من هذا القبيل».

قلت: «أظن أنني سمعت عن العمل المذكور يا سيدي». كنت قد تذكرت ما عرفته بشكل غامض عن موارد دخله وموارد أخته، أكملت قائلًا: «لكنني لا أعرف متى سمعت عنه».

أجابني قائلًا: «لا يهم متى. إن السيد كوينون يدير هذا العمل».

ألقيت نظرة خاطفة على الأخير باحترام بينما يقف ناظرًا من خلال النافذة.

«يقترح السيد كوينون أن يوفر فرص عمل لبعض الأولاد الجدد، ولا يرى أي سبب يمنعه من منحك وظيفة، وفقًا لشروط العمل نفسها».

قال السيد كوينون بصوت منخفض، بعد أن استدار قليلًا نحونا: «لا يوجد حل آخر يا مردستون».

استأنف السيد مردستون، بإيماءة غاضبة ونفاد صبر، من دون أن يلتفت لما قاله السيد كوينون:

«هذه الشروط هي أنك ستكسب ما يكفي لتوفير ما يسد طعامك وشرابك، ومصروف جيبك. سوف أقوم بدفع تكاليف إقامتك، وقد رتبتها بالفعل، وكذلك مصروفات غسيل ملابسك...».

قالت أخته: «التي ستكون بحسب تقديري».

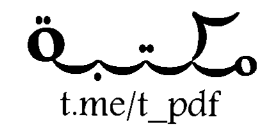
عاد السيد مردستون يقول: «سنأخذ بعين الاعتبار أمر ملابسك أيضًا. لأنك لن تكون قادرًا على تولي مسؤوليتها بنفسك حالًا. إنك ستسافر الآن يا ديفيد إلى لندن، مع السيد كوينون، لتبدأ حياتك على نفقتك الخاصة».

علقت أخته قائلة: «باختصار، لقد وفرنا لك سبل العيش. وها قد حان الدور لتقوم بواجبك من فضلك».

أدركت أن الغرض من هذا الإعلان هو التخلص مني من دون أدنى شك، إلا أنني لا أتذكر إن كان ذلك سرني أم أخافني. أما ما أذكره هو أنني صرت في حالة ارتباك، ورحت أتأرجح بين الأمرين، من دون أن

تسيطر عليَّ حالة منهما. لم يكن عندي من الوقت ما أستطيع فيه التفكير بروية، فقد كان على السيد كوينون أن يسافر في اليوم التالي.

يا لهيئتي التي ظهرت بها في صباح اليوم التالي! لقد كنت مرتديًا قبعة صغيرة بيضاء متهالكة، تحاوطها شريطة سوداء دلالة على الحداد لرحيل أمي، وسترة سوداء، وبنطلونًا قصيرًا خشنًا - اعتبرته الآنسة مردستون أفضل درع للساقين في هذه المعركة مع العالم، بينما أنا على وشك الدخول بها الآن. أتمثلني مرتديًا هذه الثياب، وقد حزمت كل ما لديَّ من متاع الدنيا أمامي في صندوق صغير. أجلس، أنا الطفل الوحيد (على حد تعبير السيدة جامدج)، فوق كرسي في عربة، بعد أن أقلتني مع السيد كوينون متجهين إلى يارموث لنستقل حافلة إلى لندن. أنظر كيف يتضاءل بيتنا وكنيستنا وتبعد بيننا المسافة. ينمحي من أمامي القبر القابع تحت الشجرة وتحجبه مشاهد أخرى، ثم تتلاشى المنارة الشامخة المطلة على ملعبي القديم، ثم تنجلي أمامي السماء فارغة من كل شيء.





الفصل الحادي عشر

أخوض معترك الحياة رغمًا عني

صرت أعرف الكثير عن هذا العالم الآن، مما أفقدني القدرة على الدهشة من أي شيء تقريبًا. وقعت أحيانًا بعض الأحدث التي أثارت دهشتي في تلك الأيام، فقد كان من السهل جدًّا التخلص مني وتركي في مثل هذا العمر الغض. نشأت طفلًا يتمتع بمواهب ممتازة، وقدرة قوية على الملاحظة ، وكنت سريع البديهة، شغوفًا وحسَّاسًا، لكن سرعان ما التهمني جسديًّا ونفسيًّا. كان من المدهش على ما يبدو لي ألا يتفضل أحد بالانتباه لأمري، على أي حال لم يقدم لي أحد يد العون. صرت في العاشرة، وفي ذاك العمر الصغير، في خدمة تجارة مردستون وجرينبي.

كان متجر مردستون وجرينبي يقبع على جانب النهر في بلاكفرايرز. غيرت التعديلات الحديثة هذا المكان، لكنه كان قائمًا في مبنى بنهاية شارع ضيق، منحنيًا أسفل التل، متجهًا إلى النهر، له سلم في نهايته، حيث يستقل الناس القوارب. كان مبنى قديمًا متهالكًا له رصيف خاص به، يصير متاخمًا للمياه حين يقترب المد، ويطل على وحل بعد انحسار الماء، كما تكتسح أرجاءه الفئران. أستطيع القول إن غرفه المغطاة بالألواح قد تراكمت عليها أوساخ ودخان مائة عام، وكذلك كانت

أرضياته المتدهورة ودرجاته في غاية القذارة. أما صرير وشجار الفئران الرمادية الكبيرة المتناثرة في السراديب، وقذارة المكان وتعفنه، فلم تلبث عالقة في ذهني منذ سنواتها العديدة حتى وقتنا الراهن. أتمثلهم جميعًا أمام عيني تمامًا كما كانوا في تلك الساعة الشريرة حين التقيت بهم لأول مرة؛ خائفًا مرتجف اليدين بصحبة السيد كوينون.

انصبت تجارة مردستون وجرينبي مع أنواع كثيرة متباينة من البشر، وكان فرعًا مهمًّا من تجارتها هو توريد النبيذ والمشروبات الكحولية إلى سفن بعينها تشحن هذه البضائع للخارج. أما الآن فقد نسيت إلى أين كانت تنقل هذه البضائع بشكل رئيسي، لكني أظن أن بعضها قامت برحلات إلى كل جزر الهند الشرقية والغربية. علمت أن إحدى مهام هذه المهنة الحصول على الكثير من الزجاجات الفارغة، وأن بعض الرجال والفتيان قد وُظِّفوا لفحصها في النور، ورفض المعيبة منها، ثم شطفها وغسلها. ينتهي فحص الزجاجات الفارغة، ثم تلصق العلامة التجارية على العبوات الممتلئة، أو يجهز الفلين لغلق الزجاجات، أو تطبع الأختام التي توضع على الفلين، أو تعبأ الزجاجات الجاهزة في براميل. كانت كل هذه المهام من صميم عملي، وكنت واحدًا من هؤلاء الفتيان العاملين.

كنا ثلاثة أو أربعة صبية عاملين. صار مكان عملي في زاوية المستودع، حتى يتمكن السيد كوينون من رؤيتي، فإذا أراد ملاحظتي ليس عليه سوى الوقوف على عتبة أسفل مقعده من مكتب الحسابات، ومن ثَم يتسنى له النظر إليَّ من خلال نافذة فوق المكتب. استدعى أقدم

الأولاد العاملين حتى يطلعني على عملي، في صباح اليوم الأول من بداية حياتي الميمونة التي سأعتمد فيها على نفسي. كان يدعى مِك ووكر، وكان يرتدي مريلة ممزقة وقبعة من الورق. أخبرني أن والده يعمل على سطح إحدى السفن، وأنه يسير في موكب محافظ البلدة مرتديًا قبعة سوداء مخملية. حدثني أيضًا عن صبي آخر كان زميلنا في العمل، وقد قدمه لي باسمه «ميلي بوتيتوز»[1]، وقد كان اسمه استثنائيًّا بالنسبة إليَّ. اكتشفت بعد ذلك، أن هذا الشاب لم يطلق عليه هذا الاسم منذ ولادته، ولكنه اكتسبه من عمله في المتجر بسبب بشرته الشاحبة وهيئته الضعيفة. كان والد ميلي يعمل على أسطح السفن، إلى جانب عمله الإضافي كرجل إطفاء، وقد كان يعمل تحت هذا المسمى الوظيفي في أحد المسارح الكبيرة؛ حيث مثَّلت شابة من أقرباء ميلي - أحسب أنها أخته الصغيرة - أدوار العفاريت في عروض البانتومايم[2].

لا توجد كلمات يمكن أن تعبر عن الألم الخفي الذي شعرت به في روحي حين وجدتني أغرق منغمسًا في هذه الرفقة. رحت أقارن بين هؤلاء الصبية الذين سيرافقونني يوميًّا من الآن فصاعدًا، والأولاد الذين عرفتهم في طفولتي المبكرة - ناهيك عن مقارنتهم بستيرفورث أو ترادلز أو بقية هؤلاء الأولاد. شعرت أن آمالي في أن أنمو وأصير رجلًا مثقفًا ومتميزًا قد انقضت وتحطمت بين ضلوعي. أذكر بدقة المشاعر التي انتابتني، بعد أن صرت أحيا بلا أمل منذ تلك اللحظات، محاطًا

---

(١) اسم لنوع من البطاطس المغبرة بالدقيق.

(٢) فن الحركات الإيحائية، أحد الفنون المسرحية.

بالخزي من هذا الوضع. تملك اليأس من قلبي الغض بعد أن أيقنت أن ما رحت أتعلمه يومًا بعد يوم، وكل ما جال بخاطري أو سعدت به، وكل ما تطلعت إليه أو سعيت له، سوف يزول شيئًا فشيئًا، وينمحي من ذاكرتي إلى الأبد، ولا يمكنني إلى الآن وصف هذا الشعور بدقة. يبتعد مِك ووكر في كثير من الأحيان في ساعات الصباح الأولى، فإذا بدموعي تنهمر لتختلط أمامي بالماء الذي كنت أغسل فيه الزجاجات، فأبكي كما لو أن ثمة سقمًا في صدري، أو كأنني في خطر وعلى وشك الانفجار.

أعلنت ساعة الحائط عن تمام الساعة الثانية عشرة والنصف، وقد استعد الجميع للذهاب لتناول الغداء، حينما طرق السيد كوينون فوق نافذة مكتب الحسابات، مشيرًا إليَّ بالدخول. دخلت مكتبه، ووجدت معه شخصًا في منتصف العمر يميل إلى البدانة، وقد ارتدى سترة بنية وبنطالًا ضيقًا وحذاءً أسود. كان أصلع الرأس لا تعلوه شعرة واحدة، منزلقًا كملمس بيضة، وقد بدا رأسه كبيرًا، وفي غاية اللمعان. كان وجهه ذا ملامح عريضة، وقد التفت نحوي بالكامل. كانت ملابسه رثة، لكنه حرص على ارتداء ياقة خاصة لقميصه. يحمل عصا من نوع راقٍ، تزينها حلقتان كبيرتان وصدئتان. علَّق نظارة فوق معطفه كنوع من الزينة، وقد علمت بعد ذلك أنه نادرًا ما يستخدم النظارة، بل إنه لا يرى أي شيء عندما يستخدمها.

قال السيد كوينون مشيرًا نحوي: «ها هو ذا».

قال الغريب بصوت متواضع، وبأسلوب لا أستطيع وصفه، متظاهرًا برقة أثارت إعجابي كثيرًا: «هذا هو السيد كوبرفيلد؟ أتمنى أن تكون بخير يا سيدي».

قلت إنني بصحة جيدة، وآمل أن يكون هو الآخر كذلك. يعلم الله أنني كنت مريضًا بما فيه الكفاية، لكن لم يكن من طبيعتي أن أشتكي كثيرًا في ذلك الوقت من حياتي، لذلك قلت إنني بصحة جيدة، وأتمنى أن يكون هو الآخر كذلك.

قال الغريب: «إنني بخير، أحمد الله، في أحسن حال. لقد تلقيت رسالة من السيد مردستون، يذكر فيها أنه يرغب في الحصول على شقة في الجزء الخلفي من منزلي، وهي غير مأهولة حاليًّا - وباختصار، صارت متاحة للتأجير...».

استطرد الغريب بابتسامة واثقة معلنًا: «باختصار، كغرفة نوم - لهذا الشاب المبتدئ الذي يسعدني الآن أن أتشرف به». ثم لوح الغريب بيده، واستقر ذقنه فوق ياقة قميصه.

تحدث إليَّ السيد كوينون قائلًا: «إنه السيد ميكوبر».

قال الغريب: «إحم، نعم».

راح السيد كوينون يقول: «إن السيد ميكوبر أحد معارف السيد مردستون. يأخذ طلبات من عندنا مقابل عمولة، كلما أمكنه الحصول على أي منها. كتب إليه السيد مردستون عن موضوع مسكنك، وسوف يستقبلك عنده كمستأجر».

قال السيد ميكوبر: «أما عنواني فهو: وندسور تيراس في شارع سيتي». ثم عاد هنا إلى طريقته اللطيفة الرقيقة، وبنوع من الثقة الفائقة يقول: «باختصار، إنني أعيش هناك».

انحنيت له احترامًا.

أكمل السيد ميكوبر حديثه قائلًا: «أحسب أن جولاتك في هذه المدينة لم تكن على نطاق واسع حتى الآن، وأنك قد تواجه بعض الصعوبة في اختراق أركان بابل الجديدة، حتى تصل إلى شارع سيتي». لم يلبث السيد ميكوبر أن عاد إلى موجة أخرى من الثقة مسترسلًا: «باختصار قد تتوه، لذا سأكون ممتنًّا بالعودة إليك هذا المساء، فأرشدك للتعرف على أقرب طريق للوصول إلى المنزل».

شكرته من كل قلبي، لأنه كان ودودًا كريمًا بعرضه تحمُّل هذه المتاعب لإرشادي.

قال السيد ميكوبر: «في أي ساعة، يمكنني أن...؟».

قال السيد كوينون: «نحو الساعة الثامنة».

قال السيد ميكوبر: «نحو الساعة الثامنة. أستأذنك في الانصراف إذن، وأتمنى لك يومًا سعيدًا يا سيد كوينون. لا أريد أن أزعجك أكثر من ذلك».

ارتدى قبعته وخرج متأبطًا عكازه تحت ذراعه؛ منتصب القامة، وأخذ يدندن بعض النغمات بعدما ابتعد عن مكتب الحسابات.

وظفني السيد كوينون رسميًّا بعدها لأكون عاملًا مفيدًا بقدر ما أستطيع في مستودع مردستون وجرينبي، ومن ثَم أنال أجرًا؛ كان على حد ظني ستة شلنات في الأسبوع. لا أتذكر تحديدًا ما إذا كان ستة أم سبعة شلنات. إلا أنني أرجح، على الرغم من عدم اليقين بشأن تذكري

للأمر بشكل دقيق، أن أجري كان ستة شلنات في البداية ثم ازداد إلى سبعة شلنات بعد ذلك. تقاضيت أجر أسبوع كامل - من جيب السيد كوينون الخاص، على ما أظن. أعطيت ميلي ستة بنسات مقابل حمله لأمتعتي إلى وندسور تيراس في تلك الليلة. كانت أمتعتي ثقيلة جدًّا لا أقوى على حملها بنفسي على الرغم من صغر حجمها. دفعت ستة بنسات إضافية مقابل الغداء في مطعم مجاور، وكان عبارة عن فطيرة ممزوجة باللحم، ثم أمضيت باقي الساعة المسموح بها لتناول وجبة الغداء متجولًا في الشوارع.

عاد السيد ميكوبر إلى الظهور في الوقت المحدد من المساء. غسلت يدي ووجهي لأبدو في هيئة أفضل تضاهي وداعته. سرنا إلى منزلنا، كما أفترض أنني سأدعوه منزلنا من الآن فصاعدًا. نبهني السيد ميكوبر إلى أسماء الشوارع، وأشكال الزوايا على جانبي الطريق، بينما نسير على طول الطريق، حتى أجد طريق عودتي إلى العمل بسهولة في صباح اليوم التالي.

وصلنا إلى ذاك المنزل في وندسور تيراس - الذي لاحظت أنه رث مثله، ولكنه نظيف مثله أيضًا؛ وقد اعتنى بكل تفصيلة يمكن العناية بها. قدمني السيد ميكوبر إلى السيدة زوجته، وكانت سيدة نحيفة شاحبة الوجه قد جاوزت عمر الشباب. كانت السيدة ميكوبر جالسة في الردهة، فقد كان الطابق الأول خاليًا تمامًا من الأثاث، وقد انسدلت الستائر مظللة على هذا الخواء لخداع الجيران، وكانت تحمل طفلًا فوق صدرها. كان هذا الطفل واحدًا ضمن توأم. ويمكنني أن أشير هنا بعد

تجربتي الكاملة مع العائلة، إلى أنني نادرًا ما رأيت التوأم منفصلين عن السيدة ميكوبر في الوقت نفسه، إلا وكان أحدهما يحتسي المشروبات دائمًا.

كان ثمة طفلان آخران. أحدهما يدعى السيد ميكوبر، يبلغ من العمر أربع سنوات، وأخرى تدعى الآنسة ميكوبر تبلغ من العمر ثلاث سنوات. كانت في خدمة هؤلاء شابة ذات بشرة داكنة، كان من عادتها الشخير، وقد أخبرتني، قبل انقضاء نصف ساعة من معرفتي بها، أنها يتيمة جاءت من حي القديس لوقا المجاور للمنزل. كانت غرفتي على سطح المنزل مطلة على جانبه الخلفي، وقد كانت حجرة مغلقة، تعلو جدرانها النقوش في كل مكان، وقد تمثلت لي زخارفها في هيئة كعكة زرقاء، كما كانت الغرفة قليلة الأثاث.

صعدت السيدة ميكوبر مع أطفالها جميعًا لتريني الغرفة، ثم راحت تقول بعد أن التقطت أنفاسها: «لم أفكر قَطُّ قبل أن أتزوج، عندما كنت أعيش مع أبي وأمي، أنني سأضطر في يوم من الأيام إلى التأجير. ولكن السيد ميكوبر يواجه صعوبات مالية، وما علينا سوى أن نجنب أي اعتبارات للمشاعر الخاصة».

قلت: «صحيح يا سيدتي».

راحت السيدة ميكوبر تقول: «إن الصعوبات التي يواجهها السيد ميكوبر تكاد تكون ساحقة في الوقت الحالي. لا أعرف هل من الممكن أن يتجاوز هذه الأزمات أم لا. كنت أعيش في المنزل مع أبي وأمي، ولم أكن حقًّا أفهم ما تعنيه هذه الكلمات، بالمعاني التي أستخدمها الآن،

لكن «الخبرة تعلمك»، كما اعتاد أبي أن يقول ذلك».

لا أستطيع أن أجزم أمام نفسي هل أخبرتني أن السيد ميكوبر ضابط في مشاة البحرية، أم أنني تخيلت ذلك. لا أعرف سوى أنني أحسب حتى هذه الساعة أنه كان في مشاة البحرية ذات مرة، من دون أن أعرف سببًا لهذا التصور. كان مندوبًا يتنقل عبر المدينة لعدد من المنازل المتنوعة، لكنني أخشى أنه لم يكن يُحصِّل أي مبالغ له في هذه الأوقات.

قالت السيدة ميكوبر: «إذا لم يمنح الدائنون السيد ميكوبر مزيدًا من الوقت، يجب عليهم تحمل العواقب، وإلا فإن أسرعوا في طرح المشكلة، كان ذلك أفضل. لا يمكنك الحصول على دماء من حجر، ولا يمكنهم كذلك الحصول على أي مبلغ من حسابهم في الوقت الحالي من السيد ميكوبر، ناهيك عن النفقات القانونية إن أقبلوا على مقاضاته».

لم أستطع قَطُّ فهم ما إذا كان اعتمادي المبكر على نفسي قد أربك السيدة ميكوبر تمامًا بعد إشارتي إلى عمري، أم أنها كانت منشغلة بهذا الموضوع لدرجة أنها كانت ستتحدث عنه مع التوأم إذا لم يكن ثمة إنسان آخر تتحدث معه. كان هذا الموضوع هو ما بدأت الحديث عنه، وقد استمرت طوال الوقت الذي عرفتها فيه تعاود ذكره.

مسكينة السيدة ميكوبر. قالت إنها حاولت جاهدة أن تنقذ الموقف بنفسها، وليس لديَّ أدنى شك في ذلك. رأيت وسط الباب المؤدي إلى الشارع لافتة نحاسية كبيرة مغطاة تمامًا بالغبار، وقد حفر عليها «مؤسسة ميكوبر الداخلية للسيدات الشابات»، لكنني لم أجد قَطُّ

أي سيدة شابة ذاهبة إلى هذه المدرسة، أو أي سيدة شابة جاءت أو اقترحت المجيء، أو أي استعدادات أُجريت لاستقبال أي سيدة شابة على الإطلاق. أما الزوار الوحيدون الذين رأيتهم أو سمعت عنهم لم يكونوا سوى الدائنين. ظلوا يتوافدون في جميع الأوقات، وقد كان بعضهم في غاية الشراسة. بدا أحد الرجال الدائنين ذا وجه قذر، أحسب أنه كان صانع الأحذية، وقد اعتاد الدخول إلى الممر في وقت مبكر من الساعة السابعة صباحًا، بل اعتاد مناداة السيد ميكوبر من بين السلالم قائلًا: «تعالَ إلى هنا. إنك لم تخرج لأي عمل بعد، كما تعلم. ادفع لنا ما عليك، أليس هذا أفضل لك؟ لا تختبئ كما تفعل الآن. إنك تفهم كلامي جيدًا. لن أتظاهر بهذا المكر لو أنني كنت مكانك. ادفع لنا أموالنا، أليس هذا أجدر بك؟ لا عليك سوى أن تسدد لنا ما عليك من دين، هل تسمعني؟ تعالَ إلى هنا». وإذا لم يتلقَّ أي إجابة على هذه الاستهزاءات، فإن غضبه قد يتصاعد فيهتف بكلمات مثل: «النصابين» و«اللصوص»، ولأن هذه الأشياء غير فعَّالة أيضًا، فإنه في بعض الأحيان يصل إلى أقصى الشارع، ويزمجر صارخًا بالشتائم بالقرب من نوافذ الطابق الثاني، حيث كان يعرف أن السيد ميكوبر يجلس في هذا المكان. كان السيد ميكوبر في مثل هذه الأوقات، يتحرك بكامل الحزن والمهانة. بلغ الأمر بالسيد ميكوبر - علمت ذلك ذات مرة من صراخ زوجته - أن استولى عليه اليأس فآذى نفسه بشفرة الحلاقة، ولكن في غضون نصف ساعة بعد ذلك، ظل عاكفًا على صقل حذائه بآلام غير عادية، وأخذ يدندن بصوت رقيق أكثر من أي وقت مضى. مكثت السيدة ميكوبر

تدندن هي الأخرى. عرفت أنها تعرضت لنوبات من الإغماء بسبب حضور مُحصِّل الضرائب في الساعة الثالثة صباحًا، لكن ما إن حانت الساعة الرابعة حتى أخذت تأكل شرائح لحم الضأن، والمخبوزات، وتشرب بيرة خفيفة، كان قد دفع ثمنها مقابل رهن ملعقتَي شاي. عدت في إحدى المرات في الساعة السادسة مصادفة على غير عادتي، وقد كان الموعد يتزامن مع مجيء منفذ أحكام الغارمين، فإذا بي أبصرها مستلقية -مع توأمها بالطبع- تحت الموقد في حالة أشبه بالإغماء، وقد غطى شعرها وجهها بالكامل، إلا أنني لم أعهدها قَطُّ أكثر بهجة مما كانت عليه في هذه الليلة. جلستْ تتناول قطعة من لحم عجل تم شواؤه في المطبخ، لتخبرني قصصًا عن أبيها وأمها، والأصدقاء والرفقة الذين اعتادوا مخالطتها.

أمضيت وقت فراغي في هذا المنزل، ومع هذه العائلة. كنت أشتري إفطاري بنفسي، وكان مكونًا من رغيف صغير ببنس واحد وحليب ببنس آخر. احتفظت برغيف صغير آخر، وقليل من الجبن، على رف في خزانة خاصة، لأعد الغداء عندما أعود ليلًا. كانت هذه المشتريات تحدث فجوة في أجري من الشلنات الستة أو السبعة التي أتقاضاها في الأسبوع. أقضي وقتي طوال اليوم في المستودع، وكان عليَّ أن أعول نفسي بهذه الأموال طوال الأسبوع؛ من صباح الاثنين حتى مساء السبت، ولم أجد ناصحًا، أو مشيرًا، أو مشجعًا، أو معزيًا، ولم أتلقَّ مساعدة، أو دعمًا من أي نوع، من أي شخص يمكن أن أذكره بدعاء، كما أذكر نفسي بطيب الجزاء من الله.

كنت طفلًا غضًا، ولم أكن مؤهلًا لتحمل المسؤولية الكاملة عن معيشتي، وكيف يمكنني أن أكون خلاف ذلك؟ كنت في كثير من الأحيان، في طريقي إلى متجر مردستون وجرينبي في الصباح، فإذا بي لا أستطيع مقاومة إغراء تلك المعجنات التي لا معنى لها وقد عرضت للبيع بنصف السعر وعرضت على أبواب المخابز والمطاعم، فأبدد عليها النقود التي كان من المفترض أن أحتفظ بها لتناول الغداء. أعود إلى المنزل من دون غداء، أو أشتري لفافة أو شريحة من الحلوى. أتذكر متجرين للحلوى، قسمت مشترياتي بينهما بحسب مقدار ما أملك من نقود. كان أحدهما في ساحة قريبة من كنيسة القديس مارتن – في الجزء الخلفي من الكنيسة – والتي تمت إزالتها تمامًا الآن. كانت حلوى البودينج في هذا المتجر مصنوعة من الزبيب. كان نوعًا من الحلوى باهظة الثمن، على الرغم من أن ما يقابله من الحلوى العادية لا يتجاوز ثمنه بنسًا واحدًا. كان هذا أفضل متاجر هذا النوع من الحلوى، وكان يقع في شارع ستراند – أو في مكان ما في ذلك الشارع، وقد أعيد بناؤه بعد هذه الأحداث بوقت قليل. كانت حلوى البودينج هذه شديدة الاصفرار، ثقيلة ودسمة، تعلو سطحها حبات الزبيب الكبيرة، وقد تناثرت على مسافات بعيدة على كامل الحلوى. كانت حلوى البودينج تخرج ساخنة قرابة الوقت الذي أمر فيه كل يوم بالمتجر، وقد كنت في كثير من الأيام أتناولها بدلًا من غدائي. أما حين أتناول الغداء بشكل منضبط ومنظم، فكان عبارة عن قطعة نقانق صغيرة ورغيف صغير، أو طبق بأربعة بنسات من اللحم البقري الأحمر من متجر للطبخ، أو طبق

من الخبز والجبن وكوب من البيرة أبتاعها من حانة بائسة قديمة تقع أمام مكان عملنا. كانت الحانة تدعى الأسد، أو الأسد وشيئًا آخر قد نسيته. أتذكر أنني كنت أحمل ذات مرة رغيف خبز أحضرته من المنزل في الصباح، وقد تأبطته ملفوفًا في قطعة من الورق مثل كتاب تحت ذراعي، وذهبت به إلى مطعم شهير ببيع اللحم البقري الطازج، يقع بالقرب من دروري لين، وقد طلبت طبقًا صغيرًا من تلك الأطعمة الشهية لأتناولها مع رغيفي. لا أعرف ما الذي كان يجول بذهن النادل حين ظهر أمامه صغير غريب قادم بمفرده، لكنني أستطيع أن أتمثله أمامي الآن، بينما يحدق في وجهي حين بدأت في تناول الغداء، وقد نادى النادل الآخر ليراقبني هو الآخر. أعطيته نصف بنس بقشيشًا، لكني تمنيت لو لم يأخذه.

كنا نُمنح نصف ساعة، على ما أظن، لاحتساء الشاي. إذا ما توافر لديَّ ما يكفي من المال، فإنني كنت أشتري قدحًا من القهوة الجاهزة وشريحة من الخبز والزبدة. أما إذا لم أمتلك نقودًا، فإنني أذهب إلى مشاهدة متجر بيع لحم الغزال في شارع فليت، أو ربما تمشيت في هذا الوقت حتى سوق كوفنت جاردن محدقًا في ثمار الأناناس. كنت مغرمًا بالتجول في شارع أديلفي، لأنه كان مكانًا غامضًا محاطًا بأقواس النصر المظلمة. أتمثل نفسي الآن خارجًا في إحدى الأمسيات أعبر بعض تلك الأقواس، متجهًا نحو حانة صغيرة بالقرب من النهر، تطل على ساحة مفتوحة أمامها، وأمامي مشهد لبعض حمالي الفحم يرقصون. أجلس لأراقبهم من فوق مقعدي، وأتساءل عن رأيهم عني.

كنت طفلًا ضئيلًا للغاية، حتى إنني حين ذهابي إلى حانة غريبة لاحتساء كأس من البيرة الخفيفة، لترطيب فمي مما تناولته في أثناء الغداء، كان النادل يخشى تقديمه لي، وقد تكرر الأمر كثيرًا. أتذكر إحدى الأمسيات الحارة التي ذهبت فيها إلى حانة عامة، وقلت للمالك: «ما أفضل ما لديك؟ أعطني أفضل ما لديك من البيرة». كنت أحتفل بمناسبة خاصة. لا أذكر ماذا كانت، ربما كنت أحتفل بعيد ميلادي.

إذا بالمالك يقول: «لدينا البيرة الأصلية المذهلة، وثمنها بنسان ونصف».

أجبته بينما أخرج له نقودي قائلًا: «ائتني بقدح من البيرة الأصلية المذهلة هذه إذا سمحت، واجعل لها طبقة عالية من الرغوة».

نظر إليَّ مالك الحانة من فوق البار، وأخذ يتفحصني من الرأس إلى القدم، وابتسامة غريبة ترتسم على وجهه، وبدلًا من أن يصب لي البيرة، نظر حوله ولفَّ بعنقه يهمس بشيء إلى زوجته. خرجت من بعدها تحمل رقعة قماش تخيطها في يدها، وانضمت إليه في الحملقة نحوي. ها أنا أتمثل ثلاثتنا حاضرين أمامي الآن. يتكئ صاحب الحانة على إطار نافذة البار حاسرًا عنه أكمام قميصه، وتنظر زوجته نحوي عبر الباب القصير، بينما يتملكني الارتباك، فأنظر إليهم من خارج الحاجز الذي يفصل بيننا. طرحوا عليَّ الكثير من الأسئلة. ما اسمي، وكم عمري، وأين أعيش، وكيف أعمل، وكيف أتيت إلى هناك. رحت أجيب عن كل هذه الأسئلة، بما يدور في مخيلتي ورحت أبتكر الإجابات، أرجو لو كانت مناسبة. جاءوني بالبيرة، على الرغم من أنني أشك أنها لم تكن

من النوع المذهل الأصلي. فتحت زوجة مالك الحانة نصف باب البار الصغير، وانحنت إلى أسفل فأعطتني باقي النقود، وقبلتني قبلة نصفها إعجاب ونصفها الآخر رثاء، ولكنها في النهاية قبلة أنثوية حنونة بكل تأكيد.

أعلم أنني لا أبالغ، بقصد أو من دون قصد، حين أبوح بندرة موارد دخلي أو حياتي الشاقة. أعلم أنه لو كان السيد كوينون قد أعطاني شلنًا في وقت ما، فقد أنفقته في تناول غداء أو احتساء الشاي. أعلم أنني عملت من مطلع الصباح حتى حلول الليل، مع الرجال والفتيان من عامة الناس، بل وكنت طفلًا رث الملابس. أعلم أنني تسكعت في الشوارع، ولم أحصل على طعام كافٍ أو مُرضٍ. أعلم ذلك، ولكن لولا رحمة الله، لكان من السهل أن أصير لصًّا صغيرًا أو متشردًا هالكًا في ظل انعدام الرعاية أو الاهتمام بحالي.

شغلت مكانة ما -على الرغم من كل شيء- في متجر مردستون وجرينبي. راح السيد كوينون يتصرف كرجل مهمل، يتعامل مع الأمور بطريقة شاذة، وعاملني كواحد مختلف عن بقية العاملين. لم أقل لرجل أو صبي، كيف سارت بي الأمور لأجيء إلى هنا، ولم أظهر مؤشرًا ولو ضئيلًا على شعوري بالأسف لوجودي هناك. لقد عانيت في الخفاء، وتألمت أشد ما يكون الألم، من دون أن يعرف أحد سواي كم عانيت، وكما قلت بالفعل لقد تحملت ما يفوق قدرتي على الإطلاق. لكنني احتفظت بأشجاني الخاصة لنفسي، وقمت بعملي على أكمل وجه. عرفت من البداية، أنني لو لم أتمكن من القيام بعملي على أكمل

وجه، فلن أتمكن من رفع نفسي مخافة الاستخفاف والاحتقار اللذين سأتلقاهما. سرعان ما صرت سريعًا وذا مهارة مثل بقية الصبية الآخرين. كان سلوكي وأسلوبي مختلفين بما يكفي لوضع فارق كبير بيني وبقية الصبية على الرغم من ثقتي الكاملة بهم. راح الرجال العاملون والصبية ينادونني عمومًا باسم «الرجل الصغير»، أو الصبي من مدينة «سافوك». كان ثمة رجل معين يدعى جريجوري، وهو رئيس عمال التعبئة، وآخر اسمه تيب، الذي عمل سائقًا، وكان يرتدي سترة حمراء، قد راحا يخاطباني أحيانًا باسم «ديفيد»، لكنني أظن أنهما في الغالب كانا يناديانني بهذا الاسم سرًّا فيما بيننا. بذلت بعض الجهود للترفيه عنهما، بسبب عملنا الشاق، فرحت أستجمع بعضًا من القراءات القديمة التي كانت في طريقها للتلاشي من ذاكرتي. تمرد ذات يوم الغلام الذي يشبه البطاطس المغبرة بالدقيق، لكوني متميزًا إلى حد ما، إلا أن مِك ووكر أخمد ثورته وقمعه سريعًا.

استولى عليَّ اليأس كاملًا، فلا سبيل لإنقاذي من هذه الحياة، وقد هجرت كل آمالي على هذا النحو. صرت مقتنعًا تمامًا أنني لن أتصالح مع هذه الحياة أبدًا ولو لساعة واحدة، أو أنني سأحيا تعسًا بائسًا، وسأحتمل مشقة العيش في كبد. لم أكتب إلى بيجوتي ما أعانيه، لأسباب منها حبي لها وشعوري بالخزي، لم أكشف قَطُّ عن حقيقة معيشتي في أي خطاب، على الرغم من كثرة ما تبادلناه من رسائل.

كانت الصعوبات التي واجهها السيد ميكوبر تضيف حزنًا إلى ذهني المثقل بالهموم. صرت مرتبطًا تمامًا بالعائلة وقد زادت من بؤسي.

رحت أتجول مشغول الذهن بحسابات مصادر دخل السيدة ميكوبر، بل صرت مثقلًا بعبء ديون السيد ميكوبر نفسه. كانت ليالي السبت بمثابة مكافأة كبيرة لي جزئيًّا، وذلك لأنني كنت أنتشي حين عودتي إلى المنزل وقد حصلت على ستة أو سبعة شلنات في جيبي، فأبحث في المتاجر وأفكر فيما سأشتريه بهذا المبلغ، ولكن عندما كنت أعود إلى المنزل مبكرًا، اعتادت السيدة ميكوبر على أن تقص عليَّ من الأحاديث ما يدمي القلب ويوجعه. كنت في صباح يوم الأحد، أمزج القليل من الشاي أو القهوة التي اشتريتها في الليلة الماضية، في قدر صغير كان يستخدم في الحلاقة، وأجلس وأتناول إفطاري متأخرًا. كان من غير المدهش على الإطلاق أن يبكي السيد ميكوبر بلوعة مع بداية إحدى محادثات ليلة السبت هذه، ثم لا يلبث أن يغني في النهاية أغنية عن «فرحة جاك بعد أن نال محبوبته الفاتنة»[1] في نهاية ليلتنا. رأيته مرارًا عائدًا إلى المنزل لتناول الغداء بفيض من الدموع، وقد أعلن أنه لم يبقَ أمامه سوى السجن، ثم يذهب إلى غرفة نومه ليقوم ببعض الحسابات الخاصة بمصروفات البيت أو مصروفات وضع أسلاك للنوافذ في المنزل - «خوفًا من ظهور أي شيء مفاجئ»، على حسب تعبيره المفضل. كانت السيدة ميكوبر تردد الشيء نفسه.

نشأت صداقة غريبة، تعود على حسب ظني إلى الظروف الخاصة التي مررنا بها، وعلى الرغم من فارق العمر المضحك بيني وهؤلاء الناس. لم أسمح لنفسي قَطُّ أن أقبل أي دعوة لتناول الطعام أو الشراب

---

(١) أغنية إنجليزية قديمة.

معهم مهما كان إصرارهم، حتى لا أنتقص من مؤونتهم - مع العلم أنهم تشاجروا مع كل من الجزار والخباز، وغالبًا لم يكن لديهم ما يكفي لسد حاجتهم من الطعام - حتى أسرت إليَّ السيدة ميكوبر بشيء، وهذا ما قالته ذات مساء، ووقع على النحو التالي:

قالت السيدة ميكوبر: «يا سيد كوبرفيلد، إنك لست غريبًا بيننا، وبالتالي لا تتردد في القول إن الصعوبات التي يواجهها السيد ميكوبر صارت في طريقها إلى التأزم».

تملكني يأس مضنٍ لسماع ذلك منها، ونظرت إلى عيني السيدة ميكوبر الحمراوين بأقصى ما يمكن من التعاطف والرثاء.

قالت السيدة ميكوبر: «لم يتبقَّ في الحقيقة فتات أي شيء في مخزن الطعام، باستثناء مكعب من الجبن الهولندي، والذي لا يتلاءم مع احتياجات أسرتنا الشابة. كنت معتادة على التحدث عن مخزن الطعام عندما كنت أعيش مع بابا وماما، وأستخدم هذه الكلمة تقريبًا من دون وعي. مقصدي من القول هو أنه لم يتبقَّ شيء للأكل في المنزل».

قلت بقلق بالغ: «يا عذابي!».

تبقى في جيبي شلن أو ثلاثة شلنات من أجري الأسبوعي - وأفترض من ذلك أن هذه المحادثة لا بد أن تكون قد وقعت بيننا ليلة الأربعاء - وقد أخرجت نقودي على عجل، متوسلًا بعاطفة صادقة إلى السيدة ميكوبر لقبولها مني كقرض. قبَّلتني، وطلبت مني أن أعيدها إلى جيبي، وردت بأنها لا تستطيع التفكير في الاقتراض مني.

قالت: «لا يا سيدي العزيز كوبرفيلد، هذه الفكرة بعيدة كل البعد

عن مخيلتي، لكنك تتمتع بذكاء يتجاوز عمرك الحقيقي، ويمكنك أن تقدم لي نوعًا آخر من الخدمة إذا أردت، وهي خدمة سأقبلها منك بامتنان».

توسلت إلى السيدة ميكوبر أن تقول لي ماذا تكون هذه الخدمة.

قالت السيدة ميكوبر: «لقد رهنت طاقم الخزف بنفسي. كان ستة أقداح للشاي، وملاحتين، وزوجًا من حافظات السكر. اقترضت أموالًا بيدي في أوقات مختلفة سرًّا. أما الآن فإن التوأم يطوقان عنقي دومًا، وتتملكني ذكرياتي مع أبي وأمي، وقد صار هذا النوع من المعاملات ذا وقع مؤلم للغاية. لم نزل نحتفظ بعدد قليل من الأشياء التافهة، والتي يمكننا التخلي عنها. إن مشاعر السيد ميكوبر لن تسمح له بالتخلص منها. أما كليكيت - كان هذا اسم الفتاة الخادمة - فإنها ذات عقلية مبتذلة، ستبوح بالأسرار المؤلمة إذا وثقنا فيها كل الثقة. فإذا طلبت منك يا سيد كوبرفيلد أن...».

لقد فهمت السيدة ميكوبر الآن، ورجوتها أن تستفيد مني إلى أقصى حد ممكن. بدأت في التخلص من أخف ممتلكاتها في ذلك المساء بالذات، ثم خرجت في رحلة استكشافية مماثلة في كل صباح تقريبًا، قبل أن أذهب إلى عملي في متجر مردستون وجرينبي.

كان السيد ميكوبر يمتلك عددًا قليلًا من الكتب فوق رف صغير، أطلق عليها اسم المكتبة، وقد رهنت هذه الكتب أولًا. حملتها، كتابًا تلو الآخر، إلى مكتبة في طريق المدينة - كان أحد منافذها يقع بالقرب من منزلنا، وهي عبارة عن أكشاك لبيع الكتب، كما كانت تقريبًا متاجر لبيع

الطيور آنذاك - وقد بعت هذه الكتب مقابل أي ثمن زهيد. اعتاد أمين المكتبة، الذي كان يعيش في منزل صغير خلف منفذ البيع، أن يسكر كل ليلة، فتوبخه زوجته بشدة كل صباح. ذهبت إليه مبكرًا أكثر من مرة، فدخلت حتى أحدثه في غرفة نومه، وإذا بجبينه يعلوه جرحًا أو تبدو عيناه متورمتين، لتشهدا على تجاوزاته وعربدته طوال الليل. أخشى أنه كان كثير الشجار حالما يسكر. حاول البحث بيده المرتعشة عن الشلنات المطلوبة في جيوبه أو في جيوب ملابسه الملقاة على الأرض، بينما تحمل زوجته طفلًا بين ذراعيها، وتمسك بحذائها من الكعب من دون أن تتوقف عن شتمه وسبه. كان يفقد ماله في بعض الأحيان، ثم يطلب مني الرجوع إليه مرة أخرى. أما زوجته فكانت تملك نقودًا على الدوام، أجرؤ على القول إنها ربما سرقتها منه بينما كان مخمورًا. كانت زوجته تبتاع الكتب مني سرًّا، وتتم الأمر عند السلم حين ننزل معًا. صرت معروفًا جدًّا في متجر الرهن أيضًا. أما الرجل الذي يعمل خلف حاجز الحسابات، فقد اهتم بي اهتمامًا بالغًا. أتذكر أنه استوقفني كثيرًا ليسألني عن اسم لاتيني أو صفة، أو تصريف فعل لاتيني ويطلب مني أن أمليه عليه، بينما يقضي لي عملي. كانت السيدة ميكوبر تقدم لي بعض الحلوى بعد كل مناسبة من هذه المناسبات. كانت هذه الحلوى تأتي كوجبة عشاء بشكل عام، وقد كانت هذه الوجبات تحوي مذاقًا غريبًا، لم أزل أتذكره جيدًا.

أخيرًا، تسببت الصعوبات التي واجهها السيد ميكوبر في وقوع أزمة كبيرة، فقُبض عليه في وقت مبكر من صباح أحد الأيام، ونقل إلى سجن

يدعى «حجز الملك» في المنطقة الإدارية. أخبرني في أثناء خروجه من المنزل، أن الرحمة قد فارقته الآن، وأحسب أن قلبه كان منفطرًا حقًّا وقد كان قلبي محطمًا أيضًا. إلا أنني سمعت بعد ذلك، أنه شوهد بينما يلعب في لياقة مفعمًا بالحيوية لعبة البولينج قبيل الظهيرة.

قررت الذهاب لزيارته في يوم الأحد الأول بعد دخوله السجن، للاطمئنان عليه وتناول الغداء معه. رحت أسأل عن الطريق الذي سأسلكه للوصول إلى هذا المكان. أخبرني الناس أنني على مقربة من ذاك المكان، فإذا ما وصلت إلى مكان ما؛ أشاروا لي بأنني يجب أن أصل إلى مكان آخر بعده. قالوا بعدها إن عليَّ تجاوز ذلك المكان بقليل حتى أجد ساحة، ومن ثَم عليَّ عبورها، ثم أستمر في السير مباشرة حتى أرى باب هذا السجن. فعلت كل ما سبق، حتى رأيت أخيرًا بابًا منتصبًا (كم كنت صغيرًا مسكينًا!). فكرت في قصة رودريك راندوم حينما كان في سجن المدينين، وتخيلت أمامي رجلًا لا يرتدي أي شيء سوى خرقة بالية، ثم غاص السجن المنصب أمام عيني الخافتتين وراح قلبي يسرع نبضاته.

كان السيد ميكوبر ينتظرني وراء البوابة، فصعدنا إلى غرفته - التي تقع في الدور الأول- ورحنا نبكي أشد البكاء. أذكر أنه راح يحذرني بجدية من أن أسلك مسلكه، وقد أضاف أن الرجل إذا كان يملك من دخله عشرين جنيهًا في السنة، فأنفق تسعة عشر جنيهًا وتسعة عشر شلنًا وستة بنسات، فسيصير رجلًا سعيدًا. أما إذا أنفق عشرين جنيهًا وبنسًا واحدًا فسيصير رجلًا بائسًا تعسًا. اقترض مني شلنًا بعد ذلك ليدفعه ثمنًا

لخمرته، ثم أعطاني إذنًا كتابيًّا للسيدة ميكوبر بالمبلغ، وأبعد منديله جانبًا، ثم تبدلت حالته فصار مبتهجًا.

جلسنا أمام نيران ضئيلة، محاطة بقالبين من الطوب داخل شبكة صدئة، وقد وُضِع قالب على كل جانب لمنع احتراق الكثير من الفحم. جاء إلى السجن مدين آخر يعمل في متجر المخبوزات، فشارك السيد ميكوبر في غرفته. كان السجين قد جلب معه قطعة من لحم الضأن فتشاركنا أكلها فيما بيننا. أرسلوني إلى سجين يدعى «الكابتن هوبكنز» في الغرفة التي تعلونا، وقد أبلغته تحيات السيد ميكوبر، وعرفته بنفسي بأنني صديقه الصغير، وطلبت من الكابتن هوبكنز أن يقرضني سكينًا وشوكة.

أعارني الكابتن هوبكنز السكين والشوكة، وأرسل تحياته إلى السيد ميكوبر. رأيت سيدة تبدو عليها القذارة تجلس في غرفته الصغيرة، ومعها فتاتان صغيرتان، أحسب أنهما ابنتاه. كانوا يجلسون برؤوس شعثاء، فحمدت الله على استعارة سكين وشوكة من الكابتن هوبكنز، لأن ذلك أفضل من استعارة مشط منه. كان الكابتن نفسه رث الهيئة إلى أقصى حد، تعلو وجهه شوارب ضخمة، ويرتدي معطفًا بنيًّا قديمًا من دون أن يرتدي قميصًا تحته. رأيت سريره ملفوفًا في الزاوية، وقد وضعت الأطباق والصحون والأواني على رف عنده، وتكهنت (والله أعلم كيف توصلت إلى هذا) أن الفتاتين صاحبتا الرأسين الأشعثين المغبرين، هما ابنتا الكابتن هوبكنز، أما السيدة القذرة فلم تكن زوجة الكابتن. لم يستمر وقوفي الخجول على أعتابه أكثر من دقيقتين على الأكثر، لكنني

نزلت محملًا بكل هذه المعلومات، كما نزلت حاملًا السكين والشوكة في قبضة يدي.

كان الطعام أشبه بطعام الغجر إلا أنه في النهاية كان مقبولًا في وجبة الغداء. أرجعت إلى الكابتن هوبكنز السكين والشوكة في وقت مبكر بعد الظهيرة، ثم انطلقت إلى المنزل لأريح خاطر السيدة ميكوبر فأحكي لها عن زيارتي. فقدت وعيها عندما رأتني عائدًا، ثم أفاقت وأعدت قدرًا صغيرًا من البيض الساخن بعدها ليواسينا بينما أخذنا نتحدث عن الأمر.

لا أعرف كيف بِيع أثاث المنزل لتستفيد بثمنه هذه الأسرة. لا أعرف من باعه، إلا أنني لم أفعل ذلك بنفسي. بِيع الأثاث على كل حال، وحُمل في شاحنة باستثناء السرير وعدد قليل من الكراسي وطاولة المطبخ. أقمنا بصحبة هذه الممتلكات الباقية، في حجرتين من هذا المنزل الفارغ في شارع وندسور تيراس. مكثت السيدة ميكوبر مع أطفالها، ومكثت أنا والخادمة اليتيمة في تلك الغرف ليلًا ونهارًا. لست أذكر كم من الوقت مكثنا فيها، على الرغم من شعوري أننا بقينا على حالنا لفترة طويلة. قررت السيدة ميكوبر في النهاية الانتقال إلى السجن، حيث قام السيد ميكوبر بتأمين غرفة منفردة لنفسه. أعادت مفتاح المنزل إلى المالك الذي كان سعيدًا جدًّا بالحصول عليه، وأرسلت الأسرة ما تبقى من أثاثها إلى السجن، باستثناء أثاث غرفتي. استأجرت غرفة صغيرة خارج أسوار هذا السجن. كنت راضيًا سعيدًا بالغرفة لأبعد حد، حيث صرت على ألفة بأسرة ميكوبر وقد اعتاد كل منا على الآخر، بعد أن جمعنا الأحزان وحالت دون فراقنا. استأجرت الخادمة اليتيمة هي

الأخرى سكنًا رخيصًا في الحي نفسه. كانت غرفتي عبارة عن حجرة خلفية هادئة ذات سقف مائل، تطل على منظر جيد لساحة مخزن للأخشاب، وبعد أن حصلت عليها، وأمعنت التفكير في أن مشكلات السيد ميكوبر قد وصلت إلى أزمتها الأخيرة وانتهت، شعرت بهذه الغرفة كما لو أنها جنة النعيم.

عملت طوال هذا الوقت في متجر مردستون وجرينبي بالطريقة المعهودة ذاتها، ومع الزملاء المعروفين أنفسهم، وبإحساس مماثل بدونية لا أستحقها من البداية. أحسب أنه من حسن حظي أنني لم أقم مطلقًا باتخاذ واحد من هؤلاء الزملاء صديقًا، ولم أتحدث إلى أي من الأولاد الكثيرين الذين أراهم يوميًّا في ذهابي إلى المستودع، أو في خروجي منه، بل ورحت أتجول في الشوارع في الأوقات المخصصة لتناول الوجبات. عشت هذه الحياة التعيسة سرًّا، ورحت أقضي أيامها بالطريقة المنعزلة نفسها معتمدًا على ذاتي. كانت التغييرات الوحيدة التي أدركها هي؛ أولًا: أنني صرت أكثر هشاشة وقد صارت هيئتي رثة، وثانيًا: أنني صرت الآن مرتاحًا من ثقل هموم كثيرة ألقاها عليَّ السيد ميكوبر والسيدة زوجته، لأن بعض الأقارب والأصدقاء قد مدوا إليهم يد العون في محنتهم الحالية، فصاروا يعيشون في السجن حياة أكثر راحة مما عاشوها خارجه لفترة طويلة. رحت أتناول الإفطار معهم تلك الأيام، بعد اتخاذ بعض الترتيبات التي نسيت تفاصيلها الآن. نسيت أيضًا ما يتعلق بالوقت الذي تفتح فيه بوابات السجن في الصباح كي يُسمح لي بالدخول، لكنني أذكر أنني غالبًا ما استيقظت في الساعة

السادسة صباحًا، وأن مكان استرخائي المفضل بين وقت وآخر كان جسر لندن القديم، حيث أجلس على إحدى الاستراحات الحجرية، أو أراقب العابرين، أو أتأمل من فوق السور الشمس الساطعة فوق صفحة الماء، بينما تضيء الشعلة الذهبية أعلى النصب التذكاري هناك. كنت أحيانًا أقابل الخادمة اليتيمة هناك، فأخبرها ببعض القصص المذهلة عن الأرصفة والبرج، لا أستطيع أن أقول أكثر من أنني آمل أن أصدق هذه القصص. أعود في المساء إلى السجن، وأتجول في الساحة مع السيد ميكوبر، أو ألعب الكازينو[1] مع السيدة ميكوبر بينما أستمع إلى ذكرياتها عن أمها وأبيها. لا أستطيع أن أجزم ما إذا كان السيد مردستون يعرف شيئًا عن مكان وجودي. لم أتحدث قَطُّ عن الأمر في متجر مردستون وجرينبي.

بدا أن مصاعب السيد ميكوبر قد انقضت، إلا أنه ظل متورطًا إلى حد كبير بسبب «صك» معين، سمعت عنه كثيرًا. أفهم الآن أنه كان عبارة عن تعهد كتابي سابق مع دائنيه. لم أتفهم هذه الوثيقة وقتها وكان الأمر بعيدًا عن الوضوح حينها، إلا أنني أدرك الآن أنني خلطت بين هذه الوثيقة ووثائق الرق الشيطانية التي أظن أنها انتهت من عالمنا، بعد أن كانت منتشرة على نطاق واسع في يوم من الأيام في ألمانيا. فهمت في النهاية أن هذه الوثيقة قد أُزيحت من التعاملات بطريقة ما، ولم تعد في جميع الأحوال صخرة يُستَنَد إليها. أبلغتني السيدة ميكوبر أن «عائلتها» قررت أن السيد ميكوبر يجب أن يتقدم بطلب لإطلاق سراحه بموجب

---

(١) لعبة من ألعاب الحظ القديمة، وتعد من ألعاب المقامرة.

قانون المدينين المعسرين، وقد توقعت أنه سيُطلق سراحه في غضون ستة أسابيع أو نحو ذلك.

قال السيد ميكوبر الذي حضر هذا الحديث: «لا يراودني أدنى شك في أنني سأبدأ بعد ذلك - داعيًا الله أن أفعل - في سباق جديد مع العالم، فأعيش بطريقة جديدة تمامًا، إذا تغيرت الأمور».

وبمناسبة تغير الأمور، فإنني أتذكر أن السيد ميكوبر قد قدم التماسًا إلى مجلس العموم في هذا الوقت تقريبًا، يدعو فيه إلى تعديل قانون العقوبات المتعلق بالديون. أدون هذه الذكرى هنا، لأنها نموذج أضعه أمام عيني، يعرض الطريقة التي استطعت من خلالها تكييف فحوى كتبي القديمة في مسيرة حياتي المتغيرة، وكيف صنعت منها قصصًا لنفسي، بما فيها من شوارع، ورجال ونساء، وكيف أن بعض النقاط الرئيسية في الشخصية التي أفترض أنني سأطورها من دون وعي فيما بعد في كتابتي لحياتي، كانت تتشكل تدريجيًّا طوال هذا الوقت.

اشتمل السجن على نادٍ، وقد ظهر فيه السيد ميكوبر كرجل نبيل ذي سلطة كبيرة. وقد صرح السيد ميكوبر بفكرته عن هذا الالتماس أمام المجتمعين في النادي، ووافق الناس عليه وأيدوه بشدة. أما السيد ميكوبر ذلك الرجل حسن الطباع، والمخلوق النشط في كل شيء عدا شؤونه الخاصة، كما هي حاله دومًا في أي وقت مضى، والذي لم يكن ليسعد بشيء قَطُّ كسعادته عندما يصير مشغولًا بأمر لا يحقق له أي ربح، فقد بدأ العمل في الالتماس، وانكب على صياغته داخل جدار سجنه، وأخذ ينسقه على فرخ كبير من الورقة، وبسطه فوق طاولة، وحدد وقتًا

لكل أعضاء النادي، للصعود إلى غرفته، والتوقيع عليه ما داموا وافقوا على ذلك.

سمعت عن اقتراب هذا الاحتفال، فتلهفت للغاية لرؤيتهم جميعًا يتوافدون واحدًا تلو الآخر، على الرغم من أنني كنت بالفعل أعرف الجزء الأكبر منهم، كما كانوا يعرفونني كذلك. حصلت على إذن بالغياب لمدة ساعة من مستودع مردستون وجرينبي، واتخذت لنفسي مكانًا في إحدى الزوايا لهذا الغرض. حضر أكبر عدد ممكن من الأعضاء الرئيسيين للنادي، فدخلوا الغرفة الصغيرة من دون أن يملأوها، وراحوا يؤيدون ما أيده السيد ميكوبر في هذا الالتماس. أما صديقي القديم الكابتن هوبكنز فقد اغتسل احترامًا لهذه المناسبة، واستقر بالقرب من الالتماس ليقرأه على كل من لم يكن على دراية بمحتوياته. فُتح الباب بعد ذلك، وبدأ عامة الناس في الدخول في طابور طويل، بينما ظل عدد منهم منتظرًا في الخارج. يدخل أحدهم فيدلي بتوقيعه ثم يخرج، ثم يدخل الجميع على التوالي. ظل الكابتن هوبكنز يسأل: «هل قرأتها؟». تأتي الإجابة: «لا». فيسأل: «هل ترغب في سماعها؟». إذا لم يُظهر الرجل استعدادًا كبيرًا لسماعها، فما يلبث الكابتن هوبكنز إلا أن يلقيها بصوت عالٍ ورنان، فيُسمعه كل كلمة فيها. كان الكابتن سيقرأ كلماتها عشرين ألف مرة، لو أن المستمعين عشرين ألف شخص، ليؤكد كلماته كلمة تلو الأخرى. أتذكر بعض الكلمات الهامة التي كرَّرها في مثل هذه العبارات: «ممثلو الشعب في البرلمان مجتمعون»، «لذلك يتفضل مقدمو الالتماس بتواضع نحو مجلسك الموقر»، «رعايا الكريم صاحب

الجلالة الذين يشعرون بالبأس»، كما لو كانت الكلمات شيئًا حقيقيًّا في فمه يتجرع حلوه مستلذًّا به. كان السيد ميكوبر يستمع بقليل من غرور الكاتب وسط كل ما يحدث، بينما أخذ يتأمل -من دون أن يحملق- في الأسياخ المعلقة على الجدار المقابل.

كنت أسير كل يوم بين شارع ساوثوارك وشارع بلاكفريارز ذهابًا وإيابًا، وأتسكع في أوقات الوجبات بين أزقة الشوارع الغامضة، والتي قد تكون أحجارها قد بلت في هذه اللحظة، لسبب ما ربما هو من تأثير خطو أقدامي الصغيرة. أتساءل كم من هؤلاء الناس الذين حضروا هذا الحشد لم تزل ذاكرتي محتفظة بهيئتهم، أو أستطيع تذكرهم مرة أخرى مع صدى صوت الكابتن هوبكنز! تعود إلى ذاكرتي الآن تلك الآلام المضنية التي قضيتها في شبابي، فأتساءل كم من الأحداث الثانوية التي اخترعتها لمثل هؤلاء الأشخاص لم تزل معلقة مثل ضباب هش فوق حقائق الأحداث التي أتذكرها جيدًا! أخطو فوق تلك الأرض القديمة، فلا أتعجب من أنني ألاحظ وأرثي ما جرى أمامي من نوائب؛ أرثي فتى رومانسيًّا بريئًا، يصنع عالمه الخيالي من مثل هذه التجارب الغريبة والوقائع الدنيئة!



الفصل الثاني عشر

أخوض معترك الحياة معتمدًا على نفسي متخذًا قراري العظيم

صار التماس السيد ميكوبر جاهزًا للعرض والقراءة في الوقت المناسب، وقد صدرت الأوامر بالإفراج عن هذا الرجل بموجب القانون الجديد. ففرحت أشد الفرح. أدركت أن دائنيه لم يكونوا متعنتين. أبلغتني السيدة ميكوبر أن صانع الأحذية المنتقم، قد صرح في جلسة علنية أنه لم يكن أي حقد تجاهه، وأن الأمر ينحصر في أنه كان مدينًا له بالمال، فطلب منه أن يدفع له. قال إنه يحسب أن المطالبة بالحق من الطبيعة البشرية.

عاد السيد ميكوبر إلى سجنه بعدما انتهت قضيته، إذ كان من المقرر تسوية بعض الرسوم، مع مراعاة بعض الإجراءات الشكلية قبل الإفراج عنه فعليًّا. استقبله أعضاء النادي بحفاوة وعقدوا مساء ذلك اليوم اجتماعًا مرتبًا تكريمًا له. أما أنا والسيدة ميكوبر فقد جلسنا نتناول لحم الضأن معًا، محاطين بباقي أفراد الأسرة النائمة.

قالت السيدة ميكوبر: «في مثل هذه المناسبة سأقص عليك يا سيد كوبرفيلد المزيد عن ذكرى أبي وأمي». وقد كان بيننا بعض القصص المعروفة بالفعل.

سألتها بعد أن شربت كأسًا من النبيذ قائلًا: «هل ماتا يا سيدتي؟».

قالت السيدة ميكوبر: «لقد رحلت أمي عن هذه الحياة قبل أن تبدأ صعوبات السيد ميكوبر، أو على الأقل قبل أن تتأزم بشكل صارخ. أما والدي فقد عاصر كثيرًا من أزمات السيد ميكوبر لعدة مرات، ثم فارق الحياة، وقد نعاه عدد كبير من الناس».

أومأت السيدة ميكوبر برأسها، وذرفت دمعة وقعت على التوأم اللذين كانا في هذا الوقت بين يديها.

لم أجد فرصة أكثر ملاءمة من هذه لأطرح سؤالًا شغلني وهمَّني أن أحصل على إجابته، فقلت للسيدة ميكوبر:

«هل لي أن أسأل يا سيدتي، ما الذي تنويان فعله أنت والسيد ميكوبر الآن، بعد أن خرج السيد ميكوبر من الأزمات التي كان يواجهها وأطلق سراحه؟ هل استقر به الأمر على فعل شيء ما؟».

راحت السيدة ميكوبر تتحدث بصوت عالٍ كما هي عادتها حين تذكر كلمة «عائلتي»، على الرغم من أنني لم أتمكن قَطُّ من اكتشاف من ينتمي إلى هذه الفئة، فقالت: «ترى عائلتي أن السيد ميكوبر يجب أن يترك لندن، ليمارس مواهبه في القرية. إن السيد ميكوبر رجل يتمتع بموهبة كبيرة يا سيد كوبرفيلد».

قلت إنني متأكد من ذلك.

كررت السيدة ميكوبر قولها: «إنه ذو موهبة عظيمة. إن عائلتي تظن أنه بقليل من الاهتمام، يستطيع القيام بشيء ما عظيم؛ فهو رجل يتمتع بقدرات عالية في مجال الجمارك. إن عائلتي ذات نفوذ على المستوى المحلي، لذلك فإنهم يرغبون في ذهاب السيد ميكوبر إلى بليموث. ويحسبون أنه لا غنى عن وجوده هناك على الفور».

عقبت مستفهمًا: «ليصير جاهزًا؟».

أجابت السيدة ميكوبر قائلة: «بالضبط، حتى يصير جاهزًا في حالة ظهور أي شيء».

قلت: «وهل ستذهبين أيضًا يا سيدتي؟».

أثرت الأحداث التي وقعت في ذاك اليوم، بالإضافة إلى وجود التوأم تأثيرًا كبيرًا، فجعلت السيدة ميكوبر في حالة هستيرية، كما أن الشراب لم يخلُ من تأثير أيضًا، فذرفت الدموع وهي تجيب قائلة:

«لن أتخلى عن السيد ميكوبر أبدًا. ربما يكون السيد ميكوبر قد أخفى عني أزماته في بداية الأمر، لكن ذلك كان بسبب أن طبعه المتفائل ربما دفعه إلى توقع أنه سيتغلب عليها. بعنا عقد اللؤلؤ والأساور التي ورثتها عن أمي بأقل من نصف قيمتها، ثم بعنا مجموعة المرجان التي كانت هدية من أبي في يوم زفافي، فلم ننل منها سوى ثمن زهيد بالفعل. إلا أنني لن أتخلى عن السيد ميكوبر. لا». ثم صرخت السيدة ميكوبر، وظهر تأثرها أكثر من ذي قبل قائلة: «لن أفعل ذلك أبدًا. لا فائدة من أن تسألني هذا السؤال».

شعرت بعدم الارتياح - كما لو أن السيدة ميكوبر افترضت أنني طلبت منها أن تفعل أي شيء من هذا القبيل! - فجلست ناظرًا إليها في حالة من القلق.

راحت تقول: «إن السيد ميكوبر له أخطاؤه. إنني لا أنكر أنه متهور. إنني لا أنكر أنه أبقاني في ظلام الجهل فيما يتعلق بمصادر دخله ومسؤولياته على حد سواء»، ثم تابعت حديثها بينما تنظر نحو الحائط فقالت: «إلا أنني لن أتخلى عن السيد ميكوبر».

كانت السيدة ميكوبر قد رفعت صوتها في هذه اللحظات إلى حد الصراخ تمامًا. شعرت بذعر شديد إلى الحد الذي دفعني إلى الهروب إلى غرفة النادي، فأزعجت السيد ميكوبر في أثناء جلوسه على رأس الطاولة الطويلة التي تقود المجلس، وقد كان يغني قائلًا:

«أسرعي يا دوبين...

أسرعي يا دوبين...

أسرعي يا دوبين...

هيا انطلقي، وأسرعي... آهٍ!»[1].

وأخبرته أن السيدة ميكوبر في حالة تدعو للقلق. هرول إليها على الفور بعد أن استدعاه صوت البكاء، وكان قد خرج من الحجرة معي، وقد ملأ صدريته برؤوس وذيول الجمبري، الذي كان يشارك أكله مع أعضاء النادي.

---

(١) أغنية قديمة من الريف الإنجليزي. كانت تُغنى للتشجيع على الحركة، أو الازدراء أحيانًا.

صرخ السيد ميكوبر بينما يركض نحو الغرفة قائلًا: «إيما يا ملاكي! ما الأمر؟».

صرخت: «لن أتخلى عنك أبدًا يا ميكوبر».

قال السيد ميكوبر: «يا حياتي وعمري، إنني على يقين تام من ذلك».

صرخت السيدة ميكوبر، في حالة هياج عاطفي بينما تتلوى قائلة: «إنه والد أطفالي، إنه والد توأمي، إنني لن أفعل ذلك... لن أهجر السيد ميكوبر».

لقد تأثر السيد ميكوبر بشدة بهذا الدليل على إخلاصها - أما أنا فقد ذُبت في بكاء حار - حتى إنه احتضنها على وجه حنون، ثم ناشدها راجيًا أن تنظر نحوه وأن تهدأ. كلما طلب من السيدة ميكوبر أن تنظر نحوه، ركزت عينيها على لا شيء، وكلما طلب منها السيطرة على نفسها، ازدادت انفعالًا. أثر هذا على السيد ميكوبر سريعًا، ونتيجة لذلك فقد اختلطت دموعه بدموعها ودموعي أيضًا. توسل السيد ميكوبر إليَّ لأن أقدم له خدمة بأن آخذ كرسيًّا وأجلس عند السلم، إلى أن يحثها على النوم. كنت على وشك أن أستأذن للرحيل، إلا أنه لم يسمح لي بالانصراف حتى يرن الجرس إيذانًا برحيل الزائرين. جلست عند نافذة السلم حتى خرج ومعه كرسي آخر وانضم إلى مجلسي.

قلت: «كيف حال السيدة ميكوبر الآن يا سيدي؟».

أجابني السيد ميكوبر بينما يهز رأسه قائلًا: «إنها في حالة سيئة للغاية. إنها متأثرة. آه، لقد كان هذا يومًا مروعًا. إننا نقف في محنتنا وحدنا الآن... لقد ذهب كل شيء من بين أيدينا».

ضغط السيد ميكوبر على يدي ثم تأوه، وذرف دموعًا بعد لحظات. لقد تأثرت وشعرت كذلك بخيبة أمل كبيرة، لأنني كنت أتوقع أننا سنكون في غاية المرح والسعادة في هذه المناسبة السعيدة التي طال انتظارها. أما السيد ميكوبر وزوجته، فقد كانا معتادين على الأزمات القديمة التي واجهتها، على حد ظني، لدرجة أنهما شعرا كما لو أن سفينتهما قد تحطمت بعد أن فكرا في أنهما قد خرجا من سجنهما طليقين. لقد تلاشت مرونتهما تمامًا، ولم أرَهما قَطُّ في حالة من اليأس كما عهدتهما في هذه الليلة، إلى الحد الذي صرت أشعر فيه بخوف شديد من أن أترك السيد ميكوبر بمفرده بعد أن رن جرس الانصراف. مشى معي نحو الباب مودعًا وداعيًا، إلا أنني خشيت تركه بسبب ما رأيته فيه من بؤس عارم.

ساد جو من الارتباك والتشتت وقد شمل الجميع، بشكل غير متوقع على الإطلاق - على الأقل بالنسبة لي. أدركت يقينًا أن السيد ميكوبر والسيدة زوجته وأفراد أسرتهما، كانوا في طريقهم للذهاب بعيدًا عن لندن، وأن موعد فراقنا سيحين قريبًا. خطرت لي فكرة في أثناء سيري إلى المنزل في تلك الليلة، ورحت أفكر فيها كذلك في ساعات الأرق التي تلت هذا اليوم، بينما كنت مستلقيًا على سريري. إلا أنني لم أعرف كيف وصلت إلى رأسي هذه الأفكار، والتي تحولت بعد ذلك إلى فكرة أكثر دقة وتجسيدًا.

لقد عشت واعتدت على ألفة أهل السيد ميكوبر، وكنت شديد الحميمية معهم في محنتهم، بل وصرت بلا أصدقاء تمامًا من دونهم،

إلى الحد الذي كانت فيه احتمالية تغيير السكن إلى آخر جديد، والذهاب مرة أخرى بين أناس أجهلهم، أمرًا صعبًا وواجبًا. كان إدراكي لهذه اللحظة التي تحولت على غير هدى إلى حياتي الحالية بمثابة استبصار، منحتني إياه التجربة التي أحياها. أُصيبت مشاعري الحساسة بقسوة عارمة، حتى تملكني الخزي والبؤس، من دون أن يهجرا صدري ما دمت حيًّا، بل صارت مشاعري أكثر رهافة حين رحت أفكر في الأمر، ثم أيقنت أن الحياة صارت لا تحتمل.

تأكدت أنه ليس هناك أمل في الهروب من الأمر، إلا إذا هربت بنفسي من عملي، وقد صرت متيقنًا من ذلك. كنت نادرًا ما أتلقى خطابًا من الآنسة مردستون، ولم أسمع شيئًا قَطُّ عن أخبار السيد مردستون، ولكن وصل إليَّ طردان أو ثلاثة طرود من الملابس المفصلة لي أو التي أصلحت، وقد تلقيتها عن طريق السيد كوينون. كان كل طرد يحوي قصاصة من الورق تشير إلى أن «ج.م - والتي تعني السيد مردستون - يرجو أن يكون د.ك - والتي تعني ديفيد كوبرفيلد - يعمل باجتهاد، ويكرس نفسه بالكامل لأداء واجباته». من دون أقل تلميح إلى أنني أي شيء آخر غير هذا الكادح الملقى في الدرك السفلي الذي استقر فيه بسرعة.

تبين لي في اليوم التالي، بينما كان ذهني منشغلًا بالفكرة الجديدة التي تصورتها، أن حديث السيدة ميكوبر لم يكن مجرد حديث عابر. لقد استأجروا مسكنًا في المنزل نفسه الذي أسكن فيه، ليمكثوا فيه لأسبوع، إلى حين انتهاء الوقت الذي يستعدون فيه للسفر إلى بليموث. توجه

السيد ميكوبر بنفسه - في فترة ما بعد الظهيرة - إلى مكتب الحسابات، ليخبر السيد كوينون أن عليه أن يتركني في يوم مغادرته، وأنه يشيد بأنني شخصية مهذبة، وأنا متأكد من أنني أستحق هذه الإشادة. أما السيد كوينون، فقد استدعى «تيب» السائق، وكان رجلًا متزوجًا، يمتلك غرفة للإيجار. توجهت إليه بعد موافقة متبادلة بينهما، وقد كان لديه كل الحق في التفكير على هذا النحو، لأنني لم أكن لأقول شيئًا، على الرغم من أنني كنت قد اتخذت قراري في هذه اللحظة.

قضيت أمسياتي مع السيد ميكوبر والسيدة زوجته، خلال الفترة المتبقية من إقامتنا تحت سقف واحد، وأحسب أننا صرنا أكثر ودًّا ومحبة مع مرور الوقت. دعواني لتناول الغداء في يوم الأحد الذي يسبق رحيلهم، وقد قدما فخذًا من لحم الخنزير وعصير التفاح والحلوى. كنت قد اشتريت حصانًا خشبيًّا مرقطًا في الليلة السابقة، ليكون هدية وداع للصغير الذي يدعى ويلكنز ميكوبر، واشتريت دمية لإيما الصغيرة. وأعطيت الخادمة اليتيمة شلنًا أيضًا، التي صارت على وشك الاستغناء عنها.

لقد قضينا يومًا ممتعًا للغاية، على الرغم من أننا كنا جميعًا في حالة تأثر بسبب اقتراب موعد فراقنا.

قالت السيدة ميكوبر: «لن أعاود التفكير أبدًا يا سيد كوبرفيلد، في الفترة التي كان فيها السيد ميكوبر يواجه أزمات، من دون أن أفكر فيك. لطالما كنت من أرق الناس طبعًا وأحسنهم أدبًا. إنك لم تكن بمثابة مستأجر قَطُّ. لقد كنت صديقًا صادقًا».

كان السيد ميكوبر قد اعتاد على مناداتي مؤخرًا باسم كوبرفيلد، فأخذ يقول: «يا عزيزتي إن كوبرفيلد يملك قلبًا حساسًا يشعر بأزمات الناس ويتأثر بها حتى لو احتجبوا من وراء سحابة، ولديه عقل للتخطيط والتدبر، وباختصار فإنه يملك قدرة عامة على التخلص من الممتلكات المتاحة التي يمكن التخلص منها وبيعها».

أعربت عن امتناني لهذا الثناء، وقلت إنني آسف جدًّا لأننا على وشك أن يخسر كل منا الآخر.

قال السيد ميكوبر: «يا صديقي، أيها الشاب العزيز، إنني أكبر منك، فأنا رجل يحوز بعض الخبرة في الحياة، وباختصار أحوز بعض الخبرة في الأزمات بشكل عام. لا أملك في الوقت الحاضر، وحتى يظهر شيء ما جديد (وهو ما قد أصرح أنني أنتظره في كل ساعة)، لا أملك ما أقدمه لك سوى النصيحة. لم تزل نصيحتي تستحق حتى هذه اللحظة أن تؤخذ بعين الاعتبار، وإن كنت باختصار، لم آخذ بها عن نفسي مطلقًا. الحقيقة أنني لم أفعل...» - في هذه اللحظة تحول السيد ميكوبر، الذي كان يداوم عل رسم الابتسام مرات على وجهه، إلى وجه عابس بعد أن تفكر في حاله - «بل وصرت البائس المسكين الذي تراه».

قاطعته زوجته قائلة: «آه يا ميكوبر يا عزيزي!».

راح السيد ميكوبر يتحدث، بعد أن تبدلت حالته تمامًا، فابتسم مرة أخرى، قائلًا: «أقول البائس المسكين الذي تراه. أما نصيحتي فهي، ألا تؤجل عمل اليوم إلى الغد. إن التسويف هو السارق الحقيقي للوقت، فطوِّقه».

عقبت السيدة ميكوبر قائلة: «إنها مقولة أبي المسكين».

قال السيد ميكوبر: «يا عزيزتي، لقد كان والدك طيبًا جدًّا في أسلوبه، وأنا والعياذ بالله لا أجرؤ على الاستخفاف به. إننا لا نستطيع أن نأخذ كل أقواله في المجمل، وإلا فلن نتمكن من - باختصار، أن نعرف أحدًا سواه، ولن ننتبه على الأرجح إلى أي شخص آخر امتلك في زمنه، ساقين قد خطا بهما وتعلم، أو غيره ممن استطاع قراءة الكتب نفسها بمنظار غير منظاره. لقد طبَّق هذه المقولة على زواجنا يا عزيزتي، ونفذنا هذا الأمر قبل الأوان، ونتيجة لذلك فإنني لم أسلم من العواقب مطلقًا». رمق السيد ميكوبر زوجته بنظرة من طرف عينيه، ثم أضاف قائلًا: «لا أقصد أنني آسف على زواجنا السريع، بل على العكس تمامًا يا حبيبتي». وبعد ذلك، ساد السكون لدقيقة أو نحو ذلك.

قال السيد ميكوبر: «أما نصيحتي الأخرى يا كوبرفيلد، فإنك تعلمها. إن كان الدخل السنوي عشرين جنيهًا، فالإنفاق السنوي تسعة عشر جنيهًا وتسعة شلنات، ثم النتيجة هي السعادة. أما إذا كان الدخل السنوي عشرين جنيهًا والنفقات السنوية عشرين جنيهًا وستة بنسات، فالنتيجة هي الشقاء. ستصبح الزهرة المتفتحة ذابلة، وتسقط أوراقها، فيهبط إله النهار على ذاك المشهد الكئيب، ويحوله عذابًا. وباختصار ستجد نفسك مربوطًا بالأرض إلى الأبد. كما هي حالي أنا».

أراد أن يجعل مثاله عن نفسه مثيرًا لمزيد من الإعجاب، فراح

يشرب كأسًا من النبيذ بسعادة ورضا، ثم أطلق صفيرًا على أنغام رقصة مجموعة المزمار[1].

لم أتردد في طمأنته بأنني سأحفظ هذه المبادئ في ذهني، على الرغم من أنني في الواقع لم أكن بحاجة إلى القيام بذلك، لأنها كانت بالفعل قد أثَّرت عليَّ بشكل واضح في ذلك الوقت. التقيت في صباح اليوم التالي بالأسرة بأكملها في مكتب تذاكر الحافلات، ورحت أراقبهم بقلب مقفر بينما يتخذون أماكنهم في نهاية الحافة.

قالت السيدة ميكوبر: «بارك الله فيك يا سيد كوبرفيلد، لن أنسى كل ما دار بيننا أبدًا، كما تعلم، ولن أقدر على التناسي أبدًا وإن راودتني نفسي».

قال السيد ميكوبر: «وداعًا يا كوبرفيلد، أتمنى لك كل السعادة وطيب العيش. إذا استطعت بعد مرور العمر والسنوات، أن أقنع نفسي بأن مصيري البائس كان بمثابة عبرة لك، فلن أشعر أنني قد عشت حياتي في هذا الوجود عبثًا. أما في حالة ظهور أي شيء (وأنا واثق منه إلى حد ما)، فسأسعد غاية السعادة، إذا صار في وسعي تحسين مستقبلك».

أحسب أن السيدة ميكوبر بعدما جلست في مؤخرة المركبة مع الأطفال، بينما وقفتُ أنا في الطريق أنظر إليهم بحزن، أن ضبابًا قد انقشع من فوق عينيها، وإذا بها تراني على حقيقتي؛ مخلوقًا صغيرًا حقًّا. راودني هذا الظن، لأنها طلبت مني أن أتسلق فأدنو منها، وقد

---

(١) رقصة شائعة تقلد حياة البحارة وواجباتهم على ظهر السفينة. تتطلب مساحة صغيرة للرقص، ولا تحتاج إلى شريك. كان أول تدوين للحن هذه الرقصة في عام ١٧٧٠.

اعتلى وجهها تعبير جديد تمامًا تغلب عليه سمات الأمومة، فما لبثت أن طوقت عنقي بذراعها، وطبعت على وجنتي قبلة مثل التي تمنحها لوليدها. استطعت بالكاد النزول مرة أخرى قبل أن تبدأ الحافلة في التحرك، وبالكاد استطعت تمييز أفراد الأسرة بينما يلوحون بالمناديل توديعًا لي. تلاشت الحافلة من أمامي بعد دقيقة واحدة. وقفت بعدها أنا والخادمة اليتيمة ينظر كل منا إلى الآخر حتى منتصف الطريق، ثم تصافحنا وافترقنا. أحسب أنها عادت إلى ورشة القديس لوقا، بينما ذهبتُ لأبدأ يومي المرهق في متجر مردستون وجرينبي.

توجهت إلى المتجر وقد انعقدت نيتي على ألا أضيع العديد من الأيام المرهقة في هذا المكان. لا، بل لقد عقدت العزم على الهرب. اعتزمت الذهاب بطريقة أو بأخرى إلى الريف، إلى القريبة الوحيدة التي لي في هذا العالم؛ فأروي قصتي لعمتي الآنسة بيتسي. لقد اعترفت بالفعل بأنني لم أعرف كيف راودتني هذه الفكرة اليائسة واخترقت ذهني، إلا أنها استقرت بعقلي بمجرد التفكير فيها. راحت هذه الفكرة تتأكد حتى صارت هدفًا، من دون أن أرى في حياتي أبدًا هدفًا أكثر تحددًا منه. أحسب أنني لم أكن متأكدًا من أن هناك أي علامة تبعث على الأمل، وعلى الرغم من ذلك اعتزم عقلي أن ينفذ فكرته تمامًا.

راحت هذه الفكرة تعاودني مرة تلو الأخرى، بل راودتني لمئات المرات منذ الليلة التي خطرت فيها لأول مرة فأبعدت عني النوم. كنت قد تجاوزت تلك القصة القديمة التي قصتها أمي المسكينة لي عن ولادتي، وقد كانت واحدة من أعظم مسراتي القديمة حين أسمعها

تحكيها، وحفظتها عن ظهر قلب. ظهرت عمتي في تلك القصة ثم خرجت منها، كانت ذات شخصية مرعبة ومروعة، إلا أن سمة واحدة صغيرة في سلوكها كنت قد أحببت التركيز عليها، وشجَّعتني بدرجة طفيفة على الأمر. لم أستطع أن أنسى كيف شعرت أمي عندما لمست عمتي شعرها الجميل بيد قاسية خشنة. ربما كان تصور والدتي خياليًّا تمامًا، أو لم يكن له أي أساس من الصحة على الإطلاق، فقد رسمت في مخيلتي صورة صغيرة لعمتي المرعبة من هذا الموقف، فإذا بي أتخيلها مندمجة مع هذا الجمال الأنثوي الذي طالما أحببته كثيرًا وأتذكره جيدًا، مما أضفى نعومة على الحكاية بأسرها. يظهر أنه من المحتمل جدًّا أن هذه الفكرة كانت عالقة في ذهني منذ فترة طويلة، ثم ترعرع العزم داخلي بشكل تدريجي.

لم أكن أعرف مكان إقامة الآنسة بيتسي، لذلك فإنني كتبت رسالة طويلة إلى بيجوتي، ثم سألتها فيها مصادفةً عما إذا كانت تتذكر مكانها. تظاهرت بأنني سمعت عن سيدة تعيش في مكان معين، وقد أطلقت اسمًا عشوائيًّا لمكان، وأن الفضول يدفعني لمعرفة ما إذا كان هو نفسه المكان الذي تسكن فيه عمتي أم لا. أخبرت بيجوتي في سياق هذه الرسالة أن لديَّ مناسبة خاصة، وأنني سأحتاج إلى نصف جنيه، وأنني سأكون ممتنًّا لها للغاية إذا استطاعت إقراضي هذا المبلغ إلى حين أتمكن من سداده، وأنني سأخبرها بعد ذلك عن سبب احتياجي لهذا المبلغ.

وصلت إجابة بيجوتي سريعًا، وكانت كعادتها، مُحمَّلة بكل معاني الإخلاص والتفاني والحب. لقد أرفقت نصف جنيه - أخشى أنها

واجهت صعوبات جمة لإخراج هذه النقود من صندوق السيد باركس - ثم أخبرتني أن الآنسة بيتسي تعيش بالقرب من دوفر، ولكنها لا تعرف يقينًا إن كانت تسكن في دوفر نفسها، أم في هايث، أو ساندجيت، أو فولكستون. أبلغني أحد رجالنا العاملين بعد سؤالي عن هذه الأماكن، أنها جميعًا كل منها يجاور الآخر، واعتبرت هذه الإجابة كافية، ثم عقدت العزم على الانطلاق في نهاية ذلك الأسبوع.

كنت مخلوقًا صغيرًا للغاية تربى على الأمانة، ولا أرغب في أن أترك ذكرى سيئة ورائي بعد أن أرحل عن متجر مردستون وجرينبي، لذلك فقد اعتبرت نفسي ملزمًا بالبقاء حتى ليلة السبت، ولأنني تلقيت أجر أسبوع مقدمًا عندما أتيت إلى هناك لأول مرة، فلن أتوجه إلى مكتب الحسابات في الموعد المحدد لتلقي راتبي. كان هذا السبب الصريح هو ما دفعني إلى اقتراض نصف جنيه، حتى لا أصير بلا نقود تعينني على نفقات سفري. حلت ليلة السبت، وكنا جميعًا ننتظر في المستودع حتى يتم دفع الأجور، وقد أقبل تيب سائق العربة، والذي كانت له الأسبقية دائمًا في الحضور. ذهب تيب أولًا لاستلام راتبه. أما أنا فأخذت بيد مك ووكر، وطلبت منه أن يبلغ السيد كوينون عندما يحين دوره في أخذ أجره، أنني قد ذهبت لنقل متاعي إلى غرفة تيب، ثم ودَّعت ميلي الذي يشبه البطاطس المغبرة بالدقيق وداعًا أخيرًا، وانطلقت هاربًا.

كان صندوق أمتعتي في مسكني القديم المشرف على النهر، وقد ألصقت توجيهًا له على ظهر إحدى بطاقات العناوين الخاصة بنا، والتي كنا نُثبتها على البراميل، فكتبت: «خاص بالسيد ديفيد، يُترك حتى يتم

طلبه في مكتب المدرب دوفر». كانت هذه البطاقة في جيبي، وقد جهزتها للصق على الصندوق بعد أن أخرجته من المنزل، وبينما كنت أسير نحو مسكني، رحت أبحث عن شخص يساعدني في نقله إلى مكتب البريد.

رأيت شابًّا طويل الساقين يجر عربة بحمار فارغة تمامًا من أي حمولة، ويقف بالقرب من المسلة في طريق بلاكفرايرز. لمحته بينما أمضي أمامه في طريقي، وقد راح ينعتني قائلًا: «يا ستة بنسات مزورة»[1]، ثم راح يتوعدني قائلًا: «يجب أن أتعرف عليه قبل أن أُدلي بالقَسم»[2]، في إشارة إلى التحديق فيه من دون أدنى شك. توقفت لأؤكد له أنني لم أفعل ذلك لسوء أدب، بل لأنني غير متأكد ما إذا كان سيرغب في الحصول على عمل مؤقت أم لا.

قال الشاب طويل الساقين: «أهو عمل جيد؟».

أجبته: «إن المهمة هي نقل صندوق».

قال الشاب طويل الساقين: «أي صندوق؟».

أخبرته بأنه صندوق يخصني، وأنه موجود في هذا الشارع، وأنني أردت أن ينقله إلى مكتب حافلات دوفر مقابل ستة بنسات.

قال الشاب طويل الساقين: «اتفاق مقبول»، ثم صعد مباشرة إلى عربته، التي لم تكن سوى صينية خشبية كبيرة مرتكزة إلى عجلات، وقد

---

(١) يضرب المثل بشيء لا يمكن التخلص منه.

(٢) عبارة تشير إلى تقليد قديم شائع، وهو ضرورة تحديق المرء والتعرف على خصمه أو نصيره، قبل القسم على صحة أقواله في قضية ما في المحاكم القديمة.

راحت تهتز حين انطلق مسرعًا، لدرجة أنني بذلت جهدًا شاقًّا لمواكبة الحمار.

لم تعجبني طريقة هذا الشاب التي لا تخلو من التحدي، وخاصة الطريقة التي يمضغ بها القش بينما يتحدث إليَّ. اصطحبته بعد إبرام الصفقة إلى الطابق العلوي حيث الغرفة التي سأغادرها، وأنزلنا الصندوق ووضعناه على عربته. لم أرغب في هذه اللحظة في لصق بطاقة التوجيه على الصندوق، خشية أن يفهم أي من أفراد عائلة المالك ما أنتوي فعله، فيمنعني من المغادرة، لذلك فإنني طلبت من الشاب التكرم للوقوف لمدة دقيقة، بعدما يصل إلى الجدار الخلفي من سجن حجز الملك. لم تكد الكلمات تخرج من فمي، حتى هرول مسرعًا كما لو أنه وصندوقي والعربة والحمار جميعهم يحملون مقدارًا متساويًا من الغضب، إلى أن انقطعت أنفاسي تمامًا مع الجري بعده ومناداته، حتى لحقت به في المكان المحدد.

أُنهكت بشدة، حتى إنني أسقطت من جيبي نصف جنيه بينما أخرج البطاقة. التقطته ثم وضعته بين شفتي من أجل الحفاظ عليه، وعلى الرغم من ارتجافة يدي، فإنني ثبت البطاقة على الصندوق بإحكام. شعرت بعدها بضربة من الشاب طويل الساقين تحت ذقني، ورأيت نصف الجنيه يطير من فمي إلى يده.

قال الشاب: «ما هذا؟!». ثم أمسك بي من ياقة سترتي مبتسمًا ابتسامة مخيفة قائلًا: «هذا أمر تفصل فيه الشرطة، أليس كذلك؟ إنك تتهرب من السجن، أليس كذلك؟ تعالَ معي أيها الشاب اللعين إلى

مركز الشرطة، هيا تعالَ إلى مركز الشرطة».

قلت بينما تملكني الخوف: «فلتُعد إليَّ أموالي، إذا سمحت، ثم اتركني وشأني».

قال الشاب: «تعالَ إلى الشرطة، يجب أن تثبت أنها ملكك أمام مركز الشرطة».

صرخت وأنا غارق في البكاء: «هلا أعطيتني صندوقي ومالي من فضلك».

إلا أن الشاب ظل يردد: «تعالَ إلى مركز الشرطة». وأخذ يسحبني نحو الحمار في عنف، كما لو أن ثمة قرابة بين ذلك الحيوان والقاضي، ثم ما لبث أن غير موقفه، فقفز إلى العربة، ثم جلس فوق صندوق أمتعتي، أخذ يصيح قائلًا إنه سيتوجه بعربته إلى الشرطة مباشرة، وهرول مسرعًا أكثر من أي وقت مضى.

ركضت خلفه بأقصى سرعتي، لكن أنفاسي المقطوعة لم تسعفني للصراخ أو لمناداته، ولم أكن لأتجرأ على الصراخ في هذه اللحظة، حتى لو استطعت ذلك. لقد نجوت بأعجوبة من التعرض للدهس لأكثر من عشرين مرة على الأقل، حين ركضت لمسافة نصف ميل تقريبًا. لم أستطع رؤيته في هذه اللحظات، إلى أن أبصرته من جديد، ثم اختفى عن ناظري مرة أخرى حتى فاجأني لهيب السوط. أخذ يصرخ فيَّ في هذه اللحظة، وإذا بي منطرح في الوحل تارة، أو ملقى بين يدي أحد الأشخاص مرة، أو هارب متخبط في مكان ما تارة أخرى. تملكني اليأس والإعياء في النهاية، وحسبت أن نصف سكان لندن قد أقبلوا

للقبض عليَّ وإرهابي بحلول هذا الوقت، فتركت الشاب يرحل إلى حيث يريد مع صندوقي وأموالي، ورحت ألهث وأنتحب باكيًا، من دون أن أتوقف عن المسير نحو جرينتش التي عرفت أنها كانت تقع على طريق دوفر. لم أنل من هذا العالم سوى القليل، بل لقد تجاوزت ما أحست به عمتي الآنسة بيتسي من يأس في الليلة التي علمت فيها بقدومي إلى هذه الحياة، بكثير من الاستياء.



الفصل الثالث عشر

عاقبة قراري

أدركت شيئًا ما، وربما دفعني إلى فكرة جامحة مفادها الركض طوال الطريق وصولًا إلى دوفر، بعدما يأست من ملاحقة الشاب صاحب العربة وحمارها، ومن ثَم بدأت في طريقي نحو جرينتش. استجمعت حواسي المشتتة سريعًا بعد التفكير في هذه النقطة التي تملكتني، فإذا بي أقف عند طريق كينت، عند مشارف رقعة من الماء تمتد أمامي، يتوسطها تمثال كبير ينفخ في صدفة جافة. جلست هنا على عتبة بابي، بعد أن تعبت تمامًا وتملكني الإنهاك من جراء الجهود التي بذلتها، لا أكاد ألفظ أنفاسي فلا أستطيع أن أبكي على فقدان صندوقي ونصف الجنيه الذي حُزته.

حلَّ الظلام. سمعت دقات الساعة تعلن حلول العاشرة، بينما جلست مستريحًا. كانت ليلة صيفية لحسن الحظ، وقد صار الطقس جميلًا بحلول الظلام. استعدت أنفاسي وتخلصت من الشعور بغصة في حلقي، ثم نهضت لأمضي قدمًا في طريقي. لم تراودني أدنى فكرة عن العودة في خضم محنتي. أكاد أجزم أن أيًّا من هذه الأفكار لم تراودني، على الرغم من العاصفة الثلجية التي تشبه عواصف سويسرا التي لفتني في طريقي إلى كينت.

لم أملك من متاع العالم سوى ثلاثة بنسات - وإنني على يقين أنني رحت أتساءل في وقفتي هذه كيف بقيت في جيبي منذ ليلة السبت! - أما ما زاد من دهشتي هو أنني واصلت ما اعتزمته من أمري. رحت أتخيل نفسي، وقد أمسيت خبرًا من أخبار الصحف، وأنني قد وُجِدت ميتًا بعد يوم أو يومين تحت سياج من أشجار. مشيت وقد تملكني اليأس، على الرغم من أنني رحت أسرع من خطواتي بكل ما أوتيت من قوة، إلى أن مررت بمتجر صغير، وقد كتب عليه أنه على استعداد لشراء ملابس السيدات والسادة وتقديم أفضل سعر للخزف والعظام وأدوات المطبخ وغيرها من الأشياء. كان صاحب هذا المحل جالسًا عند الباب يرتدي قميصًا ذا أكمام قصيرة، وقد أخذ يدخن. لاح لعيني الكثير من المعاطف والسراويل المتدلية من السقف المنخفض، ولم تظهر لي سوى شمعتين ضعيفتين تنيران داخل المتجر حتى تُظهرا ما بداخله. تخيلت صاحب المتجر كما لو أنه رجل ذو نزعة انتقامية، قد فرغ من أعدائه جميعًا ثم علقهم أمامه، وقد أخذ يستمتع بوقته بعد ذلك.

كانت تجربتي الأخيرة مع السيد ميكوبر والسيدة زوجته قد ألهمتني طريقة ربما تحميني شر الذئب لفترة قصيرة. توجهت إلى شارع مجاور وخلعت صدريتي، ثم لففتها بإحكام تحت ذراعي، وعدت بها حيث باب المتجر.

قلت: «إذا سمحت يا سيدي، إنني أرغب في بيع هذه بسعر مناسب».

أخذ السيد دولوبي الصدرية - كان اسم دولوبي مكتوبًا على باب

المتجر بشكل لافت، ثم أزاح غليونه نحو رأسه عند عمود الباب، وتوجه إلى داخل المتجر بينما تبعته. قرب إليه الشمعتين بأصابعه، ثم بسط الصدرية على المنضدة، وأخذ يتفحصها في مقابل الضوء، وأخذ يُقلِّب فيها هناك، وفي النهاية راح يقول:

«أي سعر تريده الآن، مقابل هذه الصدرية الصغيرة؟».

أجبته في تواضع قائلًا: «آهٍ! إنك أعلم يا سيدي».

قال السيد دولوبي: «لا يمكنني أن أكون مشتريًا وبائعًا أيضًا. ضع سعرًا مقابل هذه الصدرية الصغيرة».

أجبته بعد بعض التردد قائلًا: «هل سيكون ثمنها ثمانية عشر بنسًا؟».

قام السيد دولوبي بلفها مرة أخرى، ثم أعادها إليَّ قائلًا: «يجب أن أسرق عائلتي إذا عرضت عليك تسعة بنسات في مقابلها».

كانت هذه الطريقة غير مُرضية لإتمام الأمر، لأنها تفرض عليَّ – أنا الغريب هنا – ألا أرضى أن يسرق السيد دولوبي عائلته على حسابي. كانت ظروفي ملحة للغاية، مما اضطرني للاستفادة من ذلك، فقلت إنني أوافق على ذلك. أعارني السيد دولوبي البنسات التسعة من دون أن يخلو وجهه من بعض التذمر. تمنيت له ليلة سعيدة، ثم خرجت من المتجر أكثر ثراءً بعد أن حزت هذا المبلغ، ولكنني صرت بلا صدرية تحميني، إلا أنني رحت أحكم أزرار معطفي، فلم أشعر بفقدان الكثير. في الواقع، لقد توقعت أنني سأبيع معطفي بعد ذلك، وأنه يجب عليَّ أن أبذل قصارى جهدي للوصول إلى دوفر مرتديًا قميصًا وبنطالًا، وقد أعتبر نفسي محظوظًا إذا وصلت إلى هذا المكان محافظًا على ملابسي. لم ينشغل عقلي كثيرًا بهذا الأمر كما

كان يُفترض. لم تراودني أي مشاعر بعد أن أزحت عن عقلي التفكير في المسافة المتبقية أمامي، وما حدث من هذا الشاب صاحب العربة والحمار والذي آلمني بقسوة، بل رحت أُنحِّي كل الصعوبات التي واجهتني جانبًا، ثم انطلقت مرة أخرى وفي جيبي تسعة بنسات.

خطرت لي فكرة لقضاء الليلة، وقد قررت تنفيذها. كانت هذه الفكرة هي أن أرقد بجانب الحائط الخلفي لمدرستي القديمة، فأستكين في ركن حيث كومة قش هناك. حسبت أن هذه الفكرة ستمنحني شعورًا بالصحبة حيث أصير بالقرب من الأولاد، فآنس بالقرب من غرفة النوم حيث رحت أروي القصص، على الرغم من أن الأولاد لن يعرفوا شيئًا عن وجودي هناك، ولن توفر لي ذكريات غرفة النوم أي مأوى.

كان يومي شاقًّا، وقد صرت في غاية التعب، إلى أن وصلت أخيرًا إلى مرتفع بلاكهيث. تكبدت المشقة للعثور على مدرسة سالم هاوس، إلا أنني وجدتها في النهاية، ووجدت كومة قش في الزاوية، فاستلقيت بجانبها بعد أن أخذت جولة حول الحائط أولًا، ورحت أنظر إلى النوافذ، فوجدت أن كل شيء مظلم وصامت من الداخل. لن أنسى أبدًا الإحساس بالوحدة الذي راودني عندما استلقيت لأول مرة من دون سقف يظلل رأسي.

استولى عليَّ النوم كما يحدث مع العديد من المشردين والمنبوذين ممن أُغلِقت أبواب المنزل في وجوههم، بينما يدوي نباح الكلاب في المنازل في تلك الليلة. حلمت أنني لم أزل مستلقيًا على سريري القديم في المدرسة، وأنني أتحدث إلى الأولاد في غرفتي، ثم أحسست بنفسي

جالسًا مستقيمًا وقد أخذ اسم ستيرفورث يتردد على شفتي، بينما أحملق في ذهول نحو النجوم التي تتلألأ وتلمع فوق رأسي. تذكرت المكان الذي كنت فيه في هذه الساعة غير الملائمة، فاستولى عليَّ شعور نبهني لأستيقظ خائفًا من شيء ما لا أدركه. تضاءل اللمعان الخافت للنجوم، وراح الضوء الباهت الذي يلوح في السماء يعلن عن قدوم النهار فطمأنني. استلقيت مرة أخرى بعد أن أثقل النعاس عيني، وغصت في نوم مرة أخرى - على الرغم من إدراكي لبرودة الجو في أثناء نومي - حتى أيقظتني أشعة الشمس الدافئة، ورنين جرس الاستيقاظ في مدرسة سالم هاوس. وكم كنت أتمنى أن يكون ستيرفورث في المدرسة، كنت لأتوارى حتى يخرج بمفرده، إلا أنني أعرف أنه قد غادر منذ فترة طويلة. ربما ظل ترادلز بالمدرسة، ولكنني لم أكن على يقين من الأمر، ولم أكن واثقًا بما فيه الكفاية في حسن تقديره أو حسن حظه، ولذلك لم أستطع أن أثق به في الإفصاح عن وضعي هذا، مهما كان اعتمادي على فطرته الطيبة. تسللت بعيدًا عن الحائط بعدما بدأ أولاد مدرسة السيد كريكل يستيقظون. انطلقت نحو الطريق الطويل الترابي الذي عرفت من قبل أنه الطريق إلى دوفر، حين كنت واحدًا من أولاد هذه المدرسة، وعندما لم أكن أتوقع أن أيًا من الأعين ستراقبني بينما أسير في دربي هائمًا كما هي الحال التي أنا عليها الآن.

يا له من صباح مختلف عن صباحات أيام الآحاد القديمة في يارموث! سمعت دقات أجراس الكنيسة تدق في وقتها بينما أسير على وتيرتها ونغماتها، وقد التقيت بأناس في طريقهم للذهاب إلى الكنيسة، ثم مررت بكنيسة أو اثنتين حيث كان المصلون يتضرعون بالداخل، وقد

علت أصوات الترانيم مجلجلة في ضوء الشمس، بينما جلس الشَّماس يطلب دفء الشمس تحت ظل السقيفة، أو وقف تحت ظلال شجرة السدر، مسندًا يده إلى جبينه بينما يحدق في وجهي. كان هذا الهدوء الذي يغمر صباحات الأحد القديم يشمل كل شيء سواي، وكان هذا هو الفارق بيني والناس. شعرت أنني أبدو ملحفًا بالشر والأوساخ والغبار، بينما ألوح بشعري الأشعث الأغبر. إلا أنني استحضرت صورة هادئة لأمي في شبابها وجمالها، بينما تبكي عند نار المدفأة بينما تلين عمتي أمامها. أحسب أنني كنت بالكاد أمتلك الشجاعة للاستمرار في المسير حتى اليوم التالي، إلا أن صورة أمي ظلت تلوح أمامي دائمًا فأتبعها سيرًا.

قطعت في يوم الأحد مسافة ثلاثة وعشرين ميلًا في هذا الطريق المستقيم، وإن لم يكن ذلك سهلًا، لأنني لم أكن لأجيد هذا النوع من الكدح والعناء في المسير. أتذكر نفسي مع اقتراب المساء، قادمًا عبر الجسر في روتشستر، قريح القدمين ومنهكًا، بينما أتناول الخبز الذي اشتريته للعشاء. لقد أغراني نزل أو نزلان صغيران في الطريق وقد علق عليهما «مساكن للمسافرين»، لكنني كنت خائفًا من إنفاق البنسات القليلة التي أملكها، وكنت أكثر خوفًا من نظرات العابرين القاسية من الذين قابلتهم أو تجاوزتهم في طريقي. فلم أطلب ملجأ سوى السماء. عانيت حتى وصولي إلى تشاتام، والتي لم أحسبها في تلك الليلة سوى حلم مرسوم بالطباشير فتلوح لي الجسور المتحركة والسفن الخالية من الصواري منتصبة في نهر موحل، ومسقوفة مثل سفن نوح. تسللت في النهاية نحو هضبة مزروعة بالأعشاب ممتدة عبر ممر منبسط، يسير

أمامها حارس ذهابًا وإيابًا. استلقيت هناك بالقرب من وحدة مدفعية، بينما آنست لخطى ذلك الحارس على الرغم من أنه لم يعرف عن وجودي كما لم يعرف الأولاد في مدرسة سالم هاوس عن نومي بجوار الحائط، لذلك فقد رحت في سبات عميق حتى مطلع الصباح.

استيقظت في الصباح متيبس الجسد وقد شعرت ألمًا في قدمي، كما صرت في غاية الذهول حين سمعت قرع الطبول وخطى سير الجنود على وقعها، والتي بدت وكأنها تحيطني من كل جانب بعدما هبطت متجهًا نحو الممر الضيق الطويل. شعرت أنني لن أتمكن من المسير إلا لمسافة قصيرة جدًّا في ذلك اليوم، إذا أردت أن أحتفظ بقوتي حتى أستطيع المواصلة إلى نهاية رحلتي. عقدت العزم على بيع صدريتي، وصار هذا هو العمل الرئيسي الذي يشغلني. وبناءً على قراري هذا، فقد خلعت معطفي، حتى أعتاد الاستغناء عنه، وتأبطته تحت ذراعي، ثم بدأت في جولة تفقدية لمختلف متاجر الملابس المستعملة.

توصلت إلى مكان محتمل لبيع معطفي، فقد كان تجار الملابس المستعملة كثيرين، وكانوا يبحثون بشكل عام عن الزبائن عند أبواب متاجرهم. إلا أن معظمهم كان يعلق بضاعته التي كانت بين معطف لضابط أو معطفين أو كتافة عسكرية أو أي شيء من هذا القبيل. كنت خجلًا من الطبيعة المبالغة في معاملاتهم، ولذلك فقد سرت أتفقد المتاجر لفترة طويلة من دون أن أعرض بضاعتي على أي منها.

استرعى هذا التواضع انتباهي إلى بعض المتاجر التجارية الخاصة ببيع الملابس البحرية، فقد كانت متاجر تشبه متجر السيد دولوبي،

وتختلف عن التجار العاديين. عثرت أخيرًا على متجر مناسب، حيث ظننت أنه يبدو واعدًا بالخير. كان المتجر في زاوية ممر متسخ، ينتهي بسور مليء بالأشواك والحشائش ذات الرائحة الكريهة، تنتشر على حوافها ملابس بعض البحارة المستعملة التي تبدو أنها قد فاقت سعة المتجر. رفرفت الملابس بين بعض أسرة الأطفال، والبنادق الصدئة، والقبعات المصنوعة من الجلد الزيتي، وبعض الصواني المليئة بالعديد من المفاتيح القديمة الصدئة ذات الأحجام المتعددة، حتى إنها بدت متنوعة بما يكفي لفتح جميع الأبواب في هذا العالم.

كان هذا المتجر صغيرًا ومنخفضًا في مستواه عن الأرض، كما كان مظلمًا بدلًا من أن تضيئه نافذة صغيرة، مليئًا بالملابس. نزلت إليه ببعض الخطوات، ودخلت إليه بقلب ينبض من الخوف. لم تهدأ نبضات قلبي حتى بعد أن خرج إليَّ من عرين قذر رجل عجوز قبيح المظهر، كان الجزء السفلي من وجهه قد اكتسى بالكامل بلحية رمادية كثيفة، وقد أمسك بشعر رأسي. كان رجلًا عجوزًا مخيفًا للناظرين، يرتدي صدرية قطنية قذرة، وتفوح منه رائحة خمر كريهة. أما سريره الذي لاح في جوف هذا العرين الذي جاء منه، فقد كان مغطى بقطعة ممزقة بالية من القماش المرقع، كما أظهرت لي نافذة أخرى صغيرة احتمالية وجود المزيد من الأشواك والحشائش كريهة الرائحة، وحمار أعرج.

ابتسم هذا الرجل العجوز ابتسامة عريضة، وراح يقول في أنين رتيب يشبه العواء: «آهٍ، ماذا تريد؟ آهٍ يا عيني وآه يا أطرافي، ماذا تريد؟ آهٍ يا رئتي ويا كبدي؛ ماذا تريد؟ آهٍ يا جورو، آهٍ يا جورو!».

شعرت بفزع شديد من هذه الكلمات، ولا سيما من تكرار آخر كلمة والتي لم أكن أفهم معناها، والتي كانت تشبه نوعًا من الخشخشة في حلقه، حتى إنني لم أستطع الإجابة عن سؤاله. كرَّر الرجل العجوز سؤاله، بينما لم يزل ممسكًا بشعري:

«آهٍ، ماذا تريد؟ آهٍ يا عيني وآه يا أطرافي، ماذا تريد؟ آهٍ يا رئتي ويا كبدي، ماذا تريد؟ آهٍ يا جورو!». أخرج هذه الكلمات من فمه مكرهًا، وقد تكلف الكلام حتى لاحت عيناه على وشك الخروج من رأسه.

قلت مرتجفًا: «أردت أن أعرف هل ترغب في شراء معطف؟».

صرخ الرجل العجوز قائلًا: «آهٍ، لنرَ المعطف! آهٍ، يا قلبي المتقد، أَرِني المعطف. آهٍ، يا عيني ويا أطرافي، هيا أرني المعطف».

أزاح عن شعري يديه المرتعشتين الشبيهتين بمخالب ضخمة لطائر، ورفع إليه نظارته، من دون أن تزين عينيه المتورمتين أو تحجبهما على الإطلاق.

صاح الرجل العجوز بعد فحصه للمعطف: «آهٍ، كم ثمن المعطف؟ آهٍ يا جورو! كم ثمن المعطف؟».

أجبت بينما أتمالك نفسي: «هل يساوي نصف كروان؟».

صاح الرجل العجوز: «آهٍ، يا رئتي ويا كبدي، لا. آهٍ، يا عيني، لا. آهٍ، يا أطرافي، لا. لا يساوي سوى ثمانية عشر بنسًا. يا جورو!».

كادت عيناه تبدوان في خطر، فما إن يبدأ كل مرة في النطق بهذه التأوهات حتى توشكان على الانفلات من مكانهما. كان يقول كل

جملة على وتيرة واحدة، يرددها دائمًا بالأسلوب نفسه تمامًا، وكانت كلماته أشبه بعاصفة من الرياح؛ تبدأ منخفضة، ثم ما تلبث أن تتصاعد عالية، إلى أن تنخفض مرة أخرى، وهذا تشبيه أدق من أي صورة أخرى أستطيع أن أتذكرها.

قلت: «حسنًا، إنني سعيد لإتمام الصفقة، سآخذ في مقابله ثمانية عشر بنسًا».

صرخ الرجل العجوز بينما يطوح بالمعطف على الرف: «آهٍ، يا كبدي. هيا اخرج من المتجر. آهٍ يا رئتي، اخرج من المتجر. آهٍ، يا عيني ويا أطرافي، آه جورو! لا تطلب المال؛ فلتجعل الصفقة مقايضة». لم أشعر بالخوف مطلقًا في حياتي كما أحسسته في هذه اللحظة، إلا أنني أخبرته بتوسل أنني أريد المال، وأنه لا شيء سواه سيفيدني، وأنني سأنتظره إلى ما يشاء في الخارج، وأنني لا أرغب في حثه على الاستعجال، ثم خرجت وجلست في الظل في الزاوية. جلست هناك لساعات طويلة، إلى أن أزاح ضوء الشمس الظل الذي يلفني، ثم استحال ضوء الشمس ظلًّا مرة أخرى، وما زلت جالسًا هناك في انتظار المال.

آمل ألا يعمل في هذا المجال يومًا رجل مجنون أو مخمور مثل هذا النوع من الرجال. لقد عرفت أنه مشهور بين أهل الحي، وأنه يتمتع بسمعة سيئة، وأنه قد باع نفسه للشيطان. أدركت سريعًا من الصبية الذين ترددوا عليه، والذين راحوا يناوشونه باستمرار صارخين حول المتجر، وقد راحوا يصيحون فاضحين حكايته، داعين إياه ليُخرِج ما اكتنزه، قائلين: «إنك لست فقيرًا كما تتظاهر يا شارلي، وإنك تدرك الحقيقة.

أخرج الذهب الذي تكنزه. أخرج بعض الذهب الذي بعت نفسك للشيطان من أجله. هيا، إن كنزك في بطانة المرتبة يا شارلي. افتحها ودعنا نحصل على بعض منه». هذا بالإضافة إلى العديد من العروض لإعارته سكينًا للاستعانة بها في هذا الغرض. أثاروا غضبه، وصار اليوم بأكمله سلسلة من ملاحقاته لهؤلاء الصبية، وهروبهم من أمامه. كان يحسبني أحيانًا من شدة غيظه واحدًا منهم، ثم يأتي إليَّ فيتكلم متوعدًا كما لو أنه سيمزقني إربًا، ثم يتذكرني في الوقت المناسب، فيغوص في المتجر ويستلقي على سريره - هذا ما أحسبه من الصوت الذي يصدره بينما يصرخ بطريقة محمومة، على وتيرة لحنه الأشبه بالعواصف، بينما يدندن بأغنية «موت نيلسون»[١]، وقد مزج كلماتها بتأوه قبل كل سطر، وخللها بقوله «جورو» بعدد لا حصر له من المرات. وكما لو أن ما جرى لي من سوء لم يكن كافيًا، فقد أخذ الصبية يشكون في أمري وعلاقتي بالمتجر، بسبب صبري ومثابرتي على الجلوس بالخارج بينما أنا نصف عارٍ. راحوا يرشقونني بالحجارة، وأخذوا يسيئون إليَّ طوال النهار.

تكررت محاولات الرجل كثيرًا لحثي على الموافقة على المقايضة، فراح يخرج تارة بصنارة صيد، وأخرى بآلة كمان، وفي مرة جديدة يخرج بحوزته قبعة مصبوبة، ثم مزمار في مرة أخرى. إلا أنني رفضت كل هذه العروض، وجلست محاطًا باليأس. رحت أسأله في كل مرة والدموع تملأ عيني، عن أموالي أو معطفي. بدأ يدفع لي في النهاية نصف بنس

---

(١) أغنية عن بطل البحرية البريطانية الأدميرال اللورد نيلسون، الذي انتصر على الفرنسيين والإسبان في اليوم نفسه الذي مات فيه برصاص الفرنسيين عام ١٨٠٥م.

في المرة الواحدة، إلى أن وصلت على مدار ساعتين كاملتين إلى شلن واحد.

أخذ يصرخ، بعدما أطل من المتجر في هيئة بشعة للعيان بعد فترة انقطاع طويلة، قائلا: «آهٍ، يا عيني ويا أطرافي. هل تأخذ بنسين إضافيين وتذهب من هنا؟».

قلت: «لا أستطيع. إنني سوف أتضور جوعًا».

قال: «آهٍ، يا رئتي ويا كبدي، هل ستذهب إذا أخذت ثلاثة بنسات؟».

قلت: «سأرحل عنك من دون مقابل إن كان الأمر بإمكاني، إلا أنني في حاجة ماسة إلى المال».

«آهٍ، يا جورو!» (من المستحيل حقًّا التعبير عن كيفية لفظه لهذه الكلمات من بين أنفاسه، بينما كان يحدِّق فيَّ من خلال درفة الباب، من دون أن يظهر أي شيء سوى رأسه العجوز الماكر). سأل: «هل ستذهب إن أعطيتك أربعة بنسات؟».

صرت واهنًا ومتعبًا إلى الحد الذي دفعني إلى قبول هذا العرض، فأخذت المال من مخلبه من دون أن أكف عن الارتجاف، ثم رحلت عنه جائعًا وعطشًا أكثر مما كنت في أي وقت مضى. كنت قد رحلت عنه قبل غروب الشمس بقليل، إلا أنني أنفقت نحو ثلاثة بنسات، وسرعان ما أنعشت نفسي تمامًا، وصرت في حالة معنوية أفضل بعد ذلك، مما دفعني للمسير لسبعة أميال نحو طريقي.

كان سريري كومة قش أخرى افترشتها حين جنَّ عليَّ الليل، حيث نعمت بالراحة، بعد أن غسلت قدمي المتقرحتين في ماء أحد الجداول، ثم ضمدتهما بقدر ما استطعت ببعض من الأوراق الرطبة. سلكت طريقي مرة أخرى في صباح اليوم التالي، فوجدته ممتدًّا عبر سلسلة من حدائق تكتسي بحشيشة الدينار وتعم بالبساتين. كنا في وقت متأخر من العام إلى الحد الذي يسمح بأن تبدو البساتين ملونة مع نضوج التفاح على الأغصان، وقد تناثر بعض العمال في أماكن قليلة وأخذوا يجمعون الثمار بالفعل. تراءى لي كل شيء جميلًا للغاية، وقررت أن أنام بين رقع الحشائش في تلك الليلة، بينما رحت أتخيل رفقة مبتهجة تحاوطني بين أفرع الحشائش الطويلة ممتزجة بالأوراق الرشيقة المتراصة من حولها.

لاح المتشردون في ذاك اليوم أسوأ حالًا من أي وقت مضى، فألقوا في قلبي فزعًا لم يزل حاضرًا في ذهني. كان بعضهم من أشرس الناس شرًّا، وقد راحوا يحدقون بي كلما مررت بهم، بل أخذوا يتوقفون أحيانًا لمناداتي ومطالبتي بالعودة إليهم والحديث معهم، وحين تراجعت خطوات عن طريقي راحوا يرجمونني بالحجارة. أتذكر صبيًّا شابًّا -يعمل سمكريًّا متجولًا في أغلب الظن، فقد استنبطت ذلك من حقيبته وموقده النحاسي- وكان بصحبة امرأة، وقد واجهني وأخذ يحدق في وجهي، ثم زأر بصوت أجشّ مناديًا عليَّ ومطالبًا بأن أعود إليه. فإذا بي أتوقف وأتلفت حولي.

قال السمكري: «تعالَ إلى هنا، أقبِل حين تُنادى، وإلا سأشق جسدك الشاب يا هذا».

رأيت أنه من الأفضل أن أعود إليه. اقتربت منهما، في محاولة لإرضاء السمكري ببعض من نظرات الاستعطاف، وقد لاحظت أن المرأة ذات عين سوداء.

سألني السمكري ممسكًا صدر قميصي بيده الملطخة بالسواد: «إلى أين تتجه؟».

قلت: «إنني ذاهب إلى دوفر».

سأل السمكري، بينما يعتصر بيده مكانًا آخر من قميصي، حتى يحكم قبضته أكثر: «من أين أتيت؟».

قلت: «لقد جئت من لندن».

سأل السمكري: «أي شيء تتستر عليه؟ هل أنت لص؟».

قلت: «ل... لا».

قال السمكري: «ألستَ لصًّا، أقسمت بالـ...؟ إذا تباهيت بصدقك معي، فسوف أهشم رأسك».

هدد بضربي بيده الأخرى الحرة، ثم أخذ يحملق فيَّ من رأسي إلى أخمصي قدمي.

قال السمكري: «هل تملك ثمن نصف لتر من البيرة؟ إن كان معك فلتخرج نقودك قبل أن أخرجها أنا».

كان يجب أن أخرج نقودي بالتأكيد، إلا أنني تلفت إلى وجه المرأة، فرأيتها تهز رأسها قليلًا، وتشير بشفتيها سمات كلمة «لا!».

قلت محاولًا الابتسام: «إنني فقير جدًّا، ولا أملك مالًا».

راح السمكري ينظر إليَّ متوعدًا، حتى إنني خشيت من أن يفتش جيبي بحثًا عن النقود، وراح يسأل: «ماذا تقول، ماذا تقصد؟».

تلعثمت قائلًا: «يا سيدي».

قال السمكري: «ماذا تقصد بارتداء منديل أخي الحريري؟! هيا أعطني إياه»، ثم أزاحه عن رقبتي في لحظة، وألقاه إلى المرأة.

انفجرت المرأة في نوبة من الضحك، كما لو أنها تحسب أن ما يحدث مزحة، ثم أعادت المنديل إليَّ مرة أخرى، ثم أومأت برأسها مرة أخرى، كما حدث من قبل، وحركت شفتيها بكلمة «انطلق»، ولكن قبل أن أطيع كلمتها، جذب السمكري المنديل من يدي في خشونة ثم أزاحني بعيدًا مثل ريشة طائرة، ولفه بشكل غير محكم حول رقبته، وانقلب نحو المرأة لاعنًا ثم طرحها أرضًا. لن أنسى أبدًا رؤيتها تسقط إلى الوراء نحو الطريق الوعرة، حيث استلقت في مكانها وقد انزاحت قبعتها فكشفت عن شعرها الذي تخضب كله بالتراب. ولن أنسى أنني حين ابتعدت ثم التفت ورائي، رأيتها جالسة على رصيف الطريق، تمسح الدم من وجهها بطرف شالها، بينما يمضي السمكري في طريقه قدمًا.

لقد أخافتني هذه الوقائع، حتى إنني صرت بعدها أرى أيًّا ممن على شاكلة هؤلاء الأشخاص قادمًا، أتراجع إلى الوراء حتى أجد مكانًا للاختباء، ومن ثَم أمكث فيه حتى أغيب عن الأنظار، وقد تكرر الأمر كثيرًا إلى الحد الذي أخرني لفترة طويلة. إلا أنني في ظل هذه العقبة - كما هي الحال في ظل العراقيل الأخرى التي واجهتني في رحلتي - قد بدا لي أنني مثابر وماضٍ نحو هدفي مسترشدًا بصورتي الخيالية

التي رسمتها لأمي في شبابها قبل مجيئي إلى هذا العالم. ظلت صورتها ترافقني دومًا؛ تلبث أمامي بين قفزات الحقول، وحين أستلقي للنوم، كما كانت ترافقني حين يقظتي في الصباح. لقد مكثت أمام ناظري على مدار اليوم. لقد ربطت منذ ذلك الحين بين هذه الصورة وشارع كانتربري المشمس، كما لو كان غائمًا يحجب الأشعة الملتهبة، كما ربطت بينها ومشهد منازله المتراصة وبواباته القديمة وكاتدرائيته الرمادية الفخمة التي تحلق الطيور حول أبراجها المنتصبة. وصلت أخيرًا إلى منحدرات واسعة جرداء بالقرب من دوفر، راح الأمل حينها يخفف من وحشة المشهد. وما إن وصلت إلى الهدف الأول العظيم من رحلتي، ووضعت قدمًا في المدينة نفسها، في اليوم السادس من رحلتي، حتى تساءلت هل ستهجرني صورتها. من الغريب أن أقول، إنني بعدما وقفت بحذائي الممزق، وهيئتي المتربة، ووجهي المحترق الذي لفحته أشعة الشمس، وقد صرت نصف عارٍ، وبعد أن وطأت قدماي المكان الذي طالما رغبت فيه؛ بدا لي أن الصورة تتلاشى مثل حلم، وإذا بها تتركني عاجزًا ومحطمًا.

رحت أسأل عن عمتي بين البحارة أولًا، وإذا بي أتلقى إجابات متباينة. قال أحدهم إنها تعيش في منارة الغابة الجنوبية، وقد أحرقت شاربها بوجودها هناك[1]. قال آخر إنها صعدت إلى العوامة الكبيرة خارج الميناء، ولا يمكن زيارتها إلا بعد انحسار المد. أما الثالث فقال

---

(١) إجابة تحمل تهكمًا، إذ يشبه البحار عمة ديفيد بالقطة التي تتسلل للمنارة حيث يجذبها الضوء المشتعل فتحرق شاربها على إثر اقترابها من النار.

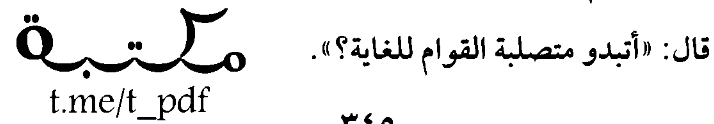
إنها سجينة في سجن «ميدستون» بعد اتهامها بسرقة الأطفال. قال رابع إنها شوهدت بينما تركب مكنسة مع حلول آخر رياح شديدة وقد توجهت نحو «كاليه». أما سائقو المركبات الذين سألتهم بعد ذلك، فقد أبدوا القدر نفسه من التهكم وعدم الاحترام. كانت إجابات أصحاب المتاجر فارغة، كما أنهم لم يعجبهم مظهري بشكل عام، ولم يستمعوا إلى قولي. شعرت ببؤس وعوز أكثر مما شعرت به في أي فترة في فترات هروبي. لقد ضاعت أموالي بالكامل، ولم يتبقَّ لديَّ شيء لأتصرف فيه؛ صرت جائعًا وعطشًا ومتعبًا، وبدا هدفي بعيد المنال، كما لو أنني لم أغادر لندن.

كاد الصباح ينقضي بينما أتحرى بهذه الاستفسارات، وقد جلست فوق درج أحد المتاجر الفارغة في زاوية شارع بالقرب من السوق، ورحت أفكر في التجول في اتجاه هذه الأماكن التي ذكرتها من قبل. مر أمامي سائق مركبة بينما كنت أتدبر أمري، وقد سقطت عنه قطعة من قماش. جذبني شيء ودود في سمات الرجل عندما ناولته ما سقط عنه، وإذا بي أتشجع فأسأله عما إذا كان بإمكانه إرشادي للمكان الذي تسكن فيه الآنسة تروتوود؛ على الرغم من أنني كنت قد طرحت هذا السؤال كثيرًا، حتى إنه كاد يموت على شفتي.

قال: «تروتوود. لنرَ؛ حقًّا إنني أعرف هذا الاسم. أهي سيدة عجوز؟».

قلت: «نعم، إنها أقرب لأن تكون عجوزًا».

قال: «أتبدو متصلبة القوام للغاية؟».



قلت: «نعم. أظن أنه من المحتمل جدًّا أن تكون بهذه الهيئة».

سألني: «هل تحمل حقيبة؟ أقصد تحمل حقيبة كبيرة قاسية، فتنزل عليك بضربة مبرحة وهي حادة الطباع؟».

اقشعر قلبي بين جوانحي بينما اعترفت بدقة هذا الوصف الذي لا شك فيه.

أخذ يشير بسوطه نحو المرتفعات قائلًا: «إذن، انتبه لما سأقوله لك. إذا صعدت إلى هناك، ثم واصلت المسير حتى تصل إلى بعض المنازل المواجهة للبحر، فإنني أظن أنك ستسمع عنها. أحسب أنها لن تمنحك أي شيء، ولذلك خذ هذا البنس».

قبلت هذه المنحة شاكرًا له كرمه، واشتريت بها رغيفًا. أكلت لأستعيد قواي في طريقي، ثم انطلقت في الاتجاه الذي أشار إليه صديقي، فسرت لمسافة طويلة من دون أن أصل إلى المنازل التي ذكرها لي، إلى أن لاح لي في النهاية بعض منها. اقتربت من هذه المنازل، ثم توجهت إلى متجر صغير (اعتدنا أن نطلق في بلدتنا على مثل هذا المتجر اسم متجر عام) ورحت أطلب التفضل عليَّ بكرمهم لإخباري عن المكان الذي تعيش فيه الآنسة تروتوود. كنت أتحدث إلى رجل يقف خلف المنضدة، وقد كان يزن أرزًا لامرأة شابة، أما الأخيرة فقد حسبت سؤالي موجهًا إليها، فاستدارت بسرعة.

قالت: «أتقصد سيدتي؟ ماذا تريد منها يا فتى؟».

أجبتها قائلًا: «أريد أن أتحدث إليها، إذا سمحت».

ردت الفتاة قائلة: «تسألها عطاءً، أهذا ما تقصده؟».

قلت: «لا، أبدًا».

إلا أنني تذكرت بغتة أنني في الحقيقة لم أتِ لأي غرض آخر، فلفني صمت خانق، وشعرت بوجهي يحترق خجلًا.

أما خادمة عمتي، التي استنبطت أنها كذلك مما قالته لي، فقد وضعت الأرز الذي ابتاعته في سلة صغيرة ثم خرجت من المتجر، بعد أن أخبرتني أنني أستطيع أن أتبعها، إذا أردت أن أعرف المكان الذي تعيش فيه الآنسة تروتوود، هكذا لم أصبح في حاجة إلى إذن ثانٍ لمتابعتها. انتابني في هذه اللحظة نوع من الخوف واضطرابات من الرهبة، حتى راحت ساقي ترتعش من تحتي بينما أتابع خطوات الخادمة الشابة، وسرعان ما وصلنا إلى بيت صغير أنيق للغاية، له نوافذ مقوسة مبهجة، وأمامه ساحة صغيرة مربعة أو هي حديقة مليئة بالورود، وقد عني بها عناية فائقة؛ ففاحت منها رائحة عطرة.

قالت الشابة: «هذه هي الآنسة تروتوود. أما الآن، فكما تعرف فقد قلت كل ما عندي».

أنهت كلماتها ثم سارعت بالدخول إلى البيت، وكأنها تتخلص من مسؤولية ظهوري هنا، فما لبثت أن تركتني واقفًا عند بوابة الحديقة، التي رحت أنظر إليها ساهمًا نحو الجزء العلوي منها باتجاه نافذة الصالون، حيث لاحت ستارة حريرية مضمومة جزئيًّا من المنتصف، تشف عن لوحة مستديرة كبيرة خضراء اللون أو تبدو مثل مروحة مثبتة عند حافة النافذة، وطاولة صغيرة، ومقعد ضخم. حسبت أن عمتي قد تكون جالسة في هذه اللحظة على هذا المقعد بزهو وجلال.

صار حذائي في هذا الوقت في حالة يرثى لها. لقد تلاشى النعل شيئًا فشيئًا، ورق الجلد العلوي حتى تفتت، ثم انفصل عن النعل وصار الحذاء بلا ملامح. أما قبعتي التي استخدمتها كغطاء ليلي أيضًا، فقد صارت مهشمة ومطبقة ومعوجة، إلى الحد الذي جعلها لا تختلف عن أي قدر قديم مكسور اليد ملقى فوق مزبلة، بل قد يخجل قدر المزبلة من التنافس معها. أما قميصي وسروالي الملطخ بالعرق والماء والعشب وأثر أكوام الأتربة التي نمت عليها، بالإضافة إلى كونهما ممزقين، فربما أخافا الطيور في حديقة عمتي فهاجرت حين وقفت عند البوابة. لم يعرف شعري أي مشط أو فرشاة منذ أن غادرت لندن. احترق وجهي وعنقي ويدي، من كثرة التعرض غير المعتاد للهواء والشمس، فصرت أقرب إلى لون التوت البني، ثم اكتسيت من رأسي إلى قدمي، بذراتٍ مطحونة من بودرة بيضاء تكونت تقريبًا من الطباشير والغبار، فبدوت كما لو أنني قد خرجت من فرن يصنع الجير. رحت في هذه المحنة، وبوعيي القوي بها، أنتظر أن أقدم نفسي لعمتي المزهوة ومن ثَم أترك انطباعي الأول بهذه الهيئة.

كان السكون الذي يُطل من نافذة الصالون قد قادني بعد فترة من الوقت إلى استنتاج أنها ليست هناك. رفعت عيني نحو النافذة التي تعلو نافذة الصالون، فإذا بي أبصر رجلًا محمر الوجه، لطيف المظهر، ذا رأس أشيب، وقد ظل يغلق أحد عينيه بطريقة غريبة، ثم أومأ برأسه أمام وجهي عدة مرات، وأخذ يشير ناحيتي كثيرًا، ثم ضحك، ثم انصرف من أمامي.

كنت مرتبكًا بما فيه الكفاية، إلا أنني صرت أكثر انزعاجًا من هذا

السلوك غير المتوقع، حتى إنني كنت على وشك أن أنسل متراجعًا، لأفكر في أفضل طريقة للمضي قدمًا في أمري، إلى أن خرجت من المنزل سيدة تربط منديلًا فوق قبعتها، تحمل بين يديها زوجًا من القفازات التي تستعمل في أعمال الزراعة، وترتدي مريلة خاصة تبدو مثل مريلة جامعي الضرائب، وتحمل سكينًا ضخمًا. عرفتها على الفور؛ إنها الآنسة بيتسي. كانت قد خرجت من المنزل في الهيئة نفسها التي وصفتها بها والدتي المسكينة في كثير من الأحيان، عندما كانت ترعى حديقتنا في عش بلندرستون.

قالت الآنسة بيتسي وهي تهز رأسها وتلوح في الهواء بسكينها: «اذهب بعيدًا، ابتعد، لا صبيان هنا».

راقبتها وقلبي يكاد يطير من بين جوانحي، بينما كانت تسير متجهة نحو زاوية من زوايا حديقتها، وتنحني لتنقب عن بعض الجذور الصغيرة. دخلت بهدوء من دون أي قدر من الشجاعة، بل بجرعة كبيرة من اليأس، ثم وقفت بجانبها، ولمستها بإصبعي.

قلت: «إذا سمحتِ يا سيدتي».

أهملتني وأشاحت بنظرها بعيدًا.

قلت: «إذا سمحتِ أيتها العمة».

هتفت الآنسة بيتسي، بنبرة من الذهول لم أسمع أي شيء يضاهيها من قبل، فقالت: «آه؟».

«إذا سمحتِ أيتها العمة، إنني ابن أخيكِ».

قالت عمتي: «آهٍ، يا ربي!»، ثم جلست منبسطة فوق ممر الحديقة.

«إنني ديفيد كوبرفيلد، من بلندرستون في سافوك، حيثما أتيتِ في الليلة التي ولدت فيها، ورأيتِ أمي العزيزة. لقد صرت مفطور الفؤاد منذ وفاتها. تعرضت للإهانة ولم أتعلم شيئًا، فحملت همي على عاتقي، ورحت أعمل في أشغال لا تناسبني، فهربت إليكِ. تعرضت للسرقة في البداية، وقطعت الطريق سيرًا على الأقدام، ولم أَنم في سرير قَطُّ منذ أن بدأت الرحلة».

حركت يدي لأبدي لها حالتي المشردة، وأسترعي انتباهها فأشهدها أنني عانيت من كل شيء. انفجرت في بكاء مرير، وأحسب أنه ظل مكبوتًا بداخلي طوال الأسبوع.

جلست عمتي فوق الحصى وقد خلا وجهها من أي تعبيرات سوى ملامح الدهشة، وأخذت تحدق في وجهي، حتى بدأت في البكاء. نهضتْ بعد قليل في عجلة، ثم أمسكتني من قميصي، واقتادتني إلى الصالون. كان أول ما فعلته أن فتحت خزانة طويلة، وأخرجت عدة زجاجات، ثم سقتني بعضًا مما فيها. أحسب أنها أخرجتها بشكل عشوائي، لأنني متأكد من أنني تذوقت ماء الينسون وصلصة الأنشوجة وتتبيلة السلطة ممتزجة معًا. تجرعت هذه المواد المنعشة، إلا أنني كنت لم أزل في حالة تامة من الإعياء، ولم أكن قادرًا على التحكم في إيقاف بكائي، ومن ثَم أسندتني إلى الأريكة بعد أن وضعت شالًا تحت رأسي، وبسطت منديل رأسها تحت قدمي؛ خشية أن ألطخها باتساخي. جلست بعد ذلك خلف المروحة الخضراء أو اللوحة التي ذكرتها سالفًا، حتى

لا أتمكن من رؤية وجهها، ثم راحت تقول بين فترة وأخرى: «ليشملنا الله برحمته!». راحت هذه التأوهات تنطلق مثل البنادق الصغيرة من حين لآخر.

دقت الجرس بعد فترة، ثم نادت: «يا جانيت». فجاءت خادمتها. قالت عمتي: «اصعدي إلى الطابق العلوي، وأبلغي تحياتي إلى السيد دك، وأخبريه أنني أرغب في التحدث إليه».

بدت جانيت مندهشة قليلًا لرؤيتي مستلقيًا على الأريكة بثبات - وقد كنت أخشى أن أتحرك حتى لا أتسبب في مضايقة عمتي - إلا أن الخادمة انطلقت إلى مهمتها. راحت عمتي تجوب الحجرة ذهابًا وإيابًا وقد ضمت يديها خلفها، حتى جاء الرجل الذي حدق قبل ذلك في وجهي من النافذة العلوية ضاحكًا.

قالت عمتي: «يا سيد دك، لا تكن أحمق، فلا أحد يمكنه أن يكون أكثر فطنة منك عندما تتعقل الأمور إذا شئت. إننا جميعًا نعلم أمرك، لذلك لا تكن أحمق، مهما كان من أمرك».

صار السيد جادًّا على الفور، ثم نظر إليَّ، وبدا - على ما أظن - كما لو أنه يطلب مني ألا أقول شيئًا عن أمر النافذة.

قالت عمتي: «يا سيد دك، هل سمعتني أذكر اسم ديفيد كوبرفيلد؟ لا تتظاهر الآن بفقدان الذاكرة، لأنك تعرف كما أعرف حقيقة الأمر».

قال السيد دك، الذي بدا لي أنه لا يتذكر الكثير عن الأمر: «ديفيد كوبرفيلد؟ ديفيد كوبرفيلد؟ آهٍ نعم، بلا شك. ديفيد، أذكره بالتأكيد».

قالت عمتي: «حسنًا، هذا هو ابنه... إنه ابنه. سيكون مثل والده بقدر الإمكان، إذا لم يصِر مثل والدته أيضًا».

قال السيد دك: «هل هو ابنه؟ ابن ديفيد؟ حقًّا!».

تابعت عمتي قائلة: «نعم، وقد قام بعمل رائع. لقد هرب. آه! ما كان لأخته، بيتسي تروتوود، أن تهرب أبدًا». أومأت عمتي برأسها بقوة، واثقة في شخصية وسلوك الفتاة التي لم تولد قَطُّ.

قال السيد دك: «آهٍ! أكنتِ تظنين أنها لن تهرب؟».

صاحت عمتي في حدة قائلة: «ارحمني يا رب وارحم هذا الرجل! كيف تتحدث بهذه الطريقة؟ كيف أعلم أنها لن تهرب؟ كانت ستعيش مع أمها في المعمودية، وكان كل منا سيكرس نفسه لخدمة الآخر. فإلى أين ستهرب؟ يا للعجب! كيف لأخته بيتسي تروتوود أن تهرب؟ من أي شيء ستهرب، أو إلى من ستتوجه؟».

قال السيد دك: «إلى لا مكان».

ردت عمتي بعد أن خفف هذا الرد من حدتها: «حسنًا. كيف يمكنك أن تتظاهر بالبلاهة يا دك، بينما أنت حاد الملاحظة والدقة مثل مشرط الجراح؟ هيا الآن، ها أنت تبصر الشاب ديفيد كوبرفيلد، والسؤال الذي أطرحه عليك هو: ماذا يجب أن أفعل له؟».

قال السيد دك في وهن بينما يحك رأسه: «ماذا ستفعلين له؟ آهٍ! ماذا تفعلين به؟».

قالت عمتي في نظرة جادة وقد رفعت إصبعها: «نعم. هيا! أريد بعض النصائح المنضبطة؛ نصائح في محلها».

أجاب السيد دك بعدما أخذ يفكر في الأمر، ناظرًا إليَّ بشرود، قائلًا: «ماذا كنت سأفعل لو كنتُ في مكانك... يجب أن أقوم بـ...». ثم بدا أن تأمله في مظهري قد ألهمه بفكرة مفاجئة، فأضاف قائلًا في سرعة مذهلة: «يجب أن أجعله يستحم!».

استدارت عمتي وقد أبدت ملامح انتصار هادئ لم أفهم باعثه، ثم قالت: «يا جانيت، إن السيد دك يضعنا على الطريق الصحيح. هيا أعدي الحمام!».

كنت مهتمًّا بهذا الحوار غاية الاهتمام، إلا أنني لم أستطع منع مراقبة عمتي والسيد دك، وجانيت، في أثناء تقدم الأمر، بينما رحت أستكمل تأملي الذي كنت قد بدأته بالفعل في اكتشاف تفاصيل الغرفة ومحتوياتها.

كانت عمتي سيدة طويلة ذات ملامح حادة، لكنها لم تكن سيئة المظهر بأي حال من الأحوال. لم تبدُ على وجهها أي ملامح مرنة، وكذلك كان صوتها، ومشيتها، وخطواتها. كانت صلابتها كافية لتفسر التأثير الذي أحدثته على مخلوق لطيف مثل أمي، وعلى الرغم من صرامة وقسوة هيئتها، فإن ملامحها كانت جميلة إلى حد ما باستثناء هذه الصلابة. لقد لاحظت أنها تتمتع بشكل خاص بعين سريعة الالتفات وفي غاية الإشراق. كان شعرها رماديًّا، قد انقسمت خصلاته إلى فلقتين متساويتين، وظهر مفرقه تحت غطاء أحسب أننا نطلق عليه قلنسوة؛ أعني غطاء للرأس

كان شائعًا في ذلك الوقت أكثر منه الآن، تحكمه أربطة جانبية مثبتة أسفل الذقن. أما فستانها فلونه أقرب إلى الخزامى، كما كان في غاية الأناقة، لكن تفصيله بسيط، كما لو أنها لا ترغب في أن تكون مبهرجة المظهر بقدر الإمكان. أتذكر أنني حسبت أنه يبدو من مظهره كما لو أنه أشبه بثوب الفروسية مع قصة زائدة للتنورة، وأن هذا التشبيه أقرب ما يكون إليه. كانت تحتفظ بساعة ذهبية تشبه ساعات الرجال، وقد حددت نوعها من حجمها وشكلها، كما أنها علقتها إلى جانبها بسلسلة وأختام مناسبة. كانت تغطي رقبتها بقماش من الكتان لا يختلف في مظهره عن طوق القميص، وكذلك تدنو من معصمها الصغير أشياء على هيئة أربطة.

أما السيد دك، فكان أشيب الرأس، أحمر الوجه، كما قلت من قبل. كان هذا القول كافيًا لوصف كل ما فيه، لولا انحناءة رأسه الغريبة التي لم تكن على هذه الهيئة بسبب عمره - لقد ذكرني برأس أحد الأولاد بعد ضرب السيد كريكل له - أما عيناه فواسعتان ورماديتان وبارزتان، يتخللهما نوع غريب من السطوع المائي. أما أسلوبه الساهم وخضوعه لعمتي، وابتهاجه الطفولي بامتداحها له، جعلني أشتبه في أنه يتمتع بمسحة ضئيلة من الجنون، على الرغم من أنني كنت في حيرة من أمري؛ فكيف مكث في هذا المكان لو كان مجنونًا. كان مظهره مثل أي رجل عادي، يرتدي معطفًا فضفاضًا وقميصًا، وبنطالًا أبيض، يحتفظ بساعته في حافظتها المخصصة، ويحمل ماله في جيوبه ويهزها كما لو أنه فخور جدًّا بحيازته لهذا المال.

أما جانيت، فكانت فتاة جميلة مشرقة، تبلغ من العمر ما يقرب من

تسعة عشر أو عشرين عامًا، وكانت صورة مثالية للنظافة. لم أتأملها مرة أخرى في ذلك الوقت، إلا أنني قد أذكر هنا ما لم أكتشفه إلا بعد ذلك، ألا وهو أنها كانت واحدة من الأخوات اللاتي اتخذتهن عمتي لخدمتها لتربيهن على التخلي عن فكرة الزواج، وقد انتهى ارتدادهن عن ذلك بالزواج من الخباز.

بدت الغرفة نظيفة مثل نظافة جانيت أو عمتي. وضعت قلمي للحظة، ورحت أستعيد ذكراها، فإذا بنسيم البحر يتدفق في خاطري مرة أخرى ممزوجًا برائحة الزهور، وقد خيَّل لذاكرتي الأثاث القديم يشع ببريقه ولمعانه، وكذلك كرسي عمتي القابع عند المروحة الخضراء المستديرة بجوار النافذة المقوسة، والسجادة المنبسطة، والقطة، وحامل الغلاية، وعصفوران، وأواني الخزف الصينية القديمة، وحاوية الشراب المليئة بأوراق الورد المجففة، والخزانة الطويلة التي تحفظ الكؤوس والأواني المختلفة. أما المشهد العجيب الذي يبعد كل البعد عن باقي الصورة ويشذ عنها، فلم يكن سوى هيئتي المتربة ممددًا على الأريكة، بينما أراقب كل شيء من حولي.

انصرفت جانيت بعيدًا لتحضير الحمام، وإذا بعمتي قد تحولت في لحظة واحدة، ومن دون سابق إنذار، تملكتها حالة من غضب عارم، من دون أن يسعفها صوتها على الصراخ، فإذا بها تقول: «يا جانيت! إنها الحمير!».

صعدت جانيت بعدها إلى الدرج، كما لو أن النيران قد شبت لتحرق المنزل، ثم اندفعت نحو قطعة صغيرة من الأرض المفترشة بالحشائش

الخضراء أمامها، وقد أزاحت عنها بصراخها حمارين تقودهما سيدة، وأحسب أن الحمارين قد وطئت أقدامهما الحشائش، بينما اندفعت عمتي خارج المنزل، فأخذت بلجام حمار ثالث يمتطيه طفل صغير، ثم قادته إلى خارج هذه البقعة النقية، ثم قرصت آذان الغلام سيئ الحظ جزاء للذين تجرأوا على تدنيس هذه الأرض المقدسة.

لا أعرف حتى هذه الساعة ما إذا كان لعمتي أي حق قانوني في منع المرور فوق هذه الرقعة الخضراء أم لا. إلا أن الأمر كان قد استقر في عقلها على هذا النحو واقتنعت أنه حق من حقوقها. كان أكثر ما يغضبها في حياتها، ويتطلب الانتقام المستمر، هو مرور حمار فوق تلك البقعة النقية. لم يكن ليشغلها أي عمل، ومهما كانت المحادثة التي كانت تشارك فيها مثيرة للاهتمام، فقد كان مرور حمار كافيًا لقطع تيار أفكارها في لحظة، وإذا بها تتجه نحوه وتنقض عليه مباشرة. كما أنها احتفظت بأباريق الماء وأواني السقاية في أماكن سرية، وجهزتها لسكبها على الأولاد المخالفين لقواعد عدم المرور، وكذلك أخفت العصي خلف الباب للغرض نفسه. كانت مثل هذه الهجمات تدور في جميع الأوقات، وقد اندلعت حربًا لا تنقطع. ربما كانت هذه المناوشات لعبة لطيفة تثير الأولاد الذين يمتطون الحمير، أو ربما فهمت الحمير بحكمتها ما يدور، فراحت تسير عبر هذا الطريق بسرور بما جُبِلت عليه من عناد. أذكر فقط أنني أبصرت ثلاثة إنذارات من هذا القبيل، قبل أن يصير الحمام جاهزًا، وأنني قد أبصرت عمتي في المرة الأخيرة - وهي الأسوأ على الإطلاق - قد انخرطت في شجار بمفردها، مع فتى أشقر يبلغ من العمر خمسة

عشر عامًا، وقد اصطدم رأسه الأصفر ببوابة منزلها، قبل أن يفهم ويدرك ما يدور من حوله. كانت هذه المقاطعات الأكثر سخافة وغرابة لي، فقد كانت تسقيني مرقًا بملعقة في ذلك الوقت (بعد أن أيقنت من دون شك أنني أتضور جوعًا، ويجب أن أتناول الطعام في البداية بكميات صغيرة جدًّا)، وبينما كان فمي مفتوحًا لاستقبال الملعقة، إذا بها تعيدها إلى الطبق، وتصرخ: «يا جانيت! إنها الحمير!»، ثم تنطلقان إلى الهجوم.

وجدت في الحمام راحة كبيرة، لأنني بدأت أدرك الآلام الحادة التي انتابت أطرافي إثر الاستلقاء في الحقول، وقد كنت متعبًا وهشًّا في هذه اللحظة، حتى إنني بالكاد أستطيع أن أبقى مستيقظًا لمدة خمس دقائق متتالية. اغتسلت ثم تولت عمتي وجانيت إلباسي قميصًا وبنطالًا من ملابس السيد دك، ثم لفتاني بشالين كبيرين أو ثلاثة. لا أعرف ما شكل الحزمة التي بدوت عليها، إلا أنني شعرت بدفء بالغ يسري في جسدي، وأحسست كذلك بالنعاس، وسرعان ما استلقيت على الأريكة مرة أخرى وغصت في النوم.

راودني شيء ربما كان حلمًا، خلقه الوهم الذي شغل عقلي لفترة طويلة، إلا أنني استيقظت متصورًا أن عمتي جاءت إليَّ وانحنت فوقي، ثم أزاحت شعري عن وجهي، وعدَّلت موضع رأسي ليصير أكثر راحة، ثم وقفت تنظر إليَّ. وتخيلت أنني سمعت هذه الكلمات: «رفيق جميل» أو «رفيق فقير»، وكأنها تتردد على مسامعي أيضًا، إلا أنني من دون شك لم أجد بعد يقظتي أي شيء يؤكد ظني بأن عمتي قالت هذه الكلمات، فقد كانت تجلس عند النافذة المقوسة، تحدق في البحر من خلف

المروحة الخضراء، والتي كانت مثبتة على نوع من المفصلات حتى تتمكن من إدارتها في أي اتجاه.

تناولنا الغداء بعد استيقاظي بفترة وجيزة، فكان يحوي أصنافًا من الطيور المشوية والحلوى. جلست إلى المائدة كما لو أنني طائر مقيد، لا أقوى على تحريك ذراعي إلا بصعوبة بالغة. كانت عمتي قد قامت بإحكام لفات شالها حولي، فلم أقوَ على الشكوى مما يحيق بي. لبثت طوال هذا الوقت متشوقًا للغاية لمعرفة ما ستفعله معي، إلا أنها تناولت غداءها في صمت عميق، غير أنها راحت تنظر نحوي من حين لآخر بينما أنا جالس مقابلها، وهي تقول: «رحماك يا رب!». ولم يخفف هذا القول من قلقي بأي حال من الأحوال.

رفعت الطاولة، ثم وضع بعضًا من نبيذ الشيري عليها، وقد احتسيت كوبًا منه، ثم نادت عمتي على السيد دك مرة أخرى، فانضم إلينا، وقد بدا حكيمًا قدر استطاعته بعد أن طلبت عمتي منه أن ينصت إلى قصتي. استخلصت القصة مني تدريجيًّا من خلال طرحها لمجموعة من الأسئلة. رحت أروي حكايتي، بينما أبقت عمتي عينيها على السيد دك، الذي حسبت أنه على وشك الانغماس في النوم لولا نظرات عمتي إليه، أما إذا صار وجهه مبتسمًا، فسرعان ما تتفحصه عمتي بوجه عابس يعيده إلى حالته.

تحدثت عمتي بعد أن انتهيت من حكايتي، فقالت: «لست أدري أي شيء قد دفع بهذه الطفلة المسكينة حتى تذهب وتتزوج مرة أخرى، لا أستطيع أن أتصور الأمر».

علل السيد دك ذلك قائلًا: «ربما وقعت في حب زوجها الثاني».

رددت عمتي قائلة: «وقعت في الحب! ماذا تقصد بهذا القول؟ أي عمل هذا الذي أقدمت على فعله؟».

قال السيد دك بعد تفكير يسير: «ربما، أقدمت على هذا الزواج طلبًا للمتعة».

أجابت عمتي: «يا لها من متعة حقًّا! يا لها من متعة بالغة أن تثق هذه الطفلة المسكينة الساذجة في أي كلب من هؤلاء الكلاب، من المؤكد أنه سيسيء إليها بطريقة أو أخرى. ما الذي دار بخلدها؟ أود لو أعرف! لقد كان لديها زوج. لقد عاشت مع ديفيد كوبرفيلد قبل أن يغادر هذه الحياة، ورأت كيف كان يركض دائمًا وراء عرائس من شمع منذ أن كان في مهده. لقد أنجبت طفلًا - آهٍ، كان لديها طفلان بعدما أنجبت هذا الطفل الجالس هنا في ليلة الجمعة الخالية! - فماذا تريد أكثر من ذلك؟».

هز السيد دك رأسه سرًّا في وجهي، كما لو أنه يظن أنه لن يتجاوز هذا الأمر.

قالت عمتي: «لم تستطع حتى إنجاب طفلة مثل أي امرأة أخرى. أين أخت هذا الطفل، أين بيتسي تروتوود؟ إنها لم تشق طريقها إلى هذه الحياة. لا تتحدث إليَّ!».

بدا السيد دك خائفًا للغاية.

راحت عمتي تقول: «أما ذاك الدكتور القصير، الذي يميل رأسه إلى جانب واحد، فيُدعى جيلبس، أو أيًّا كان اسمه، ما الذي أراد أن يفعله؟

لم يستطع سوى أن يتحدث إليَّ بصدر ديك أحمر منفوش، فراح يقول: «إنه ولد. إنه صبي»، آه، ما الصبية إلا مجموعة من الأغبياء والحمقى».

ارتعب السيد دك للغاية من هذا الانفعال المفعم بالسخط. والحق يُقال إنني خفت بدوري أيضًا.

استطردت عمتي: «وبعد كل ما حدث، كما لو أن هذا لم يكن كافيًا، فلم تسعَ بشكل كافٍ لتأتي بأخت لهذا الطفل، بيتسي تروتوود، ثم تزوجت مرة ثانية - بل ذهبت لتتزوج من قاتل - أو رجل يحمل اسم هذا الوصف - فتنجب منه طفلًا آخر! أما النتيجة الطبيعية، كما قد يتوقعها أي شخص باستثناء رضيع ساذج، هي أن يهرب الغلام ويجول في الطرقات. إنه يشبه قابيل قبل أن يكبر، وهو أمر متوقع».

نظر السيد دك إليَّ في إمعان، كما لو أنه يتعرف على ملامح شخصية قابيل فيَّ.

قالت عمتي: «ثم تلك المرأة التي تحمل اسمًا وثنيًّا، تلك التي تُدعى بيجوتي، إذا بها تذهب وتتزوج بعد هذا كله، كما لو أنها لم تشهد ما يكفي من شرور هذه الزيجات، بل تذهب وتتزوج بعد كل ما حدث، كما حكى لنا هذا الصبي». ثم راحت عمتي تهز رأسها بينما تقول: «أتمنى فقط أن يكون زوجها أحد هؤلاء الأزواج المقامرين الذين يكثر حديث الصحف عنهم، فيضربها ضربًا مبرحًا مثل أي زوج مقامر».

لم أستطع تحمل سماع إهانة مربيتي العجوز، وهذه الأمنية السيئة لحياتها. فأخبرت عمتي أنها مخطئة في تصورها، وأن بيجوتي من أفضل الناس وأصدقهم، وأكثرهم إخلاصًا وودًّا، بل إنها أكثر الناس

تضحية بالنفس، وأنها أوفى خادمة في هذا العالم. لقد أحبتني حبًّا جمًّا، كما أحب أمي للغاية، وأنها هي من حملت رأس أمي المحتضرة بين ذراعيها، ثم طبعت أمي قبلة على وجهها امتنانًا لها في لحظاتها الأخيرة. أثارت ذكراهما شجوني، فاختنقت حزنًا، وانهارت دموعي بينما أحاول أن أقول إن منزلها بمثابة بيتي، وإن كل ما تملكه بمثابة أملاكي، وإنني كنت سأذهب إليها بحثًا عن مأوى، لولا حالتها المادية المتواضعة التي جعلتني أخشى أن أجلب إليها المتاعب. لقد انهرت، كما قلت، حين حاولت أن أقول ذلك، فخبأت وجهي بين يدي فوق الطاولة.

قالت عمتي: «حسنًا، حسنًا. للصبي الحق في الوقوف بجانب أولئك الذين وقفوا إلى جانبه... يا جانيت! إنها الحمير!».

إنني على يقين تام أنه لولا هذه الحمير التعسة، لتوصلنا إلى تفاهم معقول فيما بيننا، لأن عمتي كانت قد وضعت يدها على كتفي، وصار فعلها هذا دافعًا لي حتى تشجعت لاحتضانها وطلب رعايتها. إلا أن المقاطعة والاضطراب اللذين أزاحاها عني إثر صراع في الخارج وضعا حدًّا لجميع سبل الوفاق في اللحظة الراهنة، بل راحت عمتي تتحدث بسخط إلى السيد دك وتخبره عن عزمها على المطالبة بتطبيق قوانين بلادها، ورفع دعاوى التعدي على جميع أصحاب الحمير في دوفر، حتى إنها ظلت تتحدث في الأمر إلى أن حان وقت احتساء الشاي.

جلسنا بعد احتساء الشاي بالقرب من النافذة، وقد بدا لي وجه عمتي حادًّا عابسًا ومتطلعًا إلى مزيد من الغزاة، حتى حلَّ الغسق،

فأضاءت جانيت الشموع، ووضعت لوحًا من الزهر فوق الطاولة، ثم أسدلت الستائر.

راحت عمتي تحملق بنظراتها الخطرة، وتشير بسبابتها كما في السابق، وأثنت تقول: «والآن يا سيد دك، سأطرح عليك سؤالًا آخر. انظر إلى هذا الطفل».

قال السيد دك، بوجه منتبه ومرتبك: «ابن ديفيد؟».

أجابته عمتي: «بالضبط، ماذا ستفعل به الآن؟».

قال السيد دك: «ماذا سأفعل مع ابن ديفيد؟».

أجابت عمتي: «مع ابن ديفيد».

قال السيد دك: «آهٍ! نعم. ما سأفعله معه هو... يجب أن أوصله إلى الفراش».

صرخت عمتي، بالانتصار والرضا ذاتهما اللذين أشرت إليهما من قبل قائلة: «يا جانيت! إن السيد دك يرشدنا إلى التصرف السليم. إذا كان السرير جاهزًا، فلنأخذه إليه».

أخبرت جانيت أن الفراش قد صار جاهزًا، ومن ثَم أخذوني إليه بلطف، إلا أنني كنت أشبه بالسجين، إذ كانت عمتي تسير في المقدمة وتحاصرني جانيت من خلفي. أما الموقف الوحيد الذي بث داخلي أملًا جديدًا؛ هو وقوف عمتي على الدرج للاستفسار عن رائحة شيء يحترق عبَّأت المكان. أجابت جانيت بأنها أشعلت النار في قميصي القديم في المطبخ. لم تتوفر ملابس أخرى في غرفتي سوى كومة الأشياء

الغريبة التي كنت أرتديها. تركتاني في الغرفة مع فتيل صغير مشتعل وقد حذرتني عمتي من أنه سينير لمدة خمس دقائق بالضبط ثم ينطفئ. سمعتهما تغلقان باب الغرفة من الخارج. رحت أفكر في هذه الأشياء وأتمعنها في ذهني، وقد ظننت أنه من الممكن أن تكون عمتي، التي لا تعرف شيئًا عني، يراودها شك في اعتيادي على الهرب، فاتخذت هذه الاحتياطات لمنع هذا الأمر، لئلا أفكر في الهروب من جديد.

كانت الغرفة جميلة، تقع أعلى المنزل وتطل على البحر، وقد بدا القمر منيرًا زاهيًا. انتهيت من صلاتي، واحترق فتيل الشمعة عن آخره، وها أنا لم أزل أتذكر كيف كنت جالسًا أنظر إلى ضوء القمر المنطبع على صفحة الماء، كما لو كنت أتمنى أن أقرأ مصيري بين أنواره، ككتاب ناصع الأوراق، أو أن أرى أمي مع طفلها قادمين من السماء على طول هذا الطريق المشرق، لتنظر إليَّ كما فعلت قبل ذلك فأرى وجهها الجميل للمرة الأخيرة. أتذكر كيف استولى عليَّ هذا الشعور المهيب إلى أن أشحت بوجهي بعيدًا عنه، ثم إحساسي بالامتنان والراحة الذي بثه داخلي مشهد السرير المغطى بستائر بيضاء. كان هذا ما بثه الاستلقاء في سكينة فوق هذا الفراش الوثير، متدثرًا بملاءاته البيضاء. وكم كان الأمر ملهمًا! أتذكر كيف رحت أفكر في جميع الأماكن الموحشة التي بت فيها تحت غطاء من سماء هذا الليل، وكيف تضرعت إلى الله متوسلًا ألا أكون بلا مأوى بعد الآن، وأنني لن أنسى أبدًا من لا مأوى لهم. أتذكر كيف أحسست بأنني أطفو، فوق هذا النور الكئيب المنطبع فوق صفحة البحر، هاربًا بعيدًا إلى عالم الأحلام.

الفصل الرابع عشر

عمتي تتدبر أمري

نزلت في الصباح إلى عمتي، فإذا بها تجلس إلى مائدة الإفطار ساهمة تفكر، مسندة مرفقها إلى الصينية، إلى الحد الذي فاض فيه فنجان الشاي، فسال مُبلِّلًا مفرش المائدة بالكامل، وقد دخلتُ في هذا الوقت فقطعت حبل أفكارها، وشعرت أنها بلا شك تتدبر أمري. صرت حريصًا على معرفة نياتها تجاهي أكثر من أي وقت مضى، ومع ذلك لم أجرؤ على التعبير عن هواجسي؛ خشية أن أسيء إليها.

أما عيني فلم أستطع السيطرة على نظراتها، على عكس إمساكي لساني، فأخذت أنظر نحو عمتي معظم الوقت في أثناء الإفطار. لم أتمكن قَطُّ من إطالة النظر إليها لأكثر من بضع لحظات مجتمعة، إلا أنني لاحظت نظراتها نحوي. كانت نظراتها متأملة وغريبة، توحي بأنني أقف على مسافة بعيدًا جدًّا عنها، على الرغم من أنني لم ألبث جالسًا على الجانب الآخر من المائدة الصغيرة المستديرة. ما إن انتهت عمتي من تناول الإفطار، حتى مالت إلى الخلف بكرسيها، وقد عقدت حاجبيها، ولفت ذراعيها، وراحت تتأملني باهتمام بالغ، مما جعلني تحت وطأة بالغة من الارتباك. لم أكن قد انتهيت من إفطاري بعد، فحاولت إخفاء

ارتباكي بالمضي في تناول الطعام، لكن سكيني اصطدم بالشوكة، وتعثرت الشوكة بالسكين، فتناثرت قطعة من لحم الخنزير المقدد بارتفاع مفاجئ في الهواء بدلًا من تقطيعها وإحكامها حتى أكلها، ثم إنني حبست أنفاسي على قدر من الشاي في حلقي، والذي ضل سبيله بدلًا من الانزلاق في جوفي، حتى استسلمت لارتباكي تمامًا، فجلست خجلًا تحت رقابة عمتي.

قالت عمتي بعد وقت طويل: «أهلًا».

رفعت عيني إليها، فالتقت نظراتي بنظرتها الحادة اللامعة في وقار.

قالت عمتي: «لقد كتبت إليه».

قلت: «إلى...؟».

قالت عمتي: «إلى زوج والدتك. لقد بعثت إليه برسالة ستجبره على الحضور، وإلا سنصير أعداء، ويمكنني حينها أن أعلن له خصومتي».

سألتها بعد أن لفني الفزع: «هل يعرف مكاني يا عمة؟».

قالت عمتي بعد إيماءة: «لقد أخبرته مكانك».

تلعثمت قائلًا: «هل سأعود إليه؟».

قالت عمتي: «لا أعرف. سوف نرى».

صرخت قائلًا: «آهٍ! لا أستطيع التفكير في أمري، إذا عدت إلى السيد مردستون».

قالت عمتي بينما تهز رأسها نافية: «لا أعرف شيئًا عن الأمر. لا أستطيع أن أجزم بما سيحدث. سنرى».

خارت قواي تحت وطأة هذه الكلمات، وصرت حزينًا مثقل القلب. راحت عمتي، من دون أن تظهر أي اهتمام ولو ضئيل بحالتي، تلبس مئزرًا خشنًا مع مريلة، كانت قد أخرجته من الخزانة، وأخذت تغسل فناجين الشاي بيديها، وما إن أتمت غسل كل شيء حتى أعادته إلى الدرج مرة أخرى، ثم لفت غطاء من قماش وبسطته فوق كل شيء، ثم قامت جانيت بإزاحة كل شيء إلى موضعه. راحت بعد ذلك تنظف فتات متناثرًا فتجمعه بمكنسة صغيرة، بعد أن ارتدت القفازات أولًا، حتى لم يتبقَّ فوق السجادة ذرة واحدة تُرى بالعين، ثم راحت بعد ذلك تنظف الغرفة وترتبها، على الرغم من أنها نفضتها من الغبار ورتبتها بدقة قبل ذلك. انتهت من كل هذه المهام على نحو يرضيها، ثم خلعت القفازات والمئزر، وطوتهما، ووضعتهما في زاوية معينة من الخزانة التي أخذتهما منها من قبل، ثم أخرجت صندوق الحياكة، وأخذته إلى طاولتها الخاصة بعد أن فتحت النافذة، وجلست أمام المروحة الخضراء في مقابل الضوء لتبدأ في عملها.

قالت عمتي وهي تحكم الخيط في إبرتها: «أرجو أن تصعد إلى الطابق العلوي، وتُبلِّغ تحياتي إلى السيد دك، ويسعدني أن أعرف كيف يتعامل مع المذكرات».

نهضت في سرور لأتم هذه المهمة التي أوكلتها لي.

راحت عمتي تنظر إليَّ بعين مدققة كما كانت تنظر إلى الإبرة في إحكام خيطها، ثم قالت: «أتصور أنك تفهم أن السيد دك اسم مختصر، أليس كذلك؟».

أجبتها: «حسبت أمس أنه اسم مختصر».

قالت عمتي بلهجة متعالية: «لا يظن أنه لا يدعى باسم أطول، ربما إن شاء لاختار أن ينادى به. هذا الاسم هو بابلي... إنه السيد. ريتشارد بابلي، هذا هو اسم السيد الحقيقي».

كنت على وشك أن أبدي اقتراحًا، نابعًا من شعور ساذج لصغر سني، ومحاولًا إتمام ألفة قد لفتني، بأنه من الأفضل لو نودي بهذا الاسم كاملًا، إلا أن عمتي راحت تقول:

«لكن لا تنادِه به، مهما حدث. إنه لا يتحمل سماع هذا الاسم. إن هذا هو طبعه الخاص، على الرغم من أنني لا أرى فيه خصوصية أو غرابة أيضًا، فقد أسيء استخدام هذا الاسم لأبعد الحدود، من قِبل بعض الذين يحملونه، وليشهد الله أن هذا ما جعله يكرهه إلى هذا الحد. إنه يدعى السيد دك هنا، وكذلك يحمل الاسم نفسه في أي مكان آخر. إن ذهب الآن إلى أي مكان آخر، على الرغم من أنه لن يفعل، فسيبقى هذا اسمه. حذارِ يا غلام أن تناديه بأي اسم سوى السيد دك».

وعدتها بطاعة قولها، ثم صعدت إلى الطابق العلوي لأبلغ رسالتي، بينما رحت أفكر في طريقي، أنه إذا كان السيد دك يعمل في مذكراته منذ فترة طويلة، بالمعدل نفسه الذي رأيته يعمل به، حين رمقته وأنا نازل في الصباح عبر بابه المفتوح، لربما قطع فيه شوطًا لا بأس به. وجدته لم يزل ماضيًا يسطر فيه بقلمه، بل يكاد رأسه يسقط على الورق. لقد كان شديد التركيز في عمله، مما أتاح لي وقتًا طويلًا، فرحت أتأمل الطائرة الورقية الكبيرة المنتصبة في زاوية الغرفة، كما لاحظت حِزمًا

مبعثرة من الأوراق والمخطوطات، وعددًا من الأقلام، وفوق كل هذا كمية كبيرة من الحبر، التي بدا أنه يحتفظ بها في عبوات تتسع لأكثر من نصف جالون، وكانت تملأ العشرات من الجالونات. لاحظت كل هذا قبل أن ينتبه إلى وجودي.

قال السيد دك بينما يضع قلمه جانبًا: «ها! يا فويبوس[1]! كيف تسير الأمور؟ سأخبرك كيف تسير...». ثم أكمل حديثه بنبرة منخفضة، قائلًا: «لا أحب أن أذكر هذا الأمر، لكن...»، وهنا أشار إليَّ لأدنو منه، ثم وضع شفتيه بالقرب من أذني، وقال: «إنه عالم مجنون. يا له من جنون يشبه مشفى للمجاذيب يا فتى». ثم تناول السعوط من صندوق دائري فوق الطاولة، وراح يضحك بشدة.

لم أُبدِ رأيي في هذا الأمر، ولم أقُم إلا بنقل رسالتي.

أجاب السيد دك قائلًا: «حسنًا، تحياتي لها، وأحسب أنني قد بدأت». ثم أخذ يمرر يده بين خصلات شعره الرمادية، بعدما ألقى بنظره على مخطوطه من دون أن توحي نظراته بشيء من الثقة، قائلًا: «أظن أنني بدأت. هل ذهبت إلى المدرسة؟».

أجبت: «نعم سيدي، لمدة قصيرة».

سألني السيد دك، بينما ينظر نحوي بجدية، ويمسك بقلمه لتدوين ما قلته: «هل تتذكر التاريخ الذي قطع فيه رأس الملك تشارلز الأول؟». أحسب أن ذلك حدث في عام ستمائة وتسعة وأربعين.

---

(١) أحد أسماء أبولو؛ وهو إله الشمس والموسيقى عند الإغريق.

أخذ السيد دك يحك أذنه بقلمه، وينظر نحوي بريبة، وراح يقول: «حسنًا، هكذا تقول الكتب، لكني لا أدرك كيف يمكن أن يكون الأمر صحيحًا. فإذا كان هذا ما حدث منذ فترة طويلة، فكيف يمكن للأشخاص المحيطين به أن يرتكبوا هذا الخطأ المتمثل في إخراج بعض المشكلات من رأسه بعد خلعه، ثم وضعها في رأسي؟».

لقد فاجأني هذا السؤال أشد مفاجأة. إلا أنني لم أتمكن من الإدلاء بأي معلومات حول هذه النقطة.

قال السيد دك بعد نظرة يائسة على أوراقه، وقد خلَّل يده بين شعره مرة أخرى: «إنه أمر غريب للغاية، لا يمكنني فهمه بالشكل الصحيح أبدًا. لا أستطيع أن أوضح الأمر تمامًا». ثم راح يكمل حديثه بمرح، بعد أن انتبه لكلامه قائلًا: «لكن لا يهم. أمامي ما يكفي من الوقت. أرسل تحياتي إلى الآنسة تروتوود، فإنني أسير على خطى لا بأس بها في العمل».

كنت على وشك الانصراف، فإذا بالسيد دك ينبهني مشيرًا إلى الطائرة الورقية، قائلًا: «ما رأيك في هذه مقارنة بطائرة ورقية؟».

أجبت بأنها جميلة، وأنني أتصور أنها تستطيع أن تُحلِّق لارتفاع قد يصل إلى سبعة أقدام.

قال السيد دك: «لقد صنعتها بنفسي. سنذهب أنا وأنت لنطلقها تحلق. هل لاحظت هذه؟».

أظهر لي عبارة مخطوطة عليها بخط اليد كتبت بإحكام وإتقان، أما وقد أمعنت النظر إلى هذه العبارة، حتى ظننت أنني رأيت بعض

الإشارات إلى رأس الملك تشارلز الأول، وقد تجلت لي مرة أخرى في مكان أو مكانين.

قال السيد دك: «إنها مربوطة بخيط طويل، وعندما تطير عاليًا، فإنها تأخذ الوقائع إلى فضاء بعيد. إنه أسلوبي في النشر بنزع الفتيل. لا أعرف إلى أين تتجه؛ كلٌّ حسب ظروفه، وحسب اتجاه الرياح وما إلى ذلك، إلا أنني أغتنم فرصتي في نشرها».

بدا وجهه لطيفًا وأنيقًا للغاية، يرتسم عليه تعبير ما مبجل للغاية، وعلى الرغم من هذا اللطف وهذه الحيوية، فإنني ظننت أنه يمزح معي. ضحكت، ثم عاودت الضحك، وافترقنا كما لو أننا صديقان حميمان.

قالت عمتي بعدما نزلت إلى الطابق السفلي: «حسنًا يا طفلي. كيف حال السيد دك هذا الصباح؟».

أخبرتها أنه يرسل تحياته إليها، وأنه يسير على خطى لا بأس بها في العمل.

قالت عمتي: «وما رأيك فيه؟».

سيطرت عليَّ فكرة غامضة في محاولة للتهرب من إجابة السؤال، وأن أكتفي بالرد بقولي إنني أحسب أنه رجل نبيل، لطيف للغاية، إلا أن عمتي لم تكن من الشخصيات التي يمكن للمرء أن يتهرب منها. لقد أبعدت عنها ما كانت تعمله، ووضعته في حجرها، ثم قالت وهي تطوي يديها فوقه: «هيا! إن أختك بيتسي تروتوود كانت لتخبرني مباشرة برأيها في أي شخص. كن مثل أختك بالقدر الذي تستطيعه، وتحدث إليَّ».

رحت أتلعثم لأنني شعرت أنني أخوض منطقة خطيرة، فقلت: «هل هو - أقصد السيد دك - وإنني أسأل لأنني لا أعرف يا عمتي - هل فقد عقله تمامًا، إذن؟».

قالت عمتي: «الأمر ليس كذلك ولو بمثقال ذرة».

عقبت قائلًا بصوت خافت: «آهٍ، حقًّا!».

قالت عمتي في يقين بالغ وأسلوب مؤكد: «إذا كان ثمة شيء في العالم يبعد عن السيد دك، فإنه هذا الوصف».

لم أستطع أن أتفوه بشيء أفضل من هذا القول الخجول: «آهٍ، حقًّا!».

قالت عمتي: «لقد أسموه مجنونًا. يسعدني أن أقول إنه قد وُصِف بالجنون، ولولا هذا الوصف لما استطعت أن أحصل على خبرته ونصائحه خلال السنوات العشر الماضية أو يزيد، أو لنقُل في الحقيقة منذ أن خيَّبت أختك، بيتسي تروتوود، ظني».

قلت: «ألهذا الحد؟».

تابعت عمتي حديثها قائلة: «أما الناس اللطفاء، فهم الذين دفعتهم الجرأة إلى وصفه بالجنون. يربطني مع السيد دك نوع من صلة القرابة البعيدة؛ لا يهم كيف، فلست بحاجة إلى الدخول في التفاصيل. لولا وجودي معه، لحبسه شقيقه مدى الحياة. وهذا كل شيء».

أخشى أن أقول إنني شعرت بنفاق عميق، حين تظاهرت أمام عمتي بمؤازرتي القوية لهذا الأمر، وقد حاولت أن أبدو كما لو أنني أشعر بقوته أيضًا.

قالت عمتي: «يا له من أحمق متكبر! فلنفترض أن شقيقه كان غريب الأطوار بعض الشيء - على الرغم من أنه لا يضاهي غرابة كثير من الناس - فهل يحق له أن يرفض أن يلاحظه أحد في محيط منزله، ومن ثَم يرسله بعيدًا إلى ملجأ خاص، على الرغم من أن والده المتوفى كان قد أوصى برعايته من قبل، وكان يحسبه أقرب إلى الرجال الأسوياء؟ لا بد أنه كان رجلًا حكيمًا في ظنه هذا، بل كان هو نفسه مجنونًا، بلا شك».

حاولت مرة أخرى أن أبدو مقتنعًا تمامًا، نظرًا لأن عمتي بدت مقتنعة بكلامها كلية.

ثم قالت عمتي: «لذلك تدخلت وقدمت له عرضًا. قلت له: أخوك عاقل - بل أتصور أنه أكثر عقلًا منك الآن، بل أعقل منك على الإطلاق. دعه يحصل على نصيبه القليل، ثم يأتي ويعيش معي. إنني لست خائفة منه، ولست متعالية، بل إنني مستعدة لرعايته، ولن أسيء معاملته كما فعل بعض الأشخاص (عوضًا عن الذين طالبوا بإرساله إلى الملجأ)». أكملت عمتي قائلة: «تمكنت منه بعد فترة طويلة من الشجار، ومنذ ذلك الحين وهو يقيم هنا. إنه أكثر المخلوقات مودة وطيبة، أما عن نصائحه، فلا أحد غيري يدرك رجاحة عقل هذا الرجل».

أخذت عمتي تهذب ثوبها ثم هزت رأسها، كما لو أنها تتحدى العالم كله بتهذيب ثوبها من جانب، ثم تنتصر عليه بإيماءة من رأسها من جانب آخر.

استطردت عمتي قائلة: «كانت له أخت يفضلونها عليه، وقد كانت مخلوقة طيبة، تعامله بكل لطف. إلا أنها فعلت ما يفعله الجميع، فقد

تزوجت، وفعل هذا الزوج ما يفعله غيره إذ جعل حياتها تعيسة. أثَّر كل ما حدث على عقل السيد دك (وآمل ألا يكون هذا التأثير جنونًا). تضافر هذا مع خوفه من أخيه، وإحساسه بكراهيته له، فإذا به يصاب بالحمى. حدث ذلك قبل أن يأتي إليَّ، إلا أن هذه الذكرى الظالمة له لم تزل تؤثر فيه حتى هذه اللحظة. هل قال لك أي شيء عن الملك تشارلز الأول، يا صغير؟».

«نعم يا عمة».

قالت عمتي بينما تفرك أنفها كما لو كانت منزعجة قليلًا: «آه! هذه هي طريقته المجازية للتعبير عن ألمه. إنه يربط مرضه بما فيه من اضطراب عارم وانفعالات، بهذه الوقائع. هذا هو المعادل، أو المجاز، أو أيًا كان ما يُطلق عليه، الذي يختار استخدامه للتعبير عن موضوعه. ولماذا لا يفعل ما أراد، ما دام قد ظن أنه صحيح!».

قلت: «بالتأكيد يا عمة».

قالت عمتي: «إنها ليست طريقة متداولة لتبادل الحديث، ولا هي طريقة معروفة في هذا العالم. وإنني على علم بذلك، وهذا هو سبب إصراري على ألا تَرِد كلمة واحدة عن هذا الأمر في مذكراته».

«هل هي مذكرات مستمدة من قصة حياته، أهذا ما يكتبه يا عمتي؟».

قالت عمتي وهي تفرك أنفها مرة أخرى: «نعم يا صغيري. إنه يخلد ذكرى السيد وزير العدل، أو اللورد فلان أو أحد اللوردات - أي شخص من هؤلاء، ممن يدفعون الأموال ليخلدوا سيرتهم في جميع المناسبات - ليدون منجزاته. أفترض أنه سينتهي من عمله هذا في يوم من الأيام. لم يستطع إلى الآن رسم ملامح عمله، من دون اللجوء إلى هذه الطريقة

للتعبير عن نفسه، لكن هذا لا يهم ما دام يُبقيه منشغلًا على الدوام».

اكتشفت فيما بعد أن السيد دك كان يسعى في حقيقة الأمر منذ ما يزيد على عشر سنوات لإبقاء الملك تشارلز الأول خارج المذكرات، لكنه كان يقحمه باستمرار، وظل موجودًا إلى الآن.

قالت عمتي: «أؤكد لك مرة أخرى، لا أحد يعرف خبايا عقل هذا الرجل سواي، فهو أكثر المخلوقات رقة وودًّا في هذا الوجود. أما إذا كان يحب أن يطير طائرة ورقية أحيانًا، فما الغريب في ذلك؟! لقد اعتاد فرانكلين على إطلاق طائرة ورقية لتطييرها[1]، وكان - إذا لم أكن مخطئة - من الكويكرز[2]، أو شيئًا من هذا القبيل. ولا شيء يضاهي سخافة أن يقوم أحد الكويكرز بتطيير طائرة ورقية عوضًا عن أي إنسان آخر».

لو أنني أستطيع أن أفترض أن عمتي قد سردت هذه التفاصيل لإرضاء فضولي الخاص، أو كنوع من الثقة بي، لكان من الأجدر بي أن أستشعر تميزًا ومكانة عالية، أو كنت استبشرت خيرًا لما تبديه من علامات رأيها الصائب. إلا أنني استطعت أن ألاحظ أن ما أقدمت عليه بشكل عام لم يكن إلا تعبيرًا رئيسيًّا عن إجابة لسؤال قد أُثير في عقلها، على الرغم من إشارتها إليَّ على نحو ضئيل، وإن كانت قد وجَّهت حديثها إليَّ في ظل غياب أي إنسان آخر.

---

(١) تجربة قام بها الفيزيائي والسياسي الأمريكي بنجامين فرانكلين بمساعدة ابنه ويليام، وكان هدفه اكتشاف طبيعة البرق والكهرباء.

(٢) مجموعة من المسيحيين البروتستانت نشأت في القرن السابع عشر في إنجلترا على يد جورج فوكس.

يجب أن أعترف أنها في الوقت ذاته كانت قد أبدت كرمًا في دفاعها عن السيد دك المسكين الوديع، فلم يلهمني موقفها بعض الأمل الذي جال في صدري بدافع من الأنانية فحسب، بل دفعني إلى التفكير فيها بعيدًا عن أي غرض أناني آخر. أتصور أنني بدأت في التعرف على جانب من عمتي، إذ إنها على الرغم مما تبديه من غرابة أطوار وروح دعابة غريبة، فإنها يجب أن تحظى بشيء من التقدير والثقة. كانت - على الرغم من موقفها الذي يستحق التقدير - حادة الطبع في هذا اليوم، كحالها في اليوم السابق، فمكثت تهاجم الحمير كما هي الحال في كثير من الأحيان، ثم باتت في حالة سخط صاخب، بعدما مر شاب، وراح يغمز بعينه إلى جانيت عند النافذة - كانت هذه الفعلة واحدة من أخطر المآثم التي يمكن اقترافها في حق كرامة عمتي - إلا أنها راحت تحظى في نفسي بمزيد من الاحترام، إن لم تكن قد أزاحت خوفًا كذلك.

مررت بنوبة قلق شديد في الفترة التي انقضت قبل تلقي الرد على رسالتها الموجهة إلى السيد مردستون، إلا أنني بذلت جهدًا لقمع هذا القلق، وحاولت أن أبدو مقبولًا وهادئًا بقدر ما أستطيع، سواء مع عمتي أو السيد دك. كنت أنا والأخير نخرج لتطيير الطائرة الورقية الكبيرة، ولكنني لم أحُز أي ملابس أخرى سوى الملابس المزخرفة التي ألبسوها لي في يومي الأول، مما جعلني حبيسًا في المنزل، إلا لمدة ساعة بعد حلول الظلام، عندما كانت عمتي تتمشى معي حرصًا على صحتي صعودًا وهبوطًا فوق الربوة بالخارج، قبل أن أخلد إلى النوم. وصل في النهاية الرد من السيد مردستون، وكم كنت مرتعبًا إلى أقصى

مدى حين أبلغتني عمتي أنه سيأتي إليها في اليوم التالي للتحدث معها بنفسه. لبثت في اليوم التالي في ملابسي الغريبة، وقد رحت أحصر الوقت، متوهجًا ومحمومًا بين صراع الآمال الغارقة ومخاوفي المتزايدة في أعماقي، أنتظر أن يداهمني منظر هذا الوجه العبوس وقد صار تَرقُّبه يرعبني في كل دقيقة.

بدت عمتي أكثر تكبرًا وصرامة من المعتاد، إلا أنني لم ألحظ أي إشارة أخرى توحي باستعدادها لاستقبال الزائر الذي أخافه كثيرًا. جلست تعمل في حياكتها بجوار النافذة، فجلست بجانبها، بينما راحت أفكاري تتشتت أمام كل النتائج الممكنة أو المستحيلة لزيارة السيد مردستون، حتى وقت متأخر جدًّا امتد إلى ما بعد الظهيرة. كنا قد أجلنا تناول الغداء إلى أجل غير مسمى، لكن الوقت كان قد تأخر للغاية، فأمرت عمتي بتحضيره. صرخت عمتي وقد أطلقت إنذارًا مفاجئًا للحمير، مما أصابني بذعر وذهول، وقد أبصرت الآنسة مردستون فوق سرج جانبي[١]، تقتحم بحمارها بروية الرقعة الخضراء المقدسة، ثم توقفت أمام المنزل، وأخذت تتلفت حولها.

صرخت عمتي وهي تهز رأسها وتلوح بقبضتها من النافذة، قائلة: «اذهبي من هنا! ليس لكِ شأن يخصكِ هناك. كيف تجرؤين على هذا التعدي؟ هيا انصرفي! آهٍ! يا لكِ من حقيرة وقحة!».

ظلت عمتي في قمة غضبها من البرودة التي نظرت بها الآنسة مردستون إليها، بل أحسب أنها مكثت ساكنة بلا حراك، من دون أن

---

(١) سرج مخصص للنساء تجلس المرأة فوقه وقدماها في الاتجاه ذاته بعكس الرجال.

تستطيع الانطلاق خارجًا في الوقت الحالي وفقًا لعادتها. انتهزتُ الفرصة لأبلغها من تكون هذه السيدة، وقلت لها إن السيد مردستون أخذ يقترب الآن من السيدة الجانية - لأن الطريق كان شديد الانحدار وكان قد تأخر في صعوده وراءها - وظهر السيد مردستون بنفسه.

ظلت عمتي تهز رأسها وتومئ بمختلف الإشارات الممكنة عدا إيماءة الترحيب من النافذة ذات القوس، وصاحت: «لا يهمني مَن تكون! لن أسمح بهذا التعدي. لن أسمح بذلك. فلتبتعد! يا جانيت، أديرى الحمار. هيا قوديه بعيدًا». ثم أدركت من وقوفي خلف عمتي، أن معركة على وشك أن تنشب سريعًا. وقف الحمار يقاوم الجميع، وقد انزرعت أرجله الأربع بمختلف الطرق وأخذت تنغرز في الأرض. حاولت جانيت سحبه من اللجام للخلف، بينما حاول السيد مردستون قيادته للمضي قدمًا، وإذا بالآنسة مردستون تضرب جانيت بمظلتها، فصاح العديد من الأولاد، الذين جاءوا لمشاهدة هذا الشجار وراحوا يصرخون بشدة. أما عمتي فقد انقضت فجأة على شاب آثم بحوزته حمارًا، وقد ميزته من بين الصبية إذ كان أكثرهم تطاولًا وعندًا، على الرغم من أنه لم يتجاوز سن المراهقة. ما لبثت عمتي أن هرعت إلى مكان الحادث، وانقضت على الغلام، ثم قبضت عليه وجرته، بعد أن صارت سترته تعلو رأسه، وكعبه يطحن الأرض طحنًا. ساقته إلى الحديقة، ثم نادت جانيت وأمرتها باستدعاء الشرطة والقضاة، حتى يقبضوا عليه، فتتم محاكمته وتنفيذ الحكم على الفور في موقع الحادث. أما هذا الجزء من الموضوع،

لم يدُم طويلًا، إذ كان الغلام خبيرًا وعلى دراية بمجموعة متنوعة من الخدع والمراوغات، والتي لم يكن لعمتي أي تصور عنها، وسرعان ما تملص هاربًا، تاركًا آثارًا عميقة لحذائه المدبب داخل أحواض الزهور، ثم أخذ حماره معه منتصرًا.

كانت الآنسة مردستون، خلال الجزء الأخير من المعركة، قد ترجلت، وراحت تنتظر في هذه اللحظة مع شقيقها أسفل الدرج، حتى تتفرغ عمتي لاستقبالهما. أما عمتي فقد أزعجها الشجار إلى حد ما، فأشارت لهما بالدخول إلى المنزل بزهو جم، من دون أن تلتفت إليهما، إلى أن أعلنت جانيت عن وجودهما.

سألت مرتجفًا: «هل أذهب بعيدًا يا عمتي؟».

قالت عمتي: «لا يا سيدي. بالتأكيد لا تنصرف». ومن ثَم دفعتني إلى المكوث في ركن بالقرب منها، واحتجزتني بكرسي، كما لو أنني سجين أو أمام منصة قضاء. مكثت في هذا الموضع خلال المقابلة بأكملها، ومنه رأيت السيد مردستون وأخته بينما يدخلان في هذه اللحظة إلى الغرفة.

قالت عمتي: «آهٍ! لم أعرف في البداية مَن هم الأشخاص الذين اعترضتهم بكل سرور، لكنني لا أسمح لأي شخص بالمرور فوق هذا العشب، وإنني لا أستثني أحدًا. لا أسمح لأي شخص - أيًّا كان - أن يقوم بذلك».

قالت الآنسة مردستون: «إن نظامك محرج إلى حد ما أمام الغرباء».

قالت عمتي: «هل هو كذلك؟!».

بدا السيد مردستون خائفًا من تجدد المناوشات، ومن ثَم بدأ في التدخل قائلًا: «يا آنسة تروتوود».

رمقته عمتي بنظرة ثاقبة قائلة: «أستميحك عذرًا. هل أنت السيد مردستون الذي تزوج أرملة ابن أخي الراحل، ديفيد كوبرفيلد، في بلندرستون في منزل عش الطيور؟! - على الرغم من أنني لا أعرف سبب تسميته بعش الطيور، حقًّا لا أفهم السبب!».

قال السيد مردستون: «إنني هو».

عادت عمتي تقول: «اسمح لي يا سيدي بقول إنني أحسب أنه كان من الأفضل والأكثر راحة وسعادة لو أنك تركت هذه الطفلة المسكينة لحالها».

عقبت الآنسة مردستون، وراحت تتحدث متشدقة: «إنني أتفق إلى الآن مع ما قالته الآنسة تروتوود، فأنا أعتبر كلارا التي نرثي لحالها من جميع النواحي لم تكن سوى طفلة».

قالت عمتي: «إن رثاءنا مصدر راحة لأمثالنا أنا وأنتِ يا سيدتي، ممن يواصلون الحياة، ومن غير المحتمل أن نشعر بشقاء بسبب جمالنا، حيث لا يمكن لإنسان أن يصفنا بهذا».

استكملت الآنسة مردستون كلامها، على الرغم من أنني أحسب أنها لم توافقها بطيب نية أو حسن رأي: «لا شك في هذا! وبالتأكيد كما قلتِ، كان من الأفضل والأسعد لأخي لو لم يكن قد أقبل على مثل هذا الزواج. لقد كنت دائمًا عند هذا الرأي».

قالت عمتي: «ليس لديَّ أدني شك في هذا». ثم دقت عمتي الجرس قائلة: «يا جانيت. أبلغي تحياتي إلى السيد دك، واطلبي منه أن يتفضل بالنزول».

مكثت عمتي جالسة في وضع مستقيم تمامًا ومتجمد، عابسة تنظر نحو الحائط، إلى أن جاء السيد دك فقدَّمت عمتي الموجودين كل إلى الآخر.

راحت عمتي تتحدث بلهجة تأكيد، تنبه إليها السيد دك، حيث راح يعض على سبابته وقد بدا أحمق إلى حد ما، فقالت: «هذا هو السيد دك. إنه صديق حميم قديم. إنني أعتمد على رأيه».

أخرج السيد دك إصبعه من فمه إثر هذا التلميح، ثم وقف بين الجميع بعد أن أظهر علامات الجدية ويقظة الوجه.

أمالت عمتي رأسها نحو السيد مردستون، فراح يتحدث قائلًا:

«يا آنسة تروتوود. لقد وجدت بعد استلام رسالتك، أنه من الإنصاف لي، وربما احترامًا أكبر لكِ أن...».

ظلت عمتي ترمقه متطلعة إليه باهتمام، ثم قاطعته قائلة: «شكرًا لك. لا داعي لأن تُقحمني في الأمر».

تابع السيد مردستون قائلًا: «أردت الإجابة عن سؤالكِ بنفسي، مهما كان من صعوبة الرحلة، بدلًا من إرسال الرد عبر البريد. إن هذا الغلام الشقي الذي هرب من أصدقائه وعمله...».

قاطعته أخته بعد أن لفتت انتباه الجميع إلى الزي الغريب الذي

أرتديه ولا يمكن تسميته، فراحت تقول: «ومظهره، إنه فاضح تمامًا ومخزٍ».

قال شقيقها: «يا جين مردستون، من الأفضل ألا تقاطعيني. إن هذا الفتى الشقي يا آنسة تروتوود، كان سببًا للكثير من المشكلات والاضطرابات الأسرية؛ منذ حياة زوجتي العزيزة الراحلة، حتى يومنا هذا. إنه يتمتع بروح عابثة متمردة، ومزاج عنيف، كما أن سلوكه خشن بدرجة يتعذر إصلاحها. لقد سعيت أنا وأختي إلى تقويم رذائله، إلا أننا لم ننجح في الأمر. لقد شعرت - أو أحرى بي أن أقول إن كلينا قد شعر؛ فأختي تتفق معي تمامًا - أنه من الصواب أن تتلقي هذا التأكيد الجاد والخالي من العواطف الشخصية من شفاهنا».

قالت الآنسة مردستون: «لست في حاجة إلى تأكيد أي شيء قد صرح به أخي. إلا أنني ألاحظ أنه مقارنة بسائر أطفال العالم، فإنني أحسب أن هذا الغلام هو الأسوأ».

قالت عمتي، بعد صمت قليل: «هذا كثير!».

عادت الآنسة مردستون تقول: «لكن ليس الأسوأ بكثير على الإطلاق، هذا إذا لم نغفل بعض الحقائق».

قالت عمتي: «ها! حسنًا أهذا كل شيء يا سيدي؟».

استأنف السيد مردستون حديثه، بعد أن أخذ وجهه في الاحتقان أكثر فأكثر، كلما تبادل هو وعمتي نظراتهما الحادة، وهو الأمر الذي قاما به في حدود ضيقة للغاية: «إنني أقنع بوجهة نظر خاصة، فيما يتعلق بأفضل طريقة لتربيته، لأنني اعتمد فيها جزئيًّا على معرفتي به، وأعتمد

في جزء آخر منها على معرفتي بوسائل التربية ومصادري المعرفية الخاصة بي. إنني مسؤول عنها أمام نفسي، وأسير على خطاها، ولا أريد أن أقول عنها أكثر مما قلته. يكفي أنني وضعت هذا الصبي تحت عين صديق لي في عمل محترم، ولم يرضَ به، بل هرب من عمله. جعل من نفسه متشردًا هائمًا في البلاد إلى أن جاء إلى هنا، في أسماله البالية ليتوسل إليكِ يا آنسة تروتوود. وإني أود أن أعرض عليكم، بشرفي، العواقب الدقيقة - على قدر معرفتي - المترتبة على تحريضه في هذا الأمر».

قالت عمتي: «لنتطرق إلى موضوع العمل المحترم أولًا. لو أن هذا الغلام ولدك؛ فما كنت لترسله إلى هذا العمل على ما أظن، أليس كذلك؟».

أجابت الآنسة مردستون قائلة: «لو كان الغلام ابن أخي، فإنني على ثقة من أن أخلاقه كانت لتختلف تمامًا عن أخلاقه».

قالت عمتي: «أو لنقُل إذا كانت والدة هذا الطفل المسكين، لم تزل على قيد الحياة، فهل كان سيُرسل إلى مثل هذا العمل المحترم كذلك؟».

قال السيد مردستون، بعد أن أمال رأسه: «أتصور أن كلارا لم تكن لتناقش أي شيء قد نتفق عليه أنا وأختي جين مردستون بعد أن نراه الأنسب».

أكدت الآنسة مردستون قوله بصوت مسموع.

قالت عمتي: «همم. يا لها من طفلة بائسة!».

أما السيد دك، فكان يقرع بنقوده المعدنية طوال هذا الوقت، وقد راح يصلصل بها بصوت عالٍ في هذه اللحظة، حتى إن عمتي شعرت بضرورة تنبيهه فرمقته بنظرة تحذير، قبل أن تستأنف حديثها قائلة:

«هل مات معاش الطفل المسكين بعد موتها؟».

أجاب السيد مردستون: «نعم، مات معها».

«ألم تسوِّ الممتلكات الصغيرة من منزل وحديقة - لهذا المكان الذي يدعى عش الطيور من دون أي طائر - ليعود إلى طفلها؟».

أجاب السيد مردستون قائلًا: «لقد تركها لها زوجها الأول من دون قيد أو شرط...».

هنا قاطعته عمتي بقدر كبير من السخط بعد نفاد صبرها، فقالت: «يا إلهي، أي شيء هذا يا رجل، لا داعي لهذا القول. تركه لها من دون قيد أو شرط! أتصور أنني أرى أمامي ديفيد كوبرفيلد يتطلع إلى هذا القيد أو الشرط، على الرغم من أنه ماثل أمام وجهه! بالطبع ترك لها هذا الإرث من دون قيد أو شرط بعد موته. أما عندما تزوجت مرة أخرى - لأكون واضحة أي عندما أقبلت على هذه الخطوة الكارثية بالزواج منك - ألم يقُل أحد كلمة تخص هذا الصبي في ذاك الوقت؟».

قال السيد مردستون: «لقد أحبت زوجتي الراحلة زوجها الثاني يا سيدتي، ووثقت به كل الثقة».

راحت عمتي تتحدث بينما تهز رأسها في وجهه قائلة: «إن زوجتك الراحلة يا سيدي، كانت طفلة لا تفقه سبل الحياة، بل كانت أكثر الناس

تعاسة، وأسوأهم حظًّا. هذا ما كانت عليه. أما الآن فماذا تريد قوله بعد هذا كله؟».

عاد يقول: «ليس هذا كل ما أود قوله يا آنسة تروتوود. إنني هنا لاستعادة ديفيد - لإعادته من دون قيد أو شرط - ومن ثَم التصرف في شأنه بالطريقة التي أحسب أنها مناسبة، والتعامل معه بالصورة التي أظن أنها صحيحة. إنني لست هنا لتقديم أي وعد أو تقديم تعهد لأي شخص. قد تكون لديكِ فكرة، يا آنسة تروتوود، عن تحريضه على الهروب، أو عن شكواه إليكِ. إن طريقتكِ في التعامل معه، والتي يجب أن أقول إنها لا تبدو أنها تهدف إلى الاسترضاء، تدفعني إلى التفكير في أنكِ تحرضينه على فعلته. يجب أن أحذركِ الآن من أنكِ إذا حرضتِه مرة أخرى، فإن ذلك يعني أنكِ تحرضينه على هذه الأفعال دائمًا وأبدًا. كما أنكِ إذا تدخلتِ بيننا الآن، فعليكِ أن تتدخلي يا آنسة تروتوود في أمورنا إلى الأبد. وإنني لا أقبل أن يستهان بي أو أن يعبث أحد معي. إنني قد جئت إلى هنا، للمرة الأولى والأخيرة، لآخذه بعيدًا. هل هو مستعد للذهاب؟ إذا لم يكن مستعدًّا -أو قلتِ لي إنه ليس كذلك لأي ذريعة ممكنة، فإنني أبالي بالسبب- فستكون أبوابي مغلقة في وجهه من الآن فصاعدًا، وسأعتبر أن أبوابكِ هي التي ستفتح له، وسيكون ذلك أمرًا مفروغًا منه».

استمعت عمتي إلى هذه الخطبة بانتباه، وهي جالسة مستقيمة القامة تمامًا، ويداها مطويتان على إحدى ركبتيها، وقد بدت عابسة في نظرتها نحو محدثها. ما لبث أن أنهى حديثه حتى أدارت عينيها نحو الآنسة

مردستون، من دون أن تتزحزح عن موقفها بأي طريقة، ثم قالت:

«حسنًا يا سيدتي، هل لديكِ أي شيء لتضيفيه؟».

قالت الآنسة مردستون: «يا آنسة تروتوود، إن كل ما أريد قوله قد قاله أخي على أكمل وجه، وكل ما أدرك حقيقته قد أوضحه أخي بجلاء تام، وليس لديَّ ما أضيفه سوى شكري لأدبكم الفائق».

لم تكن مفارقة الآنسة مردستون الساخرة لتؤثر على عمتي بل لم تزد على كونها قد أزعجت المدفع الذي كنت أنام بجانبه في تشاتام.

قالت عمتي: «وماذا سيقول الصبي؟ هل أنت مستعد للذهاب يا ديفيد؟».

أجبتها بالنفي، وناشدتها ألا تدعني أذهب. قلت إن السيد مردستون والآنسة أخته لم يحباني قَطُّ، ولم يكونا طيبين معي في أي وقت مضى. لقد جعلا أمي، التي كانت تغمرني حبًّا جمًّا دائمًا، غير سعيدة بسببي، وأنني قد تأكدت من هذا الأمر، وكذلك عرفت بيجوتي هذه الحقيقة أيضًا. قلت إنني كنت أكثر بؤسًا مما قد يظنه أي شخص أو أن يصدقه، خاصة لمن يعرف فقط كم كنت صغيرًا أمام هذه المعاناة. ثم توسلت إلى عمتي ودعوتها - نسيت الكلمات التي توسلت بها الآن، لكني أتذكر أنني كنت في غاية التأثر في ذلك الوقت - فتضرعت إليها لتحميني وتصد عني هذا البؤس، من أجل والدي.

تحدثت عمتي فقالت: «يا سيد دك، ماذا أفعل مع هذا الطفل؟».

فكر السيد دك، بعد أن تردد، ثم أشرق وجهه منتبهًا مرة أخرى،

وراح يقول: «خذي مقاسات جسده لتفصيل بدلة له مباشرة».

قالت عمتي منتصرة: «يا سيد دك أعطني يدك، لأن الفطرة السليمة التي تتمتع بها لا تُقدر بثمن». صافحته بود بالغ، ثم جذبتني نحوها وقالت للسيد مردستون:

«يمكنك الذهاب وقتما تريد؛ سأجرب حظي مع الصبي. إذا كان يتصف بكل ما تقوله، فعلى الأقل يمكنني أن أتصرف معه بطرق شتى بعد ذلك، كما فعلتَ. إلا إنني لا أصدق كلمة واحدة مما قلته».

أجاب السيد مردستون بصوت عال وهو يهز كتفيه: «يا آنسة تروتوود، لو أنكِ رجل محترم...».

قاطعته عمتي قائلة: «هه! كلام هراء! لا تتحدث إليَّ».

صاحت الآنسة مردستون: «كم هي في غاية الأدب! يا لقوة هذا الأدب حقًّا!».

قالت عمتي: «هل تظنين أنني لا أدرك الأمر؟ ألا أفهم كيف أحطتما هذه الطفلة المسكينة بحياة تعسة مضنية؟ هل تحسبين أنني لا أدرك طبيعة هذا اليوم المشؤوم الذي جئتِ فيه إلى هذه المخلوقة الصغيرة الرقيقة فاقتحمتِ طريقها لأول مرة. رحتِ تبتسمين متطلعة بعينين طامعتين نحوها، سأتجاهل حديثكِ، كما لو أنكِ أتفه من أن تقولي صه لإوزة!».

قالت الآنسة مردستون: «لم أسمع قَطُّ أي كلمات في مثل هذه الأناقة!».

تابعت عمتي قائلة: «هل تحسبين أنني لا أستطيع أن أفهمكِ كما لو لم أكشف أمركِ، بعد ما رأيته وسمعته منكِ الآن - الأمر الذي لم يمثل لي، بكل صراحة، سوى المتعة والتسلية؟ آهٍ حقًّا، فليحفظنا الله! فليحفظنا ممن على شاكلة السيد مردستون الذي يبدو لينًا وناعمًا في البداية! لم ترَ المسكينة الساذجة مثل هذا الرجل من قبل. كان شديد الجمال والعذوبة وأحبها حب عبادة. كان شغوفًا بصبيها - غمره بفيض من الحنان! كان من المفترض أن يكون أبًا آخر له، وليعيشوا جميعًا في حديقة حالمة من الورود، أليس كذلك؟ يا لهذا القرف! انسجموا معك جميعًا، ألم تفعل ذلك!».

صاحت الآنسة مردستون قائلة: «لم أسمع كلامًا مثل ما تتحدث به هذه المرأة في حياتي!».

قالت عمتي: «بعدما تأكدت من سيطرتك على هذه الحمقاء الصغيرة المسكينة - فليسامحني الله على وصفي لها بهذه الأوصاف، وقد ذهبت إلى مكان لن تذهب أنت إليه عاجلًا - لأنك لم تسئ إليها ولا إلى ولدها الإساءة الكافية، أليس كذلك؟ لقد بدأت في السيطرة عليها ثم ترويضها والتحكم في تصرفاتها، أليس كذلك؟ ثم بدأت في تحطيمها، مثل طائر مسكين بين قضبان القفص، فراحت المخدوعة تفني حياتها في الترنم بتعليماتك وأوامرك؟».

قالت الآنسة مردستون، بينما تتألم تمامًا لعدم قدرتها على تحويل مسار خطاب عمتي إليها: «هذا إما جنون أو عربدة، وأشك في أنه سكر وتيه».

واصلت الآنسة بيتسي حديثها إلى السيد مردستون، من دون الانتباه إلى هذه المقاطعات، كما لو لم يكن هناك شيء من هذا القبيل.

تحدثت إليه بينما تهز إصبعها في وجهه قائلة: «يا سيد مردستون، لقد كنت مجحفًا في حق الطفلة الساذجة، وقد كسرت قلبها. كانت طفلة مُحبة - أعرف ذلك، لقد أدركت الأمر، منذ رؤيتها قبل سنوات. لقد رحت تلوك جراحها في أحلك أيامها وأضعفها حتى ماتت. إنها الحقيقة التي أواجهك بها لتستريح؛ شئت أم أبيت. ولك أن تفهمها أنت وآلاتك بأقصى ما تستطيع إدراكه».

عقبت الآنسة مردستون قائلة: «اسمحي لي يا آنسة تروتوود أن أستفسر عن مقصدك من هذه الأوصاف، فإنني لست من ذوي الخبرة في اختيار مثل هذه الكلمات؛ فماذا تقصدين بآلات أخي؟».

مضت عمتي تقول: «كان الأمر واضحًا وجليًّا، كما أخبرتك، قبل أن تراها أنت بسنوات. أما السبب الذي جعلك تقابلها، فإنه من تدابير الله الغامضة، وحكمة أعمق من أن تدركها عقول البشر. كان من الواضح من دون شك أن هذه المسكينة التي لا حول لها ولا قوة ستتزوج برجل ما عاجلًا أو آجلًا، لكنني كنت أتمنى ألا يكون الأمر سيئًا إلى هذا الحد. كان هذا الوقت العثر يا سيد مردستون، عندما أنجبت ولدها الذي يقبع هنا، والذي جعلته سببًا لعذاب هذه الطفلة المسكينة بعد ذلك، ويا لها من ذكرى بغيضة تجعل من رؤيته لك مأساة الآن. نعم نعم! أعلم أن قولي صحيح من دون حاجتي إلى تأييد منك».

مكث واقفًا بجانب الباب، طوال هذا الوقت، مبديًا لها ابتسامة

ترتسم على وجهه، على الرغم من أن حاجبيه السوداوين كانا مقطبين. وإني لأصرح أنه في هذه اللحظة وعلى الرغم من أن الابتسامة كانت لم تزل مرتسمة على وجهه، فإن روحه كادت أن تتلاشى في لحظة، وبدا لاهثًا كما لو أنه يجري.

ثم أردفت عمتي قائلة: «أرجو لك يومًا سعيدًا يا سيدي، وداعًا!». ثم انقلبت فجأة نحو أخته قائلة: «يومًا سعيدًا لكِ أيضًا. ولو رأيتكِ تركبين حمارًا فوق أرضي الخضراء مرة أخرى، فإنني سوف أطوح بقبعتك من فوق رأسك فأدوسها بحق هذا الرأس المنتصب فوق كتفيكِ».

سيتطلب الأمر رسامًا، بل ليس رسامًا عاديًّا، ليصور ملامح وجه عمتي بينما تحاول التخلص من هذا الانفعال غير المتوقع على الإطلاق، وكذلك وجه الآنسة مردستون كما عهدته في هذه اللحظة. أما أسلوب هذا الحديث، فليس هين الشأن، لقد كان ناريًّا إلى الحد الذي جعل الآنسة مردستون لا تقوى على التفوه بكلمة واحدة، ومن ثَم تأبطت ذراع أخيها بصمت، وسارت خارج المنزل بغطرسة، وقد تتبعتهما عمتي بنظراتها عبر النافذة. كانت مستعدة، ولا شك لديَّ في الأمر، لتجديد تهديدها على الفور في حالة عودة ظهور الحمار.

لم يُقبل أي شخص على محاولة التحدي، ومن ثَم استرخى وجهها تدريجيًّا، وصارت في غاية اللين، إلى الحد الذي جعلني أتجرأ على تقبيلها وشكرها، وهو ما فعلته بقلب مفعم بالمشاعر، ثم شبكت ذراعيَّ حول عنقها. صافحت السيد دك، وقد صافحني هو مرات عديدة، وأخذ يحيي هذه النهاية السعيدة للأحداث مع نوبات ضحك متكررة.

قالت عمتي: «اعتبر نفسك وصيًّا، بالاشتراك معي، على هذا الطفل يا سيد دك».

قال السيد دك: «سأكون سعيدًا بوصايتي على ابن ديفيد».

أجابته عمتي: «حسنًا. ها قد استقر الأمر. هل تعرف يا سيد دك أنني كنت أفكر في أن أسميه تروتوود؟».

قال السيد دك: «بالتأكيد، بلا شك، فلتطلقي عليه اسم تروتوود، بالتأكيد. تروتوود ابن ديفيد».

راحت عمتي تقول: «تقصد تروتوود كوبرفيلد».

قال السيد دك، بعد أن ظهر عليه الحرج بعض الشيء: «نعم، بالتأكيد. نعم. تروتوود كوبرفيلد».

لقد تعاملت عمتي بكرم شديد مع فكرة شراء بعض الملابس الجاهزة، وقد ابتاعتها لي بالفعل بعد ظهر ذلك اليوم، وكتبت عليها قبل أن أرتديها اسم «تروتوود كوبرفيلد» بخط يدها وبحبر لا يمحى، واتفقت على أن يكتب اسمي بالطريقة نفسها على جميع الملابس الأخرى التي أمرت بتفصيلها لي - كان الزي الكامل قد خصص لي بعد ظهر ذلك اليوم، وكذلك ما تلاه من ملابس خصصت بالطريقة نفسها.

وهكذا بدأت حياتي الجديدة باسم جديد، وبكل ما هو جديد من أجلي. أما منذ هذه اللحظات فقد انتهت حالة الشك التي كانت تخامرني، وشعرت لعدة أيام، كما لو أنني في حلم. لم أفكر قَطُّ في وجود أي نوع من الوصاية المتجبرة عند عمتي أو السيد دك. لم أفكر في أي شيء

يخصني بشكل واضح. أما الأمران الأكثر وضوحًا في ذهني هما: أن بونًا شاسعًا قد فارق بيني وحياة بلندرستون القديمة، والتي بدت وكأنها تخفت خلف ضباب تفصله مسافة لا نهاية لها، وأن ستارة قد سقطت إلى الأبد على حياتي في مستودع مردستون وجرينبي. لم يرفع أحد هذا الستار منذ ذلك الحين. أما أنا فقد رفعت عنها النقاب للحظة في هذه الرواية، فدونتها بيدٍ مرتعشة ومن ثَم أنهيتها بكل سرور. إن إحياء ذكرى تلك الحياة محفوف بالكثير من الألم، مع ثلة من المعاناة الذهنية وخيبة للأمل، حتى إنني لم أمتلك من الشجاعة ما يعينني على التدقيق في المدة التي حُكم عليَّ فيها بخوض غمار هذه الحياة. لا أدري هل دامت لعام أو أكثر، أم أقل من هذا وذاك. أدرك فقط أنها انقضت، ولم يعد لها وجود، وأنني دونتها وهنا أفرغ من الحديث عنها.



الفصل الخامس عشر

أخوض بداية جديدة

صرت أنا والسيد دك من أفضل الأصدقاء سريعًا. كان ينهي عمله اليومي، ثم نخرج معًا في كثير من الأحيان ليطلق الطائرة الورقية الرائعة. ظل يجلس في كل يوم من أيام حياته، لمدة طويلة أمام مذكراته، والتي لم يكن يحرز فيها أدنى تقدم قَطُّ، مهما يكن من جهده المبذول، ذلك لأن الملك تشارلز الأول كان يضلله دائمًا، عاجلًا أم آجلًا، ومن ثَم يحاول تنحيته جانبًا، ليبدأ مرة أخرى. راح يتأرجح بين الصبر والأمل اللذين تحمَّل بهما خيبات الأمل الدائمة التي تداهمه، وظل يحمل تصورًا بأن ثمة شيئًا خاطئًا يخص الملك تشارلز الأول، وهذا ما يجعل من الجهود الضعيفة التي بذلها لإبعاده، وهذا اليقين الذي جاء به، سببًا أدى إلى تعثره. تركتْ المذكرات بكل ما أحاط بها من كواليس انطباعًا عميقًا في داخلي. رحت أفكر في الهدف الذي يفترضه السيد دك من كتابته لهذه المذكرات، في حالة الانتهاء منها؛ ما هي تصوراته عن فرص انتشارها بين الناس، أو ماذا سيفعل بها بعد ذلك، وأكبر الظن أنه لا يعرف أي شيء عنها مثله مثل أي إنسان آخر. ولم يكن من الضروري على الإطلاق أن يزعج نفسه بطرح مثل هذه الأسئلة، فإذا كان ثمة شيء مؤكد تحت هذه

الشمس، فهو أن هذه المذكرات لن تنتهي أبدًا. اعتدت التفكير في مشهد مؤثر للغاية، وذلك عندما أراه يراقب الطائرة الورقية بينما تحلق مرتفعة في الهواء، والتفكير فيما قاله لي في غرفته عن تصوراته عن العبارات المنقوشة عليها، والتي لم تكن سوى صفحات قديمة من مذكرات لم تكتمل بنجاح، ربما لم تكن أفكاره تلك سوى أوهام تراوده أحيانًا. أما عندما يصير بالخارج، فإنه يطيل النظر إلى الطائرة الورقية المحلقة في السماء، فإذا به يشعر بها تسحبه فيجرها في يده. كان يبدو هادئًا بصورة لم أعهدها فيه قَطُّ. كنت أنخرط في تخيلاتي، وأنا جالس بجانبه فوق منحدر أخضر في إحدى الأمسيات، ورحت أراقبه بينما يتابع بنظراته الطائرة الورقية المحلقة عاليًا في الفضاء الساكن، وكأنها ترفع عن ذهنه كل ما أربكه، فتحمله معها - هكذا كان تفكيري الطفولي - في السماء. كان يلف الخيط ويسحبه فتنخفض إلى أسفل هذا الضوء الجميل، حتى ترفرف فوق الأرض، ثم تستلقي عليها مثل شيء هامد. أما هو فقد بدا وكأنه يستيقظ تدريجيًّا فيفيق من هذا الحلم، بل أتذكر أنني رأيته يتناول الطائرة، ثم ينظر إليها ساهمًا، كما لو أن كليهما قد هبطا معًا، وحينها أشفقت عليه من أعماق قلبي.

كنت أتقدم في صداقتي وأوتد علاقتي بالسيد دك، من دون أن أتخلى عن استرضاء صديقته المخلصة؛ عمتي. لقد تعاملت معي بلطف بالغ، فقد قامت في غضون أسابيع قليلة باختصار اسمي الجديد المعتمد من تروتوود إلى تروت، وكذلك شجعتني على عدم فقدان الأمل في مواصلة العمل من أجل نيل درجة متساوية من محبتها لأختي بيتسي تروتوود.

قالت عمتي ذات مساء بعدما جهزت لعبة الطاولة كالمعتاد لها وللسيد دك: «يا تروت، يجب ألا ننسى أمر تعليمك».

كان هذا الأمر هو مبعث قلقي الوحيد، وقد شعرت بسعادة غامرة لإشارتها إليه.

قالت عمتي: «هل ترغب في الذهاب إلى المدرسة في كانتربري؟».

أجبتها بأنني أحب ذلك كثيرًا، لأنها قريبة جدًّا منها.

قالت عمتي: «جيد. هل ترغب في الذهاب إليها غدًا؟».

لم أُفاجأ بسرعة هذا الاقتراح؛ نظرًا لأنني قد اعتدت من عمتي السرعة في اتخاذ القرارات بشكل عام، ومن ثَم قلت: «نعم».

راحت عمتي تقول: «حسنًا. يا جانيت، فلتستأجري المهر الرمادي والمركبة في صباح الغد في الساعة العاشرة، واحزمي ملابس السيد تروتوود الليلة».

لفتني بهجة عارمة فور سماعي لهذه الأوامر. إلا أنني شعرت ألمًا داخل قلبي بعد أن صُدمت بأنانيتي، عندما شاهدت تأثير هذا القرار على السيد دك، والذي أحزنه احتمال فراقنا أشد الحزن، إلى الحد الذي جعله يلعب بشكل سيئ جدًّا نتيجة لذلك. أخذت عمتي تبدي له عدة علامات تحذيرية عن طريق النقر بعقل أصابعها فوق صندوق النرد في الجهة الخاصة بها، ثم أغلقت لوحة اللعب، ورفضت اللعب معه بعد ذلك. إلا أنه سمع أن عمتي تبلغني أن عليَّ القدوم في أيام السبت من وقت لآخر، كما أنه يستطيع أحيانًا أن يأتي لزيارتي في أيام الأربعاء، ولذلك

تهلل فرحًا، ثم وعدني بعمل طائرة ورقية أخرى بهذه المناسبة، تفوق بكثير الطائرة الحالية حجمًا. انقلب في الصباح حزينًا مرة أخرى، وكاد لا يتمالك نفسه أمام رغبته في إعطائي كل ما يملك من أموال، وكذلك كل ما لديه من ذهب أو فضة، لولا تدخل عمتي، وتحديدها أن تقتصر الهدية على خمسة شلنات، والتي تمت مضاعفتها بعد التماسه ورجائه. افترقنا عند بوابة الحديقة في ود بالغ، ولم يستطع السيد دك الدخول إلى المنزل إلا بعد أن دفعتني عمتي للمضي بعيدًا عن أنظاره.

لم تكن عمتي لتبالي بالأقاويل بشكل عام، ومن ثَم قادت المهر الرمادي عبر دوفر بطريقة بارعة، حيث جلست مشدودة الظهر في مظهر منضبط لتبدو مثل حوذي العربة، ومراقبة خطوات المهر في ثبات أينما توجه، حازمة في سيطرتها من دون السماح له بالحياد عن مسارها بأي صورة من الصور. وصلنا إلى طريق الريف، فسمحت للمهر بالاسترخاء قليلًا، ثم نظرت إليَّ بينما أستند إلى عددٍ من الوسائد بجانبها، فأخذت تسألني عما إذا ما كنت سعيدًا أم لا.

قلت: «إنني حقًّا سعيد للغاية، شكرًا لكِ يا عمة».

لفتها سعادة عارمة. وقد كانت كلتا يديها مشغولتين، ومن ثَم ربتت على رأسي بسوطها.

سألتها: «هل هي مدرسة كبيرة يا عمتي؟».

قالت عمتي: «لا أعرف حقيقة. إننا ذاهبان في البداية إلى السيد ويكفيلد».

سألتها: «هل يملك مدرسة؟».

قالت عمتي: «لا يا تروت، إنه يملك مكتبًا».

لم أسأل عن المزيد من المعلومات عن السيد ويكفيلد، لأنها لم تبُح بشيء آخر عنه، بل رحنا نتحدث عن موضوعات أخرى حتى وصلنا إلى كانتربري. صادف وصولنا يوم السوق، وقد انتهزت عمتي هذه الفرصة العظيمة وراحت تتجول بمهرها الرمادي بين العربات والسلال والخضراوات وسلع الباعة الجائلين. أما المنعطفات والالتواءات التي مررنا بها على نطاق واسع، فقد جلبت إلينا مجموعة متنوعة من الأوصاف أطلقها الواقفون، ولم تكن دائمًا مرحبة بنا، إلا أن عمتي قادت العربة بلا مبالاة تامة. أجرؤ على القول إنها كانت ستسلك الطريق نفسه بالقدر ذاته من الهدوء لو أنها كانت تعبر أرض العدو.

توقفنا في نهاية المطاف أمام منزل قديم للغاية، يقف بشموخ على قارعة الطريق. كان المنزل ذا نوافذ شبكية منخفضة وطويلة تطل جلية ظاهرة من على بعد، وعوارض ذات رؤوس منحوتة في نهاياتها وبارزة أيضًا، لذلك فقد خُيل لي أن المنزل بأكمله يميل إلى الأمام، محاولًا معرفة الشخص الذي يمر على الرصيف الضيق أسفله. كان المنزل نظيفًا تمامًا وبرَّاقًا. تدلَّت المطرقة النحاسية القديمة فوق الباب المقوس المنخفض ذي الزخارف المكونة من أكاليل منحوتة في باقة من الفاكهة والزهور، مما جعلها تتلألأ كما لو أنها نجمة لامعة. كانت درجتا السلم المنحوتتان من الحجر منبسطتين تحت الباب وقد لاح منهما البياض كما لو أنهما مغطتان بقماش جميل ناصع البياض. أما الزوايا والأركان، والمنحوتات والقوالب، وألواح الزجاج الصغيرة الجذابة، والنوافذ

الصغيرة الرقيقة، فقد بدت جميعها نقية على الرغم من أنها قديمة قدم التلال. بدا كل شيء صافيًا مثل ثلج سقط لتوِّه فوق سفوح التلال.

توقفت العربة عند باب ذاك البيت، وقد كانت عيناي مثبتتين على المنزل، فإذا بي أبصر وجهًا شاحبًا شحوب الموتى، يظهر عند نافذة صغيرة في الطابق الأرضي (عند مدخل دائري صغير مستقل يقبع عند أحد جانبي المنزل)، ثم اختفى بسرعة. ما لبث أن انفتح هذا الباب المقوس المنخفض حتى أطل منه هذا الوجه ذاته، وقد بدا كجثة هامدة، يشبه تمامًا الوجه نفسه الذي أطل من النافذة، على الرغم من أنه لم يخلُ من مسحة من اللون الأحمر الذي يمكن ملاحظته أحيانًا يكسو جلود ذوي الشعر الأحمر. كان صاحب هذا الوجه شابًّا في الخامسة عشرة من عمره، على حد ما أتذكره الآن، إلا أنه يبدو أكبر من هذا السن بكثير - كان حليق الرأس فلا يظهر من شعره إلا منابته، وبالكاد تبدو شعيرات حاجبيه، كما أنه يبدو بلا رموش، أما عيناه فبنيتان قريبتان إلى اللون الأحمر، لا تعلوهما أهداب وغير مظللتين بشيء يحميهما، حتى إنني أتذكر أنني رحت أتساءل كيف يخلد هذا الشاب إلى النوم. كانت عظام كتفيه بارزة، وقد ارتدى ثوبًا أسود حسن المظهر، مع قماشة بيضاء تلتف حول عنقه، وقد زرر قميصه حتى حلقه. أما يداه فطويلتان نحيفتان يكاد يبرز منهما العظم، وقد جذبتا انتباهي بشكل خاص، حين وقف على رأس المهر، وأخذ يفرك ذقنه بهما، وينظر نحونا ونحن جالسان في العربة.

قالت عمتي: «هل السيد ويكفيلد في المنزل يا يورايا هيب؟».

قال يورايا هيب: «نعم، إن السيد ويكفيلد في المنزل يا سيدتي، هلا تتفضلين بالدخول إلى هناك». مشيرًا بيده الطويلة إلى الغرفة التي قصدها.

نزلنا، وتركناه ليمسك بالمهر، ثم دخل إلى مدخل طويل منخفض السقف يطل على الشارع، وقد ألقيت النظر عبر النافذة في أثناء دخولي، فإذا بي ألمح يورايا هيب ينفث أنفاسه أمام خياشيم المهر، ثم يغطيها على الفور بيده وكأنه كان يلقي عليه تعويذة ما. ظهرت صورتان في مقابل المدخنة الطويلة القديمة، كانت إحداهما لرجل ذي شعر رمادي (وإن لم يكن رجلًا عجوزًا بأي حال من الأحوال) وذي حاجبين أسودين، ينظر نحو بعض الأوراق المربوطة ببعضها بشريط أحمر، أما الأخرى فلسيدة، ذات ملامح وجه هادئة ولطيفة للغاية، وقد كانت تنظر إليَّ.

أحسب أنني كنت على وشك أن أستدير بحثًا عن صورة يورايا، فإذا برجل يفتح بابًا من أقصى مكان في الغرفة، وإذا بي أستدير مرة أخرى نحو الصورة التي أسلفت ذكرها في البداية، حتى أتأكد من أنها لم تخرج من إطارها. لبثت الصورة ثابتة تِمامًا. تقدم الرجل بخطوات نحو النور، فإذا بي أبصره وقد بدا أكبر مما بدا عندما رسم صورته ببضع سنوات.

قال الرجل المحترم: «يا آنسة بيتسي تروتوود، تفضلوا بالدخول. لقد كنت مشغولًا للحظة، لكنكِ ستعذرين انشغالي هذا. إنكِ تدركين دوافعي؛ فليس لديَّ سوى دافع وحيد يبقيني على قيد الحياة».

شكرته الآنسة بيتسي، ثم توجهنا إلى غرفته، والتي كانت مفروشة بأثاث مكتبي، وتحوي كتبًا وأوراقًا وصناديق من الصفيح وما إلى ذلك. تطل الغرفة على حديقة، كما ظهرت بها خزانة حديدية مثبتة إلى الحائط فوق رف الموقد مباشرة. رحت أتساءل في أثناء جلوسي، كيف تدور عمليات المسح والتنظيف حول هذه الخزانة عندما يحين وقت تنظيف المدخنة.

قال السيد ويكفيلد - وكنت قد اكتشفت سريعًا أنه هو هذا الشخص، وأنه يعمل محاميًا ووكيلًا على ممتلكات رجل نبيل ثري في هذه المقاطعة: «حسنا، يا آنسة تروتوود. أي ريح أتت بكِ إلينا؟ أرجو ألا تكون ريحًا خبيثة، أليس كذلك؟».

أجابت عمتي: «نعم. لم آتِ لأي مسألة قانونية».

قال السيد ويكفيلد: «رائع يا سيدتي. من الأفضل أن تأتي من أجل أي شيء عدا ذلك». بدا أن الشيب قد غزا شعره تمامًا في ذلك الوقت، على الرغم من أن حاجبيه لم يزالا على سوادهما. كان وجه محببًا للغاية، بل أحسبه وسيمًا. بدا نوع من الصحة على بشرته، وهو نوع اعتدت منذ فترة طويلة أن أميزه في ظل تعليم بيجوتي لي، وأدركت أنه يعود إلى احتساء النبيذ، وقد تخيلت أنه يظهر في صوته أيضًا، وقد أحلْت بدانته المفرطة إلى السبب نفسه. كان يرتدي ملابس أنيقة للغاية، حيث معطفه الأزرق، وصدرية مخططة، وبنطال من القماش الفاخر. أما قميصه؛ فخفيف مزركش، وقد بدا مع وشاحه المخمري ناعمين وناصعي البياض بصورة غير معهودة، مما جعلني أجول بخيالي الواسع

الفضفاض فأتذكر الريش الذي يعلو صدر بجعة.

قالت عمتي: «هذا ابن أخي».

قال السيد ويكفيلد: «لم أكن أعلمَ أن لديكِ ابن أخ يا آنسة تروتوود».

عقبت عمتي قائلة: «أقصد أنه ابن شقيقي».

قال السيد ويكفيلد: «أؤكد لكِ قولي؛ إنني لم أكن أعلم أن لديكِ ابن أخ».

قالت عمتي، بعد أن أبدت حركة من يدها قصدت بها أن علمه أو جهله سيان بالنسبة لها: «لقد أحضرته إلى هنا لإلحاقه بمدرسة يتحصل من خلالها على مستوى جيد تمامًا من التدريس وحسن المعاملة. هلا أخبرتني الآن أين أجد مثل هذه المدرسة، وما اسمها، وكذلك كل شيء عنها؟».

قال السيد ويكفيلد: «قبل أن أدلي إليكِ بنصيحتي السديدة، فإنني سأطرح عليكِ السؤال القديم، كما تعلمين. ما الذي يدفعكِ إلى ذلك؟».

صاحت عمتي: «فلتقبض اللعنة على روح هذا الرجل! يصطاد دائمًا الدوافع، بينما تطفو أمامه على السطح! لماذا أفعل ذلك؟ لأجعل هذا الطفل سعيدًا وأحوله إلى إنسان نافع».

قال السيد ويكفيلد وهو يهز رأسه ويبتسم ابتسامة من لا يصدق هذا الكلام: «أظن أن الدافع مختلط متنوع».

راحت عمتي تقول: «ترهات مختلطة. إنك تدعي أنك تحظى

بدافع وحيد واضح في كل ما تفعله بنفسك. ألا تفترض -وإني أرجو ذلك- أنك لست التاجر البسيط الوحيد في هذا العالم؟».

عادت ابتسامته وراح يقول: «حقًّا، لكن لديَّ دافع واحد فقط في هذه الحياة يا آنسة تروتوود. أما الآخرون فلديهم العشرات والعشرات بل المئات من الدوافع. إن دافعي واحد وحيد، وهذا هو الفرق. إن كل ما قلناه فوق هذا خارج سؤالكِ. تسألين ما هي أفضل مدرسة؟ أتريدين معرفة الأفضل مهما كان الدافع؟».

أومأت عمتي بالموافقة.

قال السيد ويكفيلد: «إن أفضل الأحوال التي بين أيدينا لا تسمح لابن أخيكِ بالالتحاق بكافة خدمات الإقامة في المدرسة الآن».

اقترحت عمتي حلًّا قائلة: «إلا أنه يستطيع الحصول على ما أراد من خدمات المأكل وتنظيف الثياب والمبيت من مكان آخر، على حسب ظني؟».

حسب السيد ويكفيلد أنني أستطيع تنفيذ هذا الأمر. اقترح على عمتي بعد نقاش قصير أن يصطحبها إلى المدرسة، كي تراها وتحكم عليها بنفسها، وليأخذها أيضًا لتفقد منزلين أو ثلاثة منازل، لإتمام الأمر نفسه، حيث يتصور أنني أستطيع المكوث في أحدها. قبلت عمتي الاقتراح، وكنا جميعًا في طريقنا للخروج معًا، فإذا به توقف ثم راح يقول:

«قد يكون لدى صديقنا الصغير بعض الدوافع - ربما - للاعتراض على هذه الترتيبات. أظن أنه كان من الأفضل أن نتركه ونذهب نحن، أليس كذلك؟».

بدت عمتي على استعداد للاعتراض على هذا الأمر، ولكني حاولت تسهيل الأمور فقلت إنني سأبقى هنا بكل سرور، إن رغبا في ذلك. عدت بعد ذلك إلى مكتب السيد ويكفيلد، وجلست مرة أخرى على المقعد الذي كنت أشغله في بداية الأمر في انتظار عودتهما.

كان هذا الكرسي ينتصب في مقابل ممر ضيق، حيث ينتهي إلى غرفة دائرية صغيرة في المكان الذي رأيت فيه وجه يورايا هيب الشاحب بينما ينظر من النافذة. أخذ يورايا يعمل في مكتب في هذه الغرفة، بعد أن أخذ المهر إلى إسطبل مجاور. كان يعلو مجلسه إطار نحاسي لتعليق الورق، أما الورقة التي يكتب منها لينسخها فكانت معلقة أمامه. ظهر وجهه مقابل وجهي مباشرة، إلا أنني كنت أظن لبعض الوقت، أن أوراق الكتابة المعلقة بيننا تجعله لا يستطيع رؤيتي. راحت نظراتي في هذا الاتجاه باهتمام متزايد تجعلني أشعر بعدم الارتياح، إذ لاحظت أنه بين الحين والآخر، تظهر عينه الطائشة أمامي من بين أوراق الكتابة، فتبدو لي مثل شمس متوهجة، وقد أخذ يحدق بي خلسة - بل أجرؤ على القول إنه كان يحدق بي طوال دقيقة كاملة في كل مرة - إلا أن قلمه لم يكف عن الكتابة طوال الوقت، أو ربما كان يتظاهر بالمضي في الكتابة بذكاء لم أشهده من إنسان في أي وقت مضى. بذلت عدة محاولات للتهرب من نظراته - مثل الوقوف على كرسي لإلقاء نظرة على خريطة معلقة على الجانب الآخر من الغرفة، أو التأمل في أعمدة صحيفة تُدعى «كنتيش» - إلا أن نظراته ظلت تجذبني إليه مرة أخرى، وكلما نظرت

نحو هذين الشمسين المتوهجتين، كنت أتيقن من أنني سأقابلهما إما مرتفعتين لأعلى أو تنظران إلى الأمام.

أخيرًا، عادت عمتي وعاد السيد ويكفيلد، بعد غياب طويل، مما بث في داخلي نوعًا من الارتياح. لم يحرزا التوفيق الذي كنت أرجوه، فقد كانت مزايا المدرسة لا يمكن إغفالها، إلا أن عمتي لم توافق على أي من المساكن الداخلية المقترحة لإقامتي بها.

قالت عمتي: «إنه أمر مؤسف للغاية. إنني لا أعرف ماذا أفعل يا تروت».

قال السيد ويكفيلد: «هذا يحدث لسوء الحظ. إلا أنني سأخبركِ بما يمكنكِ فعله يا آنسة تروتوود».

سألته عمتي: «ما العمل؟».

أجاب قائلًا: «فلتتركي ابن أخيكِ هنا، في الوقت الحاضر. إنه صبي هادئ. لن يزعجني على الإطلاق. أما المنزل فكبير بما يسمح بالدراسة، وهادئ كالدير، بل يكاد يكون في اتساعه. فلتتركيه هنا».

كان من الواضح لي أن عمتي قد أعجبت بهذا العرض، على الرغم من أنها كانت محرجة من قبوله، وكنت بالمثل محرجًا. قال السيد ويكفيلد: «هيا يا آنسة تروتوود. إنه المخرج المتاح لهذه المشكلة. سيكون ترتيبًا مؤقتًا فقط، كما تعلمين. إذا لم يتم على أكمل وجه، أو لم يتوافق تمامًا مع راحتنا المتبادلة، فيمكننا بسهولة الانتقال إلى مسار آخر صحيح. سيتاح أمامنا الوقت للعثور على مكان أفضل له في هذه المدة.

من الأفضل لكِ أن تتركيه هنا في الوقت الحاضر».

قالت عمتي: «إنني في غاية الامتنان لصنيعك، وإنه لممتن كذلك، كما أرى، لكن...».

صاح السيد ويكفيلد قائلًا: «لا عليكِ. إنني أعرف ما تقصدين قوله. لن أثقل عليكِ بقبول مزيد من الخدمات يا آنسة تروتوود، بل يمكنكِ - إذا أردتِ - أن تدفعي له مقابل احتياجاته. لن نختلف على هذه الشروط، لكن عليكِ أن تدفعي له إذا أردتِ ذلك».

قالت عمتي: «بناءً على هذا التفاهم، وعلى الرغم من أن هذا الأمر لن يقلل من معروفك الحقيقي، فإنني سأكون ممتنة جدًّا لتركه عندكم».

قال السيد ويكفيلد: «هيا تعالي لتتعرفي على مدبرة منزلي الصغيرة».

استجبنا للنداء وبناءً عليه صعدنا سلمًا قديمًا فاخرًا، يحوطه درابزين واسع للغاية، حتى إننا ربما نستطيع صعوده عوضًا عن درجات السلم بالسهولة نفسها تقريبًا. وصلنا إلى غرفة استقبال قديمة مظللة، يتسلل إليها الضوء عبر ثلاث أو أربع نوافذ جذابة، تلك النوافذ التي أبصرتها حين مررت بالشارع. احتوت الغرفة على مقاعد قديمة من خشب البلوط، ويبدو أنها أتت من الأشجار نفسها التي صنعت منها أرضية البلوط اللامعة، وكذلك العوارض العظيمة التي تقيم السقف. كانت الغرفة مؤثثة بكل جميل، كما ضمت بيانو وبعض الأثاث النابض بالحياة المزين باللونين الأحمر والأخضر، وكذلك زينتها بعض الزهور. بدت كل الزوايا والأركان عتيقة، وقد احتوت كل زاوية وكل ركن على طاولة صغيرة، أو خزانة، أو حاوية، أو مقعد، أو أي شيء آخر. رحت

أحسب مع كل ركن من أركان الغرفة أنه بلا مثيل يضاهيه جمالًا، حتى تلتفت عيني إلى ركن آخر، فإذا بي أجده مساويًا له في الجمال، إن لم يكن أجمل. لاح كل شيء تلفه روح السكون والنظافة نفسها، والتي ميزت المنزل وبدت عليه من الخارج.

نقر السيد ويكفيلد فوق أحد الأبواب القابع في ركن من الأركان، وقد كان مغطى بألواح خشبية، فإذا بفتاة في مثل سني تقريبًا تجري مسرعة، ومن ثَم قبَّلته. لاحظت على الفور سمات وجهها، فإذا بها تحمل التعبير الهادئ والعذب نفسه للسيدة التي أبصرت صورتها في الطابق السفلي. بدا لخيالي كما لو أن الصورة قد نمت، أما أصل الصورة فلم ينمُ بل أبقى الفتاة على طفولتها. لاح وجهها مشرقًا وسعيدًا، وقد لفته وزينته روح هدوء وسكينة وطيبة، لم أنسَها قَطُّ، بل ولن أنساها أبدًا. قال السيد ويكفيلد، إن هذه هي ربة منزله الصغيرة، إنها ابنته أجنيس. سمعت الطريقة التي قال بها إنها ابنته، ورأيت كيف أمسك بيدها، وبذلك أدركت الدافع الوحيد في حياته.

كانت تحمل سلة صغيرة معلقة إلى جانبها، تحوي مفاتيح، وقد بدت هادئة ووقورة مثل ربة منزل تليق بمثل هذا المنزل العتيق. أنصتت إلى والدها بينما يخبرها عني بوجه لطيف. اقترح على عمتي بعد أن أنهى حديثه أن نصعد إلى الطابق العلوي لنتفقد غرفتي. ذهبنا معًا - بينما كانت هي من يتقدمنا - وإذا بالغرفة قديمة وفاخرة، تحوي الكثير من عوارض البلوط وألواح الزان، بعد أن اتصل بها الدرابزين العريض الذي يؤدي إليها.

لا أستطيع أن أتذكر أين ومتى رأيت نافذة زجاجية ملونة في الكنيسة فيّ طفولتي. ولا أتذكر المناسبة التي رأيتها فيها، لكنني أعلم أنني عندما رأيتها تستدير في ضوء الدرج القديم، بعد أن انتظرتنا في الأعلى، فإنني قد رحت أفكر في تلك النافذة، وربطت بينها وسطوع النور الهادئ الذي يحيط بأجنيس ويكفليد، ثم مكثت هذه الصورة في خاطري عنها إلى الأبد.

كانت عمتي سعيدة بهذا الترتيب الذي أعد لي، وكنت بدوري سعيدًا أيضًا. نزلنا إلى غرفة الاستقبال مرة أخرى، ونحن في غاية السعادة والامتنان. إلا أنها لم توافق على البقاء حتى تناول الغداء؛ خشية أن تُفوت فرصة الوصول إلى المنزل بالمهر الرمادي قبل حلول الظلام. فهمت بدوري أن السيد ويكفيلد يعرفها حق المعرفة، ويدرك جيدًا أنه لا حاجة له لمجادلتها في أي موضوع، ولذلك فقد وفر لها بعض الطعام لتتناوله في طريقها. عادت أجنيس إلى مربيتها، وعاد السيد ويكفيلد إلى مكتبه، وتركانا معًا ليودع كل منا الآخر من دون خجل من وجودهما.

أخبرتني عمتي أن السيد ويكفيلد هو الذي سيرتب كل أموري، وأنني لن أحتاج إلى شيء هنا، ثم شجعتني بأفضل العبارات ومنحتني أثمن النصائح.

قالت عمتي في الختام: «يا تروت. أحسِن إلى نفسك، وكن فخرًا لي وللسيد دك، وليكن الله معك!».

تأثرت إلى أبعد مدى، ولم أستطع إلا أن أشكرها، ثم عاودت شكري لها عدة مرات، وأرسلت محبتي إلى السيد دك.

قالت عمتي: «إياك أن تصير لئيمًا في أي شيء، وإياك أن تصير كاذبًا أبدًا، وإياك أن تجعل قلبك قاسيًا. تجنب هذه الرذائل الثلاث يا تروت، وساعتها سأصير فخورة بك دومًا».

وعدتها، قدر استطاعتي، بألا أخيب ما منحته لي من لطف وألا أنسى نصائحها.

قالت عمتي: «إن المهر عند الباب، سأنصرف! ابقَ هنا». احتضنتني على عجل بعد هذه الكلمات، ثم خرجت من الغرفة، وأغلقت الباب وراءها. شعرت في البداية بالذهول إثر هذا الرحيل المفاجئ، بل كدت أخشى أن أكون قد أغضبتها في شيء، ولكن عندما نظرت إلى الشارع، رأيت كيف لفها الأسى حين صعدت إلى الكرسي، ثم انطلقت بعيدًا من دون أن ترفع نظراتها إلى أعلى، ففهمتُ موقفها ونحَّيت عن عقلي هذا الظلم.

حانت ساعة غداء السيد ويكفيلد بحلول الساعة الخامسة، وكنت قد استجمعت قواي مرة أخرى، وصرت مستعدًّا لالتقاط السكين والشوكة. بسطت أقمشة المائدة أمامنا نحن الاثنين فقط؛ أما أجنيس فقد كانت تنتظر في غرفة الاستقبال قبل الغداء، ثم نزلت مع والدها وجلست أمامه على المائدة. أغلب الظن أن السيد ويكفيلد لن يقدم على تناول الغداء من دون ابنته.

لم نجلس في الغرفة نفسها بعد الغداء، بل عدنا إلى غرفة الاستقبال في الطابق العلوي مرة أخرى. كانت أجنيس قد جهَّزت في إحدى الزوايا الدافئة كؤوسًا لوالدها، ودورقًا من نبيذ البورت. أحسب أنه كان

ليفوِّت على نفسه الاستمتاع بنكهة النبيذ المعتادة، لو قُدِّم له بيد أخرى غير يد ابنته.

جلس هناك، يحتسي نبيذه، وقد أخذ يستزيد منه لمدة ساعتين، بينما كانت أجنيس تعزف على البيانو، وكذلك حاكت قليلًا، وتحدثت إلينا. كان السيد ويكفيلد لطيفًا ومبتهجًا معنا في معظم الأوقات، إلا أن عينيه كانتا تقعان عليها في بعض الأحيان، فيغوص في حالة من الحزن، ويصمت. أتصور أنها كانت دومًا تلاحظ الأمر بسرعة، فتهم بطرح سؤال أو إلقاء مداعبة، ومن ثَم يخرج من شروده ويعاود شرب المزيد من النبيذ.

أعدت أجنيس الشاي وترأست طاولته، ثم مضى الوقت كما مضى بعد الغداء حتى خلدت إلى النوم. ضمها والدها بين أحضانه وقبَّلها، وقبل أن تذهب طلب منها بعض الشموع في مكتبه، ثم أويت أنا كذلك إلى الفراش.

إلا أنني رحت أتجول في المساء نحو الباب، ثم مشيت قليلًا على امتداد هذا الطريق، حتى أتمكن من إلقاء نظرة أخرى على المنازل القديمة، والكاتدرائية الرمادية، وقد رحت أفكر في مجيئي ومروري بهذه المدينة القديمة في رحلتي، وكذلك احتمال مروري بالمنزل الذي عشت فيه من دون أن أتعرف عليه. عدت مرة أخرى، فإذا بي أبصر يورايا هيب يغلق المكتب، وقد كنت أشعر بالود تجاه الجميع، فأقبلت عليه وتحدثت معه، وقبل مفارقته مددت إليه يدي لمصافحته، ولكن يا لها

من يد رطبة! شبحية الملمس كما كان شبحي الهيئة! ومن ثَم فركت يدي بعد سلامي لتدفئتها، وإزاحة عرقه البارد منها.

ضايقني ملمس يده. ذهبت إلى غرفتي، بينما لم تزل يدي باردة ومبللة، وقد علق هذا الشعور بمخيلتي، حتى إنني حين اتكأت على النافذة، رحت أتخيل أحد الوجوه المرتسمة فوق طرف العارضة الخشبية، وقد أخذ ينظر إليَّ بجانب عينيه، بل تخيلت أنه يورايا هيب، وأنه قد تمثَّل هناك بطريقة ما، ومن ثَم أغلقت النافذة على عجل.



الفصل السادس عشر

إنني صبي جديد على أكثر من مستوى

ما إن حل صباح اليوم التالي، وانقضى الفطور، حتى بدأت الحياة الدراسية من جديد. ذهبت، برفقة السيد ويكفيلد، إلى معهد دراساتي المستقبلية؛ وهو مبنى شامخ ينتصب وسط فناء واسع، يحفه جو من وقار العلم، حتى ليبدو مناسبًا تمامًا كمحطة للطيور الضالة والغربان التي تهبط من أبراج الكاتدرائية لتتمشى على رقعة الأرض الخضراء، بعد أن لفحها وقار العلم. تعرفت إلى أستاذي الجديد الذي يدعى دكتور سترونج.

لاح الدكتور سترونج أمام ناظري صدئًا إلى حد ما، مثل القضبان الحديدية الطويلة والبوابات خارج المنزل، بل بدا صلبًا وثقيلًا مثل الجرار الحجرية الكبيرة التي أحاطت بالبوابات العتيقة، والتي توضع على قمة جدار من الطوب الأحمر، على مسافات منتظمة في جميع أنحاء الفناء، أو مثل جرار لعبة البولنج، التي تراصت استعدادًا للعب فأنهكها الزمان. كان في مكتبه (أقصد مكتب دكتور سترونج، ولا أقصد الزمان)، يرتدي ملابس غير مهندمة على وجه مقبول، أما شعره فغير ممشط، وضمادات ركبته الصغيرة غير مربوطة بإحكام، وكذلك جواربه

السوداء الطويلة متدلية فوق حذائه، أما زوج حذائه فيتثاءبان مثل كهفين فوق سجادة المدفأة. لفتت عينه الباهتة انتباهي؛ فذكَّرتني بفرس عجوز أعمى منسي منذ زمن طويل، كان قد اعتاد يومًا أن يمضغ العشب، ويتخبط فوق شواهد القبور في باحة كنيسة بلندرستون. تحدث إليَّ دكتور سترونج وقال إنه سعيد برؤيتي، ثم مد إليَّ يده فلم أعرف ماذا أفعل بها، لأن هذه اليد لم تستطع أن تقدم شيئًا لنفسها.

جلست سيدة شابة فاتنة للغاية على مقربة من الدكتور سترونج - كان يدعوها آني، وأغلب الظن أنها ابنته - وهي من أخرجني من ارتباكي بعد أن انحنت لتُلبس دكتور سترونج حذاءه، وتُحكم جواربه، وهو ما فعلته ببهجة وسرعة واضحتين. ما إن انتهت من ذلك، حتى توجهنا إلى قاعة الدراسة. انتابتني الدهشة حين سمعت السيد ويكفيلد يلقي عليها تحية الصباح بينما يخاطبها بقوله «السيدة سترونج»، ورحت أتساءل هل يمكن أن تكون زوجة لابن الدكتور سترونج؟ أم إنها يمكن أن تكون زوجة الدكتور سترونج؟ إلى أن قام دكتور سترونج نفسه بتوضيح مَن تكون، من دون قصد منه، حين توقف في وسط الممر بينما يسند يده فوق كتفي، وراح يقول: «بالمناسبة يا ويكفيلد، ألم تجد عملًا يناسب ابن عم زوجتي إلى الآن؟».

قال السيد ويكفيلد: «لا. لا. لم أجد ما يناسبه إلى الآن».

قال الدكتور سترونج: «أتمنى أن تجد له عملًا في أقرب وقت ممكن يا ويكفيلد، لأن جاك مالدون متكاسل وعاطل، ومن هذيْن الأمرين السيئين تتأتَّى كل الشرور في أغلب الأحيان». استطرد حديثه

بعد ذلك، بينما ينظر إليَّ ثم يحرك رأسه في الوقت الذي يتلو فيه قولًا مقتبسًا، فراح يقول: «إن الشيطان لا يجد طريقًا لأذى أسهل من طريق الأيدي العاطلة».

أجاب السيد ويكفيلد قائلًا: «أقسم بالله يا دكتور، إنه إذا كان الدكتور واطس قد عرف البشرية بأكملها، لكتب ما يحمل الكثير من وجه الحقيقة، فيقول: «إن الشيطان لا يجد طريقًا لأذى، أسهل من طريق الأيدي العاملة لتقوم به». إن الأشخاص المشغولين يحققون نصيبًا كاملًا من الأذى في هذا العالم. ثق في كلامي؛ أليس الهدف الذي كان يدور حوله الناس، ممن هم أكثر انشغالًا، هو الحصول على المال، أو الحصول على السلطة، في هذا القرن أو القرنين الآخرين من الزمان؟ ألم يقترفوا بذلك شرًّا؟».

قال الدكتور سترونج بينما يفرك ذقنه على مهل: «لن يكون جاك مالدون مشغولًا أبدًا إلى هذا الحد فيحصل على أي منهما، وهذا ما أتوقعه».

قال السيد ويكفيلد: «حقًّا ربما، ها أنت تعيدني إلى موضوعنا، وأعتذر لك عن الاستطراد في أمره بهذا الشكل. إنني لم أتمكن من الوصول إلى حل في أمر السيد جاك مالدون حتى الآن». تردد هنا للحظات ثم أكمل حديثه قائلًا: «إنني أتعمق أكثر في دافعك، وهذا ما يجعل الأمر أكثر صعوبة».

راح دكتور سترونج يقول: «إن دافعي هو توفير عمل مناسب لابن عم آني، وزميل لعبها وطفولتها القديم».

قال السيد ويكفيلد: «نعم، أدرك ذلك. إنك تسعى له في طلب العمل في الداخل أو في الخارج».

رد الدكتور بلهجة تبدو متسائلة عن مغزى تشديده على هذه الكلمات كثيرًا، فقال: «في الداخل أو في الخارج».

قال السيد ويكفيلد: «إنه تعبيرك الخاص، كما تعلم، فقد قلتَ: أو في الخارج».

أجاب الدكتور: «حقًّا بكل تأكيد. هنا أو أي مكان آخر».

سأل السيد ويكفيلد: «هنا أو أي مكان آخر، أليس لديك اختيار منهما؟».

أجاب الدكتور قائلًا: «لا».

رد في دهشة مرددًا: «لا!».

«لا، على الإطلاق».

قال السيد ويكفيلد: «ألديك دوافع تجعلك تقول في الخارج وليس داخل حدود الوطن؟».

أجابه الدكتور قائلًا: «لا».

قال السيد ويكفيلد: «لا مفر أمامي من تصديقك، وبالطبع أنا أصدقك. لو أدركت الأمر قبل الآن، لربما باتت مهمتي أيسر بكثير. إلا أنني أعترف أنني فهمت شيئًا آخر».

نظر إليه الدكتور سترونج نظرة تحمل ارتباكًا وريبة، لكنها سرعان ما هدأت على الفور وتحولت إلى ابتسامة أراحت خاطري إلى أبعد

مدى، لأنها كانت مفعمة بالود والجمال، وتحمل زخمًا من البساطة والتواضع شملتْ كل تصرفاته وحركاته، كما لو أنها أزاحت برودة الصقيع الذي حاوطها. كانت هذه النظرة مشجعة لشاب مثلي مقدم على التعلم، وباعثة على الأمل. ظل دكتور ستروج يُكرِّر بعض الكلمات قائلًا: «لا، كلا، على الإطلاق»، وما على شاكلتها من عبارات التأكيد القصيرة التي تحمل المعنى ذاته، بينما يسير أمامنا بخطوات متخبطة. وقد تبعنا السيد ويكفيلد، وقد بدا جادًّا، بل لاحظت أنه أخذ يهز رأسه لنفسه، من دون أن يدرك أنني رأيته.

كانت قاعة الدراسة كبيرة جدًّا متسعة الأرجاء، تقع في أحد أكثر الجوانب هدوءًا في المنزل، في مواجهة عدد من الجرار الكبيرة الفخمة، والتي تطل على حديقة قديمة مستقلة يملكها الدكتور. تبدو ثمار الخوخ في الحديقة وهي على وشك النضوج، كما تدلت الأوراق الخضراء فوق حائط جنوبي تتعامد عليه أشعة الشمس. لاحت صبارتان عظيمتان في حوض مزروع بجوار العشب المنبسط خارج النوافذ، وقد تجلت أوراق الصبار العريضة الصلبة كما لو أنها مصنوعة من القصدير الملون، بل ظلت منذ تلك اللحظة منطبعة في خيالي، فترمز لي إلى الهدوء والسكينة. ظهر عند دخولنا ما يقارب خمسة وعشرين فتى مشدوهين بجد إلى كتبهم، إلا أنهم نهضوا لإلقاء تحية الصباح على الدكتور، وظلوا واقفين بعدما أبصروني كذلك بصحبة السيد ويكفيلد.

قال الدكتور: «إنه فتى جديد، أيها السادة اليافعون. إنه تروتوود كوبرفيلد».

تقدم أحدهم من مكانه، ويدعى آدمز، وهو أول دفعته، ورحب بي. كان يبدو بربطة عنقه البيضاء مثل رجل دين شاب، إلا أنه كان ودودًا ومرحًا. أرشدني الشاب إلى مكاني، وقدمني إلى المعلمين، بطريقة مهذبة من شأنها أن تجعلني أشعر بالراحة، وإذا هو أهم أثر يمكن تركه.

شعرت أن زمانًا سحيقًا يفرق بيني وآخر مرة كنت فيه بين أولاد مثل هؤلاء، أو بين أي رفاق في عمري بشكل عام، باستثناء مك ووكر وميلي بوتيتوز، إلى الحد الذي جعلني أشعر بنوع من الغرابة لم أشعر بها طوال حياتي. أدركت أنني قد خضت تجارب لم يخوضوا مثلها في حياتهم، بل اكتسبت خبرات من مواقف غريبة تتجاوز عمري ومظهري، وتفوق كوني شابًا في مثل سنهم، حتى إنني حسبت أن المجيء إلى هنا بصفتي تلميذًا صغيرًا عاديًا، نوع من الاحتيال. مكثت طوال الوقت الذي عملت فيه في متجر مردستون وجرينبي - مهما طالت المدة أو قصرت - من دون أن أفهم ألاعيب الصبية وتساليهم، حتى إنني أجدني محرجًا وعديم الخبرة في أكثر الأشياء شيوعًا بينهم. كان كل ما تعلمته قد هجرني وفارقني وسط ما شغلت به من هموم حياتي القاسية من مطلع النهار إلى انقضاء الليل. أما الآن، وبعد اختباري فيما تعلمته تبين أنني لم أعد أذكر شيئًا، ولذلك ألحقوني بأدنى فصل دراسي من فصول المدرسة. كنت مرتبكًا إلى أبعد مدى، بسبب قلة خبرتي بالمهارات الصبيانية وضآلة معرفتي بعلوم الكتب أيضًا، مما جعلني أشعر بضيق بالغ بسبب التفكير في أن معارفي أبعد ما تكون عن معارف رفاقي. جال بخاطري ما قد يفكرون به، إذا ما علموا عن معارفي بأحوال سجن

الملك، وهل ثمة شيء يكشف عن تصرفاتي المتعلقة بأمور عائلة ميكوبر؟ هل سأفعل شيئًا رغمًا عني سيجعلهم يعرفون شيئًا مما فعلت من رهون وبيع وطريقة الغداء؟ لنفترض أن أحدًا من هؤلاء الأولاد قد رآني قادمًا من كانتربري، في ثيابي البالية الخشنة، فهل سيفضح أمري؟ أي شيء سيقوله أهل المال الوفير، ممن لا يعبأون بصرف بعض منه، لو عرفوا كيف كنت أتحصل على القليل من المال، فأحرص على ألا أبدده إلا لأشتري قوتي اليومي وشرابي أو قطعة صغيرة من البودينج؟ كيف سيفهمني من لم يجرب أسرار الحياة في لندن، بالأخص في شوارعها؟ ما ردهم لو اكتشفوا معرفتي (وإن كنت خجلًا من هذه المعرفة) للوجه القبيح البائس لها؟ لقد راحت كل هذه الأفكار تجول في رأسي طوال الوقت، منذ هذا اليوم الأول الذي التحقت فيه بمدرسة دكتور سترونج، حتى إنني أحسست بخجل وعدم ثقة من أدنى نظرة أو إيماءة، فإذا بي أنكمش على نفسي كلما اقترب مني أحد زملائي الجدد في المدرسة، بل رحت أسرع مبتعدًا عن المدرسة بعد انتهاء الدراسة في التوِّ واللحظة، خائفًا من إلزام نفسي بالرد على أي سؤال أو مجاملة أو ملاحظة من أي إنسان.

إلا أنني وجدت في منزل السيد ويكفيلد العتيق أثرًا طيبًا جعلني حين أطرق بابه متأبطًا كتبي المدرسية الجديدة تحت ذراعي، يغمرني الارتياح ويزول عني اضطرابي. أصعد إلى غرفتي القديمة خفيفة الريح فيتراءى لي أن هذا السلم الساكن يرمي بظلاله فوق هواجسي ومخاوفي، فخفي عني ذلك الماضي الملتبس. أجلس هناك، متأملًا

كتبي في سكون، حتى وقت الغداء - كنا نخرج من المدرسة في الساعة الثالثة دومًا - فأنزل على أمل أن أصير غلامًا نافعًا في يوم من الأيام.

كانت أجنيس تجلس في الصالون في انتظار والدها، بعد أن احتجزه شخص ما في مكتبه. قابلتني بابتسامتها الجميلة، وسألتني عما إذا كنت قد أحببت المدرسة. قلت لها إنني أرجو أن أتأقلم معها وأحبها، إلا أنني لم أزل غريبًا عنها بعض الشيء في بداية الأمر.

قلت لها: «ألم تذهبي إلى المدرسة قَطُّ؟».



أجابت: «بلى، أذهب كل يوم».

«آه، ولكن هل تقصدين أنكِ تتعلمين هنا، في منزلك؟».

أجابت بعدما ابتسمت وأومأت برأسها، قائلة: «لم يستطع أبي أن يتركني لأذهب إلى أي مكان. فكما تعلم، يجب أن تكون ربة منزله متواجدة في البيت».

قلت لها: «إنه مغرم بكِ للغاية، إنني على يقين من ذلك».

أومأت برأسها قائلة: «نعم»، ثم توجهت نحو الباب لتسمع صوت أقدامه حتى تقابله على السلم. إلا أنه لم يكن قد جاء بعد، فعادت مرة أخرى.

تحدثت بطريقتها الهادئة قائلة: «لقد ماتت أمي بعد ولادتي. إنني لا أعرف سوى صورتها الموجودة في الطابق السفلي. رأيتك تنظر إليها بالأمس. هل فكرت من هي صاحبة هذه الصورة؟».

قلت لها نعم، لقد توقعت أنها والدتها، لأن الصورة تشبهها تمامًا.

قالت أجنيس في سعادة: «إن أبي يقول هذا الكلام أيضًا. أصغِ! ها هو بابا قادم الآن!».

أشرق وجهها الوضَّاء الهادئ وتهلل بالسرور حين ذهبت لمقابلته، وقد أقبلا متشابكين يدًا بيد. استقبلني والدها بحرارة، وأخبرني أنه سعيد بلا شك لأنني تحت إشراف الدكتور سترونج الذي كان أحد أرق الرجال طبعًا.

قال السيد ويكفيلد: «ربما ترى بعض الناس يسيئون إليه أو يستغلونه، وإن كنت لا أعرف أحدًا يقوم بهذا الأمر. لا تكن أبدًا واحدًا من هؤلاء المسيئين يا تروتوود، على أي مستوى. إنه أقل الناس ريبة في أي شيء، وسواء كانت هذه ميزة أو كانت عيبًا، فإن الدكتور يستحق الاحترام في جميع التعاملات؛ كبيرة كانت أم صغيرة».

كان يتكلم كما لو أنه متعب أو غير راضٍ عن شيء ما. إلا أنني لم أتابع هذا الفكرة ولم أشغل بها ذهني، فقد أعلن عن الغداء في هذا الوقت، فنزلنا وشغلنا المقاعد نفسها، كما جلسنا من قبل.

ما إن جلسنا حول المائدة، حتى ظهر يورايا هيب برأسه الأحمر ويده النحيلة المبللة، مستندًا إلى الباب، وراح يقول:

«إن السيد مالدون هنا، ويستأذن في التحدث إليك يا سيدي».

قال سيده: «لقد أنهيت حديثي مع السيد مالدون توًّا».

أجاب يورايا قائلًا: «نعم يا سيدي، لكن السيد مالدون عاد ثانية، ويستأذن في التحدث إليك».

كان يورايا ممسكًا بالباب ليبقيه مفتوحًا، وقد راح ينظر إليَّ، وينظر إلى أجنيس، وينظر إلى الأطباق، وينظر إلى الصحون، وينظر إلى كل شيء في الغرفة، وإن كنت أظن أنه لم يكن قد نظر إلى شيء؛ بدا طوال الوقت أنه يركز عينيه الحمراوين على سيده بإخلاص. لاحظ تدخل صوت من وراء يورايا، بعد أن أزيح رأسه بعيدًا، وحل المتحدث محله، وأخذ يقول: «أستميحك عذرًا. أريد فقط أن أقول، إنني بعد تفكير... فلتعذرني على هذا التطفل. يبدو أنني لا أملك حرية الاختيار في هذا الأمر، ومن الأفضل أن أسرع بالسفر إلى الخارج. لقد قالت ابنة عمي آني، عندما تحدثنا عنها، إنها تحب أن يكون أصدقاؤها على مقربة منها بدلًا من إبعادهم، أما الدكتور العجوز...».

قاطعه السيد ويكفيلد في حزم وقال: «تقصد دكتور سترونج، أليس كذلك؟».

استطرد الآخر قائلًا: «إنه دكتور سترونج بالطبع، وإنني أسميه الدكتور العجوز. إنك تعلم أن كليهما سيان».

رد السيد ويكفيلد قائلًا: «لا أعرف أنهما سيان».

قال الرجل الآخر: «حسنًا، إنه دكتور سترونج. إن دكتور سترونج يفكر بالمنطق نفسه، في أغلب الظن. ولكن يبدو من الطريقة التي سلك بها معي أنه قد غيَّر رأيه، فلم يعد ثمة شيء يُقال، غير أنه كلما أسرعت إلى السفر، صارت الأمور أفضل. أحسب أنني قد عدت إليك لأقول ذلك، فكلما أسرعت في العمل على سفري، كان ذلك أفضل. لو حان وقت الغطس في الماء، فلا فائدة من البقاء على الضفة».

قال السيد ويكفيلد: «لن نتباطأ ولو بقدر يسير في أمرك يا سيد مالدون. ثق في ذلك».

قال الآخر: «شكرًا. إنني ممتن لك غاية الامتنان. لا أريد أن أبدو ناكرًا للجميل، لأن الجحود ليس بالشيء الذي يُحمد عليه الإنسان، وعوضًا عن هذا، فإنني أثق أن ابنة عمي آني تستطيع أن ترتب الأمر بسهولة بطريقتها الخاصة. أحسب أن آني ستقول للدكتور العجوز فقط...».

قاطعه السيد ويكفيلد قائلًا: «تقصد أن السيدة سترونج ليس عليها سوى أن تقول لزوجها إن... هل هذا ما تقصده؟».

أجاب الآخر قائلًا: «تمامًا، ليس عليها سوى أن تقول، إنها تريد أن يحدث كذا وكذا، وسيفعل ما أرادت من كذا وكذا، بالطبع».

سأل السيد ويكفيلد بينما يتناول غداءه في هدوء: «ولماذا بالطبع يا سيد مالدون؟».

أجاب السيد جاك مالدون ضاحكًا: «لماذا؟ لأن آني فتاة ساحرة، والدكتور العجوز - أعني دكتور سترونج - ليس بالفتى الساحر إلى حد ما. إنني لا أقصد إهانة أحد يا سيد ويكفيلد. لا أقصد سوى أنني أفترض أن بعض التعويضات ستكون عادلة ومعقولة مقابل مثل هذا النوع من الزواج».

سأل السيد ويكفيلد بجدية: «أتقصد أن التعويض يُقدم إلى الزوجة، يا سيدي؟».

أجاب السيد جاك مالدون ضاحكًا: «نعم، يُقدم إلى الزوجة

يا سيدي». يبدو أن الرجل لاحظ أن السيد ويكفيلد ظل يتناول الغداء بالطريقة الهادئة والثابتة ذاتها، وأنه لا أمل في أن يحرك فيه ساكنًا أو أن يرخي إحدى عضلات وجهه، ومن ثَم أضاف قائلًا: «على أي حال، لقد قلت ما جئت لأقوله، وإنني أقدم اعتذاري مرة أخرى على هذا التطفل، وسأنسحب. سألتزم بالطبع بتوجيهاتك، وسأراعي أن يبقى ترتيب الأمر بيننا فقط، من دون الإشارة إليه أمام الدكتور».

سأله السيد ويكفيلد، مع حركة من يده مشيرًا نحو الطاولة: «هل تناولت الغداء؟».

قال السيد مالدون: «شكرًا لك. إنني ذاهب لتناول الغداء مع ابنة عمي آني. مع السلامة!».

مكث السيد ويكفيلد في مكانه، إلا أنه تابعه بعناية في أثناء خروجه. كان الرجل بلا شك يلوح أمامي شابًّا ضحلًا تافهًا في أغلب الظن، وإن كانت ملامحه وسيمة، وقد أخذ يتحدث بكلمات سريعة، وبنوع من الثقة في النفس، بل وجرأة. كانت هذه أول مرة أرى فيها السيد جاك مالدون، ولم أكن أتوقع رؤيته بهذه السرعة، بعدما سمعت الدكتور يتحدث عنه في هذا الصباح.

تناولنا الغداء، ثم صعدنا مرة أخرى إلى الطابق العلوي، وقد سارت الأمور على ما يرام، تمامًا كما هي الحال في يومنا السابق. أعدت أجنيس الأكواب والأوعية في الزاوية ذاتها، ومن ثَم جلس السيد ويكفيلد للشراب، وقد شرب كمية لا بأس بها. عزفت أجنيس على البيانو وجلست بجانبه، وكذلك اشتغلت بالإبرة، وتحدثت

إلينا، ولعبت قليلًا معي لعبة الدومينو، ثم جهزت الشاي في موعده المحدد. أحضرت كتبي بعد ذلك، فنظرت فيها وقلبتها، وقالت لي ما تعرفه عنها (لم يكن علمها طفيفًا، على الرغم من أنها قالت إنها لا تعرف سوى اليسير)، بل أوضحت لي أفضل طريقة لتعلمها وفهمها. أتذكرها وأستحضر صورتها بأسلوبها المتواضع والمنظم والهادئ، فأسمع صوتها الجميل الهادر بينما أكتب هذه الكلمات. أتذكرها فأشعر أن أثرها الخير النبيل -وما أسدته إليَّ من معروف فيما بعد- لم يزل يتسلل إلى صدري. إنني أحب إيميلي الصغيرة، ولا أحب أجنيس -أقصد لا أحبها بالطريقة نفسها على الإطلاق- إلا أنني أشعر أن الخير والسلام والصدق، يحل أينما توجد أجنيس، وأن الضوء الناعم النافذ من النافذة الملونة في الكنيسة والذي شاهدته منذ زمن بعيد، لا يزال يسقط عليها دائمًا، ويغمرني كلما اقتربت من مجلسها، بل يغمر كل شيء من حولها.

حان وقت انصرافها عنا ليلًا فغادرتنا. ناولت السيد ويكفيلد يدي، استعدادًا للمغادرة كذلك، إلا أنه أمسكني قائلًا: «هل ترغب في البقاء معنا يا تروتوود، أم تريد الذهاب إلى مكان آخر؟».

أجبت بسرعة قائلًا: «أريد أن أبقى».

سألني: «هل أنت متأكد؟».

«أبقني إذا سمحت. إذا جاز لي البقاء!».

قال: «لماذا تريد البقاء؟ إنني أخشى أن أقول إننا نعيش حياة مملة هنا، يا فتى».

«ليست مملة لي أكثر من كونها مملة لأجنيس يا سيدي. ليست مملة على الإطلاق!».

كرر كلماتي بينما راح يمشي ببطء نحو المدخنة الكبيرة ثم اتكأ عليها قائلًا: «مملة لأجنيس! مملة لأجنيس!».

كان قد أكثر من شرب النبيذ في ذاك المساء (أو هكذا تخيلت)، حتى صارت عيناه متوقدتين بالدماء من أثره. لم أستطع في الحقيقة أن ألاحظهما في هذه اللحظة تحديدًا، فقد أشاح بوجهه وظلل عينيه بيده، إلا أنني كنت قد لاحظتهما قبل أن يفعل ذلك بفترة قصيرة.

تمتم قائلًا: «أتساءل الآن هل أرهقت أجنيس وملت مني؟ متى سأتعب وأملُّ منها! لكن الأمر مختلف، هذا شيء مختلف تمامًا».

ظل يفكر من دون أن يتحدث معي، لذلك بقيت ساكنًا.

قال: «إنه بيت قديم ممل، وحياة رتيبة، لكن يجب أن تبقى بالقرب مني. يجب أن أبقيها بالقرب مني. إن تفكيري في أنني قد أموت وأترك ابنتي الحبيبة، أو أن ابنتي الحبيبة قد تموت وتتركني، يحل أمامي مثل شبح، ينقض عليَّ فيحول أسعد ساعاتي إلى أتعسها، فلا أجد ما يغرق تعاستي سوى الـ...».

لم يكمل الكلمة، إلا أنه تمشى ببطء نحو المكان الذي كان يجلس فيه، وعاود صب النبيذ من الدورق الفارغ بطريقة آلية، ثم أعاده كما كان ثم رجع إلى المشي مرة أخرى.

قال: «إذا كانت الحياة بائسة وهي هنا معي، فكيف ستصير حين تبتعد عني؟ لا، كلا، لا. لا أستطيع أن أختبر هذا الشعور».

اتكأ على حافة المدخنة، وظل على هذه الهيئة لفترة طويلة، حتى إنني لم أستطع أن أقرر ما إذا كنت سأخاطر بإزعاجه لو أنني انصرفت، أم من الأفضل أن أبقى ساكنًا في مكاني، إلى أن يفيق من خيالاته. عاد أخيرًا إلى رشده ثم جال بنظره في الغرفة حتى واجهت عيناه عيني.

قال بطريقته المعتادة، وكأنه يجيب عن شيء قد قلتُه للتوِّ: «ابقَ معنا يا تروتوود، ما رأيك؟ إنني سعيد بمقامك معنا. إنك أنيس لكلينا على حد سواء. مقامك هنا خير لنا. إنه خير لي، وخير لأجنيس، وربما هو خير لنا جميعًا».

قلت: «إنني متأكد من أنه خير لي يا سيدي. أنا سعيد بوجودي هنا».

قال السيد ويكفيلد: «يا لك من فتى طيب! ما دمت مسرورًا بوجودك هنا، فستبقى هنا». صافحني بعد هذا الحديث، ثم ربت على ظهري، وأخبرني أنه إذا احتجت أن أقوم بأي شيء في الليل بعد مغادرة أجنيس لنا، أو لو أنني رغبتُ في القراءة من أجل التسلية، فإن لي مطلق الحرية في النزول إلى غرفته إذا كان هو فيها، وكذلك إذا رغبتُ في مؤانسته أو الجلوس معه. شكرته على تفكيره في أمري. لم أكن متعبًا، فما إن نزل بوقت قصير، حتى نزلت بعده أيضًا، مصطحبًا كتابًا في يدي، لأستفيد من هذا الإذن لمدة نصف ساعة.

إلا أنني رأيت ضوءًا منبعثًا من المكتب الصغير المستدير، فشعرت على الفور بأنني منجذب نحو يورايا هيب، وقد كنت أشعر بنوع من السحر يجذبني إليه. توجهت إلى هناك بدلًا من المضي في سبيلي. وجدت يورايا يقرأ كتابًا ضخمًا باهتمام بالغ لا يخفى، حتى راحت

سبابته النحيلة تتبع كل سطر في أثناء قراءته، وقد طبعت آثارًا رطبة على الصفحة كلها (أو هكذا ظننت) كما لو أن أصابعه مثل الحلزون.

تحدثت قائلًا: «إنك تعمل حتى وقت متأخر هذه الليلة يا يورايا».

قال يورايا: «نعم، يا سيد كوبرفيلد».

كنت أستعد للصعود على المقعد المقابل له، حتى أتمكن من الحديث معه بصورة مريحة، إلا أنني لاحظت أنه لم يرسم على وجهه أدنى أثر لابتسامة، وأنه لا يستطيع سوى أن يبسط فمه فيرسم تجعيدتين قاسيتين على جانبي خديه، لتحلا محل الابتسامة.

قال يورايا: «إنني لا أقوم بعمل مكتبي يا سيد كوبرفيلد».

سألته «ماذا تفعل إذن؟».

قال يورايا: «إنني أُنمي معرفتي القانونية يا سيد كوبرفيلد. أطلع على كتاب «تيد»[1]. آهٍ، يا له من كاتب رائع يا سيد كوبرفيلد!».

كان الكرسي الذي جلست فوقه بمثابة برج للمراقبة، حيث استطعت مشاهدة أن يورايا قد بدأ في القراءة مرة أخرى، بعد أن أبدى إعجابه الواضح. راح يتابع السطور بإصبعه، وقد لاحظت أن أنفه الرفيع المدبب راح يتمدد وينكمش بصورة حادة، متخذًا هيئة فريدة وغير معتادة بين توسيعه وتقليصه، إلى الحد الذي جعل فتحتاه تلمعان عوضًا عن تلألؤ عينيه اللتين لم تتلألآ على الإطلاق إلا فيما ندر.

---

(١) وليام تيد (١٧٦٠ - ١٨٤٧م) محامٍ اشتهر بكتاب عن الإجراءات القضائية. صدر للكتاب العديد من الطبعات، ودُرس على نطاق واسع في أوروبا وأمريكا.

قلت بعد أن أطلت إليه النظر لبعض الوقت: «أظن أنك محامٍ عظيم».

قال يورايا: «أتقصدني أنا يا سيد كوبرفيلد؟ آهٍ، لا! إنني إنسان حقير للغاية».

لاحظت أنني لم أكن مخطئًا بشأن يديه، إذ أبصرته يفرك راحتيه معًا، ويكثر من هذه الحركة كما لو أنه يريد أن يجففهما ويزيل ما بهما من عرق، كما أنه أخذ يمسحهما خلسة في كثير من الأحيان بمنديله.

تحدث يورايا هيب بتواضع قائلًا: «إنني أدرك جيدًا أنني أحقر إنسان يحيا على هذه الأرض. ليحفظ كل إنسان مقامه. وكذلك فإن والدتي امرأة متواضعة الشأن. إننا نعيش في منزل حقير يا سيد كوبرفيلد، لكننا نملك الكثير لنحمد الله عليه. كانت وظيفة والدي السابقة حقيرة أيضًا. لقد كان قندلفت[1]».

سألته: «أين هو الآن؟».

أجاب يورايا هيب: «إنه يلبث في جوار ربه في الوقت الحاضر يا سيد كوبرفيلد. نملك الكثير من النعم التي نحمد الله عليها. كم يسعدني أن أكون شاكرًا ممتنًّا للعيش مع السيد ويكفيلد!».

سألت يورايا عما إذا كان يعمل مع السيد ويكفيلد منذ مدة طويلة؟

قال يورايا: «لقد عملت معه منذ أربع سنوات يا سيد كوبرفيلد».

---

(١) رتبة كنسية، تخول لصاحبها القيام ببعض الأعمال الكنسية البسيطة، مثل إنارتها ودق أجراسها، وكذلك يصير مسؤولًا عن المقابر التابعة لها.

ثم أغلق كتابه، بعد أن وضع علامات دقيقة عند الموضع الذي انتهى من قراءته، وأكمل قائلًا: «عملت معه بعد وفاة والدي بعام. كم أنا شاكر لجميل صنعه منذ ذاك اليوم! كم أكن للسيد ويكفيلد من امتنان لنيته الطيبة وإعطائي الفرصة للتمرن في مكتبه، والذي لولاه لما كانت استطعت إلى ذلك سبيلًا لقلة حيلتي، وضآلة مقدرة أمي، وقلة موارد دخلنا، فلم أكن لأتحمل هذه الأعباء!».

«ماذا بعد ذلك، أقصد عندما ينتهي وقت تدريبك، هل ستصير محاميًا عاديًّا، على ما أظن؟».

أجابني يورايا قائلًا: «بمشيئة الله يا سيد كوبرفيلد».

قلت محاولًا إرضاءه: «ربما تصير شريكًا في أعمال السيد ويكفيلد، في يوم من الأيام. وسيكون المكتب لويكفيلد وهيب، أو يصير مكتب هيب بدلًا من ويكفيلد».

راح يورايا يهز رأسه قائلًا: «آهٍ... لا يا سيد كوبرفيلد. إنني لا أستطيع فعل ذلك أبدًا!».

لاح لي غريبًا - بلا شك - وقد تشابه وجهه بوجه منحوت فوق عارضة تبرز خارج نافذتي، حيث هو جالس في تواضعه المألوف، ينظر نحوي بطرف عينيه، فاغرًا فمه، وقد انكمشت تجاعيد خديه.

قال يورايا: «إن السيد ويكفيلد رجل ممتاز يا سيد كوبرفيلد. إذا كنت تعرفه منذ فترة طويلة، فستدرك ذلك بنفسك، بل إنني متأكد من أنك كنت ستعرفه بصورة تفوق ما أستطيع إبلاغك به».

أجبته بأنني متأكد من ذلك. إلا أنني لم أكن أعرفه منذ فترة طويلة، على الرغم من أنه كان صديقًا لعمتي.

قال يورايا: «آهٍ، في الواقع يا سيد كوبرفيلد، إن عمتك سيدة رائعة يا سيد كوبرفيلد[1]!».

كانت لديه طريقة مميزة في الالتفات كلما أراد أن يعبر عن شيء في حماس، إلا أن طريقته كانت قبيحة للغاية، مما جعلني لا أنتبه إلى الإطراء الذي قدمه لقريبتي، بل رحت ألتفت إلى التقلبات السريعة التي يتصنعها بعنقه وجسده.

قال يورايا هيب: «إنها سيدة رائعة يا سيد كوبرفيلد! أحسب أنها تكن إعجابًا فائقًا بالآنسة أجنيس يا سيد كوبرفيلد، أليس كذلك؟».

تجرأت بأن أجبته قائلًا: «نعم». ولم أكن على علم بأي شيء عنها، فليسامحني الله على قولي!

قال يورايا: «أتمنى أن تكون معجبًا بها كذلك يا سيد كوبرفيلد. إنني متأكد من أنك يجب أن تكون معجبًا بها أيضًا».

أجبته قائلًا: «يجب أن يعجب بها جميع البشر».

قال يورايا هيب: «آهٍ، شكرًا لك يا سيد كوبرفيلد على هذه الملاحظة. قولك صحيح جدًّا، وإنني أدرك صحة هذا القول. آهٍ، شكرًا لك يا سيد كوبرفيلد». أخذ يتلوى بجسده كاملًا فوق كرسيه تعبيرًا عن حماسته، ثم تهيأ للقيام بعد ذلك، وهمَّ بالعودة إلى منزله.

---

(١) تكرار «سيد كوبرفيلد» وارد في النص الأصلي.

أشار إلى ساعة مغبرة الوجه غير واضحة المعالم كان قد أخرجها من جيبه، وأخذ يقول: «إن أمي تنتظرني. وإنها تصاب بالقلق لتأخري، وعلى الرغم من أننا حقراء للغاية يا سيد كوبرفيلد، فإن كلًّا منا مرتبط بالآخر. إذا جئت لزيارتنا ذات نهار، وشربت كوبًا من الشاي في مسكننا المتواضع، فستكون والدتي فخورة بصحبتك كما هي حالي معك».

قلت إنني سأكون سعيدًا بزيارتهم.

أعاد يورايا كتابه إلى موضعه على الرف، وراح يقول: «شكرًا لك يا سيد كوبرفيلد. أظن أنك ستمكث هنا لبعض الوقت يا سيد كوبرفيلد؟».

قلت إنني أتصور أنني سأبقى هنا، ما دمت بقيت في المدرسة.

صاح يورايا: «آهٍ، حقًّا! أحسب أنك ستلتحق بالعمل نفسه في النهاية يا سيد كوبرفيلد».

لقد اعترضت على كلامه قائلًا إنني لم أقرر أي شيء من هذا النوع، وإن هذا الاقتراح لم يقترحه أي شخص أمامي من قبل، لكن يورايا أصر على الرد بلطف على جميع تأكيداتي، قائلًا: «آهٍ، نعم، يا سيد كوبرفيلد، إنني أتصور أنك ستمتهن الوظيفة ذاتها، حقًّا!». ثم أخذ يكرر حديثه مرارًا، قائلًا: «آهٍ، في الواقع، يا سيد كوبرفيلد، إنني أتصور أنك ستفعل ذلك بالتأكيد». بات في النهاية مستعدًّا لمغادرة المكتب في آخر الليل، ومن ثَم طلب مني الإذن لإطفاء الضوء، وما إن أجبته بـ«نعم»، حتى أخمد الضوء على الفور. صافحني، فإذا بيده تبدو لي كما لو أنها سمكة في الظلام. فتح الباب المؤدي إلى الشارع فتحة صغيرة، ثم تسلل خارجًا وأغلقه، تاركًا لي أن أتلمس طريقي للعودة إلى هدفي،

مما أرهقني وعرقلني إذ سقطت إثر ارتطامي بمقعده. أظن أن سقوطي كان سببًا مباشرًا جعلني أحلم به، حتى بدت لي أحلامي وقد طالت فجاوزت نصف الليل، أو ما يزيد. حلمت أنه أطلق منزل السيد بيجوتي في رحلة استكشافية، بعد أن رفع علمًا أسود على رأس الصاري، يحمل نقشًا يقول «إجراءات تيد القضائية»، وقد حملني أنا وإيميلي الصغيرة تحت هذه الراية الشيطانية إلى ساحل الإسبان[1]، حتى غرقنا.

تحسنت قليلًا ونفضت عني اضطرابي، بعدما ذهبت إلى المدرسة في اليوم التالي، ثم تحسنت حالتي في اليوم الذي تلاه، حتى تخلصت من انزعاجي تدريجيًّا، وبعد أقل من أسبوعين كان مقامي استقر في المنزل تمامًا، وصرت سعيدًا بين رفاقي الجدد. إلا أني كنت محرجًا طوال وقت لهوهم، ومتخلفًا إلى حد كبير في دراستي، لكنني تطلعت إلى أن أتحسن في الأمر الأول بعد أن أعتاد طريقتهم في المزاح، وأتحسن في الأمر الثاني بالعمل الجاد. بناءً على ما قررته رحت أجتهد في مسعاي؛ في اللعب والجد على حد سواء، وقد حصلت على إشادة طيبة لجهدي. صارت بعد فترة قصيرة جدًّا، حياة متجر مردستون وجرينبي غريبة جدًّا بالنسبة لي، حتى إنني لا أكاد أصدق أنني خضتها، بينما استطابت حياتي الحالية وألفتها خير ألفة، حتى ليبدو أنني خضت غمارها لفترة طويلة.

كانت مدرسة دكتور سترونج مدرسة ممتازة، تختلف عن مدرسة السيد كريكل كما يختلف الخير عن الشر. كانت فائقة التنظيم ولها

---

(١) يقصد الساحل الشمالي لأمريكا الجنوبية، وهي منطقة كانت ذات يوم تحت السيطرة الإسبانية، وامتدت تقريبًا بين برزخ بنما ودلتا نهر أورينكو.

مظهر مهيب، وعلى طراز متسق قائم على أساس سليم في كل شيء. تعتمد على كرامة الأولاد وسيرتهم المنضبطة ، وحرصهم الواضح على الاعتماد على التحلي بهذه الصفات، وما عدا ذلك، فلن يثبتوا جدارتهم بهذا المكان، وكان لهذا المسلك أثر في صنع العجائب. لقد شعرنا جميعًا أن لكل منا دورًا في إدارة المكان، وفي الحفاظ على طابعه وكرامته، ومن ثَم تعلقنا به أشد تعلق - إنني على يقين تام من أنني شعرت بهذا الانتماء، ولم أكن أعرف قَطُّ طوال حياتي أي فتى آخر لم يشعر بهذا الانتماء ذاته. رحنا نتعلم بكرامة، رغبة في تحصيل أعلى درجات الفضل. كنا نمارس بعض الألعاب الراقية خلال ساعات الراحة، في رحابة من الحرية، إلا أنني أذكر حتى ذلك الحين، أن الناس طالما تحدثوا في المدينة عنا بكل خير، وقلما وقع منا أي أفعال مخزية سواء في مظهرنا أو سلوكياتنا؛ خوفًا من أن نسيء إلى سمعة طلاب مدرسة دكتور سترونج أو إلى دكتور سترونج نفسه.

استقر بعض طلاب الأقسام العليا في منزل الدكتور، وقد تعلمت منهم بطريقة أو بأخرى بعضًا من التفاصيل عن تاريخ حياة الدكتور. عرفت كيف أنه لم يمر أكثر من اثني عشر شهرًا على زواجه من تلك الشابة الجميلة التي رأيت صورتها في المكتبة. عرفت كيف أنه تزوجها عن حب، لأنها لم تملك أقل القليل من المال، كما أنها لم تكن ذات حسب بل من عائلة شديدة الفقر، بل على استعداد لإخراج الدكتور من منزله وتجريده من كل ما يملك (على حد تعبير الزملاء). فهمت أيضًا، كيف يعزى تأمل الدكتور وشروده إلى بحثه الدائم عن الجذور

اليونانية، وقد حسبت بسذاجتي وجهلي أنها قد تكون جذورًا نباتية، خاصة أن الدكتور كان دائمًا ينظر مطرقًا نحو الأرض في أثناء سيره، إلى أن فهمت أن الجذور تعني أصول الكلمات، وأنه يبحث عنها بهدف إنشاء قاموس جديد، وهذا ما يجذبه إلى التأمل. كان آدمز الفتى الأول، وكان بارعًا في الرياضيات، وقد عرفت أنه أجرى عملية حسابية ليبلغنا عن الوقت الذي سيستغرقه اكتمال هذا القاموس، وفقًا لخطة الدكتور، وطبقًا لمعدل عمله به. وقد توصل إلى أنه يمكن أن يكتمل في ألف وستمائة وتسعة وأربعين عامًا، بدءًا من عيد ميلاد الدكتور الأخير أو الثاني والستين.

أما الدكتور نفسه فقد كان أيقونة للمدرسة بأكملها، ولولا أنه كان محبوبًا من الجميع، لصارت المدرسة سيئة التكوين. كان الدكتور من ألطف الرجال وأرقهم، بإيمان بسيط ربما لامس الجرات الحجرية المنتصبة عند الحائط فأذاب قلوبها. اعتاد أن يمشي ذهابًا وإيابًا في ذاك الجزء من الفناء الذي يجاور المنزل، حيث تنتشر الغربان الضالة مطلة برؤوسها المنحنية ناظرة إليه في مكر، كما لو أنها تعرف مدى تفوق خبراتها في شؤون العيش الدنيوية أكثر من معرفته بها. لو تصادف لأي كائن من المشردين أن يقترب فقط من حذائه الذي يئن تحت وطأته، لجذبت انتباهه جملة واحدة من قصته المأساوية، فلا يلبث هذا المتشرد ألا يقوى على الحياة في اليومين التاليين؛ تأثرًا بهذه المأساة. لقد ترددت الأقاويل بين الأرجاء حول ما بذله المعلمون والأولاد من جهد لملاحقة هؤلاء المتسللين من الزوايا، وتتبعهم من النوافذ، وكذلك إبعادهم عن

الفناء، قبل أن يتمكنوا من لفت أنظار الدكتور إلى وجودهم. لحسن الحظ كانت هذه الأمور تحدث أحيانًا على بُعد بضع خطوات منه، من دون أن يعرف عن الأمر شيئًا، بينما يستمر في سيره ذهابًا وإيابًا. أما حين يخطو خارج نطاق منزله الخاص فإنه يصير غير محمي، فيغدو كما الشاة الوحيدة المنساقة إلى جزازين الصوف. كان سيضطر إلى التخلي عن جواربه فينزعها من ساقيه ليبعدهم عنه. أما القصة التالية، فقد ظلت في الواقع من الحكايات الأثيرة فيما بيننا (ليست لديَّ أي فكرة على الإطلاق عن حقيقتها، ولا أي مصدر يثبت صحتها، إلا أنني مكثت مقتنعًا بها لسنوات عديدة، حتى إنني كنت على يقين تام من صحتها). تقول القصة: إنه في يوم بارد من أيام فصل الشتاء، أعطى جوارب ساقيه لامرأة متسولة، وقد جلب ذلك الفعل نوعًا من الفضيحة في الحي، بعد أن ألبسته المرأة لرضيع وظلت تجول به من باب إلى باب ملفوفًا في هذه الملابس نفسها، والتي كانت معروفة على نطاق واسع، لأنها مشهورة جيدًا في المنطقة المجاورة مثل شهرة الكاتدرائية تمامًا. أضافت الحكاية أن الشخص الوحيد الذي لم يتعرف على هذه الملابس هو الدكتور نفسه، فقد عرضت الجوارب الطويلة بعد ذلك بوقت قصير على أحد أبواب المتاجر الصغيرة سيئة السمعة في بيع الأشياء المستعملة، حيث يشتهر بشراء مثل هذه الأشياء المستعملة مقابل خمر «الجن». شوهد الدكتور أكثر من مرة يراقب ملابسه المعروضة باستحسان، كما لو كان معجبًا ببعض التفاصيل الغريبة في صنعه، أو أنه يبدي استحسانًا له بطريقته الخاصة.

كان من دواعي سروري رؤية الدكتور مع زوجته الشابة الجميلة. إذ أظهر تمتعه بطريقة أبوية حميدة في إظهار ولعه بها. كانت طريقته في حد ذاتها تُعبر عن كونه رجلًا طيبًا، ولقد رأيتهم يسيرون في أغلب الأوقات في الحديقة، حيث تنتصب أشجار الخوخ، ورحت أراقبهم أحيانًا من مكان قريب في المكتب أو في الصالون. أحسست أنها تهتم بالدكتور إلى حد كبير، وتحبه كثيرًا، على الرغم من أنني لم أتصور قَطُّ أنها مهتمة بشكل حيوي بمسألة القاموس، فإنه كان يحمل دائمًا بعض الأجزاء من مادته المتراكمة في جيوبه، وفي بطانة ملابسه، بل وتحت قبعته، وقد بدا بشكل عام أنه يشرح لها في أثناء تجوالهم ما يدور بخلده عن هذا القاموس.

كنت أرى السيدة سترونج كثيرًا، وذلك لأنها أحبتني منذ ذلك الصباح الذي تعرفت فيه على الدكتور، وقد ظلت بعدها لطيفة معي ومهتمة بأمري، ولأنها كانت مغرمة جدًّا بأجنيس، وكانت تأتي لزيارتها أو السؤال عنها في منزلنا في أغلب الأوقات. كنت أحسب أنها تختلف كثيرًا عن السيد ويكفيلد، وأظن أن هذه الفكرة لم تقل، ولم تتلاشَ قَطُّ. أتصور أن دافعها هو الخوف. كانت تأتي للزيارة في إحدى الأمسيات، فتتجنب دائمًا قبول مرافقته وهي عائدة إلى منزلها، وبدلًا من ذلك تطلب أن أصطحبها أنا. كنا نركض بمرح عبر ساحة الكاتدرائية معًا، ونتوقع ألا نلتقي بأحد، إلا أننا كنا نلتقي في بعض الأحيان بالسيد جاك مالدون، وإذا به يتفاجأ دائمًا من رؤيتنا.

كانت والدة السيدة سترونج من السيدات اللاتي أسعدتني رؤيتهن كثيرًا. كان اسمها السيدة ماركلهام، لكن أولاد المدرسة اعتادوا على

تسميتها بالجندي العجوز، بسبب طابعها القيادي بشكل عام، ومهارتها التي حشدت بها عددًا عظيمًا من الأقرباء ضد الدكتور. كانت امرأة قصيرة، حادة العينين، اعتادت أن ترتدي مع ملابسها، قبعة واحدة بعينها غير قابلة للتغيير، مزينة ببعض الزهور الاصطناعية، وفراشتين صناعيتين من المفترض أنهما تحومان فوق الزهور. كانت هناك خرافة بيننا مفادها أن هذه القبعة جاءت من فرنسا، وأنها لا يمكن أن تُصنع إلا من أبناء هذه الأمة العبقرية. أما كل ما أعرفه بالتأكيد عن الأمر، هو أنها كانت دائمًا تظهر في كل مساء، أينما تحل السيدة ماركلهام، وأنها كانت تتجول في بعض جلسات الأصدقاء الودية في سلة هندية، وأن الفراشتين فوقها كانتا ترتجفان باستمرار، وأنهما ظلتا تتألقان لساعات على حساب دكتور سترونج، مثل النحل المشغول.

لاحظت الجندي العجوز - لا أقصد أن أتبنى الاسم بطريقة غير محترمة - للتأكد من حركاتها جيدًا، في ليلة لم أزل أذكر بها شيئًا ما سأكتب عنه لاحقًا. كانت ليلة حفلة صغيرة في منزل الدكتور، وقد أقيمت بمناسبة سفر السيد جاك مالدون إلى الهند، حيث كان من المقرر له أن يسافر بصفته طالبًا أو شيئًا من هذا القبيل. رتَّب السيد ويكفيلد أموره على أكمل وجه. صادف هذا اليوم عيد ميلاد الدكتور أيضًا. منحنا الإجازة في هذا اليوم، وقدمنا له الهدايا في الصباح، وألقينا خطابًا له، وقد تلاه فتى الفصل الأول، وهتفنا له إلى أن بُحَّت أصواتنا، وانهمرت دموعه. ذهبت أنا والسيد ويكفيلد وأجنيس في المساء لتناول الشاي معه على وجه خاص.

كان السيد جاك مالدون قد سبقنا إلى هناك. ظهرت السيدة سترونج بينما ترتدي ثوبًا أبيض مع شرائط بلون الكرز، وراحت تعزف على البيانو بعدما دخلنا. ظل يميل نحوها ليقلب لها صفحات النوتة الموسيقية. لم تكن حمرة وجهها ولا بياض بشرتها الصافي مزهرَين، أو شبيهَين بالزهور كالعادة، هذا ما أحسسته عندما استدارت، إلا أنها بدت جميلة جدًّا، فاتنة بصورة رائعة.

تحدثت والدة السيدة سترونج بعدما جلسنا، وراحت تقول: «لقد نسيت يا دكتور أن أقدم لك تهنئة اليوم - على الرغم من أنني أفترض، أنها بعيدة كل البعد عن كونها مجاملات في حالتي. اسمح لي أن أتمنى لك كل خير».

أجاب الدكتور: «أشكرك يا سيدتي».

قالت الجندي العجوز: «أتمنى لك العديد، والكثير، والكثير، من السنوات السعيدة. ليس ذلك من أجلك فقط، ولكن من أجل آني وجاك مالدون والعديد من الأشخاص غيرهم. يبدو لي أنه بالأمس فقط يا جون، كنت لم تزل مخلوقًا صغيرًا، أطول قليلًا من السيد كوبرفيلد، بينما كنت طفلًا مغرمًا بآني، فتعاكسها خلف أشجار التوت في الحديقة الخلفية».

قالت السيدة سترونج: «أمي العزيزة، لا داعي لهذا الكلام الآن».

راحت والدتها تقول: «يا آني، لا تكوني سخيفة. إذا كنتِ تحمرين خجلًا لسماع مثل هذه الأشياء الآن وأنتِ امرأة عجوز متزوجة، فمتى إذن لا تخجلين لسماعها؟».

صاح السيد جاك مالدون قائلًا: «عجوز؟ تقولين هذا عن آني؟ أي كلام هذا!».

أجابته الجندي العجوز قائلة: «نعم يا جون. إنها عمليًّا امرأة عجوز متزوجة. إنها عجوز على الرغم من عدم تقدمها في العمر - متى سمعتني أقول، أو مَن سمعني أقول، إن فتاة في العشرين قد أصفها بالعجوز! - أما ابنة عمك زوجة للدكتور، وعلى هذا النحو يحق لي أن أصفها بالعجوز. من الخير لك يا جون أن تكون ابنة عمك زوجة للدكتور. لقد وجدت فيه صديقًا كريمًا وطيبًا، وإني لأتجرأ على القول بأنه سيصير من الأكرم والألطف أن تثبت أنك جدير بذلك الشرف. لست ممن يتمتعون بكبرياء زائفة، ولا أتردد أبدًا في الاعتراف صراحة، أن بعض أفراد عائلتنا كانوا في حاجة إلى مثل هذا الصديق. لقد كنت أنت نفسك يا جون واحدًا من هؤلاء، قبل أن تسدي إليك وساطة ابنة عمك معروفًا».

لوح الدكتور بيده في طيبة من القلب كأنما يسلط الضوء عليها، وينقذ السيد جاك مالدون من أي كلام جديد. إلا أن السيدة ماركلهام غيرت مقعدها، فجلست إلى مقعد بجانب الدكتور، ثم وضعت مروحة يدها فوق معطفه، وراحت تقول:

«لا، حقًّا، يا عزيزي الدكتور، يجب أن تعذرني إذا كنت أتحدث عن هذا الأمر من دون سواه، ذلك لأنني أشعر بتأثيره بقوة شديدة. إنني أسميه «حديثي الأوحد» بالضبط، لأنه قضيتي الخاصة. إنك نعمة لنا. أنت حقًّا، كما تعلم، نعمة كبيرة».

قال الدكتور: «هراء، لا داعي لهذا الكلام».

وردت الجندي العجوز: «لا، لا، أستميحك عذرًا. ليس بيننا الآن سوى صديقنا العزيز وكاتم أسرارنا السيد ويكفيلد، ولا يمكنني موافقتك على إهمال قولي بهذه الطريقة. سأبدأ في استغلال موقفي بصفتي حماتك، فأوبخك إذا ظللت على هذا المنوال. إنني صريحة، بل صريحة للغاية. لم أقل ما قلته الآن إلا بعدما أخذتني الدهشة لأول مرة عند طلبك للزواج من آني؛ فهل تتذكر مدى دهشتي؟ لم تكن دهشتي تعني أن ثمة شيئًا غير مألوف في الأمر، أو زواجًا شاذًّا - سيكون من السخف قول ذلك! - ولكن لأنك عرفت والدها المسكين، وعرفتها منذ أن كانت طفلة لم يتجاوز عمرها ستة أشهر، وعلى هذا النحو فإنني لم أفكر فيك على الإطلاق، لم أفكر في الواقع في أن تصير زوجًا لها بأي شكل من الأشكال - هذا هو الأمر ببساطة، كما تعلم».

رد الدكتور بنوع من الدعابة: «نعم، آه. لا تهتمي بالتبرير».

رفعت الجندي العجوز مروحتها إلى شفتيها وراحت تقول: «إلا أنني أهتم. إنني أهتم للغاية. وإني لأتذكر هذه الأشياء حتى يحاججني أحد إذا كنت مخطئة في تقديرها. حسنًا. ثم تحدثت إلى آني وأخبرتها بما وقع. قلت لها: «عزيزتي، لقد كان دكتور سترونج واضحًا إذ فكر في خطبتك وعرض طلبه بالزواج منكِ». هل ضغطت عليها ولو بقدر هين؟ كلا. قلت لها: «أما الآن يا آني، فلتخبريني بحقيقة مشاعرك في هذه اللحظة؛ هل قلبكِ خالٍ؟». قالت وهي تبكي: «يا أمي، إنني صغيرة للغاية» - وهذا أمر صحيح تمامًا - «وأنا بالكاد أختبر ما إذا

كان لديَّ قلب أم لا». قلت لها: «إذن يا عزيزتي، يمكنكِ الوثوق في أنه خالٍ. وعلى أي حال يا حبيبتي، إن دكتور سترونج في حالة من القلق والاضطراب، ويجب الرد عليه. لا يمكن أن يظل في حالة ترقبه القلقة هذه». قالت آني وهي لم تزل تبكي: «يا ماما، هل سيحزن من دوني؟ إن كان سيحزن، فإنني أحترمه بل أبجله كثيرًا، وأحسب أنني سأحظى به». وهنا حُسم الأمر. وبعد ذلك، وليس قبل ذلك الحين، قلت لآني: «يا آني إن دكتور سترونج لن يصير زوجكِ فقط، بل سيكون بمنزلة والدكِ الراحل، سيصير رب عائلتنا، سيمثل لنا الحكمة وسيكون صاحب الكلمة، ويمكنني أن أقول إنه سيصير مورد الرزق لعائلتنا. باختصار، سيصير نعمة لها». لقد استخدمت كلمة «نعمة» في ذاك الوقت، وها أنا أستخدمها مرة أخرى اليوم. إن كنت أتمتع بأي فضيلة فهي ميزة الاتساق».

جلست الابنة صامتة وساكنة طوال هذا الحديث، أما عيناها فمثبتتان على الأرض، بينما يقف ابن عمها بالقرب منها مطرقًا إلى الأرض كذلك، إلى أن قالت في هدوء شديد وصوت يرتجف: «يا أمي، أتمنى أن تكوني قد انتهيتِ من حديثك».

أجابتها الجندي العجوز قائلة: «لا، يا عزيزتي آني. لم أنتهِ تمامًا. إن كنتِ تسألين يا حبيبتي، فإنني لم أنتهِ بعد. آسفة حقًّا من أنكِ غير طبيعية في معاملتك لعائلتك، ولا أرى جدوى من الشكوى إليكِ. أقصد أنني سأشتكي لزوجكِ. الآن، يا عزيزي الدكتور، انظر إلى زوجتك السخيفة».

أدار الدكتور وجهه اللطيف تجاهها، بابتسامته التي تتسم بالبساطة والوداعة، فتدلَّى رأسها مطرقًا إلى الأرض أكثر. وقد لاحظت أن السيد ويكفيلد ينظر إليها في ثبات.

راحت أمها تهز رأسها ومروحتها مداعبة لها، ثم قالت: «عندما تصادف أن قلت ذات يوم لهذه المخلوقة المشاغبة إن هناك ظرفًا عائليًّا عليها أن تذكره لك - بل تصورت في الواقع أنها لا بد أن تقوله لك - أجابتني قائلة إن ذكرها لهذا الموقف يعني طلب خدمة، وهذا لأنك كريم جدًّا، وبالغ الكرم عليها، بل دائمًا ما تلبي لها طلبها، فلهذا لن تفعل ذلك».

قال الدكتور: «يا آني يا عزيزتي. كان ذلك خاطئًا منكِ. لقد منعتِ عني سرورًا».

صرخت والدتها قائلة: «إنها الكلمات نفسها التي قلتها لها! أما الآن فإنني إذا ما عرفت أنها لن تخبرك بشيء ما لهذا السبب، فإنني اعتزمت أن أخبرك به بنفسي يا عزيزي الدكتور».

قال الدكتور: «سأكون في غاية السعادة إذا صح التعبير».

«هل أستطيع قول هذا حقًّا؟».

«بكل تأكيد».

قالت الجندي العجوز: «حسنًا، سأفعل ذلك. هكذا اتفقنا». أفترض أنها آلت إلى مرادها، ثم قررت بعد ذلك أن تنفذه. نقرت على يد الدكتور عدة مرات بمروحة يدها (بعد أن قبَّلتها أولًا)، ثم عادت منتصرة إلى مقعدها السابق.

أقبل علينا المزيد من الحضور، وكان من بينهم معلمون وكذلك آدامز، فأخذ الحديث منحى عامًّا، ثم انقلب بعد ذلك بطبيعة الحال إلى الحديث حول السيد جاك مالدون ورحلته، والبلد الذي سيسافر إليه، وخططه وتطلعاته المختلفة. كان من المقرر أن يغادر بعد العشاء في تلك الليلة، مستقلًّا الحافلة إلى جرايفزاند، حيث ترسو السفينة التي كان من المقرر أن يسافر على متنها، وكان من المقرر أن يستقر في سفره لعدة سنوات بحسب ما أعرفه، إلا إذا عاد إلى المنزل في إجازة أو أعادته أسباب صحية. أتذكر أن جميع الموجودين قد استقروا على أن الهند دولة ذات صورة مشوهة تمامًا عند الناس، وأنه ليس بها أي شيء غير مقبول سوى وجود نمر أو نمرين، وقدر ضئيل من الحرارة في أثناء النهار. أما أنا، فقد اعتبرت السيد جاك مالدون سندبادًا معاصرًا، وتخيلته صديقًا مقربًا لكل أفراد عائلة المهراجا في الشرق، وتصورته جالسًا تحت الستائر، ينفث دخان الأرجيلة عبر أنابيبها الذهبية المتعرجة، والتي قد تمتد بطول ميل، لو أنها انبسطت من دون اعوجاج.

كانت السيدة سترونج مغنية فاتنة للغاية، وقد أدركت هذا بعدما سمعتها تغني كثيرًا لنفسها. إلا أنها كانت خائفة من الغناء أمام الناس، أو لم تطاوعها أنفاسها للغناء في ذاك المساء، على أي حال كان من المؤكد أنها لم تستطع الغناء على الإطلاق. لقد حاولت أن تغني مرة في ثنائي مع ابن عمها مالدون، لكنها لم تستطع البدء. حاولت بعد ذلك الغناء بمفردها، وقد بدأت تغني بسلاسة، إلا أن صوتها ما لبث أن تلاشى فجأة، وتركها في غاية الأسى، فأطرقت برأسها مطأطأ فوق

مفاتيح البيانو. قال الدكتور بوداعة إنها متوترة، وللتخفيف من حدة انفعالها اقترح الالتفاف لبدء اللعب بالورق الذي لم يكن يعرف عنه شيئًا، تمامًا مثل معرفته بفن النفخ في البوق. إلا أنني أتذكر أن الجندي العجوز اقتادته فاحتجزته مباشرة من أجل أن يشاركها في اللعب، وأمرته - ابتداءً - أن يعطيها كل الفضة التي في جيبه.

أمضينا وقتنا نلعب لعبة مرحة، لم تقلل من بهجتها أخطاء الدكتور في اللعب، والتي ارتكب منها عددًا لا حصر له، على الرغم من يقظة فراشات قبعة الجندي العجوز، وحالة غضبهما الحادة. أما السيدة سترونج فقد امتنعت عن اللعب، وقد اعتذرت بسبب عدم شعورها بالارتياح، وكذلك اعتذر ابن عمها مالدون لأن لديه بعض التجهيزات التي عليه القيام بها. ما لبث أن انتهى من عمله حتى عاد وجلس إلى جوار السيدة سترونج، وأخذا يتحدثان على الأريكة. كانت تنهض من وقت لآخر، فتنظر إلى يد الدكتور، وتقول له أي ورقة يلعبها. أبصرت وجهها المنحني فوق كتف الدكتور شاحبًا للغاية، بل ظننت أن إصبعها يرتجف وهي تشير إلى البطاقات، إلا أن الدكتور كان سعيدًا جدًّا باهتمامها، ولم ينتبه إلى ارتجافها وشحوبها، إن صح ما لاحظته.

لم يستمر مرحنا هذا في العشاء، فقد بدا أن الجميع يستشعر أن فراقًا من هذا النوع يُعد أمرًا محرجًا، وأنه كلما اقترب موعده صار الأمر أكثر صعوبة. حاول السيد جاك مالدون أن يثرثر بكثير من الكلام، إلا أنه بدا مضطربًا، فازدادت الأمور سوءًا. وأحسب أن الموقف لم يتحسن بعد أن ظلت الجندي العجوز تروي أحاديث لا تنقطع عن شباب السيد جاك مالدون.

كان الدكتور على الرغم مما يحدث يُبدي سرورًا بالغًا، ولا أشك في أن شعوره هذا قد أضفى سعادة على جميع الحضور. لقد كان سعيدًا للغاية، ولم تراوده أدنى شكوك في أننا جميعًا نستمتع بأقصى درجات المتعة.

قال الدكتور بعد أن نظر إلى ساعته وملأ كأسه بالشراب: «يا عزيزتي آني، لقد حان موعد تحرك ابن عمك جاك، ويجب ألا نحتجزه بيننا - إن الوقت مد وجزر، وكلاهما مؤثران في حالته هذه - علينا ألا نؤخر الرجل. يا سيد جاك مالدون، إن أمامك رحلة طويلة، وينتظرك بلد غريب، لكن الكثير من الناس واجهوا الأمرين قبلك، والكثير سيعانون من الأمرين، حتى نهاية الزمان. أما الرياح التي ستنساق إليها، فقد وهبت الآلاف والآلاف ثروة، وجلبت السعادة إلى آلاف البشر أيضًا».

قالت السيدة ماركلهام: «إنه أمر مؤثر - بغض النظر عن الطريقة التي ننظر بها إلى الأمر - إنه من المؤلم، أن ترى شابًّا رائعًا قد عرفه المرء منذ أن كان رضيعًا، في طريقه للسفر بعيدًا إلى الطرف الآخر من العالم، تاركًا كل من يعرفه وراءه، من دون أن يدري ما هو مقبل عليه». التفتت السيدة ماركهام إلى الدكتور وأكملت حديثها قائلة: «إن شابًّا مثله يقوم بمثل هذه التضحيات يستحق الدعم والرعاية المستمرين».

أكمل الدكتور كلامه قائلًا: «إن الوقت سيمضي سريعًا بك يا سيد جاك مالدون، وسيمضي بنا جميعًا. لا ندري، ربما لا يتوقع بعضنا المسار الطبيعي للأمور، سيرحب بك البعض عند عودتك، وسيتلاشى

آخرون. إن أفضل شيء هو أن آمل أن يستوعب الجميع الأمر، وأرجو أن أدركه بدوري. لن أتعبك بنصائحي ما دمت حظيتَ بقدوة صالحة متمثلة في ابنة عمك آني. فاقتدِ بها بقدر ما تستطيع».

حركت السيدة ماركلهام مروحتها وأومأت برأسها بالموافقة.

أكمل الدكتور حديثه بينما ينهض من مكانه: «وداعًا يا سيد جاك». وقفنا جميعًا إثر وقفته، بينما أكمل قائلًا: «نرجو لك رحلة موفقة، وحياة مهنية مزدهرة في الخارج، وعودة سعيدة إلى الوطن».

شربنا نخب السيد جاك مالدون وصافحناه مودعين. استأذن بعدها على عجل من السيدات المتواجدات، ثم هرع نحو الباب، حيث استقبلوه حين صعد إلى الحافلة، بعدد هائل من الهتافات التي أطلقها صبية المدرسة، بعد أن تجمعوا على العشب من أجل هذا الهدف تحديدًا. ركضت لأنضم لهم وأزيد عدد المشاركين في الصفوف، كنت قريبًا جدًّا من الحافلة حين تدحرجت عجلاتها منطلقة. أحسست انطباعًا حيويًّا، وسط هذه الضوضاء وذرات الغبار، أثارت هذا الانطباع رؤية السيد جاك مالدون، فقد أحسست اضطرابه حين مر من أمامي بوجهه المنفعل، وفي يده شيء بلون الكرز.

تفرق الصبية بعد هتاف آخر للدكتور وآخر لزوجته، وعدت بدوري إلى المنزل، حيث وجدتِ الضيوف جميعهم يحيطون بالدكتور، ويناقشون كيف غادر السيد جاك مالدون، وكيف تحمل ألم الفراق وكيف أبدى مشاعر اللحظات الأخيرة. صرخت السيدة ماركلهام وسط هذه التعليقات قائلة: «أين آني؟».

لم تكن «آني» موجودة. راحوا ينادون عليها، لكنها لم ترد. خرجت من الغرفة، وسط حشد من الناس، لنفهم ماذا يدور، فإذا بنا نجدها منطرحة أرضًا في قاعة الاستقبال. انتاب الجميع الفزع في البداية، حتى تبين أنها في حالة إغماء، وأن إغماءها راح ينجلي بوسائل الشفاء المعتادة، بعدما رفع الدكتور رأسها ليسنده إلى ركبته، وأزاح عن وجهها خصل شعرها بيده، ثم قال، بينما يتلفت حوله:

«يا لآني المسكينة! يا لها من مخلصة وذات قلب حنون! أثَّر عليها فراق زميلها القديم ورفيق ألعاب طفولتها وصديقها - ابن عمها المفضل - فوقع لها ما وقع. آه! يا له من أمر مؤسف! إنني متألم جدًّا لها!».

فتحت عينيها، وانتبهت إلى مكانها، ورأت أننا جميعًا نقف ملتفين حولها، فقامت بمساعدة الآخرين، ثم أدارت رأسها، لتستند إلى كتف الدكتور، ربما فعلت ذلك لتخفي وجهها، لا أعرف السبب. ذهبنا إلى غرفة الاستقبال، وتركناها مع الدكتور ووالدتها، لكن يبدو أنها قالت شيئًا من قبيل أنها صارت أفضل حالًا مما كانت عليه في الصباح، وأنها تفضل أن تجلس بيننا، ومن ثَم أجلسوها معنا. كان وجهها يبدو شاحبًا للغاية وقد لاحت في نظري واهنة، بعد أن أجلسوها إلى أريكة.

قالت والدتها وهي تهندم شيئًا بملابسها: «يا آني، يا عزيزتي. انظري! لقد فقدتِ الشريط. هل يتفضل أحد بالبحث عن شريط مفقود؟ إنه شريط بلون الكرز».

كانت ترتدي هذا الشريط مثبتًا فوق صدرها قبل ذلك. رحنا جميعًا نبحث عنه. بحثت عنه بنفسي، وتفقدته في كل مكان لأتأكد من أمره - لكن لم يتمكن أحد من العثور عليه.

قالت والدتها: «هل تتذكرين أين رأيته آخر مرة يا آني؟».

تساءلت كيف كان بإمكاني أن أظن أنها بدت بيضاء شاحبة، أو أي شيء آخر غير أن تشتعل بحمرة الخجل، حين أجابت أمها بأنها كانت تحمله منذ فترة قصيرة، على حد قولها، ولكنه لا يستحق البحث عنه.

راحوا يبحثون عنه مرة أخرى، من دون أن يعثر عليه أحد مجددًا. ناشدتهم بعدم الاستمرار في البحث، إلا أنهم استمروا فيه على فترات متقطعة، حتى صارت زوجة الدكتور في حالة جيدة، وبدأت الجماعة في المغادرة.

مشينا ببطء شديد عائدين إلى المنزل، السيد ويكفيلد، وأجنيس وأنا. كنت أنا وأجنيس معجبين بضوء القمر، أما السيد ويكفيلد فكان من النادر أن يرفع عينيه عن الأرض. ما إن وصلنا أخيرًا إلى باب المنزل حتى اكتشفت أجنيس أنها نسيت حقيبتها الصغيرة هناك. ركضت مسرعًا لإحضارها وقد تملكتني سعادة بالغة لأن أسدي لها أي خدمة.

ذهبت إلى قاعة الطعام حيث تناولنا العشاء وتركت الحقيبة، وكانت خاوية ومظلمة. إلا أنني أبصرت بابًا يوصل بينها ومكتب الدكتور، حيث لاح ضوء به وبدا مفتوحًا، فاتجهت إلى هناك، لأحكي له عن سبب رجوعي، وكذلك لأحصل على شمعة أستضيء بها.

كان الدكتور جالسًا على كرسيه المريح بجانب المدفأة، وكانت زوجته الشابة تجلس على كرسي عند قدميه. مكث الدكتور يقرأ بابتسامة راضية وصوت عالٍ بعض الشروح المخطوطة أو بيانًا لنظرية ما من هذا القاموس - الذي لا يبدو له نهاية - بينما راحت تنظر إليه. لاح وجهها في غاية من الجمال والحسن لم أشهدهما قَطُّ؛ كان صافيًا للغاية، شاردًا شاحبًا للغاية في ذهول، يملأه الرعب كما لو أنه لحالم يسير نائمًا، ولا أعرف لماذا طغى عليَّ هذا التشبيه. كانت عيناها مفتوحتين على مصراعيهما، وقد انسدلت خصلات شعرها البنية في حزمتين كثيفتين فوق كتفيها، متدليتين على ثوبها الأبيض، فعوضها عن نقص شريطها المفقود. أتذكر مظهرها بصورة جلية مميزة، إلا أنني لا أستطيع أن أجد وصفًا معبرًا عن ذاك المشهد، ولا يمكنني إلى الآن أن أعبر بكلمات عن طلتها على الرغم من أن وجهها يمتثل أمامي مرة أخرى، وأمتلك من الحكمة ما لم أمتلكها وأنا صغير. أستجمع معاني الندم والإذلال والعار والكبرياء والمحبة والثقة؛ أراهم جميعًا أمامي، فقد لاحوا جميعًا داخلها، وقد تجلوا أمامي برعب لا أعرف سببه.

أزعجها دخولي، بعد أن تحدثت بما أريد. أزعج وجودي الدكتور أيضًا. عدت لاستبدال الشمعة التي أخذتها من فوق الطاولة، فإذا به يربت على رأسها بطريقته الأبوية، ويقول لها إنه حلَّق بعيدًا متماديًا من دون انتباه، وكان قاسيًا إذ استغل سماحها له فأغرته بمواصلة القراءة، وأنه يطلب منها أن تتجه إلى الفراش للنوم.

إلا أنها طلبت منه، بطريقة سريعة وعاجلة، أن يسمح لها بالبقاء معه - حتى تشعر بالاطمئنان وأنها لا تزال في كنفه هذه الليلة (سمعت تمتمتها ببعض الكلمات الذليلة التي تحمل هذا المعنى). استدارت نحوه مرة أخرى، بعد أن نظرت إليَّ بينما أغادر الغرفة وأخرج من الباب، فإذا بي أراها تضع يديها على ركبته، وتنظر إليه بالوجه السالف نفسه، بعد أن هدأ بعض الشيء، ومن ثَم استأنف قراءته.

لقد ترك هذا المشهد تأثيرًا بالغًا داخلي، فرحت أتذكر هيئتها لفترة طويلة بعد ذلك، كما سأحكي فيما بعد عندما يحين الوقت.



الفصل السابع عشر

شخص يظهر فجأة

لم يخطر ببالي أن أذكر بيجوتي منذ أن هربت، إلا أنني كنت بالطبع قد كتبت لها خطابًا فور استقراري في دوفر، وكتبت خطابًا آخر أطول تقريبًا، يتضمن كافة التفاصيل عن الأمر، بعدما شملتني عمتي رسميًّا برعايتها. كتبت إليها مرة أخرى، بعد استقراري في مدرسة دكتور سترونج، ورحت أشرح لها بالتفصيل تصوراتي عن سعادتي وآمالي المستقبلية. لم أكن لأشعر بأي نوع من المتعة على الإطلاق في إنفاق الأموال التي منحها لي السيد دك، مثل التي شعرت بها حين أرسلت نصف جنيه من الذهب إلى بيجوتي، وقد أرفقته في هذه الرسالة الأخيرة، وأرسلته بالبريد، لتسديد المبلغ الذي اقترضته منها. قصصت لها في رسالتي هذه - وليس سواها - حكاية الشاب صاحب العربة والحمار.

ردت بيجوتي على هذه الخطابات بسرعة فائقة، إن لم يكن بإيجاز شديد، كما لو أنها ردود من تاجر. استنفدت قواها إلى أقصى حد ممكن في استدعاء هذه التعبيرات (والتي لم تكن تعبيرات طويلة في كتابتها

بالتأكيد) في محاولة لكتابة ما شعرت به حول موضوع رحلتي. دوَّنت أربع صفحات تبدأ بجمل غير متماسكة ومتداخلة، من دون نهاية لأي جملة، سوى علامات من لطخات الحبر لم تكن كافية لمنح الجملة أي معنى. إلا أن هذه البقع كانت أكثر العبارات بلاغة وأفضلها تركيبًا، لأنها أظهرت لي بكاء بيجوتي ودموعها التي غطت أنحاء الورقة، فأي شيء كنت أتمناه أكثر مما فعلت؟

فهمت من رسائلها، من دون عناء يذكر، أنها غير راضية عن عمتي حتى تلك اللحظة. لم تلبث فترة قصيرة جدًّا تفصل بين مشاعرها السالفة تجاهها والتي استمرت لفترة طويلة. كتبت تقول: «لم نعرف أي إنسان قَطُّ يستطيع أن يتصور أن الآنسة بيتسي قد تبدو مختلفة تمامًا عن طباعها في الماضي؛ كانت تبدو أخلاقية!». كانت كلمة «أخلاقية» هي ما عبرت به عن قصدها. كان من الواضح أنها كانت لم تزل تخشى الآنسة بيتسي، لأنها أرسلت لها التحية والامتنان ولكن برهبة، ومن الواضح أنها كانت تخاف مني أيضًا، بل وترجح احتمالية هروبي مرة أخرى قريبًا، إذا كان بإمكاني استنباط حكمي على هذا الأمر من التلميحات المتكررة التي بعثتها، إذ قالت إن أجرة السفر إلى يارموث بالحافلة متاحة دائمًا وتحت الطلب.

أبلغتني بيجوتي بمعلومة كان لها بالغ الأثر في نفسي، وهي أن أثاث منزلنا القديم قد بيع، وأن السيد مردستون والآنسة أخته قد اختفيا، فأُغلِق المنزل، وعُرِض للإيجار أو البيع. يعلم الله أنني لم أشارك بأي دور خلال بقائهما فيه، لكن يؤلمني أن أفكر في المكان القديم الغالي

وقد صار مهجورًا خاويًا، تنمو في حديقته الحشائش، وتتساقط فيه الأوراق الكثيفة والمبللة فتسد الممرات. تخيلت كيف ستعوي رياح الشتاء حوله، وكيف سيضرب المطر البارد زجاج النافذة، وكيف سيدلي القمر بأشباح ضوئه فوق جدران الغرف الفارغة، فيراقب عزلتها طوال الليل. فكرت من جديد في القبر القابع تحت الشجرة في باحة الكنيسة، وخُيِّل لي في هذه اللحظة كما لو أن المنزل قد مات أيضًا. أما كل شيء مرتبط بأبي وأمي، فقد تلاشى إلى فناء.

لم تُعلمني بيجوتي بأي أخبار أخرى في رسائلها. قالت إن السيد باركس زوج ممتاز، على الرغم من أنه لم يزل حريصًا بعض الشيء، لكننا جميعًا نتسم بعيوب، وأنها لا تخلو من كثير منها (على الرغم من أنني متأكد من أنني لا أعرف لبيجوتي عيبًا). قالت إن السيد باركس يبعث إليَّ بتحياته، وإن غرفة نومي الصغيرة جاهزة دائمًا تحت خدمتي. أبلغتني أن السيد بيجوتي على ما يرام، وأن هام في خير حال، وأن السيدة جامدج على حالها البائسة ذاتها، ولكن إيميلي الصغيرة لا ترسل تحياتها، لكنها قالت لبيجوتي أن ترسلها إذا شاءت.

نقلت كل هذه الأخبار إلى عمتي بدقة، واحتفظت فقط بما ذكرته بيجوتي عن إيميلي الصغيرة، لأنني شعرت غريزيًّا أن عمتي لن تميل إليها أو ترفق بها. قامت عمتي بعدد من الزيارات إلى كانتربري لملاقاتي. كنت لم أزل حديث العهد بمدرسة دكتور سترونج، وكانت زيارتها تتم في أوقات غير مناسبة دومًا. أحسب أنها أرادت أن تأخذني على حين غرة في أغلب الظن. إلا أنها وجدتني مواظبًا مجدًّا، وأتمتع بسلوك حسن،

وسمعت من كل النواحي أنني تطورت سريعًا في المدرسة، فتوقفت عن هذه الزيارات المباغتة. صرت أراها في أيام السبت، مرة كل ثلاثة أو أربعة أسابيع، كلما ذهبت إلى دوفر طلبًا للعلاج، أما السيد دك فأراه يوم الأربعاء بالتناوب كل أسبوعين، بينما تصل عربته في الظهيرة، ويبقى حتى صباح اليوم التالي.

لم يكن السيد دك يسافر قَطُّ في مثل هذه المناسبات من دون أن يصطحب مستلزماته الكتابية من مخزون الأقلام والأوراق والمذكرات كذلك، فقد بات يحسب أن الوقت قد حان، وعليه أن ينجز عمله في أقرب فرصة ممكنة.

كان السيد دك محبًّا لكعك الزنجبيل. طلبت مني عمتي فتح حساب له في متجر الكعك، حتى تجعل زيارته ممتعة، بشرط عدم إنفاق أكثر من شلن واحد على مدار اليوم. صرت أبعث بجميع فواتيره الصغيرة من الفندق الصغير الذي كان يبيت فيه إلى عمتي. رحت أرسل الفواتير قبل دفعها، وقد دفعني هذا إلى الشك في أنها لا تسمح له إلا بالصلصلة بأمواله، وليس بإنفاقها. تأكدت بعد المزيد من التحقق أن الأمر على هذا النحو الذي توقعته، أو على الأقل إن ثمة اتفاقًا بينه وعمتي يفضي إلى أن يُحاسبها على جميع مدفوعاته. لم يفكر مطلقًا في خداعها، وكان يرغب في إرضائها دومًا، وقد دفعه هذا الشعور إلى الحرص على نفقاته. أما فيما يخص هذه النقطة، وفي غيرها من التدابير المحتملة الأخرى، فإن السيد دك ظل مقتنعًا أن عمتي هي أحكم وأروع النساء. باح لي أكثر من مرة بهذا الأمر بسرية وبصوت هامس، كما لو أنه بات سرًّا لا يذاع.

تحدث إليَّ السيد دك في يوم من أيام الأربعاء بنوع من الغموض، بعد أن منحني هذه الثقة في كتم الأسرار، فراح يقول: «يا تروتوود، مَن هذا الرجل الذي يختبئ بالقرب من منزلنا ويخيفها؟».

«يخيف عمتي يا سيدي؟».

أومأ السيد دك، وراح يقول: «كنت أظن أنه ما من شيء قد يخيفها، لأنها...». وهنا راح يهمس بهدوء مستطردًا: «لا تذكر ذلك لأحد - أحكم وأروع النساء». ثم تراجع بعد أن أنهى قوله هذا، حتى يتمكن من ملاحظة الأثر الذي تركه هذا الوصف في نفسي.

قال السيد دك: «كانت المرة الأولى التي جاء فيها - دعني أتذكر - في عام ألف وستمائة وتسعة وأربعين، وهو تاريخ إعدام الملك تشارلز. أحسب أنك قلت لي إنه في عام ألف وستمائة وتسعة وأربعين، أليس كذلك؟».

«بلى يا سيدي».

قال السيد دك وهو في حيرة شديدة بينما يهز رأسه: «لا أعرف كيف يمكن أن يحدث هذا الأمر. لا أظن أنني عجوز في مثل هذا العمر».

سألته: «هل ظهر الرجل في ذاك العام يا سيدي؟».

قال السيد دك: «الحقيقة، إنني لا أعرف كيف يمكن أن يصح ظهوره في ذلك العام يا تروتوود. هل تأكدت من هذا التاريخ؟».

«نعم يا سيدي».

قال السيد دك ببصيص من الأمل: «أفترض أن التاريخ لا يكذب أبدًا، أليس كذلك؟».

أجبته بثقة ويقين: «بلى يا سيدي العزيز!». وقد كنت شابًّا يافعًا غضًّا، وقد ظننت أن الأمر كذلك.

تكلم السيد دك بينما يهز رأسه قائلًا: «لا أدري كيف يصح هذا التاريخ. إن ثمة شيئًا خاطئًا في موضع ما. ومع ذلك، فقد جاء الرجل بعد وقت قصير جدًّا من الخطأ الذي وقع، وقد نقل بعض المشكلات من رأس الملك تشارلز إلى رأسي. كنت أسير مع الآنسة تروتوود بعد احتساء الشاي وقت الغروب، فإذا بي أبصره على مقربة من منزلنا».

سألته: «هل كان يتجول حول المنزل؟».

كرر السيد دك قائلًا: «أكان يتجول حوله؟ دعني أفكر، لعلي أتذكر قليلًا. لا، لا، لم يكن يتجول حوله».

سألته، بأقصر الطرق لفهم الأمر، عن الشيء الذي كان يفعله.

قال السيد دك: «حسنًا، لم يكن يفعل شيئًا على الإطلاق، حتى أقبل من ورائها، ثم همس إليها بشيء. ثم استدارت وأغمي عليها. وقفتُ أنا وتلفتُّ إليه، إلا أنه مضى بعيدًا، لكنه ظل مختبئًا منذ ذلك الحين (تحت الأرض أو في مكان ما)، وهو الشيء الأكثر غرابة».

سألته: «هل ظل مختبئًا منذ ذلك الحين؟».

أجابني السيد دك، بعد أن أومأ برأسه بجدية، قائلًا: «بالتأكيد، لقد اختفى ساعتها، ولم يظهر قَطُّ حتى ليلة أمس! كنا نسير في الليلة الماضية، إلى أن ظهر من ورائها مرة أخرى، وقد عرفته بدوري من جديد».

«وهل أخاف عمتي مرة أخرى؟».

قال السيد دك: «ظلت ترتجف». راح يقلد ارتجافتها، وأخذ يجز على أسنانه لتطقطق، وقال: «أمسكت بالسور، وأخذت تبكي». وهنا اقترب مني وراح يهمس بهدوء شديد قائلًا: «لكن يا تروتوود، تعالَ إلى هنا، لماذا أعطته المال يا فتى، وقد أبصرت ذلك في ضوء القمر؟».

«ربما كان متسولًا».

أشاح السيد دك برأسه، رافضًا هذا التفسير تمامًا، وراح يكرر إجابته عدة مرات، بثقة بالغة، قائلًا: «لا ليس متسولًا، ليس متسولًا، ليس متسولًا يا سيدي»، ثم راح يحدثني قائلًا إنه أبصر عمتي من نافذته في وقت متأخر من الليل، وإذا بها تعطي هذا الشخص مالًا في الحديقة الخارجية تحت ضوء القمر، ثم تسلل الرجل بعيدًا -متواريًا تحت الأرض مرة أخرى، بحسب ظنه- ولم يرَه مرة أخرى، بينما عادت عمتي بسرعة وسرية إلى المنزل. مكثت طوال صباح اليوم التالي مختلفة تمامًا، على غير عادتها، مما أقلق السيد دك وشغل باله.

لم يراودني شك عند بداية هذه القصة في أن المجهول الذي قصده السيد دك، لم يكن سوى وهم من خياله، وواحد من سلالة أوهام ذلك الأمير المشؤوم التي سببت له الكثير من العراقيل. إلا أنني بعد التروي رحت أفكر في تعرض عمتي للتهديد، أو محاولة التهديد لمرة أو مرتين، بأخذ السيد دك المسكين من رعايتها، وأن عمتي -تلك القوية التي أعرف بنفسي مدى اللطف البالغ الذي تشعر به تجاهه- قد اضطرت إلى دفع ثمن سلامته وسكينته غاليًا. كنت مرتبطًا بالسيد دك بعاطفة قوية، وكنت

حريصًا على سلامته كل الحرص، لذلك دفعتني مخاوفي إلى ترجيح ظنوني هذه، ولفترة طويلة لم يمر يوم من أيام الأربعاء من دون أن أشك في أنه لن يكون في العربة القادمة لزيارتي كالمعتاد. إلا أنني رحت أراه دائمًا، برأسه الأشيب، يضحك في سعادة، ولم يكن لديه أي شيء آخر ليقوله عن الرجل الذي تسبب في إخافة عمتي.

كانت أيام الأربعاء أسعد أيام حياة السيد دك، وأبعد عن أن تكون أقل سعادة من جانبي. صار معروفًا لكل صبي في المدرسة في وقت قصير، على الرغم من أنه لم يشارك قَطُّ في أي لعبة من ألعابنا سوى تحليق الطائرات الورقية، فإنه أبدى اهتمامًا بالغًا بألعابنا كلها مثل أي واحد منا. كم من مرة رأيته، متابعًا لمباراة ألعاب «البلي» أو «الدوامة»، وإذا باهتمام لا يوصف يرتسم على وجهه، بل صار يحبس أنفاسه في الأوقات الحرجة! كم من مرة أبصرته في جولات لعبة «الأرنب وكلاب الصيد»، وقد صعد إلى ربوة صغيرة، وأخذ يهتف للمتحلقين مشجعًا لكل منهم في دوره، وملوحًا بقبعته التي تعلو رأسه الأشيب، غافلًا عن رأس الملك تشارلز الشهيد، وكأن كل شيء قد صار ينتمي إليه! كم من ساعة في الصيف عرفت أنها لم تمضِ إلا كدقائق سعيدة في حياته بينما يتابعنا في ملعب الكريكيت! كم من يوم من أيام الشتاء رأيته فيها واقفًا بأنف أزرق، في ثلج قارص ورياح باردة، ناظرًا نحو الأولاد في تزحلقهم على المنحدر الطويل، بينما يصفق بقفازاته الصوفية في نشوة وسرور!

لقد كان محبوبًا عند الجميع، وكانت براعته التي يبديها في تفاصيل

الأشياء الصغيرة فائقة. يمكنه تقطيع البرتقال إلى أجزاء وأشكال لم يكن لأحد منا أن يتصور شيئًا عنها. يصنع قاربًا من أي شيء؛ بداية من صنعه من سيخ إلى أي شيء غيره. يمكنه تحويل عظام القفص الصدري للحيوانات إلى قطع من الشطرنج، ويُشكِّل العربات الرومانية من بطاقات وأوراق قديمة، ويصنع من كرات القطن مكابح، ويُشكِّل من الأسلاك القديمة أقفاصًا للطيور. أما أكثر ما برع فيه أكثر من أي شيء سواه، فكان كل ما يتعلق بأصناف الخيوط والقش، فقد اقتنعنا جميعًا أنه يستطيع تشكيل أي شيء منه بيده.

لم تقل شهرة السيد دك بيننا، بل راحت بعد بضعة أيام من زيارات أيام الأربعاء، أن انتشرت، حتى أجرى الدكتور سترونج بعض الاستفسارات عنه بنفسه، وأخبرته بكل ما قالته لي عمتي عنه، مما أثار اهتمام الدكتور، حتى إنه طلب مني أن أقابله به في زيارته القادمة، وقد قمت بدوري فقدمته له. طلب الدكتور من السيد دك أن يأتي إلى المدرسة مباشرة - إذا لم يجدني في انتظاره عند مكان وصول الحافلة - فيستريح حتى ينتهي يومنا الدراسي في الصباح، وسرعان ما تحول الأمر إلى عادة، فصار السيد دك يأتي إلى المدرسة مباشرة، وإذا تأخرت قليلًا - كما كان يحدث غالبًا في أيام الأربعاء - فإنه يتجول في فناء المدرسة في انتظاري. تعرَّف في هذا الوقت على زوجة الدكتور الشابة الجميلة (بعد أن صارت أكثر شحوبًا مما كانت عليه سابقًا، كنت نادرًا ما أراها أو يراها أي شخص آخر، وعلى ما أظن لم تكن في أحسن حال، وإن لم يقلل شيء من جمالها المعهود)، وهكذا بات أكثر قربًا وأوسع

دراية بهم من قبل، حتى اعتاد أن يأتي في النهاية إلى المدرسة مبكرًا ومن ثَم ينتظرني. كان يجلس دائمًا في زاوية معينة، على كرسي خاص، صار يسمى باسمه «دك»، وقد أحنى رأسه الأشيب إلى الأمام، فيستمع باهتمام إلى كل ما يدور حوله، في تبجيل عميق للتعلم الذي لم يستطع اكتسابه يومًا.

امتد هذا التبجيل من السيد دك إلى الدكتور، وقد كان يتصور أنه الفيلسوف الأكثر دقة ومهارة على مدار أي عصر من العصور. مر وقت طويل قبل أن يتجرأ السيد دك على أن يتحدث إليه من دون أن يصير «حاسر الرأس»، وعندما تعمقت الصداقة بينه والدكتور، صارا يمشيان معًا لساعة كاملة، على جانب من الفناء كان معروفًا بيننا باسم ممشى الدكتور، كان السيد دك يخلع قبعته عن رأسه على فترات، لإظهار احترامه للحكمة والمعرفة المتمثلتين في الدكتور. لم أعرف قط كيف بدأ الدكتور في قراءة قصاصات من القاموس الشهير في هذه الممرات. ربما شعر في وجوده في البداية كأنه يقرأ لنفسه. ومع ذلك، تحول الأمر إلى عادة أيضًا، وكان السيد دك وهو يستمع بوجه يلمع بالفخر والسرور، يعتقد في أعماق قلبه أن القاموس هو الكتاب الأكثر بهجة في العالم.

أتذكر سيرهما معًا في غدوهما ورواحهما أمام نوافذ قاعات المدرسة، حيث كان الدكتور يقرأ بابتسامته الراضية أجزاء من هذه المخطوطة من حين لآخر، أو يومئ برأسه المبجل، بينما يستمع السيد دك مشدوهًا إليه باهتمام بالغ، على الرغم من ذكائه الضئيل الذي يحوم في فراغ هادئ، لا يعلمه سوى الله، فيحلق بأجنحة هذه الكلمات

الصعبة التي تُتلى عليه. حسبت أنه أحد أجمل المشاهد التي رأيتها في حياتي في سكونها. أحسست أنهما سيقضيان حياتيهما في غدوهما ورواحهما إلى الأبد، وقد يصير العالم أفضل على نحو ما بطريقتهما هذه، بل إن ألف حدث يثير ضجيجًا لم يكن ليُحدِث نصف الأثر الطيب والنافع الذي أحدثاه لي.

صارت أجنيس واحدة من أصدقاء السيد دك، بل وصارت مقربة منه للغاية، وقد تعرف كذلك على يورايا بعد أن كثرت زيارته للمنزل. راحت صداقتنا تزدهر باستمرار، بل ظلت راسخة على أساس غريب؛ وهو أن السيد دك قد جاء معلنًا الاعتناء بأمري بصفته ولي أمري، إلا أنه كان يستشيرني دائمًا في أي مسألة يغلب عليها الشك، فيأخذ دومًا برأيي، ويتبع نصيحتي، من دون أن يكتفي بأن أحظى باحترام كبير لحصافة عقلي وذكائي وحسب، بل كان يأخذ في الاعتبار أيضًا أنني ورثت الكثير من براعة عمتي.

كنت على وشك السير مع السيد دك من الفندق إلى موقف الحافلة قبل العودة إلى المدرسة في صباح أحد أيام الخميس - لأننا كنا سندرس لمدة ساعة في المدرسة قبل الإفطار - فإذا بي ألتقي بيورايا في الشارع، الذي راح يذكرني بوعدي له باحتساء الشاي معه ومع والدته، مضيفًا بلطف: «إلا أنني لم أتوقع منك أن تفي بالوعد يا سيد كوبرفيلد، فنحن حقراء للغاية».

لم أتمكن بعدها من أن أهتدي إلى قرار بشأنه، لم أجزم إذا ما كنت أحببت يورايا أم أنني كرهته، بل لم أزل متشككًا جدًّا في مشاعري

تجاهه. وقفت أتطلع إلى وجهه على قارعة الطريق، لكنني شعرت أنه من الإهانة أن أتعالى عليه، فأجبته قائلًا إنني لم أُرِد سوى المجيء في موعد متفق عليه سابقًا.

قال يورايا: «آهٍ، إذا كان هذا كل شيء يا سيد كوبرفيلد، ولم يكن تواضع حالتنا هو السبب الذي منعك، فهل ستأتي لزيارتنا هذا المساء؟ وإذا كان تواضع حالتنا وحقارتنا هما المانع، فأرجو ألا تتردد في الاعتراف بالأمر يا سيد كوبرفيلد، لأننا ندرك حالتنا جيدًا».

قلت إنني سأذكر أمر هذه الزيارة للسيد ويكفيلد، وإنه إذا وافق -كما لم يكن لديَّ أدنى شك في أنه سيوافق على طلبي- فإنني سأحضر بكل سرور. بناء على اتفاقي، فإنني في تمام الساعة السادسة من ذلك المساء -والتي كانت إحدى أمسيات انتهاء العمل في المكتب مبكرًا- أعلمت يورايا باستعدادي للذهاب إلى منزله.

قال لي يورايا بينما كنا نواصل السير معًا في الطريق: «ستسعد أمي وتفخر حقًّا، أو أنها ستشعر بالزهو، إذا لم يكن الزهو خطيئة يا سيد كوبرفيلد».

قلت: «ومع ذلك، فقد افترضتُ أنني مزهو هذا الصباح».

راح يورايا يقول: «آهٍ يا عزيزي، لا يا سيد كوبرفيلد! آهٍ، صدقني، لم أقصد! إن هذه الفكرة لم تخطر ببالي! لم أكن لأتصور أن الأمر يرجع إلى الزهو على الإطلاق، بل ربما يعود إلى ظنك أننا حقراء بما لا يتلاءم مع مكانتك، لأننا وضعاء للغاية».

سألته كي أغير موضوع كلامنا: «هل رحت تدرس الكثير من القوانين في الآونة الأخيرة؟».

قال بنوع من إنكار الذات: «آهٍ يا سيد كوبرفيلد، لا يمكن تسمية قراءتي دراسة إلا بصعوبة بالغة. لقد قضيت ساعة أو ساعتين في المساء، في بعض الأحيان، مع السيد تيد».

قلت: «إنني أتصور أنه صعب إلى حد ما، أليس كذلك؟».

قال يورايا: «إنه صعب عليَّ في بعض الأحيان. إلا أنني لا أعرف كيف يستقبله شخص موهوب».

أخذ يضرب ذقنه بضع ضربات بينما يمشي، محدثًا صوتًا بأصابع يده اليمنى التي تشبه الهيكل العظمي، ومن ثَم أضاف قائلًا:

«إن ثمة تعبيرات، كما تعرف يا سيد كوبرفيلد -كلمات ومصطلحات لاتينية- في كتاب السيد تيد، يصعب على إنسان حقير مثلي فهمها».

قلت بحماسة: «هل ترغب في تعلم اللاتينية؟ سوف أُعلِّمك بكل سرور، فأنا أتعلمها كذلك».

أجاب بينما يهز رأسه: «آهٍ، شكرًا لك يا سيد كوبرفيلد. إنني على يقين من كرمك الذي دفعك إلى تقديم هذا العرض، لكنني أحقر من أن أقبله».

«يا له من هراء يا يورايا!».

قال: «آهٍ، عليك أن تعذرني حقًّا يا سيد كوبرفيلد! إنني ممتن للغاية لك، وأود أن أؤكد لك أنني أحلم أن يتحقق هذا الأمر أكثر من غيره

من الأمور، لكني بالغ الحقارة. إن ثمة أناسًا يودون لو يدهسوني إذلالًا واحتقارًا من دون أن أمس مشاعرهم بسوء لمجرد رغبتي في تحصيل العلم. إن التعلم لم يُخلق لأمثالي، ومن الأفضل لشخص مثلي ألا يطمح إليه. وإذا كان يريد أن يستمر في الحياة، فعليه أن يتعامل بخنوع يا سيد كوبرفيلد».

لم أرَ فمه بهذا الاتساع قَطُّ، ولم أبصر هذه التجاعيد في خديه عميقة جدًّا لهذا الحد من قبل، كما رأيتها حين أفضى إليَّ بهذه المشاعر المكنونة في نفسه. لقد راح يهز رأسه طوال الوقت، ويتلوى بذل.

قلت: «أظن أنك مخطئ يا يورايا. إنني أجرؤ على القول إن ثمة الكثير من الأمور التي يمكنني أن أعلمك إياها، إذا كنت ترغب في تعلمها».

أجاب: «آهٍ، إنني لا أشك في ذلك مطلقًا يا سيد كوبرفيلد. لكن لأنك لست حقيرًا، فإنك لا تستطيع أن تحكم على الأمر جيدًا على من هم كذلك. لن أستفز مشاعر من هم أفضل مني بالرغبة في التعلم، شكرًا لك. إني مثقل بالكثير من المتاعب. ها هنا مسكني المتواضع يا سيد كوبرفيلد».

دخلنا إلى غرفة منخفضة السقف ذات طراز قديم، وكانت مطلة مباشرة على الشارع. وجدنا السيدة هيب، التي كانت صورة ميتة مشابهة ليورايا، لم تختلف عنه سوى أنها كانت قصيرة القامة. استقبلتني بأقصى درجات التواضع، واعتذرت لي عن تقبيل ابنها أمامي، مشيرة إلى أنهما حقيران، إلا أنهما يكنان عواطف طبيعية، وقد كانا يأملان ألا يسيئا

بعواطفهما لأحد. كانت الغرفة نظيفة كليةً، مقسمة إلى نصف صالون، ونصف مطبخ، إلا أنها ليست مريحة على الإطلاق.

وضعت أكواب الشاي فوق الطاولة، بينما أبصرت الغلاية تغلي فوق الموقد. لاحت خزانة ذات أدراج يعلوها سطح مستوٍ، ليقرأ يورايا أو يكتب عليها في المساء. تمددت أمامي على الأرض حافظة يورايا الزرقاء، وقد انسكبت منها بعض الأوراق. أبصرت مجموعة من كتب يورايا يعلوها كتاب السيد تيد، وكذلك رأيت خزانة منتصبة في إحدى الزوايا، وبعضًا من قطع الأثاث التقليدية. لا أتذكر أن أي قطعة أثاث بعينها كانت تبدو حقيرة، أو رثة، أو يمكن الاستغناء عنها، لكني أتذكر أن المكان بأكمله قد بدا على هذه الهيئة.

لاح شيء من تواضع السيدة هيب في أنها لم تزل ترتدي زي الحداد، على الرغم من مرور وقت طويل على وفاة زوجها السيد هيب. أتصور أن ثمة اختلافًا يكمن في تنازلها عن ارتداء قبعة الحداد، أما دون ذلك فقد احتفظت بثوب حدادها كما لو أنها لم تزل في الأيام الأولى من حزنها على وفاته.

قالت السيدة هيب وهي تعد الشاي: «أنا متيقنة من أنه يجب أن تُخلَّد ذاكرتنا هذا اليوم يا يورايا؛ اليوم الذي زارنا فيه السيد كوبرفيلد».

قال يورايا: «قلتِ إنكِ ستفخرين بذلك يا أمي».

قالت السيدة هيب: «لو أنني تمنيت أن يبقى أبوك حيًّا بيننا لأي سبب من الأسباب، لتمنيت أن يكون بيننا ليشهد هذه الصحبة في هذا المساء».

شعرت بالحرج من هذه المجاملات. إلا أنني كنت مدركًا أيضًا أنني أحظى بالتبجيل كضيف شرف، وظننت أن السيدة هيب امرأة تبدي لي لطفها.

قالت السيدة هيب: «لقد تطلع يورايا إلى هذه الزيارة يا سيدي منذ فترة طويلة. كان يخشى من أن تمنعك حالنا المتواضعة عن زيارتنا، وقد راودتني التطلعات والمخاوف نفسها. إننا حقراء، كنا كذلك، وبقينا على النحو ذاته، وسنظل هكذا حتى آخر الزمان».

قلت: «إنني على يقين يا سيدتي أنكما تستطيعان انتهاز الفرص فتغيران هذا الوضع، ما لم تكن هي رغبتكما في استمراره».

ردت السيدة هيب قائلة: «شكرًا لك يا سيدي. إننا ندرك وضعنا ونحن شاكران وممتنان».

لاحظت أن السيدة هيب قد اقتربت مني تدريجيًّا، وأن يورايا تقرب إليَّ كذلك، وأنهما عاملاني باحترام فائق في تقديم أطيب الأطعمة من أجود ما وضع فوق الطاولة. لم يكن هناك في الواقع مجال للاختيار على نحو خاص، إلا أنني انتبهت إلى أفعالهما، وأحسست بحرصهما البالغ على إرضائي. راحا يتحدثان بعد ذلك عن العمات، ومن ثَم أخبرتهما عن عمتي، ثم تحدثنا عن الآباء والأمهات ثم أخبرتهما عن أبي وأمي. ثم بدأت السيدة هيب في التحدث عن أزواج الأمهات، ومن ثَم شرعت في إخبارها عن زوج أمي - لكنني توقفت حين انتبهت لحديثي، فقد تذكرت أن عمتي نصحتني بالتزام الصمت بشأن هذا الموضوع. إلا أن سدادة الفلين الصغيرة الرقيقة لا تستطيع أن تقاوم زوجًا من مقبض

مفتاح معدني، والسن الصغيرة الهشة لا تستطيع أن تقاوم زوجًا من أطباء الأسنان، وكرة الريش الصغيرة لا تظل ثابتة بين اثنين من اللاعبين، كذلك كان موقفي بين يورايا والسيدة هيب. لقد راحا يفعلان معي ما يحلو لهما تمامًا، واستخرجا مني ما لم أكن راغبًا في قوله مطلقًا، وبكل تأكيد فإنني حين أتذكر ما قلته فإنني أحمر خجلًا، وعلى وجه الخصوص حين أتذكر خوضي في تفاصيل، وكما هي الحال في أحاديث المصارحة، فإنني أحسست بعض التفضل كما لو أنني الخبير بالأسرار، بل شعرت كما لو أنني راعٍ أترأس مضيفيَّ المحترمين.

كان من المؤكد أن كلًّا منهما مغرم بالآخر إلى حد كبير. أحسست أن شعورهما طبيعي من دون تصنع، وقد كان لذلك عظيم الأثر على نفسي، أما المهارة التي تابع بها كل منهما الآخر فيما يقوله، فقد كانت تحظى بلمسة فنية بينما لم أزل غضًّا لا أقوى على استيعابها. لمَّا لم يبقَ شيء آخر في نفسي لأخرجه (لأنني لم أكن لأتفوه بشيء عن حياتي خلال عملي في متجر مردستون وجرينبي، أو عن رحلتي للهروب منه)، راحا يتحدثان حول السيد ويكفيلد وأجنيس. ألقى يورايا الكرة إلى السيدة هيب، فأمسكتها السيدة هيب وألقتها مرة أخرى إلى يورايا، احتفظ بها يورايا لبعض الوقت، ثم أعادها إلى السيدة هيب، واستمرا في رميها إلى أن فقدت القدرة على تمييز الشخص الذي حصل عليها، وقد صارت الأمور محيرة إلى أبعد مدى، بل راحت الكرة نفسها تتغير دائمًا. بدأ الحديث في لحظة ما عن السيد ويكفيلد، ثم تحول الآن إلى أجنيس، ثم عاد بعد لحظة إلى فضائل السيد ويكفيلد، أما الآن فقد تحول

نحو إعجابي بأجنيس، ثم -في اللحظة ذاتها- إلى حجم أعمال السيد ويكفيلد وموارد دخله، وفي لحظة تحول إلى حياتنا المنزلية ومشاغلنا بعد الغداء. آلت بنا اللحظة ذاتها إلى شراب النبيذ الذي يحتسيه السيد ويكفيلد، ودوافع احتسائه للخمر، ثم الشفقة عليه لأنه يكثر منه. يبدأ في لحظةٍ الحديثُ عن أمر، ثم يتحول إلى آخر، ثم تجتمع الأحاديث في كل الأمور دفعة واحدة. لم يبادرا طوال الوقت بحديث كثير أو فعل أي شيء سوى تشجعيهما على المضي في حديثي في بعض الأحيان، خوفًا من أن تتغلب عليهما حقارتهما، واحترامًا لتشريفي لهما بزيارتي، لذا وجدت نفسي أفضي بشيء تلو الآخر عن أمور لم أكن أنوي الحديث عنها أو البوح بها، وقد أبصرت أثر حديثي في اهتزاز فتحتي أنف يورايا.

بدأت أشعر بنوع من الانزعاج، ورحت أتمنى لو أنني أنهي هذه الزيارة، فإذا برجل قادم من الشارع يمر بباب المنزل - وكان مفتوحًا لتهوية الغرفة، لأنها كانت حارة، ولم يكن الطقس لطيفًا في ذلك الوقت من العام - ما لبث أن عاد مرة أخرى، وراح ينظر إلى الداخل، ثم دخل صارخًا بصوت عالٍ قائلًا: «كوبرفيلد! هل من الممكن أن يكون هو؟».

كان القادم هو السيد ميكوبر، حقًّا كان السيد ميكوبر، بنظارته، وعصاه، وياقة قميصه، وطلته البهية، ونبرات صوته المزهوة، كان هو بتفاصيله الكاملة.

بسط السيد ميكوبر كفه قائلًا: «عزيزي كوبرفيلد، هذا اللقاء يُحسب بالفعل ضمن ما يثير دهشة العقل، لأن ثمة أمورًا تقع لم تكن بالحسبان ولا تخطر على ذهن البشر... باختصار، إنه لقاء استثنائي إلى

أبعد حد. لقد كنت أسير في الشارع، بينما أفكر في احتمال ظهور شيء ما (وإني الآن لمتفائل إلى حد بعد)، فإذا بي أجد صديقًا يافعًا - ولكنه كبير المقام - يحضر أمامي، وهو الذي يرتبط بأكثر فترات حياتي زخمًا بالأحداث، بل قد أقول إنه رفيق نقاط التحول في حياتي. يا كوبرفيلد، يا صديقي العزيز، كيف حالك؟».

لا أستطيع أن أقول - لا أقدر حقًّا على هذا القول - إنني كنت ممتنًّا لرؤية السيد ميكوبر هناك، إلا أنني سعدت برؤيته أيضًا، وقد صافحته بحماس مستفسرًا عن حال السيدة ميكوبر.

أخذ السيد ميكوبر يلوح بيده كعادته، مسندًا ذقنه إلى ياقة قميصه قائلًا: «شكرًا لك. إنها تتماثل للشفاء بصورة معقولة. لم يعد التوأم يحتاجان إلى أن يستمدا قوتهما من ينابيع الطبيعة...». ثم قال السيد ميكوبر في دفعة من دفعات الثقة للبوح: «باختصار، إنهما صارا مفطومين... أما السيدة ميكوبر، في الوقت الحاضر، فقد صارت رفيقتي في السفر. ستفرح يا كوبرفيلد إن جددت معرفتها بإنسان مثلك أثبت نفسه من جميع النواحي، ممثلًا فاضلًا جديرًا بالثقة في محراب الصداقة المقدس».

قلت إنني سأسعد برؤيتها.

قال السيد ميكوبر: «إنك في غاية الطيبة».

ثم ابتسم السيد ميكوبر، واستقر ذقنه مرة أخرى على قميصه، وأخذ يتلفت حوله.

قال السيد ميكوبر بلطف من دون أن يُوجِّه حديثه إلى شخص

بعينه: «لقد اكتشفت صديقي كوبرفيلد - ليس في عزلة، ولكن في أثناء وجوده في محفل اجتماعي بصحبة سيدة أرملة، يبدو أنه من ذريتها...». استطرد بعدها السيد ميكوبر، في صورة أخرى من مظاهر الثقة، قائلًا: «يبدو أنه ابنها. وقد شرفني أن أقترب إليهما».

لم أستطع فعل شيء في ظل هذه الظروف، سوى أن أقدم السيد ميكوبر إلى يورايا هيب ووالدته، وهذا ما فعلته. ظلا يذلان أنفسهما أمامه، بينما جلس السيد ميكوبر ولوح بيده بأسلوبه المهذب المعهود. ثم راح السيد ميكوبر يقول: «يتمتع أي صديق لصديقي كوبرفيلد بمكانة ومنزلة خاصة عندي».

قالت السيدة هيب: «إننا منحطان جدًّا يا سيدي. أنا وابني أدنى من أن نصير صديقَين للسيد كوبرفيلد. لقد تكرم وتواضع باحتساء الشاي معنا، وإننا لممتنَّين لمشاركته لنا، وكذلك ممتنان لك على هذا الكرم يا سيدي».

رد السيد ميكوبر بانحناءة قائلًا: «يا سيدتي، إنكِ في غاية الكرم. ما الذي تقوم به الآن يا كوبرفيلد؟ أما زلت تعمل في تجارة النبيذ؟».

انتابني قلق بالغ ورغبة في إبعاد السيد ميكوبر عن هذا النقاش، ومن ثَم أجبته وقد قبضت على قبعتي في يدي، وراح وجهي بلا شك يتوهج خجلًا، فقلت إنني تلميذ في مدرسة دكتور سترونج.

قال السيد ميكوبر: «أأنت تلميذ؟». ثم راح يوجه كلامه إلى يورايا والسيدة هيب، قائلًا: «إنني في غاية السعادة لسماع ذلك. على الرغم من أن عقلًا مثل عقل صديقي كوبرفيلد لا يحتاج إلى هذا التلقين الذي

يحتاجه من هو دونه، ممن في حاجة إلى معرفة أنواع البشر وصنوف الحياة، فلم تزل تربته غنية تعج بالنباتات الكامنة النامية...». ثم استطرد السيد ميكوبر حديثه مبتسمًا، في موجة أخرى من الثقة بالنفس، قائلًا: «باختصار، إنه عقل قادر على فهم الخبرات والعلوم إلى حد بعيد».

أخذ يورايا يطوق إحدى يديه الطويلتين بالأخرى بعد أن كانتا تتأرجحان ببطء، ثم راح يتلوى بشكل مروع بنصف جسده العلوي؛ تعبيرًا منه عن موافقته على هذا التقدير.

تحدثت لأُبعد السيد ميكوبر عن هذا الموضوع، فرحت أقول: «هلا ذهبنا لرؤية السيدة ميكوبر يا سيدي؟».

أجاب السيد ميكوبر بينما ينهض من مجلسه: «هيا بنا، إذا كنت ستقدم لها هذه الخدمة يا كوبرفيلد. لا أتردد أبدًا في البوح أمام حضور أصدقائنا هنا، أنني رجل راح يناضل لعدة سنوات، محاولًا تجاوز ضغوط الأزمات المالية».

كنت على يقين من أنه سيقول شيئًا من هذا النوع بلا شك، فقد كان دائم التفاخر بالأزمات التي واجهها.

استطرد قائلًا: «استطعت أحيانًا أن أتجاوز الأزمات، وفي أوقات أخرى، كانت الأزمات التي أواجهها... باختصار، لقد أرهقتني. مرت بي بعض الأوقات كنت قد تدربت فيها على أن أسدد سلسلة متوالية من الصفعات لها، كما مر بي كثير من الأوقات العصيبة التي استسلمت فيها، وقلت للسيدة ميكوبر، على حد تعبير كاتو: «لقد أصبت يا أفلاطون.

ها قد انتهى كل شيء الآن. لا أستطيع مواصلة القتال أكثر من ذلك»[1].
إلا أنني لم أستمتع طوال حياتي أكثر مما استمتعت في رضا بسكب أحزاني (إذا كان من الممكن أن أصف أزماتي، التي نشأت عن إعلان المحضرين وسندات الدفع بعد شهرين أو أربعة أشهر، بهذه الكلمات)، فأفضيت بها إلى حضن صديقي كوبرفيلد».

ختم السيد ميكوبر هذا المدح الرائق بقوله: «ليلة سعيدة يا سيد هيب! ليلة سعيدة يا سيدة هيب! إنني في خدمتكما». ثم خرج معي بطريقته بالغة الأناقة، وراح يقرع رصيفه بالحذاء محدثًا جلبة، كما راح يدندن بنغمات في أثناء مشينا.

أقام السيد ميكوبر في نزل صغير، وقد استأجر غرفة صغيرة، منعزلة عن الغرفة التجارية، وكانت تفوح منها رائحة التبغ بشدة. أحسب أن الغرفة كانت تقع فوق المطبخ، حيث تسللت رائحة دافئة للسمن وقد ظهرت أبخرتها من خلال بعض الفتحات الموجودة في الأرض، كما غطت الجدران طبقة سميكة من الدهون. عرفت أنها قريبة من الحانة أيضًا، بسبب رائحة المشروبات الكحولية التي فاحت مع جلجلة قرع الكؤوس. استلقت السيدة ميكوبر على أريكة صغيرة، منبسطة تحت صورة لخيول السباق، وقد اقترب رأسها من النار، أما قدماها فراحتا تدفعان آنية الخردل بعيدًا حيث الطرف الآخر من الغرفة، وقد كانت

(١) مأساة كاتو: من مسرحيات الإنجليزي جوزيف أديسون. عرضت عام ١٧١٣. تحمل المسرحية أفكارًا رواقية في مواجهة يوليوس قيصر. ربما يستشهد «ميكوبر» بهذه المقولة للتلميح إلى هول محنته ويأسه.

تستخدم بدلًا من النادل. دخل السيد ميكوبر موجهًا حديثه إليها أولًا، فقال: «يا عزيزتي، اسمحي لي أن أقدم لكِ تلميذًا من مدرسة دكتور سترونج».

لاحظت أن السيد ميكوبر لم يزل مرتبكًا - كعادته التي أعرفها دائمًا - بشأن عمري وصفي الدراسي، إلا أنه ظل يتذكر دائمًا، في لمحة لطيفة منه، أنني تلميذ في مدرسة الدكتور سترونج.

لفت الدهشة السيدة ميكوبر، إلا أنها سعدت لرؤيتي. كنت في غاية السعادة لرؤيتها أيضًا. جلست على الأريكة الصغيرة بالقرب منها، بعد أن ألقى كل منا إلى الآخر تحية طيبة.

قال السيد ميكوبر: «يا عزيزتي، هلا تكرمتِ بذكر موقفنا الحالي لكوبرفيلد، فلا يراودني أدنى شك في أنه يود أن يعرفه. أما أنا فسوف أذهب وألقي نظرة على الجرائد الآن، وأرى ما إذا كان أي شيء قد تغير بين الإعلانات المنشورة».

قلت للسيدة ميكوبر بعدما خرج: «لقد ظننت أنكم في بليموث يا سيدتي».

أجابت: «حقًّا يا عزيزي، لقد ذهبنا إلى بليموث يا سيد كوبرفيلد».

ألمحت قائلًا: «حتى تكونوا في قلب الحدث».

قالت السيدة ميكوبر: «حقًّا حتى نكون على مقربة من قلب الحدث. إلا أنه في الحقيقة لم يبقَ للموهبة مكان في الجمارك. كان النفوذ المحلي لعائلتي غير مجدٍ تمامًا، ومن ثَم لم نستطع الحصول على أي فرصة

عمل في هذا القسم، خاصة مع رجل يتمتع بقدرات مثل مواهب السيد ميكوبر. إنهم لا يفضلون توظيف رجل يتمتع بمواهب السيد ميكوبر، لأنه سيُظهر نقص قدرات الآخرين. وبصرف النظر عن هذا الأمر، فإنني لن أخفي عنك يا سيدي العزيز كوبرفيلد، أنه عندما أدرك ذلك الفرع من عائلتي الذي استقر في بليموث أن السيد ميكوبر سيأتي برفقتي، مع ابني ويلكنز الصغير وأخته والتوأم، فإنهم لم يستقبلوهم بالحماسة التي كان يتوقعها، نظرًا لأنه أُطلق سراحه من السجن لتوِّه». استطردت السيدة ميكوبر حديثها بنبرة منخفضة قائلة: «في الواقع... هذا الحديث بيننا فقط - لقد استقبلونا استقبالًا باردًا».

قلت: «آه، يا للعجب!».

قالت السيدة ميكوبر: «نعم. إنه لأمر مؤلم حقًّا أن نتأمل هذا الجانب من البشرية يا سيد كوبرفيلد، لكن استقبالهم لنا كان باردًا بلا ريب. إنني لا أشك في بشاعته. لقد راح هذا الفرع من عائلتي في الواقع، ممن استقروا في بليموث، يتبادلون القيل والقال عن شخصية السيد ميكوبر، قبل أن يمضي على وصولنا إلى هناك أسبوع واحد».

قلت بعد إمعان في التفكير إن الأجدر بهم أن يخجلوا من أنفسهم.

تابعت السيدة ميكوبر: «ومع ذلك، فقد سارت الأمور على هذا النحو، فماذا يمكن لرجل مثل السيد ميكوبر أن يفعل في ظل هذه الظروف؟ لم يتبقَّ سوى مسار وحيد وواضح أمامنا. وهو أن أقترض، من هذا الفرع من عائلتي، مالًا للعودة إلى لندن، بل العودة بأي تضحية».

قلت: «ثم عدتم جميعًا مرة أخرى يا سيدتي، أليس كذلك؟».

أجابت السيدة ميكوبر: «لقد عدنا جميعًا مرة أخرى. استشرتُ فروعًا أخرى من عائلتي منذ ذلك الحين عن المسار الأنسب للسيد ميكوبر - لأني أصر على أنه يجب أن يتخذ مسارًا وظيفيًّا يا سيد كوبرفيلد»، ثم تحدثت السيدة ميكوبر بلهجة منطقية وأكملت قائلة: «من الواضح أن أسرة مكونة من ستة أفراد، باستثناء خادم لها، لا يمكنها العيش معتمدة على لا شيء».

أجبتها قائلًا: «بالتأكيد يا سيدتي».

تابعت السيدة ميكوبر حديثها قائلة: «كان رأي هذه الفروع الأخرى من عائلتي أنه يجب على السيد ميكوبر أن يولي اهتمامه إلى الفحم على الفور».

«إلى ماذا سيدتي؟».

قالت السيدة ميكوبر: «إلى الفحم. أقصد إلى تجارة الفحم. تشجع السيد ميكوبر إلى التفكير في الأمر، وبعد الاستفسار عن الأمر، وجد أنه قد تتاح فرصة لرجل في مثل موهبته في تجارة الفحم في «مدواي». ثم كانت الخطوة الأولى الواضحة - كما قال السيد ميكوبر تمامًا، التي يجب اتخاذها، هي المجيء في زيارة إلى مدواي. وقد جئنا إليها بالفعل ورأيناها». ثم قالت السيدة ميكوبر بنبرة عاطفية: «أقول «نحن» يا سيد كوبرفيلد، لأنني لن أتخلى عن السيد ميكوبر أبدًا».

تمتمت بإعجابي وتقديري لها.

عادت السيدة ميكوبر تقول: «لقد جئنا ورأينا مدواي. أما رأيي في تجارة الفحم على ذلك النهر، فإنها مهارة تتطلب موهبة، لكنها بالتأكيد

تتطلب رأس مال كذلك. أما الموهبة فقد حازها السيد ميكوبر من دون أن يمتلك رأس المال. لقد رأينا، على حسب ظني، الجزء الأكبر من مدواي. وما أقوله هو استنتاجي الخاص. كنا على مقربة من هنا، فرأى السيد ميكوبر أنه من العجلة إفلات فرصة رؤية الكاتدرائية. أولًا، نظرًا لأنها تستحق المشاهدة، كما أننا لم نزُرها من قبل؛ وثانيًا، لأنه ثمة احتمال كبير بظهور شيء ما في مدينة الكاتدرائية هذه. لقد جئنا هنا منذ ثلاثة أيام. لم يظهر شيء حتى الآن. وقد لا يفاجئك يا عزيزي السيد كوبرفيلد، بقدر ما قد يدهش الغريب، أن تعرف أننا في الوقت الحالي ننتظر نقودًا محولة من لندن، حتى نستطيع الوفاء بالتزاماتنا المالية في هذا الفندق». استطردت السيدة ميكوبر حديثها بتأثر بالغ: «وإلى أن يصل هذا التحويل، فإنني معزولة عن منزلي (أقصد بعيدة عن منزل الإقامة في بنتونفيل)، وعن ابني وفتاتي، وعن توأمي».

شعرت بأقصى قدر من التعاطف مع السيد ميكوبر والسيدة زوجته، إزاء هذا الموقف الحرج، وقد بحت بهذا الأمر للسيد ميكوبر، بعد أن عاد في هذه اللحظة، مضيفًا أنني كنت أتمنى لو أن لديَّ ما يكفي من المال لإقراضهما المبلغ الذي يحتاجان إليه. لم يكن جواب السيد ميكوبر سوى تعبير عن انزعاجه وقلقه، ثم قال بينما يصافحني: «يا كوبرفيلد، إنك صديق حقيقي صادق، ولكن عندما تسوء الأمور وتزداد تعقيدًا، فليس أجمل من أن يحوز المرء صديقًا يمتلك أدوات الحلاقة». ما إن انتبهت السيدة ميكوبر إلى هذا التلميح المروِّع، حتى ألقت بذراعيها حول عنق السيد ميكوبر وحثته على الهدوء، فبكى. إلا

أنه تمالك نفسه بعد ذلك بلحظات، بل قرع الجرس للنادل على الفور تقريبًا، وراح يتحدث عن طبق من الكلى المطبوخة الساخنة مع طبق من الجمبري للإفطار في الصباح.

طلبت منهما الإذن بالانصراف، إلا أنهما ضغطا عليَّ كثيرًا للمجيء لتناول الطعام معهما قبل مغادرتهما، حتى إنني لم أستطع رفض هذه الدعوة. إلا أنني كنت أعرف أنني لن أتمكن من الحضور في اليوم التالي، إذ يجب أن أقوم بتحضير درس جديد في المساء. اتفق السيد ميكوبر معي أن يأتي إلى مدرسة الدكتور سترونج في الصباح (حيث شعر بأن التحويلات المالية سوف تصل بالبريد)، ثم اقترح أن تؤجل دعوتي للطعام إلى اليوم الذي يليه، إذا كان الأمر يناسبني. بناءً على الاتفاق، استدعيت للخروج من المدرسة في اليوم التالي، ووجدت السيد ميكوبر في الردهة، وقد جاء ليبلغني أن موعد الغداء سيكون في اليوم المتفق عليه. سألته عما إذا كانت الحوالة قد وصلت أم لا، فما كان منه إلا أن ضغط على يدي ثم غادر.

كنت أنظر من النافذة في المساء نفسه، فإذا بأمر يفاجئني، بل ويثير قلقي على نحو ما، فقد رأيت السيد ميكوبر ويورايا هيب يمشيان معًا، يتأبط كل منهما الآخر. لاح يورايا شاعرًا بالشرف الذي حظي به في تواضعه الجلي. بينما بدا السيد ميكوبر مسرورًا بهذا اللطف وهذه الرعاية التي شمله بها يورايا. إلا أنني تفاجأت إلى أبعد حد، حين ذهبت إلى النزل الصغير في اليوم التالي في ساعة الغداء المحددة، وهي الساعة الرابعة عصرًا، لأعرف -مما قاله السيد ميكوبر- أنه ذهب إلى منزل يورايا، واحتسى معه شراب البراندي بالماء عند السيدة هيب.

قال السيد ميكوبر: «سأخبرك أمرًا يا عزيزي كوبرفيلد. إن صديقك الشاب هيب قد يصير المدعي العام يومًا. آه لو كنت أعرف هذا الشاب، في الفترة التي وصلت فيها الأزمات إلى الاحتقان، كل ما يمكنني قوله هو أنني أظن أنني كنت سأتصرف مع الدائنين بصورة أفضل بكثير مما فعلت».

لم أفهم كيف كان هذا ممكنًا، لأنني أعرف أن السيد ميكوبر لم يسدد إلى دائنيه شيئًا على الإطلاق، إلا أنني لم أرغب في سؤاله عن مقصده. كما أنني لم أرغب في القول إنني آمل ألا يكون قد استفاض في الحديث مع يورايا، أو للاستفسار عما إذا كانا قد تحدثا كثيرًا عني. كنت أخاف من أن أتسبب في إيذاء مشاعر السيد ميكوبر، أو مشاعر السيدة ميكوبر بأي حال من الأحوال، فقد كانت حساسة للغاية. إلا أنني لم أشعر بالراحة حيال هذا السلوك أيضًا، ورحت بعد ذلك أفكر كثيرًا في الأمر.

كان الغداء بسيطًا شهيًّا. يتكون من طبق رائع من السمك، وقطعة مقلية من لحم العجول، وسجق مقلي، ودجاج، وحلوى البودينج. كما شربنا النبيذ والبيرة قوية التأثير. أعدت لنا السيدة ميكوبر بعد الغداء وعاءً ساخنًا من شراب البانش بيديها.

بدا السيد ميكوبر لطيفًا بشكل غير مألوف. إنني لم أعهده من قبل في مثل هذه الصحبة اللطيفة. أثَّر شراب البانش في وجهه فراح يتورد لامعًا، كما لو أنه اكتسى بطلاء لامع عن كامله. كان مفعمًا بالبهجة بعد أن تأثر بأجواء المدينة، واقترح علينا أن نشرب نخب النجاح، مشيرًا إلى أنها صنعت له وللسيدة ميكوبر جوًّا دافئًا ومريحًا للغاية، وأنه لن ينسى أبدًا الأوقات الممتعة التي مروا بها في كانتربري. عرض عليَّ بعد ذلك

شرب نخب صحتي. وقد قام هو والسيدة ميكوبر وأنا نتذكر ذكرياتنا السابقة، وحينها رحنا نبيع المتاع في مخيلاتنا مرة أخرى. طلبتُ بعدها نخب السيدة ميكوبر -أو أنني عرضتُ ذلك على استحياء- فقلت: «إذا سمحتِ لي يا سيدة ميكوبر، سأكون سعيدًا الآن بشرب نخبك يا سيدتي». راح السيد ميكوبر يمتدح شخصية زوجته، وقال إنها ظلت مرشدته وفيلسوفة ناصحة له وصديقته المقربة، وأنه سيوصيني، إن حان وقت زواجي في هذه الحياة، بأن أتزوج من امرأة تشبهها، إذا استطعت أن أجد امرأة أخرى تشبهها.

انتهى شراب البانش، إلا أن السيد ميكوبر ظل في حالة اللطف والحيوية ذاتها. بل ارتفعت معنويات السيدة ميكوبر أيضًا، فبدأنا بالغناء وأنشدنا «نشيد الوداع»[1]. وصلنا إلى مقطع «هذي يدي، يا صديقي الوفي»، وقد تشابكت أيدينا حول المائدة، ثم علت أصواتنا حين غنينا «لنقتدي بأيام ويلي ووت»، ولم تكن لدينا أدنى فكرة عما تعنيه تلك الكلمات، إلا أنها تركت أثرها علينا.

خلاصة القول، إنني لم أرَ إنسانًا مقبلًا على الحياة بكاملها كما كان السيد ميكوبر، حتى لحظات المساء الأخيرة، إلى أن ودعته بخالص الود له ولزوجته الحبيبة. لم أكن مستعدًّا بعد لتلقي الرسالة التالية في

---

(١) نشيد الوداع من تأليف الشاعر الاسكتلندي روبرت برنز. يرجع تاريخه إلى أواخر القرن الثامن عشر، يؤدَّى النشيد في مناسبات الفراق ويعبر عن الصداقة والوفاء. ترجم النشيد إلى معظم اللغات، ويمتاز بلحن موحد في جميع أنحاء العالم.

الساعة السابعة صباحًا من اليوم التالي، والمؤرخة في التاسعة والنصف مساءً؛ أي بعد ربع ساعة من مغادرتي، ونصها:

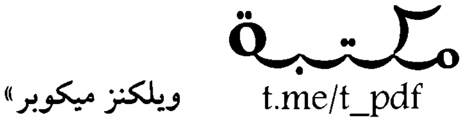
«صديقي الشاب العزيز،

شاءت الأقدار وقضي الأمر... لقد انتهى كل شيء، وبروح تخفي ويلات الخيبات تحت قناع من المرح لم أخبرك في ذاك المساء، أنه لا أمل في وصول الحوالة. وفي ظل هذه الظروف التي من المهين تحملها، ومن المذل التفكير فيها على حد سواء، بل ومن المخزي الكشف عنها، أنهيت حساباتي المالية المستحقة لهذا النزل، عن طريق كتابة إيصالات مستحقة الدفع بعد أربعة عشر يومًا من تاريخ مغادرتي، حيث إنني سأسدد من مقر إقامتي في بنتونفيل في لندن. وحين يأتي موعد استحقاق الإيصال، فإنني لن أستطيع السداد. وتصير النتيجة هي الدمار. إن العاصفة وشيكة، ويجب أن تسقط الشجرة.

فلتتخذ من الرجل البائس الذي يخاطبك الآن يا عزيزي كوبرفيلد، عبرة لك في هذه الحياة. إنه لا يكتب إليك إلا بهذه النية، وتمسكًا بهذا الأمل. فإذا استطاع هذا الرجل أن يفكر في نفسه على هذا النحو من الفائدة، فقد أنارت أمامه ومضة واحدة من اليوم حتى آخر العمر، ربما تنير عليه زنزانته البائسة الذي سيقضي فيها بقية عمره - على الرغم من أن بقاءه على قيد الحياة في الوقت الحالي قد صار أمرًا مشكوكًا فيه على الأرجح.

إنه آخر خطاب سوف تتلقاه يا عزيزي كوبرفيلد.

من المتسول المنبوذ؛



ويلكنز ميكوبر»

اعترتني صدمة عارمة من فحوى هذه الرسالة التي تدمي القلب، حتى إنني هرولت مباشرة نحو الفندق الصغير، وقد نويت أن آخذها في طريقي إلى مدرسة دكتور سترونج، حتى أحاول تهدئة السيد ميكوبر بكلمة تبعث على الارتياح. إلا أنني في منتصف طريقي إلى هناك التقيت بحافلة لندن، وقد أبصرت السيد ميكوبر والسيدة زوجته يركبان في الخلف. كان السيد ميكوبر، في صورته الهادئة، يبتسم في أثناء محادثته للسيدة ميكوبر، بينما يأكل الجوز من كيس ورقي، وقد لاحت زجاجة تخرج من جيب قميصه. إلا أنهما لم يرياني، فقد اعتقدت أنه من الأفضل، بعد أخذ كل الأشياء في الاعتبار، عدم رؤيتهما. لذلك شعرت بثقل كبير في ذهني، وتحولت إلى شارع فرعي كان أقرب طريق إلى المدرسة، وشعرت، بشكل عام، بالارتياح لرحيلهما، على الرغم من أنني ما زلت أحبهما كثيرًا، وعلى الرغم من كل شيء.



الفصل الثامن عشر

عودة إلى الماضي

يا لأيامي المنقضية في المدرسة! ها قد عدت إلى الانغماس في حياتي بهدوء... إن عمري ظل يتقدم من دون أن يراه أو يلحظه أحد - من الطفولة حتى الشباب! دعوني أتذكر، حين أعود بمخيلتي إلى الوراء، حيث تلك المياه المتدفقة في جدولها، ها هي الآن تلوح قناة جافة، مكتظة بأوراق الأشجار. إنني لا أبصر أي علامات على ضفافه، حتى أتذكر كيف كانت تجري به المياه.

ما هي إلا لحظة، حتى أعود فأشغل مكاني في الكاتدرائية، حيث كنا نذهب جميعًا في صباح كل أحد، بعد أن نتجمع أولًا في المدرسة للانطلاق إلى هذا الغرض. إن رائحة الغبار، ولفحات الهواء الخالي من دفء الشمس، والشعور بأن العالم صار منغلقًا، ونغمات الأرغن المنبعثة عبر الساحات والممرات المقوسة المكسوة بالأبيض والأسود، لم تلبث أن تُلحق بي أجنحة تعيدني إلى الوراء، فتحملني فوق تلك الأيام، كما لو أنني في حالة بين الحلم واليقظة.

إنني لست الفتى الأخير في المدرسة. لقد استطعت في غضون بضعة أشهر أن أتفوق على الكثير من الطلبة. إلا أن الصبي الأول كان قد بدا لي مخلوقًا جبارًا، بل يقطن بعيدًا ولا يمكن الوصول إلى مكانته هائلة الارتفاع. أما أجنيس فكانت تنفي ذلك وتقول: «لا»، لكنني أقول: «نعم»، وأخبرها أنها لا تدرك حجم مخزون المعرفة التي أتقنها هذا المخلوق الرائع، الذي تظن أنني الضعيف المتطلع قد أصل في يوم ما إلى مستواه من التحصيل. لم يكن الصبي الأول صديقًا لي أو الراعي العام للأولاد، كما كان ستيرفورث، إلا أنني كنت أكن له احترامًا كبيرًا. رحت أتساءل بجد واهتمام عن المركز الذي يصل إليه بعدما يتخرج من مدرسة دكتور سترونج، وماذا يمكن أن تفعل بقية البشر للحفاظ على أي مكانة لهم في وجوده.

ولكن من تكون هذه التي اقتحمت ذاكرتي؟ إنها الآنسة شيبرد التي أحبها.

كانت الآنسة شيبرد طالبة في مدرسة نتنجول للبنات، ملتحقة بالقسم الداخلي. كنت أكن عشقًا للآنسة شيبرد. إنها فتاة صغيرة، ترتدي معطفًا صغيرًا، ذات وجه مستدير وشعر كتاني اللون مجعد. كانت فتيات مدرسة نتنجول يأتين إلى الكاتدرائية أيضًا. كنت لا أستطيع النظر إلى كتابي، لأنني أولي نظراتي إلى الآنسة شيبرد. كانت الراهبات يرنمن، فأنصت إلى صوت الآنسة شيبرد من بين أصواتهن، وأشرد بذهني، وأدرجها ضمن أفراد العائلة المالكة، وأتخيلها في المنزل، وفي غرفتي الخاصة. أتأثر بالفكرة أحيانًا فأصرخ قائلًا: «آهٍ، يا آنسة شيبرد!»، كما لو أنني في سَكرة الحب.

كنت أشك أحيانًا في حقيقة مشاعر الآنسة شيبرد، إلا أن القدر المحتوم، لم يلبث أن رتَّب لنا أن نلتقي في مدرسة الرقص، بل وصارت الآنسة شيبرد شريكتي في الرقص. ألمس قفاز الآنسة شيبرد، وأشعر بإثارة تسري في ذراعي اليمنى عبر سترتي، حتى تخترق منبت شعري. لا أقول شيئًا يُذكَر للآنسة شيبرد، إلا أننا كنا متفاهمين، فأنا والآنسة شيبرد لا نحيا إلا ليربطنا رباط مقدس.

وإني أتساءل لماذا أعطيت الآنسة شيبرد اثنتي عشرة حبة بندق برازيلية سرًّا على سبيل الهدية؟ إنها هدية لا تُعبِّر عن الحب، ومن الصعب وضع حبات البندق في طرد معتاد، ومن الصعب كسرها، حتى إن ضغطت عليها أبواب الغرف، بل تصير دهنية بعد كسرها، ومع ذلك كنت أشعر أنها هدية مناسبة للآنسة شيبرد. أهديت الآنسة شيبرد أيضًا بسكويتًا ناعمًا مشكلًا، كما أعطيتها عددًا لا يحصى من حبات البرتقال. قبَّلتُ الآنسة شيبرد ذات مرة في غرفة حفظ العباءات. يا لها من نشوة! ويا لعذابي وسخطي في اليوم التالي، بعدما سمعت إشاعة متطايرة بأن مدرسة نتنجول للبنات قد عاقبت الآنسة شيبرد في المخزن لأنها تجاوزت حدودها!

لقد باتت الآنسة شيبرد ملاذي وشغف حياتي، كيف يمكنني أن أنهي علاقتي بها؟ لا أستطيع تحمل الأمر. وعلى الرغم من ظني هذا، فإن فتورًا بيني والآنسة شيبرد راح ينمو ويزداد. تناهت إلى أذني همسات الآنسة شيبرد تقول إنها ترجو ألا أحدق فيها، خاصة بعد أن أعلنت أنها تفضل السيد جونز عليَّ... حقًّا قالت جونز! ويا له من فتى

تافه! هنا اتسعت الهوة بيني وبين الآنسة شيبرد. قابلت أخيرًا ذات يوم طالبات مؤسسة مدرسة نتنجول بينما كن في طريقهن للتنزه سيرًا على الأقدام. راحت الآنسة شيبرد تتغامز وتبدي حركات بوجهها وتضحك لرفيقتها. لقد انتهى كل شيء؛ انتهى حب عمري، وقد كان يخيل إليَّ أنها الحياة كاملة. إلا أن الآنسة شيبرد لم يعد لها مكان في الخدمة الكنسية الصباحية، ولم تعد تنتمي إلى العائلة المالكة.

أعود بكل طاقتي إلى نظامي المدرسي، من دون أن يستطيع أحد أن يُكدِّر صفوي. منذ ذلك الوقت صرت في غاية التأدب مع السيدات الشابات من مدرسة نتنجول، ولم ألتفت أو أهتم بأي واحدة منهن، حتى إذا كانت ذات جمال يفوق جمال الآنسة شيبرد أضعافًا وأضعافًا. وجدت أن تعلم الرقص أمر مرهق، ورحت أتساءل لماذا لا تستطيع الفتيات الرقص وحدهن ويتركننا لحالنا. برعت في الأشعار اللاتينية، وصرت أهمل إحكام أربطة حذائي. بات الدكتور سترونج يشير أمام الجميع مجاهرًا بأنني شاب واعد. مما جعل الفرحة تستولي على السيد دك، بل وحوَّلت عمتي إليَّ جنيهًا كاملًا في بريدها التالي.

لاح لذاكرتي شاب يعمل جزارًا، كان يطل برأس يشبه الرأس المسلح في ماكبث. فمن يكون هذا الشاب الجزار؟ كان غلامًا يثير الرعب بين شباب كانتربري. ترامى اعتقاد غامض المصدر، بأن شحم البقر الذي يدهن به شعره يمنحه قوة خارقة، وأنه في قوة رجل بالغ. كان الشاب جزارًا ذا وجه عريض، ورقبة أشبه برقبة الثور، يعلو وجهه صدغان حمراوان غليظان، ويتسم بتفكير واهن، سليط اللسان. لم يكن

يستخدم لسانه إلا في التقليل من شأن السادة المتعلمين من الشباب في مدرسة دكتور سترونج. يقول علنًا إنهم إذا ما اعترضوا على شيء فسيرد بعنف. كان يذكر أسماء بعينهم - بمن فيهم أنا - فيقول إنه يستطيع أن يتكفل وحده بكبحهم وتقييدهم بيد واحدة، وتظل يده الأخرى معقودة خلف ظهره. ظل يقطع الطريق على الأولاد الصغار ليضرب رؤوسهم الهشة، وينادي من ورائي في الشوارع المفتوحة طالبًا قبول التحدي والقتال. ولهذه الأسباب الطائلة عقدت العزم على التعارك مع الجزار.

وقع شجارنا في إحدى الأمسيات الصيفية، عند منحدر أخضر حيث زاوية جدار. التقيت الجزار عند الطريق الذي حددناه. أحضرت معي مجموعة مختارة من صبية مدرستي، أما الجزار فقد جاء مع جزارين آخرين، ونادل، وشاب يعمل كناسًا. استعددنا للقتال، ووقفتُ أنا والجزار وجهًا لوجه. في لحظة واحدة يلكمني الجزار، فيضيء عشر آلاف شمعة أمام حاجبي الأيسر. وبعد لحظة أخرى، لا أستطيع تمييز مكان الجدار، ولا أعرف أين أنا، أو أين يقف أي شخص آخر. صرت بالكاد أميز من أكون أنا ومن الجزار، فقد كنا في حالة من التشابك والصراع الدائم، ورحنا ندهس العشب الأخضر. أبصر الجزار داميًا أحيانًا إلا أنه يظل متماسكًا، ولا أرى شيئًا في أوقات أخرى، بل أجلس لألهث على إحدى ركبتي، ثم أعاود التوجه إلى الجزار بجموح، فأدمي مفاصل أصابعي بعد لكمة على وجهه، من دون أن يبدو أنها أزعجته على الإطلاق. أنتبه أخيرًا، كما لو أنني أستيقظ من نوم ثقيل شاعرًا بغرابة بالغة، فإذا بي أبصر الجزار يسير بعيدًا، وسط تهاني الجزارين

الآخرين والنادل والكناس، بعد أن ارتدى معطفه في أثناء سيره، في خطى تبشر -بحق- أنه المنتصر.

يعيدونني إلى المنزل حزينًا مكروبًا، وتوضع شرائح من اللحم البقري على عيني للتعافي، ثم يُفرَك جسدي بالخل وشراب البراندي، وإذا بي أجد تورمًا هائلًا يعلو شفتي العليا، أخذ يتضخم بصورة مبالغة. مكثت في المنزل لثلاثة أو أربعة أيام، في مظهر سيئ للغاية، بعد أن لاح ظل أخضر يعلو عيني. كنت لأشعر بملل عظيم، لولا أن أجنيس ظلت إلى جانبي كمل لو كانت أختًا لي، وراحت تواسيني، وتقرأ لي، فتجعل الوقت يمر خفيفًا ومرحًا. حازت أجنيس ثقتي الكاملة كما هي حالها معي دائمًا، فرحت أخبرها كل شيء عن الجزار وعن الإساءات التي ألحقها بي. رأت أن شيئًا لم يكن بإمكاني فعله سوى الشجار مع الجزار، وراحت ترتعش وترتجف عند تخيلها صراعي معه.

يسرقنا الوقت كلص من دون أن يلاحظه أحد، فلا يظل آدامز أول طلاب المدرسة في الأيام التالية، بل تمر الأيام أسرع فأسرع من دون أن يعود إلى مكانته السابقة. لقد ترك آدمز المدرسة لفترة طويلة، حتى إنه عاد ذات يوم في زيارة للدكتور سترونج، فلم يجد من يتعرف عليه سواي. يعمل آدمز بعد ذلك في مجال المحاماة بشكل مباشر، وسيكون من المفترض أن يصير محاميًا، ويرتدي باروكة الشعر المستعار مثلهم. أندهش عندما أجده رجلًا أكثر خنوعًا مما تصورت، بل وأقل مهابة في مظهره مما تخيلته. لم يذهل العالم بمهاراته، لأن الحياة تمضي - على حد ظني وخبرتي - في سبيلها، كما لو أن آدمز لم ينتمِ إليها يومًا.

يمر الزمن مثل فراغ، لا يبرز فيه إلا فطاحل الشعراء وأبطال التاريخ في حشد تلو الآخر حتى تبدو الحشود بلا نهاية - وماذا بعد انقضاء الزمن! أجدني الفتى الأول الآن! أراقب صفوف الأولاد الذين في منزلة أدنى مني، فأغدو راعيًا لمثل هؤلاء الفتيان الأقل شأنًا، حيث أجد بينهم فتيانًا يذكرونني بما كنت عليه، عندما أتيت إلى هنا لأول مرة. يبدو أن هذا الرفيق الصغير الذي كنته لم يعد جزءًا مني، بل أتذكره كشيء تركته ورائي في طريق الحياة - كشيء مررت به مرورًا عابرًا، ولم أكنه في الواقع - بل حسبت تقريبًا أنه إنسان غيري.

أما الفتاة الصغيرة التي رأيتها في اليوم الأول من قدومي إلى منزل السيد ويكفيلد، فأين هي؟ لقد رحلت أيضًا، بل حل بدلًا منها تطابق مثالي للصورة، فلم تعد تبدو طفلة تتحرك بين أرجاء المنزل. صارت أجنيس، أختي اللطيفة -رحت أدعوها في أفكاري بناصحتي وصديقي، والملاك الحارس في حياة كل من يتعرض لتأثيرها الهادئ وخيرها الإيثاري- الآن امرأة كاملة.

ما طبيعة التغييرات الأخرى التي طرأت عليَّ، إلى جانب التغييرات في نموي ومظهري، وفي المعرفة التي اكتسبتها كل هذا الوقت؟ صرت أرتدي ساعة وسلسلة ذهبية، وخاتمًا حول إصبعي الصغيرة، ومعطفًا طويل الذيل، وأستخدم قدرًا كبيرًا من الدهان لشعري، والذي يبدو بشعًا إذا ما اقترن بارتداء الخاتم. فهل وقعت في الحب مرة أخرى؟ نعم. إنني هائم في عشق الآنسة لاركنز الكبيرة.

لم تكن الآنسة لاركنز فتاة صغيرة، بل امرأة فارعة، داكنة البشرة

وذات عينين سوداوين، ذات مظهر نسائي أنيق. لم تكن الآنسة لاركنز مثل الدجاجات الصغيرات بل ولم تكن أختها الصغرى كذلك، ويبدو أن أختها الكبرى كانت تكبرها بثلاث أو أربع سنوات. ربما الآنسة لاركنز الكبيرة تبلغ من العمر ما يتجاوز الثلاثين عامًا. وقد تخطى شغفي بها كل الحدود.

كانت الآنسة لاركنز الكبيرة تعرف ضباطًا. وإنه لأمر مروع أن أتحمله، إذ أراهم يتحدثون إليها في الشارع، وأراهم يعبرون الطريق لمقابلتها، بمجرد أن تظهر أمامهم قبعتها -كانت تتمتع بذوق مميز في اختيار قبعاتها- بينما تنزل من الرصيف المقابل، برفقة أختها. كانت تضحك في حديثها معهم، ويبدو أنها تحب حديثهم إليها. رحت أقضي قدرًا كبيرًا من وقت فراغي أغدو وأروح مرات لمقابلتها. فإن استطعت الانحناء لها مرة واحدة في اليوم (كان من المسموح لي أن ألقي عليها تحية وأنحني لها، لسابق معرفتي بالسيد لاركنز)، فإني أشعر بالسعادة تغمرني. أجدني أستحق منها إيماءة ردًّا على التحية بين الحين والآخر. استولت عليَّ عذابات مستعرة، ورحت أعاني لوعة في الليلة التي تسبق محفل الرقص، حيث أعلم أن الآنسة لاركنز الكبيرة سترقص مع الضباط. كان يجب أن أتحصل على نوع من التعويض إزاء هذا الشعور القاسي، إذا كانت ثمة عدالة منصفة في هذا العالم.

راحت لوعتي تزيل شهيتي وإقبالي على الطعام، وجعلتني دومًا أرتدي منديلي الحريري الجديد. لا أشعر بالراحة إلا بارتداء أفضل ملابسي، وتنظيف حذائي مرة تلو أخرى. إذن يبدو لي أنني الأجدر

باستحقاق قلب الآنسة لاركنز الكبيرة. صار كل ما يخصها أو يرتبط بها ثمينًا عندي. أما السيد لاركنز، فرجل عجوز خشن، ذو ذقن مزدوج، وقد كانت إحدى عينيه ثابتة في رأسه، وقد صار بدوره محفوفًا باهتمامي. إذا لم أستطع مقابلة ابنته، فإني أذهب إلى لقائه فأقول له: «كيف حالك يا سيد لاركنز؟ هل الشابات وجميع أفراد الأسرة بخير؟»، تنفضح نياتي إلى الحد الذي يجعلني أحمرُّ خجلًا.

أفكر باستمرار في سني، فأدرك أنني في السابعة عشرة من عمري، وأن عمر السابعة عشرة يبدو صغيرًا أمام عمر الآنسة لاركنز الكبيرة، وماذا يهم في ذلك؟ بالإضافة إلى أنني سأكمل الواحدة والعشرين في وقت قريب جدًّا. أتجول حول منزل السيد لاركنز في المساء بانتظام، على الرغم من انفطار قلبي لرؤية الضباط يدخلون إليه، أو حين سماع أصواتهم في غرفة المعيشة، حيث كانت تعزف الآنسة لاركنز الكبيرة على قيثارتها. كنت أغار حتى أمشي هائمًا في جولتين أو ثلاث جولات، بطريقة مريضة وسريعة، حول المنزل، بل أدور حوله بعد أن تأوي العائلة إلى الفراش متسائلًا عن مكان غرفة الآنسة لاركنز الكبيرة. أعترف الآن أنني كنت أبالغ في محاولتي لمعرفتها، وأنني حسبت غرفتها هي غرفة السيد لاركنز. رحت أتمنى أن يشتعل بها حريق، فيهرول الجميع إلى الخارج مرعوبين، فأندفع بينهم لأقتلع سلمًا، وأثبته على نافذتها، فأنقذها بين ذراعي، ثم أعود للحريق لشيء تركتْه وراءها، فأهلك بين النيران لأنني عمومًا لا أكترث إلا للحب من أجل الحب، وأحسب أنني سأكون راضيًا عن مظهري البطولي أمام الآنسة لاركنز، ثم أفنى.

بشكل عام كانت أحيانًا تظهر أمامي رؤى أكثر إشراقًا. أراني مرتديًا ثيابي عن كاملها لمدة ساعتين، لحضور حفل راقص ضخم يُقام عند السيد لاركنز (من المتوقع أن يقام في غضون ثلاثة أسابيع)، فأشبع خيالي بصور مبهجة. أتخيل نفسي وقد تشجعت لطلب الرقص مع الآنسة لاركنز. أتخيل الآنسة لاركنز بينما تغرق رأسها فوق كتفي، وتقول: «آهٍ يا سيد كوبرفيلد، هل يمكنني أن أصدق أذني!». أتخيل السيد لاركنز ينتظرني في صباح اليوم التالي، ثم يقول لي: «يا عزيزي كوبرفيلد، لقد قالت لي ابنتي كل شيء. ولا أجد مانعًا يعترض سن الشباب. ها هي عشرون ألف جنيه. فلتعِش سعيدًا!». تخيلت أن قلب عمتي قد لان، وراحت تباركنا. وكذلك حضر السيد دك والدكتور سترونج حفل الزواج. إنني إنسان عاقل على حسب ظني؛ أقصد أنني أتصور، عند النظر إلى الماضي، أنني كذلك، وأنني بلا شك لفي خجل حين أتذكر هذه الأخيلة، إلا أن هذا ما وقع على الرغم من أي شيء.

أستحضر توجهي إلى ذاك المنزل المسحور، حيث الأضواء، والثرثرة العالية، والموسيقى، والزهور، وكذلك الضباط - ممن يؤسفني رؤيتهم - والآنسة لاركنز الكبيرة، تشتعل في زهو من الجمال. كانت ترتدي ملابس زرقاء، وقد زينت شعرها بأزهار زرقاء كذلك - لا تنسني[١] - كما لو كانت بحاجة إلى ارتداء ملابس تشي بألاَّ أنسى. إنه أول حفل للكبار أدعى إليه على الإطلاق، وقد كنت غير مرتاح إلى

---

(١) نوع من الأزهار زرقاء اللون التي تنمو في الغابات البرية، والسهول المعتدلة. يطلق عليها العلماء اسم «ميوسوتيس»، وتعرف بالعربية باسم «أذن الفأر»، وكذلك يطلق عليها في بعض البلدان اسم «لا تنسني».

حد ما، لأنه على ما يبدو لا تربطني علاقة بأي شخص فيه، ولا يُظهر أي إنسان حاجته إلى التحدث إليَّ، باستثناء السيد لاركنز، الذي راح يسألني عن حال زملائي في المدرسة، وهو سؤال لم يكن هناك داعٍ لطرحه، لأنني لم آتِ إلى الحفل حتى أتعرض للإهانة.

وقفت في مدخل القاعة لبعض الوقت، ونظرت إلى معشوقة قلبي، فإذا بها تقترب مني - هي بذاتها، الآنسة لاركنز الكبيرة - وتسألني بمرح: هل ترقص؟

أتلعثم مع انحنائي أمامها، قائلًا: «معكِ يا آنسة لاركنز؟».

تسأل الآنسة لاركنز: «هل سترقص مع أي شخص آخر؟».

«لن أسعد بالرقص مع أي شخص آخر».

تضحك الآنسة لاركنز وتحمر خجلًا (أو أتصور أنها تحمر خجلًا)، ثم تقول: «في المرة بعد القادمة، سأكون سعيدة جدًّا».

يحين الوقت المحدد. تقول الآنسة لاركنز، بعدما أقدم نفسي للرقص: «إنها رقصة الفالس، على ما أظن، هل ترقص الفالس؟ إذا لم تكن تعرفها، فإن الكابتن بيلي...».

إلا أنني أرقص الفالس (بل إنني أجيد رقصها، وهذا ما فعلته)، فأجذب الآنسة لاركنز. آخذها بحزم من جانب النقيب بيلي. إنه يتألم، لا يخامرني شك في تألمه. إلا أنني لا أهتم لأمره. لقد عانيت أنا أيضًا. وإنني لأرقص مع الآنسة لاركنز الكبيرة، فلا أعرف أين أنا، ولا بين مَن، أو إلى متى. لا أعرف سوى أنني أهيم سابحًا في الفضاء، مع ملاك

أزرق، في حالة من السكْر المبهج، حتى أجد نفسي وحيدًا معها في غرفة صغيرة، مستلقيًا على أريكة. تبدو معجبة بزهرة (كاميليا جابونيكا وردية اللون، سعرها نصف كروان)، في عروة سترتي. أعطيها لها وأقول:

«أطلب مقابلًا لا يقدر بثمن أمامها يا آنسة لاركنز».

قالت الآنسة لاركنز: «حقًّا! ماذا يكون؟».

«زهرة منكِ، لكي أعتز بها كما يحرص البخيل على الذهب».

تقول الآنسة لاركنز: «يا لك من فتى جريء. ها هي لك».

تعطيني إياها، من دون أن تبدي استياء، فأضعها على شفتي، ثم أقربها من صدري. تضحك الآنسة لاركنز، ثم تمد يدها نحو ذراعي، وتقول: «أما الآن فأعدني إلى الكابتن بيلي».

أهيم حين أتذكر هذه المقابلة العذبة، وخطوات رقصة الفالس. أذكر بعدما عادت إليَّ مرة أخرى، مع رجل عجوز، كان يقامر بالأوراق طوال الليل، وقد استندت إلى ذراعه، وأخذت تقول:

«آهٍ! ها هو صديقي الجريء! إن السيد شيستل يريد أن يتعرف عليك يا سيد كوبرفيلد».

شعرت على الفور أنه صديق للعائلة، فصرت ممتنًّا لمعرفته.

يقول السيد شيستل: «إنني معجب بذوقك يا سيدي. يا له من ذوق خلَّاق. أظن أنك لا تهتم كثيرًا بزراعة حشيشة الدينار، إلا أنني مزارع كبير جدًّا، وإذا رغبت في القدوم إلى منطقتنا – في حي آشفورد – أو كنت مارًّا بالقرب من مكاننا، فسوف يسعدنا أن تحل ضيفًا بيننا لو أردت».

أشكر السيد شيستل بحرارة، وأصافحه. أحسب أنني في حلم سعيد. أرقص مع الآنسة لاركنز الكبيرة مرة أخرى. تقول إنني أرقص الفالس بشكل جيد! أعود إلى المنزل محاطًا بنعيم لا يوصف، وأستمر في الرقص في خيالي طوال الليل، بينما تلتف ذراعي حول الخصر الأزرق لمعشوقتي الآسرة. تضيع عدة أيام بعد ذلك، وأنا هائم في تأملات حماسية. لكنني لا أراها في الشارع، ولا ألمحها حين أزورهم. لا أجد ما يضمد خيبة أملي غير ذاك الوعد المقدس الذي يكمن في الزهرة الذابلة.

تقول أجنيس ذات يوم بعد الغداء: «يا تروتوود، من برأيك سيتزوج غدًا؟ إنه شخص تحبه».

«لستِ أنتِ العروس على ما أظن يا أجنيس».

ترفع وجهها المبتهج من أثر النوتة الموسيقية التي تنسخها، فتقول: «ليس أنا! هل تسمعه يا أبي؟ إن العروس هي الآنسة لاركنز الكبيرة».

فإذا بي أحوز ما يكفي من القوة لأسألها: «أتتزوج الكابتن بيلي؟».

«لا، ليس الكابتن. ستتزوج السيد شيستل المزارع».

أشعر بالاكتئاب الشديد لمدة أسبوع أو أسبوعين. أخلع خاتمي، وأرتدي أسوأ ملابسي، ولا أستخدم دهان الشعر، وأتحسر على زهرة الآنسة لاركنز الذابلة. أتذكر أنني بحلول ذاك الوقت، انتابني شعور بالتعب من هذه الطريقة في الحياة. تلقيت استفزازًا جديدًا من الجزار، فإذا بي أرمي بالزهرة بعيدًا، وأخرج لقتال الجزار، فألحق به الهزيمة.

ما ألبث أن أستأنف ارتداء خاتمي من جديد، وأستخدم كذلك دهان شعري باعتدال. كانت هاتان العلامتان آخر ما استطعت تمييزهما، أما الآن فأتقدم في عمري نحو السابعة عشرة.



الفصل التاسع عشر

أنظر حولي، فأكتشف أمرًا

لا أعرف ما إذا كنت سعيدًا أم حزينًا. انتهت أيام دراستي، وقد حان وقت تخرجي في مدرسة دكتور سترونج. كنت سعيدًا للغاية في مدرستي، وقد ارتبطت بالدكتور برابط قوي، وكنت مرموقًا ومميزًا في ذلك العالم الصغير. صرت آسفًا على رحيلي للأسباب السالفة، إلا أنني كنت سعيدًا إلى حد ما، ولكن لأسباب أخرى. شغلت خاطري أفكار ضبابية عن أنني صرت شابًّا حرًّا في تصرفاته، وأنني سأغدو ذا شأن لكوني شابًّا مسؤولًا عن تصرفاته. راحت تتمثل لذهني أمور رائعة قد وجب أن يشهدها هذا المخلوق الرائع ويقوم بها، والأفعال المميزة التي لا يمكن أن يفشل في تحقيقها. كما جذبتني فكرة تحقيق نفسي في المجتمع أشد الانجذاب. كانت لهذه الاعتبارات الحكيمة سلطة قوية للغاية على ذهني الصبياني، حتى إنني، وفقًا لطريقة تفكيري آنذاك، تركت المدرسة من دون ندم حقيقي على مغادرتها. لم تترك مغادرتها أثرًا يُذكَر مقارنة بأثر فراقي عن الآخرين. أحاول عبثًا أن أتذكر ما شعرت به حينها، أو تذكر الملابسات التي دارت، لكنها ليست بالأهمية التي تشغل ذاكرتي. أحسب أن الانفتاح على عالمي الجديد قد أربكني.

أعلم أن خبرتي مع أحداث سالفة لم تزل قليلة أو أقل من أن تُذكَر، بل كانت الحياة أشبه بقصة خرافية رائعة، كنت على وشك قراءتها، لأبدأها قبل أي شيء آخر.

لقد أجريت أنا وعمتي مناقشات جادة عديدة حول العمل الذي يجب أن أشغله. رحت أسعى لمدة عام أو أكثر، إلى العثور على إجابة مُرضية لسؤالها المتكرر: «ماذا أريد أن أكون؟»، لكنني لم أمِل إلى شيء على نحو خاص، أتصور نفسي أعمل به. لو كانت معرفتي بالملاحة قد ألهمتني يومًا أن أقود مراكب لرحلة استكشافية سريعة، فتجولت حول العالم في رحلة استكشافية ظافرة، لحسبت أنني مناسب تمامًا لهذا العمل. إلا أنني لم أتلقَّ أي مهارة إبداعية في هذا الشأن، ومن ثَم كانت رغبتي هي أن أسلك عملًا لا يكلف عمتي تكلفة باهظة، وأن أقوم بواجبي فيه مهما كانت طبيعته.

كان السيد دك يساهم بانتظام في حضوره لمجالسنا، بسلوكه التأملي والحكيم. لم يقدم اقتراحًا إلا مرة واحدة (لا أعرف ما الذي ألهمه إياه أو ألقى به في رأسه). اقترح فجأة أن أعمل «نحاسًا». استقبلت عمتي هذا الاقتراح استقبالًا سيئًا للغاية، حتى إنه لم يجرؤ على المغامرة بطرح أي اقتراح بعده قَطُّ، ولكنه اقتصر على النظر إليها باهتمام لمعرفة اقتراحاتها، وقد راح يهز نقوده المعدنية مصلصلًا.

قالت عمتي، ذات صباح في موسم احتفالات عيد الميلاد بعد أن تركت المدرسة: «أنصت يا تروت يا عزيزي لما أقوله لك، لأن هذه النقطة المعقدة لم تزل غير مستقرة، ويجب ألا نخطئ في قرارنا قدر

استطاعتنا، ولتساعدني على ذلك. أظن أنه من الأفضل أن نستريح لبعض الوقت حتى نلتقط أنفاسنا، وفي غضون هذه الهدنة، عليك أن تحاول النظر إلى الأمور من وجهة نظر جديدة، لا من منظور طالب في المدرسة».

«سأفعل يا عمتي».

تابعت عمتي تقول: «لقد خطر لي أن نجري تغييرًا بسيطًا، أن نلقي نظرة عابرة على الحياة خارج الديار، فقد يصير الأمر مفيدًا ويساعدك على التوصل إلى رأي، وتكوين حكم أفضل على أمورك. فما رأيك على سبيل المثال في أن تقوم برحلة إلى الجزء القديم من القرية مرة أخرى، فتزور هذه الـ... - تلك المرأة القاطنة بعيدًا والتي تحمل أكثر الأسماء غرابة ووحشة؟». تحدثت إليَّ عمتي بينما تفرك أنفها لأنها لم تستطع أبدًا أن تغفر تمامًا لبيجوتي لقبها هذا.

«هذا أحب شيء إليَّ من بين كل الأشياء في العالم يا عمتي».

قالت عمتي: «حسنًا، إنه رأي صائب، لأنني أرجحه أيضًا. لكن من الطبيعي أن يكون اختيارك موافقًا لعقلك. وإنني مقتنعة جيدًا أن كل ما تفعله، يا تروت، سيكون دائمًا منضبطًا وعقلانيًّا».

«آمل هذا يا عمتي».

قالت عمتي: «إن أختك، بيتسي تروتوود، كانت لتصير فتاة منضبطة وعقلانية أكثر من أي فتاة أخرى في مثل هذا الوقت. ستصير أنت جديرًا بها، أليس كذلك؟».

«أتمنى أن أكون جديرًا بحسن ظنكِ يا عمتي. وهذا كل ما أرجوه وأسعى إليه».

قالت عمتي بينما تنظر إليَّ باستحسان: «من رحمة الله أن أمك الطفلة المسكينة لم تعِش حتى هذا اليوم، وإلا صارت مدللة مزهوة بولدها بحلول هذا الوقت، حتى ينقلب رأسها الصغير الناعم بالكامل، إذا كان ثمة شيء فيها لينقلب». (بررت عمتي دائمًا أي ضعف منها أمامي، عن طريق انتقالها للحديث بهذه الطريقة إلى أمي المسكينة)، أكملت: «يا إلهي يا تروتوود، كم تُذكِّرني بها!».

قلت: «أرجو أن أكون كذلك بكل سرور يا عمتي».

قالت عمتي بشكل قاطع: «إنه يشبهها يا دك، إنه يشبهها للغاية، كما كانت تبدو تمامًا في ذلك اليوم قبل أن تبدأ في الولادة - يا الله، كم يشبهها، بينما يطل بنظراته نحوي. يا لهاتين العينين!».

قال السيد دك: «هل يشبهها بالفعل؟».

قالت عمتي بحزم: «وإنه يشبه ديفيد أيضًا».

قال السيد دك: «إنه يشبه ديفيد جدًّا».

استأنفت عمتي تقول: «ما أريدك أن تكونه يا تروت - لا أعني جسديًّا، لكن أخلاقيًّا، حيث إنك تتمتع بالفعل بهيئة جيدة جسديًّا - هو أن تصير رفيقًا حازمًا؛ أن تصير إنسانًا ناضجًا طيبًا، يتمتع بإرادة خاصة مميزة». راحت عمتي تهز قبعتها أمام وجهي، وتقبض على يدها، ثم أكملت قائلة: «تصير ذا عزم يا تروت، وتتمتع بشخصية...

بقوة شخصية لا تتأثر بأي شخص، أو أي شيء إلا لسبب وجيه. هذا ما أريدك أن تكونه، وإنه الأمر نفسه الذي كان من الممكن أن يتمتع به كل من والدك ووالدتك، يعلم الله، إن ذلك لكان أفضل لهما».

أشرت إلى أنني أرجو أن أصير ما وصفته.

قالت عمتي: «لكي تبدأ، بطريقة بسيطة، في الاعتماد على نفسك، والتصرف بنفسك، فإنني سأرسلك إلى هذه الرحلة بمفردك. لقد فكرت ذات مرة في أن يسافر السيد دك معك، ولكنني أمعنت التفكير لمرة ثانية، ورأيت أن أبقيه هنا ليعتني بي».

بدا السيد دك محبطًا بعض الشيء للحظة، إلا أن شرف وكرامة الاضطرار إلى رعاية أروع امرأة في العالم، قد أعاد الإشراق إلى وجهه.

قالت عمتي: «بالإضافة إلى ذلك، لا بد أن تكمل المذكرات».

قال السيد دك على عجل: «آهٍ، بالتأكيد. إنني أعتزم يا تروتوود على إتمامها على الفور - يجب أن يتم ذلك على الفور! وبعد ذلك سيدخل، كما تعلم - وبعد ذلك سيـ...». توقف السيد دك لفترة طويلة ليضبط نفسه، ثم أكمل حديثه قائلًا: «ستتوفر مجموعة جميلة من الأسماك!».

تتبعنا مخطط عمتي السخي، فجهزوا أموري في فترة وجيزة، وزودوني بالنقود وحقيبة ضخمة للسفر، وأرسلوني بحنان ورعاية إلى بعثتي. زودتني عمتي ببعض النصائح الطيبة وقت رحيلي، وأمطرتني بوابل من القبلات، وقالت إن هدفها هو أن أتأمل ما حولي، فأهتدي إلى التفكير، لذلك فإنها تنصحني بالبقاء بضعة أيام في لندن -إن أحببت البقاء- إما في طريقي إلى سافوك، أو في طريق عودتي. باختصار،

صرت حرًّا فيما أفعله، لمدة ثلاثة أسابيع أو ما يقرب من شهر، ولم تُفرض على حريتي أي شروط أخرى غير التفكير سالف الذكر والتأمل فيما حولي، والتعهد بالكتابة ثلاث مرات في الأسبوع، والإبلاغ عن حقيقة أموري بأمانة.

ذهبت إلى كانتربري أولًا، لأستأذن من أجنيس والسيد ويكفيلد (لم أترك غرفتي القديمة في منزلها بعد)، وكذلك حتى أودع الدكتور الطيب. كانت أجنيس سعيدة برؤيتي أيما سعادة، وأخبرتني أن المنزل قد تبدلت حاله منذ أن غادرته.

قلت: «إنني متأكد من أنني أجد نفسي غريبًا عندما أكون بعيدًا عن المنزل، حتى يخيل لي أنني أحتاج إلى عون يدي اليمنى عندما أفتقدك. إلا أن هذه العبارة لا تعني الكثير لأن يدي اليمنى لا تحمل عقلًا أو قلبًا. إن كل من يعرفكِ يسعي إلى أن يستشيركِ ويطلب نصحكِ يا أجنيس».

أجابت مبتسمة: «إن كل من يعرفني يُدللني، على ما أظن».

«ليس تدليلًا. إنكِ لا تشبهين أي إنسان. أنتِ بارعة للغاية، وذات روح لطيفة جدًّا. كما أنكِ تتمتعين بأخلاق محببة، وأنتِ دائمًا على حق».

قالت أجنيس بعد أن أطلقت ضحكة ساحرة وعادت للعمل في التطريز: «إنك تتحدث، كما لو أنني الآنسة لاركنز السابقة».

أجبتها وقد احمر وجهي خجلًا بعد أن تذكرت الوردة الزرقاء: «على مهلكِ! ليس من العدل أن تسيئي إلى ثقتي بكِ، إلا أنني سأثق بكِ دومًا، تمامًا كما أنتِ دومًا يا أجنيس. لا أستطيع أن أبتعد عن ثقتي

بكِ أبدًا. سأخبركِ دائمًا كلما وقعت في مشكلة أو وقعت في الحب، إذا سمحتِ لي - إلى أن أقع في حب جاد».

قالت أجنيس بينما تضحك مرة أخرى: «حقًّا، لقد كنت دائمًا جادًّا في حبك!».

قلت ضاحكًا بدوري، من دون أن يحمر وجهي خجلًا: «آهٍ! كان ذلك عندما كنت طفلًا أو تلميذًا. إن الزمن يتغير الآن، وأحسب أنني سأصير جديًّا للغاية في يوم من الأيام. وإني أعجب من أنكِ لستِ جادة حتى يومنا هذا يا أجنيس».

ضحكت أجنيس مرة أخرى وهزت رأسها موافقة.

قلت: «آهٍ، أعلم أنكِ لستِ جادة! لأنكِ لو كنتِ جادة لأخبرتِني بأمركِ، أو على الأقل...». لاحظت هنا لونًا من حمرة خافتة تعلو وجهها وتشي بالخجل، فأكملت: «كنتِ لتتركي لي أن أكتشف ذلك بنفسي. لا أعرف أحدًا يستحق حبكِ يا أجنيس. يجب أن يولد إنسان يتمتع بنبل فائق، ليصير أجدر بكِ من أي شخص رأيته من قبل هنا، ومن ثَم أُدلي بموافقتي أولًا. سأحرص في الوقت القادم على الحذر من كل المعجبين بكِ. وسأوفَّق في الأمر وأنجح في ملاحظتي، أؤكد لكِ».

واصلنا حديثنا حتى هذه اللحظة بمزيج من الدعابة والجدية، والتي نمت بشكل طبيعي نتيجة لعلاقاتنا المألوفة منذ فترة طويلة، والتي بدأت منذ أن كنا أطفالًا. إلا أن أجنيس، رفعت عينيها فجأة نحو وجهي، وقد راحت تتحدث بلهجة مختلفة، فقالت:

«يا تروتوود، إن ثمة شيئًا أريد أن أسألك عنه، وقد لا تتاح فرصة

أخرى لمعرفتي حتى وقت طويل، ربما هو شيء لم أكن لأطلبه، على ما أظن، من أي إنسان آخر. فهل لاحظت أي تغيير تدريجي يظهر على أبي؟».

كنت قد لاحظت تغيره بالفعل، وكثيرًا ما رحت أتساءل عما إذا كانت قد لاحظت الأمر أيضًا. يبدو أن الإجابة قد ظهرت هذه اللحظة على ملامحي، لأنها أشاحت بعينيها بعد لحظات وقد رأيتهما محملتين بالدموع.

قالت بصوت منخفض: «قل لي ما الأمر».

«أظن - هل أكون واضحًا تمامًا يا أجنيس، إذا قلت إنني أحبه كثيرًا؟».

قالت: «نعم».

«أتصور أنه يؤذي نفسه بتلك العادة التي ازدادت منذ أن جئت إلى هنا لأول مرة. وأنه غالبًا ما يكون مضطربًا للغاية - أو هكذا خيل إليَّ».

قالت أجنيس وهي تهز رأسها: «إن الأمر ليس خيالًا».

«إن يده ترتجف، وكلامه ليس واضحًا، وعيناه تبدوان جامحتين. لقد لاحظت أنه في مثل تلك الأوقات، وعندما يصير في مثل هذا الاضطراب، فإنه يطلب مني أن أقوم له ببعض الأعمال».

قالت أجنيس: «عن طريق يورايا».

«نعم، ويبدو أنه يشعر بعدم لياقته للقيام بالعمل، أو عدم فهمه، أو أنه يظهر شيئًا من حالته رغمًا عنه، مما يجعله في حالة من الغضب تدفعه

إلى الأسوأ في اليوم التالي، ثم تزداد حالته سوءًا في اليوم الذي يليه، وهكذا يغدو منهكًا خائر العزم. لا تنزعجي مما قلته يا أجنيس. إنني رأيته في مثل هذه الحالة، في مساء يوم ليس ببعيد، وقد أسند رأسه إلى مكتبه، وأخذ يذرف الدموع مثل طفل».

مررت يدها بهدوء أمام شفتي حين كنت أتحدث، وما هي إلا لحظة حتى أدركت والدها واقفًا عند باب الغرفة، وإذا بها تستقبله وقد تعلقت بكتفه. أحسست من تعبير وجهها، بينما كانا يتطلعان نحوي، بتأثير بالغ. كانت هذه النظرات تشي بولع عميق، وامتنان له على كل حبه واعتنائه، وكل مظاهر رعايته الطيبة، كما حملت توسلًا حارًّا لي بأن أعامله بلين، حتى في أعماق أفكاري، وألا أسمح لاستنتاجات قاسية أن تجد مكانًا في أعماقي ضده. لقد لاحت على الفور فخورة به، ومُكرِّسة حياتها لحبه، ومع ذلك كانت متعاطفة تمامًا ورائية متألمة لحاله، وكانت تعتمد على أن أصير مثلها إلى حد بعيد. لم يكن من الممكن لأي كلمات تتفوه بها أن تُعبِّر عن مثل هذا الشعور الذي انساب داخلي وزلزلني.

كان من المفترض أن نستعد لشرب الشاي في منزل الدكتور. ذهبنا إلى منزله في الوقت المحدد، فوجدنا الدكتور وزوجته الشابة ووالدتها يجلسون ملتفين حول المدفأة. استقبلني الدكتور كضيف شرف، بعدما تأثر بخبر سفري لو أنني مسافر للصين، وطلب إلقاء قطعة من خشب إلى النار حتى يرى وجه تلميذه الأثير بينما يحمر متوهجًا من أثر النيران.

تحدث الدكتور وهو يدفئ يديه قائلًا: «لن أرى يا ويكفيلد مزيدًا من الوجوه الجديدة تعوضني عن وجه تروتوود. لقد صرت كسولًا

أسعى إلى الراحة. سوف أتخلى عن الصبية جميعهم في غضون ستة أشهر أخرى، ومن ثَم أعيش حياة أهدأ».

أجاب السيد ويكفيلد: «كنت تقول الأمر نفسه طوال السنوات العشر الماضية يا دكتور».

رد الدكتور قائلًا: «ولكني الآن أقصد تنفيذ قولي. سيخلفني المعلم الأول - وإنني جاد أخيرًا - لذا سيتعين عليك قريبًا ترتيب عقود بيننا، وإلزامنا بها بشدة، كما لو أنك تحكم بين محتالين».

قال السيد ويكفيلد: «وأن أعمل على ألا يستغلك أحد، أليس كذلك؟ كما كنت لتفعل بالتأكيد في أي عقد تبرمه بنفسك. حسنًا، إنني مستعد لإتمامه. ثمة مهام أسوأ من ذلك تواجهني في عملي».

قال الدكتور مبتسمًا: «لن يشغلني بعد هذا سوى التفكير في قاموسي، وهذا العقد الأخير يا آني».

نظر إليها السيد ويكفيلد، بينما كانت جالسة إلى طاولة الشاي مقابل أجنيس. بدت لي أنها تتجنب النظر إليه في تردد وخجل لا يُضاهى، حتى جذبت بسلوكها انتباهه وركز بصره نحوها، كما لو أن شيئًا ما يدور في خلده.

قال بعد صمت قصير: «وصل بريد من الهند. لقد انتبهت إليه».

قال الدكتور: «يا لتوافق هذه المناسبة! لقد وصلتنا رسائل من السيد جاك مالدون!».

صارت السيدة ماركلهام تهز رأسها وتقول: «حقًّا! يا لك من

مسكين يا عزيزي جاك! ما لهذا المناخ المتعب! كأنما العيش فيه - كما أخبرتنا - ليس سوى حياة على كومة من رمال، وتحت عدسة تُركِّز الضوء فتحرق! لقد بدا قويًّا، لكنه لم يكن كذلك. كانت روحه لا جسده يا عزيزي الدكتور هي التي غامر بها بجرأة عارمة. إنني على يقين يا عزيزتي آني أنكِ تتذكرين تمامًا أن ابن عمكِ لم يكن قويًّا قَطُّ، ولا يمكن تسميته بـ«الخارق» كما تعلمين». راحت السيدة ماركلهام تتلفت مُركزة نظرها إلينا بشكل عام، حين أكملت قائلة: «منذ ذاك الوقت عندما كان هو وابنتي طفلين، يتجولان معًا ذراعًا بذراع، طوال النهار».

وهكذا خاطبت آني، إلا أنها لم تتفوه بأي رد.

راح السيد ويكفيلد يسأل: «هل أستنتج مما تقولين يا سيدتي، أن السيد مالدون مريض؟».

ردت الجندي العجوز قائلة: «أجيب أنا! يمكن أن يكون أي شيء يا سيدي العزيز».

قال السيد ويكفيلد: «عدا أن يكون في صحة طيبة، أليس كذلك؟».

قالت الجندي العجوز: «حسنًا، عدا أن يكون في صحة جيدة حقًّا! لقد أصيب بلا شك بضربات الشمس المروعة، وحمى الغابات الوعرة، وكافة السقام التي يمكنك تصورها». ثم أكملت الجندي العجوز قولها مستسلمة إلى نبرة يائسة: «بالطبع كان قد استسلم تمامًا بعدما خرج لأول مرة».

سأل السيد ويكفيلد: «هل قال كل هذا الكلام؟».

أجابت السيدة ماركلهام، وهي تهز رأسها ومروحتها: «أي شيء يقول؟ يا سيدي العزيز، إنك لم تزل تعرف القليل عن جاك مالدون المسكين بعد طرحك لهذا السؤال. أي شيء يقول؟ ليس هو بالشخص الذي يبوح، وإن جررته في أعقاب أربعة خيول برية جامحة».

قالت السيدة سترونج: «يا أمي!».

أجابتها والدتها قائلة: «يا آني، يا عزيزتي، إن عليَّ للمرة الأولى والأخيرة أن أتوسل إليكِ حقًّا ألا تقاطعي حديثي، إلا إذا كنتِ تؤكدين قولي. إنكِ تعلمين جيدًا كما أعلم تمامًا، أن ابن عمكِ مالدون يُفضل أن يُجر في أعقاب أي عدد من الخيول البرية -لماذا أقصر نفسي على أربعة إذن! لن أقصر نفسي على أربعة- بل ثمانية خيول، بل ستة عشر خيلًا، بل اثنان وثلاثون، عوضًا عن قول أي عدد محسوب قد يلغي خطط الدكتور».

قال الدكتور بينما يمسح وجهه بيده ويتلفت بنظراته إلى مستشاره كما لو أنه يطلب المغفرة: «إنها خطط ويكفيلد، أو بالأدق أعني؛ خططنا المشتركة لمسيرته. قلت لنفسي إنه قد يعمل في خارج البلاد أو في داخلها».

أضاف السيد ويكفيلد بجدية قائلًا: «نعم، وقلت في الخارج. بل كنت الوسيط في إرساله إلى خارج البلاد. إنها مسؤوليتي».

قالت الجندي العجوز: «آهٍ! المسؤولية! لقد أنجز كل شيء من أجل الخير. يا سيد ويكفيلد العزيز، لقد رتبت الأمور من أجل المصلحة والأفضل، وإننا نعلم بالأمر. أما إذا لم يستطع هذا الزميل العزيز العيش

هناك، فالأمر ليس له معنى آخر. إذا لم يكن باستطاعته العيش هناك، فإنه سيموت هناك في وقت أقرب مما يقتضيه تغيير خطط الدكتور». استطردت الجندي العجوز بينما تهوي بمروحتها في نوع من التهوين من ألم هذه النبوءة الهادئة، فقالت: «إنني أعرفه. وأعرف أنه سيموت هناك، في وقت أقرب مما يقتضيه تغيير خطط الدكتور».

قال الدكتور بمرح: «حسنًا، يا سيدتي، إنني لست متعصبًا أمام تنفيذ خططي، ويمكنني قلب وتغيير مسارها بنفسي، كما يمكنني استبدال خطط بأخرى. إذا عاد السيد جاك مالدون إلى المنزل بسبب اعتلال صحته، فلن يُسمح له بالسفر إلى الخارج مرة أخرى، بل يجب أن نسعى جاهدين لتوفير دعم وعمل أكثر ملاءمة له هنا في هذا البلد».

لقد تأثرت السيدة ماركلهام إثر هذا الخطاب السخي -ولست بحاجة للقول إنها لم تكن تتوقعه أو تسعى إليه على الإطلاق- حتى إنها لم تستطع إلا أن تخبر الدكتور أنه كما عهدته دومًا ذو خلق، ثم راحت تكرر عادتها من تقبيل عصا مروحتها، ثم النقر عليها بيدها. قامت بعد ذلك بتوبيخ ابنتها آني في لين، لأنها لم تبرز شعورها بينما تستطيع أن تمطر مثل هذه المشاعر اللطيفة، فتغمر نفسها ورفيقها القديم وتشملهما بهذا العطف. كما سردت بعض التفاصيل المتعلقة بأفراد عائلتها الآخرين المستحقين لمثل هذه المساعدات، ممن يتطلعون إلى وضع أقدامهم على أول طريق هذه الحياة.

لم تتحدث ابنتها آني طوال هذا الوقت ولو لمرة واحدة، بل لم ترفع عينيها كذلك. مكث السيد ويكفيلد مثبتًا نظراته عليها وهي جالسة

بجانب ابنته. بدا لي أنه لم يفكر قَطُّ في أن أحدًا قد يراقبه، لذا فقد عزم على التركيز ناحيتها، مستغرقًا في أفكاره الخاصة التي تدور حولها، حتى غرق في محاولاته لاستيعابها تمامًا. أخذ يسأل في هذه اللحظة عما كتبه السيد جاك مالدون عن نفسه بالفعل، وإلى من كتب هذا الخطاب.

تناولت السيدة ماركلهام خطابًا من فوق مسند المدخنة الذي يعلو رأس الدكتور، ثم راحت تقول: «إنه هنا. إن الزميل العزيز يوجه قوله إلى الدكتور نفسه قائلًا... - أين هي؟ آهٍ! - «يؤسفني أن أبلغكم أن صحتي مضطربة بشدة، وأنني أخشى أن يؤول الأمر إلى أن أضطر إلى العودة إلى المنزل لبعض الوقت، وأنها الأمل الوحيد لاستعادة صحتي». إن هذه العبارة واضحة جدًّا، يا لهذا المسكين! إن العودة هي أمله الوحيد في استعادة صحته! إلا أن خطابه إلى آني لم يزل الأكثر وضوحًا. يا آني، أرني تلك الرسالة مرة أخرى».

ناشدت أمها بنبرة خافتة، قائلة: «ليس الآن يا أمي».

ردت أمها قائلة: «يا عزيزتي، إنكِ بلا شك من أسخف البشر على وجه الأرض في بعض الأمور، فمن غير الطبيعي سلوككِ هذا أمام متطلبات عائلتك. إنني أحسب أننا لم نكن سنعرف شيئًا أبدًا عن هذه الرسالة التي بحوزتكِ على الإطلاق، لولا أنني طلبتها منكِ بنفسي. هل تسمين أفعالكِ هذه نوعًا من الثقة في الدكتور سترونج يا حبيبتي؟ إنني لأعجب لأمركِ. يجب أن تدركي الفعل الأنسب لكل حدث».

قدَّمت الرسالة على مضض. رأيت كيف أخذت يدها ترتجف، بينما كانت تسلمها إلى السيدة العجوز كرهًا.

قالت السيدة ماركلهام، بينما ترتدي نظارتها: «لنرَ الآن كلام هذا المقطع. "إن ذكرى الأيام الخالية يا عزيزتي آني..." - وهكذا دواليك - إنها ليست هنا. "إن مدير الأعمال العجوز الودود..." - مَن يقصد؟ آني يا عزيزتي، كيف يكتب ابن عمكِ مالدون بهذا الخط القبيح، وكم أنا غبية! إنه يقصد "الدكتور" بالطبع. آه! يا له من لطيف حقًّا!».

توقفت هنا، لتلتقط مروحتها مرة أخرى، وأخذت تهزها في وجه الدكتور، الذي ظل ينظر إلينا في حالة من الرضا والهدوء، ثم أكملت: «لقد وجدتها الآن. "إنكِ لن تتفاجئي يا آني لما سأقول..." - لن تدهش بالتأكيد، لقد كانت تعلم أنه لم يكن قويًّا حقًّا، فماذا قلته للتوِّ؟ - "لقد تحملت الكثير في هذا المكان البعيد، حتى إنني قررت الرحيل متحملًا جميع المخاطر، وإن كانت إجازة مرضية، إذا استطعت، أو الاستقالة الكاملة، إذا لم أتمكن من الحصول عليها. إن ما قاسيته، وما زلت أقاسيه هنا هو شيء لم أعد أستطيع تحمله". عادت السيدة ماركلهام إلى رسالة الدكتور كما كان من قبل، بعد أن أعادت طي هذه الرسالة، ثم قالت: "ولكن من أجل استجابة هذا المخلوق النبيل، سيكون من المستحيل أن أفكر في أمر عودتي"».

لم ينبس السيد ويكفيلد ببنت شفة، على الرغم من أن السيدة العجوز راحت تنظر نحوه كما لو أنها تريد تعليقه على هذه المعلومات الاستخباراتية، فإنه مكث صامتًا، وقد ثبَّت عينيه على الأرض. ظل على حاله حتى بعد فترة طويلة من تغييرنا لموضوع الحديث. لم يرفع عينيه من على الأرض إلا نادرًا، حتى يريحهما للحظة، بعد أن يُوجِّه نظرات نحو الدكتور أو زوجته أو كليهما، في عبوس وتفكير عميق.

كان الدكتور مغرمًا بالموسيقى. غنت أجنيس بحلاوة وعذوبة وفخامة، كما غنت السيدة سترونج كذلك. لقد غنتا وعزفتا معًا، فحظينا بحفل موسيقي صغير. إلا أنني لاحظت شيئين، أولًا: أن آني سرعان ما استعادت رباطة جأشها، وعادت إلى وعيها تمامًا، إلا أنني لاحظت هوة شاسعة تفصل بينها وبين السيد ويكفيلد تمامًا. ثانيًا: لاحظت أن السيد ويكفيلد بدا كما لو أنه كَره العلاقة الوطيدة بينها وبين أجنيس، وقد راح يراقبهما في قلق. والآن، يجب أن أعترف، أنني أتذكر ما رأيته في تلك الليلة السالفة عندما غادر السيد مالدون. بدأت ذكرى هذه الليلة تعود إليَّ بمعنى جديد لم أكن أدركه من قبل، فراحت تزعجني. لم يعد جمال وجهها البريء يوحي بالبراءة نفسها بالنسبة لي. صرت لا أثق في جمال محياها وسحر سلوكها ولينه. رحت أنظر إلى أجنيس التي تجلس بجانبها متأملًا مدى روعة وحقيقية أجنيس، ومتشككًا في أعماقي حول هذه الصداقة غير العادلة.

إلا أنها كانت سعيدة جدًّا بصداقتها، وكانت الأخرى سعيدة بها أيضًا، حتى إنهما جعلتا المساء يمضي مسرعًا كما لو أننا لم نقضِ سوى ساعة. انتهت هذه الليلة بحادث لم أزل أتذكره جيدًا. لقد كانتا تستأذنان بالانصراف، وإذا بأجنيس قد همت باحتضانها وتقبيلها، فتصادف أن خطا السيد ويكفيلد بينهما، كما لو أنها صدفة عابرة، وقد سحب أجنيس ليبعدها عنها بسرعة. أدركني الوقت، كما لو أنه انقضى بكل تفاصيله وإذا بي لم أزل واقفًا في قاعة الاستقبال حين كانت ليلة الوداع

قبل السفر، وإذا بي أتمثل تعبيرات وجه السيدة سترونج في تلك الليلة عندما واجهته.

لا أستطيع أن أحدد الأثر الذي وقع في صدري، أو كيف آثرت بعد تفكير في الأمر أنه من المستحيل أن أفصلها عن هذه النظرة، فلم أعد أتذكر وجهها بجماله البريء مرة أخرى. ظلت هواجسي تطاردني بعدما وصلت إلى المنزل. بدا لي أنني قد تركت سقف الدكتور وقد غطته غيمة سوداء. بات احترامي لرأسه الأشيب ممزوجًا بالرثاء على ثقته بمن غدروا به، وصرت مستاءً ممن خذلوه. تنبأت بأن ظلًّا لمحنة كبيرة، ووصمة عار شاهقة لم يكن لها ملمح مميز بعد، قد بات وشيكًا. لقد خيَّمت وصمة عار على ذاك المكان الهادئ، حيث عملت ولعبت في صباي، وقد أصاب هذا المكان خطأ فادح. لم يعد لديَّ أي متعة في التذكر بعد تلك اللحظة، فلا أتمثل أشجار الصبار القديمة ذات الأوراق العريضة، والتي ظلت منطوية على ذاتها مائة عام، أو مساحات العشب الناعم، أو الجرار الحجرية، وممشى الدكتور، والصوت المتناسق لجرس الكاتدرائية الذي يحوم فوقهم جميعًا. صارت مشاعري هائمة كما لو أن ملاذ طفولتي الهادئ قد نُهب أمام وجهي، وقد ذهبت سلامته ومهابته أدراج الرياح.

حل الصباح، وحان فراقي للبيت القديم الذي ملأته أجنيس بنفوذها، وقد استولت عليَّ عواقب هذا الفراق. سأعود إليه قريبًا مرة أخرى بلا شك، وقد أنام مرة أخرى - بل ربما أكثر من مرة - في غرفتي القديمة ذاتها، أما أيام سكينتي فقد ولَّت، وانقضى الزمان بعيدًا. ظل قلبي مثقلًا

بالهموم بينما رحت أجمع كتبي وملابسي المتبقية في غرفتي، ومن ثَم أرسلها إلى دوفر، وإن كنت حريصًا على عدم إظهار مشاعري تلك أمام يورايا هيب الذي كان منضبطًا للغاية، وحريصًا على مساعدتي، حتى إنني حسبته سعيدًا لرحيلي.

لقد ودَّعت أجنيس ووالدها، على كل الأحوال، في استعراض غير متقن لرجولتي ورباطة جأشي، ثم اتخذت مقعدي في العربة المتجهة إلى لندن. انتاب مشاعري خليط من اللين والتسامح، بينما أتجول في البلدة، حتى إنني رحت أفكر في أن أومئ للجزار، ذاك العدو القديم، فألقي إليه خمسة شلنات ليشرب ما يحب. إلا أن الجزار قد بدا خشنًا عنيدًا للغاية حيث وقف ينحت كتلة خشبية كبيرة قائمة في المتجر، وعلاوة على ذلك، لم يكن مظهره قد تحسن كثيرًا بعد أن فقد إحدى أسنانه الأمامية بعد أن اقتلعتها منه، ومن ثَم أحسست أنه من الأفضل ألا ألقي إليه بأي عطايا.

أتذكر أن الهاجس الرئيسي الذي راح يجول في خلدي، بعد أن قطعنا شوطًا حتى منتصف الطريق، هو أن أبدو للسائق أكبر سنًّا، وأن أتحدث بخشونة بالغة. حققت الأمر الأخير بفظاظة هائلة، وقد أرهقني فعلي هذا، إلا أنني تمسكت بالأمر، لأنني شعرت أنه يوحي بالكبر والمهابة.

قال السائق: «هل أنت مسافر يا سيدي؟».

أجبت مبديًا نوعًا من الكبرياء، وقد كنت أعرف السائق: «نعم يا ويليام. إنني ذاهب إلى لندن. وسوف أتجه إلى سافوك بعد ذلك».

قال المدرب: «هل ستصطاد يا سيدي؟».

كان يعلم جيدًا - كما كنت أعلم بدوري - أنه من المحتمل، في ذلك الوقت من العام تمامًا، أن أذهب إلى هناك لصيد الحيتان، إلا أنني شعرت بالثناء من توقعه هذا أيضًا.

تظاهرت بالتردد في إجابتي قائلًا: «لست متأكدًا ما إذا كنت سأخرج للصيد أم لا». قال ويليام: «لقد سمعت أن الطيور صارت نادرة جدًّا».

قلت: «هذا ما عرفته أيضًا».

سألني ويليام: «هل سافوك هي موطنك يا سيدي؟».

أجبت بنوع من الزهو قائلًا: «نعم، إن سافوك موطني».

قال ويليام: «قيل لي إن رقائق مخبوزات الحلوى شائعة بتميزها هناك».

لم أكن عن نفسي أعرف شيئًا عنها، لكنني أحسست أنه من الضروري إبداء الفخر بما تشتهر به بلدتي، ومن ثَم وجدت ضرورة إثبات معرفتي بها، ولذلك هززت رأسي موافقًا، كما لو أنني أقول: «إنني أوافقك».

قال ويليام: «والخيول. يا لهذه الماشية! إن الخيل في سافوك أصيلة[١]، وإنها تساوي وزنها ذهبًا. هل سبق لك يا سيدي أن قمت بتربية أي منها بنفسك في سافوك؟».

---

(١) أُطلق على هذه الخيول «*punches*» وهي كلمة إنجليزية قديمة، تعني قصيرًا شجاعًا، لتصف طبيعة الخيول قصيرة الأرجل في سافوك.

قلت: «لا، ليس بالضبط».

قال ويليام: «أراهن على أن هذا الرجل الذي يجلس ورائي قد قام بتربية الخيول بالجملة».

كان الرجل النبيل الذي تحدث عنه أحول العين، له ذقن بارز، ويرتدي قبعة بيضاء طويلة ذات حافة مسطحة ضيقة، وقد بدا بنطاله الباهت الضيق ذا أزرار تمتد من داخل حذاء من ساقيه حتى أعلى وركيه. كان قد أسند ذقنه إلى كتف السائق، وكذلك دنا مني، حتى إن أنفاسه كانت تدغدغ مؤخرة رأسي. رحت أنظر إليه، فإذا به ينظر إلى الخيل بعينه السليمة، نظرة العارف الخبير بأمرها.

سأل ويليام: «ألست كذلك؟».

قال الرجل المحترم من الخلف: «ألست ماذا؟».

«ألا تربي الخيول في سافوك بالجملة؟».

قال الرجل المحترم: «أحسب أنني قمت برعايتها على أكمل وجه. فلم أستثنِ فصيلة من الخيول لم أُربِّها، ولم أترك نوعًا من الكلاب من دون مباشرتي له. إن هواية تربية الخيول والكلاب لم تزل عند بعض الرجال، بل إنني ممن يفضلونها عن الشراب والطعام، والمسكن، والزوجة، والأطفال، وأحسب أنني أفضلها أيضًا أكثر من القراءة والكتابة والحساب، وأنفق عليها بدلًا من السعوط، والدخان، والنوم».

همس ويليام في أذني وهو ممسك بزمام الخيل: «لا يصح لرجل مثله أن يُرى جالسًا خلف السائق، أليس كذلك؟».

فسرت هذه الملاحظة على أنها إشارة إلى رغبته في أن يجلس الرجل في مكاني، لذلك فقد عرضت عليه بخجل أن أبادله مجلسي.

قال ويليام: «حسنًا، إذا لم يكن لديك مانع يا سيدي، فإني أحسب أنه من الأفضل أن تبادله مقعده».

لطالما اعتبرت هذه الواقعة أول سقطة لي في الحياة. لقد حجزت مكاني هذا من مكتب العربات، وكان قد خصص لي مكانًا خلف السائق، فأعطيت موظف الحجز نصف كروان مقابل هذا المكان المميز. نهضت عن مكاني بمعطفي الضخم ولفاحتي اللافتة، لأتنازل في تواضع عن هذا المكان المتميز، وقد بدوت مزهوًّا بنفسي متعاليًا. شعرت كما لو أنني متفضل على هذا السائق. إلا أنني أجده في مراحل الرحلة الأولى يبدلني في هذه اللحظة، برجل رثٍّ أحول العين، لا يتميز بشيء سوى رائحة تشبه الإسطبلات واللجام، وقد استطاع أن يمر من أمامي ويتجاوزني، كما لو أنه ذبابة لا إنسان، بينما كانت الخيول تعدو منطلقة!

ظلت عدم ثقتي بنفسي تؤرقني في حياتي في أغلب الأوقات، ولو كانت في مناسبات صغيرة. كان من الأجدر أن أتخلى عن شعوري هذا، إلا أنه لم يتوقف عن الازدياد بسبب هذا الحادث الصغير في العربة المسافرة من كانتربري. أدركت أن اللجوء إلى فظاظة الكلام وخشونة الصوت مضى عبثًا. لقد غدوت أتحدث من جوفي بقية الرحلة، لكنني شعرت بأنني أخفقت تمامًا، وأنني لم أزل شابًّا ساذجًا.

كان من الغريب والمثير أن أجلس خلف أربعة خيول، مع أنني

متعلم، كما أنني أرتدي ملابس لائقة، ويحوي جيبي المال الوفير الذي سيدفعني إلى البحث عن مكان أبات فيه خلال رحلتي المرهقة. راودت عقلي أفكار كثيرة حين مررنا بكل معالم الطريق البارزة. لقد أبصرتُ المتشردين الذين مررنا بهم، فرأيت ذلك النمط وتلك الملامح التي لم أزل أتذكرها جيدًا. شعرت كما لو أن يد العامل السوداء قد قبضت على قميصي مرة أخرى، ثم أخذت العربة تجول بنا في شارع شاتام الضيق، فألقيت نظرة عابرة إلى الممر الذي يعيش فيه الرجل العجوز الذي اشترى مني سترتي. تطلعت برقبتي في شغف للبحث عن المكان الذي جلست فيه، في الشمس والظل، منتظرًا تحصيل نقودي. وصلنا إلى المرحلة الأخيرة قبيل لندن، وقد مررنا بمدرسة سالم هاوس، حيث هيمن السيد كريكل على من فيها بيده الثقيلة. وددت لو أنفقت كل ما في جيبي، لقاء النزول من العربة لسحقه، ثم إطلاق سراح كل الأولاد كما يطلق سراح عدد من العصافير الحبيسة في أقفاص.

توجهنا إلى فندق الصليب الذهبي في شارع تشارلنج كروس، ويا له من فندق عفن يقبع في حي صغير. أرشدني النادل إلى غرفة المشروبات بالفندق، واقتادتني الخادمة إلى حجرة نومي الصغيرة التي فاحت منها رائحة تشبه رائحة عربة قذرة. كانت الحجرة مقفلة مثل قبو في مسكن عائلي. كنت لم أزل مدركًا لحداثة سني متألمًا لصغري لأنني لم أجد أحدًا يهابني أو يوقرني على الإطلاق، فكانت خادمة الغرفة غير مبالية تمامًا بآرائي حول أي موضوع، كما راح النادل يناديني بلا تكلف، ويقدم لي المشورة لقلة خبرتي.

قال النادل بنبرة واثقة: «حسنًا، والآن ماذا تريد أن تتناول على الغداء؟ إن السادة الشباب يحبون الدواجن بشكل عام؛ هلا أحضر لك الدجاج!».

أخبرته بأكبر قدر ممكن من الهيبة أنني لا أميل إلى تناول الدجاج.

قال النادل: «حقًّا؟ إن السادة الشباب قد سئموا عمومًا من لحم البقر والضأن، فهلا أطلب لك لحم شواء لذيذًا!».

وافقت على هذا الاقتراح، لعدم تمكني من اقتراح أي شيء آخر.

قال النادل بابتسامة تلوح على وجهه وقد أمال رأسه جانبًا: «هل تحب البطاطس؟ إن السادة الشباب بشكل عام يكثرون من تناول البطاطس».

أمرته بأغلظ نبرة في صوتي أن يطلب لي شرائح من لحم العجل والبطاطس وكل ما يلزم، وأن يستعلم في المكتب عما إذا كانت ثمة رسائل باسم المحترم تروتوود كوبرفيلد، مع أنني كنت على علم بعدم وجود أي منها، ولا يمكن أن تصل أي منها كذلك، إلا أنني ظننت أن الأمر سيجعلني أبدو أكثر رجولة حين أظهر انتظارها.

أجابني سريعًا قائلًا إنه لم يصل أي منها، فأبديت دهشة بالغة لسماعي قوله. راح بعدها يبسط قطعة من قماش لتناول الغداء عند زاوية بجوار النار. اندمج في عمله للغاية بينما راح يسألني عن الشراب الذي أفضله مع الطعام. وقد كانت إجابتي هي «نصف لتر من شراب الشيري»، وأحسب أنه وجد الفرصة مواتية لاستخلاص هذا الكم من النبيذ من بواقٍ قديمة تستقر في قيعان العديد من الأواني الصغيرة. وإنني

لأرجح هذا الرأي، لأنني لاحظته بينما أقرأ إحدى الصحف، بعد أن وقف خلف حاجز خشبي خفيض حيث مكان عمله الخاص، وقد لاح مشغولًا جدًّا بسكب عدد من هذه الأوعية في وعاء واحد، كما لو أنه صيدلي يصنع دواءً من وصفة طبية. جاء إليَّ بالنبيذ، فإذا بي أظنه مائعًا، وكان من المؤكد أنه يحتوي على فتات من الخبز الإنجليزي بصورة أكثر مما يتوقع أن يحويه نبيذ أجنبي أقرب إلى الحالة النقية. إلا أنني كنت خجولًا للغاية، فشربته من دون أن أتفوه بشيء.

وكوني في حالة شعورية ممتعة -استنتجت منها أن حالة التسمم ليست دائمًا غير مرغوب فيها في بعض مراحلها العملية- لذا فقد عقدت العزم على الذهاب إلى مسرحية. اخترت الذهاب إلى مسرح كوفنت جاردن، واتخذت مقعدي هناك خلف مقصورة مركزية، فشاهدت عرض يوليوس قيصر، ومشاهد من أداء البانتومايم الجديد. كان منظر كل هؤلاء النبلاء الرومان بينما يتحركون أمامي على قيد الحياة، ودخولهم وخروجهم للترفيه عن المشاهدين، له أثر بديع ومسلٍّ بدلًا من أن يكونوا دروسًا جافة كالتي درستها في المدرسة. أما اختلاط الواقع بالخيال في العرض بأكمله، وتأثير الشعر والأضواء والموسيقى والجوقة والتغييرات الهائلة السلسة للمشاهد المتلألئة والرائعة، فقد كانت مبهرة وساحرة، حتى إنها فتحت أمامي آفاقًا لا محدودة من البهجة، وما إن خرجت إلى الشارع الممطر، في الساعة الثانية عشرة ليلًا، حتى أحسست كما لو أنني هبطت من السحاب، حيث كنت أعيش حياة رومانسية على مر العصور السالفة، ثم وجدتني في عالم صاخب

مشتت، يغرقه الرذاذ، وتدافع المظلات المتزاحمة، تحت ألسنة المطر المنهمر، إنه التدافع، وخشخشة المركبات، والوحل، إنه هذا العالم البائس.

كنت قد خرجت من باب آخر، ثم وقفت في الشارع لفترة قصيرة، كما لو كنت حقًّا أحيا غريبًا على الأرض، لكن الدفع والضغط غير المنتظم والنكز الذي تلقيته، سرعان ما أعادوني إلى وعيي، وأعادوني كذلك إلى طريقي إلى الفندق، حيث رحت أدير هذا الحلم المجيد في ذهني طوال الطريق. مكثت أفكر في حلمي بعد أن شربت القليل من البيرة الخفيفة مع القواقع البحرية، بعد الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، وقد ثبتُّ عيني نحو النار الموقدة في غرفة القهوة.

صرت ممتلئًا بالمسرحية وبالماضي، لأنها كانت بطريقة ما، تبدو كما الزجاج شفافة ساطعة، فنفذت من خلالها لأرى حياتي السابقة تمر أمام ناظري، حتى إنني لا أعرف متى تكوَّنت أمام ناظري هيئة هذا الوسيم. إنه شاب متناسق القوام، يرتدي ملابس تشي بذوق فذ في غير تكلف، وقد لاح لي لسبب ما أنني أتذكره جيدًا، إلى أن تمثل حضوره حقيقيًّا أمام ناظري. إلا أنني أتذكر أنني صرت مدركًا لرفقته من دون أن ألاحظ قدومه، ولم أزل جالسًا، أتأمل ساهمًا نحو نار القهوة الموقدة.

نهضت أخيرًا لأخلد إلى النوم، الأمر الذي سيريح ذلك النادل النائم، الذي ظل يعاني من تململ في ساقيه، حتى راح يلفهما، ويضربهما، ويضعهما في جميع أوضاع الالتواءات عند مخزنه الصغير. وفي أثناء توجهي نحو الباب إذ بي أمر بالشخص الذي دخل ومن ثَم

رأيته بوضوح. استدرت مباشرة، وعدت إلى مكاني، ثم نظرت نحوه مرة أخرى. لم يعرفني، لكنني عرفته في غضون لحظة واحدة.

أحسب أنني في وقت آخر، ربما كانت ثقتي في نفسي ستخذلني، أو إقدامي على قرار التحدث إليه، فلا أجرؤ على القدوم بل ربما أؤجله إلى اليوم التالي، أو حتى أفقده. إلا أنني كنت في حالة من الشرود الذهني في ذلك الوقت، حيث كانت المسرحية لم تزل تستولي على عقلي، وقد بدت رعايته السابقة لي تستحق امتناني وتقديري له، وفاض في نفسي حبي القديم له، فشغل جوانحي بصورة عفوية وفطرية، إلى أن توجهت إليه في الحال بقلب خافق، قائلًا:

«ستيرفورث! ألا تتكلم معي؟».

كان ينظر إليَّ - تمامًا كما عهدت نظراته أحيانًا - لكنني لم أرَ أي إيماءة في وجهه تشي بأنه قد عرفني.

قلت: «أخشى أن تكون قد نسيتني».

صرخ فجأة: «يا إلهي! إنه كوبرفيلد الصغير!».

أمسكته بكلتا يدي ولم أستطع أن أفلتهما. لو لم أكن ممن يشعرون بالخزي الشديد، والخوف من أن أغضبه، لطوقت رقبته وبكيت.

«لم أسعد في حياتي قَطُّ قَطُّ قَطُّ مثلما الآن! يا عزيزي ستيرفورث، كم أشعر بسعادة غامرة لرؤيتك!».

قال وهو يصافح يدي من كل قلبه: «وكم يسعدني أن أراك أيضًا! إنك كوبرفيلد، ذاك الولد القديم الذي لا يقهر!». أحسب أنه كان في

غاية السعادة أيضًا، لرؤية كيف أسرتني السعادة التي شعرت بها حين قابلته.

كففت الدموع التي لم يكن بوسعي أن أمنع تدفقها، ثم ضحكت على فعلي هذا، وجلسنا معًا جنبًا إلى جنب.

قال ستيرفورث وهو يربت على كتفي: «كيف أتيت إلى هنا؟».

«جئت إلى هنا اليوم مستقلًّا عربة من كانتربري. لقد تبنتني عمتي وهي تسكن في تلك البلدة، ومن ثَم أنهيت دراستي هناك. وأنت، كيف أتيت إلى هنا يا ستيرفورث؟».

أجاب قائلًا: «حسنًا، إنني ممن يطلقون عليه طالبًا من أوكسفورد، وهذا يعني أنني أشعر بالملل الخانق إثر مكوثي بها من وقت لآخر. وإنني في طريقي الآن إلى منزل والدتي. إنك تبدو في غاية النشاط واللطف يا كوبرفيلد. إنني أنظر إليك الآن، فأشهدك على ما كنت عليه! إنك لم تتغير على الإطلاق!».

قلت: «لقد عرفتك على الفور، ولكنك مميز في ذاكرتي ويمكن تذكرك بسهولة».

ضحك وهو يمرر يده عبر خصلات شعره المتجمعة، وقال في مرح:

«نعم، إنني في رحلة لأداء الواجب، فوالدتي تعيش بعيدًا عن المدينة، كما أن الطرق سيئة موحشة، ومنزلنا يعج بالملل بما فيه الكفاية، لذا فإنني أقمت هنا الليلة بدلًا من مواصلة السفر. لم أقضِ في

البلدة سوى ست ساعات، وقد استولى عليَّ النوم في أغلبها بعد التذمر من المسرحية».

قلت: «لقد شاهدتُ المسرحية أيضًا في كوفنت جاردن. يا لها من تسلية مبهجة ورائعة يا ستيرفورث!».

ضحك ستيرفورث بحرارة.

قال وهو يربت على كتفي: «يا عزيزي ديفي، يا لك من غر صغير، تشبه زهرة الأقحوان تمامًا، عند شروق الشمس، بل إنها ليست أعذب منك. لقد كنت في كوفنت جاردن أيضًا، ولم أرَ عرضًا أكثر بؤسًا من ذاك الذي رأيته من قبل. هلم! نعم أنت يا سيدي!».

كان هذا الكلام موجهًا إلى النادل، الذي كان حريصًا جدًّا على الإنصات إلينا عن بُعد، وها هو يتقدم نحونا الآن مُظهرًا الاحترام.

قال ستيرفورث: «أين ينزل صديقي السيد كوبرفيلد؟».

«أستميحك عذرًا يا سيدي؟».

قال ستيرفورث: «أين ينام؟ ما رقم غرفته؟ إنك تفهم ما أعنيه».

قال النادل بنبرة اعتذار: «حسنًا يا سيدي. إن السيد كوبرفيلد في الوقت الراهن ينزل بالغرفة رقم أربعة وأربعين يا سيدي».

أجابه ستيرفورث: «وماذا تقصد بقولك هذا؟ هل أرسلت السيد كوبرفيلد إلى دور علوي في مقصورة فوق الإسطبل؟».

رد النادل، بينما لم يزل معتذرًا: «كما تعرف، إننا لم نكن على علم يا سيدي بأن السيد كوبرفيلد يريد على أي حال غرفة خاصة. يمكننا أن

ننقل السيد كوبرفيلد إلى غرفة اثنين وسبعين يا سيدي، إذا كان يفضل ذلك. وهي الغرفة التي بعدك يا سيدي».

قال ستيرفورث: «بالطبع سيكون ذلك أفضل، فلتفعل ذلك في الحال». انسحب النادل على الفور لإجراء هذا التعديل. سُرَّ ستيرفورث كثيرًا بذلك، وأخذ يضحك مرة أخرى، ثم ربت على كتفي من جديد، ودعاني لتناول الإفطار معه صباح اليوم التالي في الساعة العاشرة؛ وهي دعوة جعلتني مزهوًّا للغاية، فتقبلتها بامتنان بالغ. انقضى وقت طويل، فأخذنا شموعنا وصعدنا إلى الطابق العلوي، حيث افترقنا بحميمية وود عند باب ستيرفورث، وقد وجدت في غرفتي الجديدة استحسانًا كبيرًا عوضًا عن غرفتي القديمة، فهي ليست متعفنة على الإطلاق، وبها مساحة شاسعة، تحوي سريرًا ذا أربعة أعمدة، كمل لو أنها حجرة ملكية هبطت إليَّ. وهنا، استندت إلى الوسائد الوثيرة التي تكفي ستة أشخاص، وسرعان ما رحت في النوم وقد لفتني سعادة غامرة، ورحت أحلم بروما القديمة، وستيرفورث، والصداقة، إلى أن أدركني صباح اليوم التالي، وراحت أصوات العربات المارة ترسل ضجيجها إليَّ، مما جعلني أحلم بالرعد والآلهة.



الفصل العشرون

منزل ستيرفورث

طرقت الخادمة باب غرفتي في الساعة الثامنة، وأخبرتني أن ماء الحلاقة قد أُعد لي بالخارج، لم أكن بحاجة إليه بعد، ولذا احمر وجهي خجلًا وأنا على سريري. راودني شك في أنها ضحكت أيضًا، عندما قالت ذلك، فظل الأمر يشغل ذهني طوال الوقت بينما أرتدي ثيابي، بل أحسست أنني آثم، وأوجست خيفة أن أراها مارة عند الدرج، فخرجت متسللًا لتناول الإفطار. أدركت في نوع من الحساسية؛ كم أنني صغير السن حقًّا، بل أصغر سنًّا مما أرجوه، لدرجة أنني بت عاجزًا لبعض الوقت عن المرور بها في ظل هذه الظروف المخجلة. إلا أنني ما إن سمعت صوتها تعمل بمكنستها، حتى وقفت أختلس النظر من النافذة إلى تمثال الملك تشارلز ممتطيًا ظهر جواده، ومحاطًا بوابل من العربات البدائية، وقد انزاح عنه أي مظهر من مظاهر الملكية، وسط هذا المطر المتساقط والضباب البني الداكن، حتى جاءني النادل معلنًا أن رجلًا محترمًا في انتظاري.

لم أجد ستيرفورث ينتظرني في غرفة القهوة، بل وجدته في جناح أنيق دافئ، وقد أُسدلت فيه ستائر حمراء وبُسط على أرضه سجاد تركي، أما نيران موقده فخالصة ذات ضوء ساطع، كما قُدمت له وجبة فطور ساخنة ورائعة، وضعت على طاولة يعلوها مفرش نظيف. ثبتت مرآة صغيرة راحت تعكس مشهد الغرفة المبهج، وضوء النار النقي، ووجبة الإفطار، وستيرفورث، وكل شيء. راح هذا المشهد يتلألأ في المرآة الصغيرة المستديرة القابعة فوق خزانة جانبية. انتابني الخجل في البداية، حين لاحظت اعتداد ستيرفورث بذاته، وحرصه على أناقته، وقد بدا متفوقًا عليَّ على جميع الأصعدة؛ بما في ذلك العمر، إلا أن رعايته اللينة لي سرعان ما هدَّأت من غيرتي، وردَّتني إلى حالتي الطبيعية تمامًا. لم أستطع سوى الإعجاب بالتغيير الذي أحدثه في فندق الصليب الذهبي، أو أن أقارن بين الحالة البائسة المملة التي كنت عليها بالأمس، براحة هذا الصباح وما فيه من متعة ورفاهية. أما تبسط النادل معي ومناداتي من دون كلفة، فقد زال تمامًا كما لو أنه لم يقدم على هذه الأفعال من قبل. صار يجيء إلينا بخدماته ذليلًا معتذرًا، أو كما يمكنني القول بأنه: كان يأتينا في المسوح والرماد[1].

راح ستيرفورث يحدثني بعد خلونا إلى بعضنا قائلًا: «أما الآن يا كوبرفيلد، فإني أود أن أنصت إلى ما تفعله هذه الأيام، وإلى أين تتجه؟ بل أريد أن أعرف كل شيء عنك. أشعر كما لو أنني أنشغل لأمرك».

(١) ذُكر في العهد القديم أن ارتداء المسوح وتغطية الرأس بالرماد؛ علامتان ظاهرتان تكشفان محاولة الإنسان لإظهار التذلل والتوبة.

توهجت مسرورًا بعدما وجدته لم يزل مهتمًّا لأمري، فأخبرته عن اقتراح عمتي لهذه الرحلة الاستكشافية الصغيرة التي بدأتها، وأخبرته بوجهتي التي أقصدها.

قال ستيرفورث: «حيث إنك لست في عجلة من أمرك، فما رأيك أن تأتي معي إذن إلى منزلي في هايجيت، فتمكث معي ليوم أو يومين. سوف تسعد بلقاء والدتي؛ إنها مزهوة ومعجبة ومتفاخرة بي، ولكنك ستعذرها، وستسعد بك».

أجبته مبتسمًا: «أود لو أتأكد من أنها ستسعد لرؤيتي، كما تفضلت وقلت ذلك للتوِّ».

قال ستيرفورث: «آهٍ! إن كل من يحبني، سيأسرها بلا شك وسيفهم ما أرمي إليه».

قلت: «أحسب أنني سأحظى بمكانة مميزة لديها».

قال ستيرفورث: «حسنًا، تعالَ وأثبت ذلك بنفسك. سنذهب لنشاهد الأسود لساعة أو ساعتين -يا له من شيء لطيف أن أصطحب رفيقًا جديدًا مثلك ليشاهد العرض يا كوبرفيلد- وبعد ذلك سنستقل مركبة فنذهب إلى هايجيت».

لم أصدق ما يدور، لقد بدا كما لو كنت في حلم، وأنني سأستيقظ الآن فأجد نفسي في الغرفة الرابعة والأربعين، حيث المقصورة المنعزلة في غرفة القهوة وقد تبسط النادل ورفع الكلفة مرة أخرى. كتبت إلى عمتي وأخبرتها عن لقائي بزميلي القديم الذي طالما أُعجبت به، وقبولي دعوته لزيارة بيته. انطلقنا بعد ذلك في عربة صغيرة، وقمنا

بجولة بانورامية وبعض الجولات الأخرى، كما زرنا المتحف، حيث لاحظت أن عددًا كبيرًا من الناس يعرفون ستيرفورث، على مدى واسع ومتنوع، وإذا بهم يتحدثون في مختلف الموضوعات، وكيف بدا غير مكترث بمعارفه، لا يعبأ بمركزه.

قلت: «ستحصل على درجة عالية في الكلية يا ستيرفورث، إن لم تكن قد حصلت عليها بالفعل، وسيكون ذلك سببًا وجيهًا للاعتزاز والفخر بك».

صاح ستيرفورث: «أحصل على درجة علمية! لستُ أنا هذا الشخص! يا أقحوانتي العزيزة، هل تمانع في مناداتك بأقحوانتي؟».

قلت: «ليس لديَّ مانع على الإطلاق!».

قال ستيرفورث ضاحكًا: «يا أقحوانتي العزيزة، يا لك من صديق طيب! ليست لديَّ أدنى رغبة أو نية في التميز بهذه الطريقة. لقد فعلت ما يكفي لتحقيق غايتي. أجد أنني راضٍ عما حققته لنفسي بل وأكتفي بما أنا عليه».

استأنفت قولي: «لكن الشهرة...».

قال ستيرفورث، وقد تعالت ضحكاته أكثر فأكثر: «يا لك من حالم يا أقحوانتي! لماذا أزعج نفسي، من أجل أن تنفرج أفواه مجموعة من البلهاء ذوي الرؤوس الثقيلة إعجابًا، أو ليرفعوا أيديهم بالتحيات؟ فليفعلوا ذلك برجل آخر سواي، وهنيئًا له هذه الشهرة، ومرحبًا به وليفرح بها».

شعرت بخجل من ارتكابي لمثل هذا الخطأ الفادح، وسعدت

بتغيير الموضوع، ولحسن الحظ لم يكن من الصعب تغييره، فقد كان بإمكان ستيرفورث دائمًا الانتقال من موضوع إلى آخر بعدم اكتراث وخفة يميزانه.

تناولنا الغداء بعد أن أنهينا زياراتنا، وانقضى نهار الشتاء القصير بسرعة فائقة، وقد لاح الغسق عندما توقف سائق العربة بنا عند باب منزل قديم مصنوع من الطوب في هايجيت، يقبع على قمة التل. ظهرت أمامي سيدة عجوز، وإن لم تكن متقدمة جدًّا في السن، تبدو عليها الفخامة ويحمل وجهها سمات الحسن. وقفت بمدخل المنزل بينما نزلنا من العربة، وألقت التحية إلى ستيرفورث ونادته بقولها: «عزيزي جيمس»، وقد طوَّقته بذراعيها. قدمني ستيرفورث إلى هذه السيدة وعرفني أنها والدته، وقد استقبلتني بترحاب حار.

كان المنزل أنيقًا قديم الطراز، هادئًا ومنظمًا. رأيت من نوافذ غرفتي لندن عن آخرها، وقد لاحت أمامي بعيدة مترامية مثل دفعة هائلة من بخار، تكسوها بعض الأضواء المتلألئة والمتناثرة بين مكان وآخر. لم يكن أمامي سوى القليل من الوقت، بينما أرتدي ملابسي، لألقي نظرة على هذا الأثاث المتين، والزخارف المؤطرة للقطع المتناثرة منه (وأغلب الظن أنها من صنع والدة ستيرفورث، شغلتها في صباها). كما لاحظت بعض الصور المرسومة بألوان الشمع لسيدات مزينات الشعر ومليحات الأجسام، تسري ظلالها فوق الجدران، بينما تتوهج أضواء النيران المشتعلة حديثًا، وتتطاير منها الشذرات وتتناثر هنا وهناك، إلى أن دُعيت لتناول الغداء.

رأيت في غرفة الطعام سيدة أخرى، ذات قامة قصيرة نحيلة، وبشرة داكنة، يصعُب النظر إليها، ولكنها حازت بعض المظاهر الجميلة أيضًا، وقد جذبت انتباهي، ربما لأنني لم أتوقع رؤيتها، أو لأنني وجدت نفسي أجلس مقابلًا لها، أو بسبب شيء جذاب فيها حقًّا. كانت ذات شعر أسود وعينين سوداوين حادتين، كما كانت نحيفة القوام تعلو شفتها ندبة. بدت ندبة قديمة - من الأفضل أن أطلق عليها جرحًا، لكنه لم يغير لون جلدها، وقد شفي منذ سنوات. بدت الندبة كما لو أنها قطعت فمها إلى أسفل ذات مرة، باتجاه ذقنها، ولكنها صارت الآن ترى بالكاد عبر الطاولة، باستثناء الجزء الذي يعلو شفتها العليا، لأنه غيَّر من شكلها. شرد ذهني واستنتجت أنها في الثلاثين من عمرها، وأنها ترغب في الزواج. بدت في حالة متهالكة بعض الشيء كما لو أنها بيت مهجور منذ وقت طويل. ومع ذلك، فكما قلت، كانت ذات مظهر جيد. بدت نحافتها ليست سوى أثر لنار متوقدة بداخلها، لا تجد سبيلًا لثورتها سوى فتحتي عينيها الهزيلتين.

قُدمت إليَّ باسم الآنسة دارتل، وكان كل من ستيرفورث ووالدته يناديانها باسم روزا. عرفت أنها تعيش في المنزل نفسه، وأنها رفيقة للسيدة ستيرفورث منذ فترة طويلة. بدا لي أنها لا تصرح بما تريد قوله مباشرة، بل تلمح إليه تلميحًا، حتى تقوي من أهميته بهذه الممارسة، وعلى سبيل المثال، فقد راحت السيدة ستيرفورث تقول -على سبيل الدعابة لا الجد- إنها تخشى أن تسيطر هذه الحياة الجامحة في الكلية على ابنها، ومن ثَم عقبت الآنسة دارتل قائلة:

«آهٍ، أحقًا قولكِ؟ إنكِ تعرفين مدى جهلي، وأنني لم أتطلع إلا إلى المعلومات فقط، لكن أليس الأمر على هذا النحو دائمًا؟ كنت أتصور أن هذا النمط من الحياة معروف على أنه... ماذا أقول؟».

أجابتها السيدة ستيرفورث بنبرة لا تخلو من الفتور: «إنه نوع من التعليم لمهنة خطيرة للغاية، إذا كنتِ تقصدين هذا المعنى يا روزا».

قالت الآنسة دارتل: «آهٍ! نعم! هذا صحيح جدًّا، لكن أليس الأمر على هذا النحو؟ - أريد أن أتبين الحقيقة وأتفهمها، إذا كنت مخطئة - أليس كذلك، حقًّا؟».

قالت السيدة ستيرفورث: «ماذا تقصدين بـ«حقًّا»؟».

ردت الآنسة دارتل قائلة: «آهٍ! إنكِ تقصدين أن الأمر ليس على هذا النحو! حسنًا، إنني سعيدة جدًّا لسماع ذلك! أما الآن، فإنني بت أعرف ما عليَّ فعله! هذه هي ميزة طرح السؤال. لن أسمح أبدًا للناس بالتحدث عن التبذير والإسراف وما إلى ذلك قبالتي بعد الآن، خاصة في كل ما يتعلق بنمط هذه الحياة».

قالت السيدة ستيرفورث: «وستكونين حينها على حق. إن معلم ابني رجل نبيل يقظ الضمير، وإذا لم أكن أعول ضمنيًّا على ابني بكل ثقة، فإنني بلا شك أعتمد على معلمه كل الاعتماد».

قالت الآنسة دارتل: «هل تفعلين حقًّا؟ يا للهول! إنه يقظ الضمير، أليس كذلك؟ أحقًّا هو يقظ الضمير إلى الآن؟».

قالت السيدة ستيرفورث: «نعم، إنني على ثقة تامة في أمره».

صاحت الآنسة دارتل قائلة: «ما أجمل هذا! يا لها من راحة! حقًّا إنه يقظ الضمير؟ إذن فهو ليس... لكنه بالطبع لا يمكن أن يكون... إذا كان يقظ الضمير حقًّا. حسنًا، سأكون سعيدة جدًّا برأيي فيه بعد الآن. لا يمكنكِ أن تتخيلي كيف تأكد رأيي فيه، بعد أن عرفت على وجه اليقين أنه ذو ضمير حي حقًّا!».

هكذا كانت آراؤها الخاصة في كل الأمور، وقد راحت تصحح كل ما قيل فيما يتعارض مع قناعاتها. إنها طريقتها الخاصة ذاتها في التعليق على ما حولها، وإن كانت لا تخفى عني حدتها في بعض الأحيان، كما يتعارض رأيها مع ستيرفورث. حدث موقف شبيه قُبيل انتهاء الغداء، إذ تحدثت إلى السيدة ستيرفورث عن نيتي في الذهاب إلى سافوك، كما قلت إنني سأكون سعيدًا إن اصطحبت ستيرفورث معي إلى هناك، ثم أوضحت له أنني سأقابل مربيتي القديمة وعائلة السيد بيجوتي، كما ذكَّرته بحلمه الذي رآه في المدرسة.

قال ستيرفورث: «آهٍ! إنه ذاك الرجل الطيب الذي جاء بصحبة ولده، أليس كذلك؟».

أجبته قائلًا: «لا. إنه ابن أخيه الذي تبناه، وعلى الرغم من ذلك، فإنه يعده ولدًا له، كما أن لديه ابنة أخت صغيرة جدًّا جدًّا، تبناها كذلك فهي كابنته. باختصار، إن بيته - أو بالأحرى قاربه، لأنه يعيش في قارب على اليابسة - مليء بأناس يكرمهم ويحيطهم بلطفه. وسيكون من دواعي سروري أن تزور هذه العائلة».

قال ستيرفورث: «هل تنصحني بزيارتهم؟ حسنًا، أظن أنني يجب

أن أقوم بذلك. يجب أن أفكر في الأمر. من المفيد القيام بهذه الرحلة (ناهيك عن متعة الرحلة معك يا أقحوانتي)، ورؤية هذه الأنماط من الشخصيات معًا، والاندماج بهم كواحد منهم».

قفز قلبي فرحًا بأمل جديد في سعادة آتية. إلاَّ أن النبرة التي تحدث بها عن «هذه الأنماط من الشخصيات»، قد أثارت الآنسة دارتل التي ظلت تراقبنا بعينين براقتين من جديد.

راحت الآنسة دارتل تسأل: «آهٍ، لكن أهذا حقيقي؟ قل لي. هل هم على هذا النحو؟».

سألها ستيرفورث: «هل هم ماذا؟ ومن تقصدين بقولك هم؟».

«هذه الأنماط من الشخصيات... هل هم حقًّا حيوانات أو عشائر أو كائنات من رتبة أخرى؟ أريد أن أعرف الكثير عنهم».

قال ستيرفورث بلا مبالاة: «حسنًا، إن ثمة فارقًا كبيرًا جدًّا بيننا وبينهم. لا يُتوقع منهم أن يكونوا في مثل حساسيتنا ومشاعرنا. لا يعانون من الصدمات أو الأذى بسهولة. لا أنكر أنهم ذوو فضيلة وأخلاق رائعة - يجادل بعض الناس حول هذا التصور على الأقل، وإنني متأكد من أنني لا أريد أن أعارض تصوراتهم - إلا أنهم ليسوا من أصحاب الفطرة المرهفة، وقد يُحمدوا على هذه الخصلة، فمثل هؤلاء ممن يتمتعون بجلود خشنة، ليس من السهل جرحهم».

قالت الآنسة دارتل: «حقًّا! حسنًا، لست أدري الآن، إلا أنني قد زاد سروري لسماع ذلك. ويا لها من فكرة تواسيني! إنه لمن دواعي سروري

أن أعرف أنهم لا يعانون، إنهم لا يشعرون! كنت في بعض الأحيان منزعجة من هذا النوع من الناس. إلا أنني الآن سأنحي فكرة وجودهم تمامًا. يحيا الإنسان ليتعلم. أعترف أنني قد ساورتني الشكوك، إلا أنني الآن قد قطعت الشك باليقين. لم أكن أعرف، وها أنا الآن قد عرفت، وهذا يُظهر ميزة السؤال... أليس كذلك؟».

أظن أن ستيرفورث قال ما قاله، على سبيل الدعابة، أو ليوقع بالآنسة دارتل، وقد توقعت منه أن يعلق بالكثير بعدما رحلت، بينما كنا جالسين معًا أمام النار. لكنه اكتفى فقط بسؤاله عن رأيي فيها.

سألته قائلًا: «إنها ماهرة جدًّا، أليس كذلك؟».

قالت ستيرفورث: «ماهرة! إنها تجلب كل شيء نحو المِسن، فتزيد من حدته، وقد شحذت وجهها وشكلها في السنوات الماضية. لقد تآكلت بعد هذا الشحذ المستمر، حتى صارت على حافة التآكل».

قلت: «يا لغرابة تلك الندبة التي تعلو شفتيها!».

تبدل وجه ستيرفورث وصمت للحظة، ثم عاد يقول: «حسنًا، في الحقيقة إنني من أحدثتها».

«أكان حادث من دون قصد!».

«لا. كنت طفلًا صغيرًا، وقد أغضبتني، فألقيت مطرقة عليها. كنت لم أزل ملاكًا صغيرًا واعدًا!».

تألمت للغاية لاقترابي من هذه المنطقة الحساسة، وقد لفني الأسف، ولكن لم يكن للأسف جدوى بعد حديثي.

استطرد ستيرفورث قائلًا: «لقد مكثت العلامة منذ ذلك الحين، كما ترى، بل ستحملها حتى قبرها؛ هذا إن كان لها أن تجد الراحة في قبرها، فأنا لا أستطيع أن أصدق أنها ستستريح في أي مكان. كانت طفلة يتيمة بلا أم، وقد تزوجت أمها من أحد أبناء عم والدي. مات هو الآخر في يوم من الأيام. أحضرتها والدتي إلى هنا -بعد أن صارت أرملة آنذاك- لترافقها. إنها تملك ألفي جنيه من مالها الخاص، وتحتفظ بعوائدهما كل عام، لتضيفها إلى رأس المال. وهذا هو تاريخ الآنسة روزا دارتل كما قصصته عليك».

قلت: «ولا شك في أنها تحبك كأخ لها؟».

أجابني ستيرفورث وهو ينظر إلى النار: «آه! إن كثيرًا من الإخوة ليسوا متحابين دومًا، وآخرون متحابون. تفضل على أي حال، لا تخجل يا كوبرفيلد! سنشرب معًا يا أقحوانة الحقل نخبًا تقديرًا لك، ونخب زنابق الوادي التي لا ترهق نفسها، ولا تلتفت إليَّ، ولو مجاملة لي، ويا له من عار يحل بي!». تلاشت من وجهه ابتسامة بائسة كانت قد غمرت ملامحه، وتحول بعد هذا المرح إلى طبيعته الصريحة الجذابة مرة أخرى.

لم أستطع منع نفسي من إمعان النظر نحو هذه الندبة باهتمام يبدو مؤلمًا بعد أن بدأنا في احتساء الشاي. لم يمضِ وقت طويل حتى لاحظت أنها تقبع في الجزء الأكثر حساسية من وجهها. ترنو شاحبة، فتتغير تلك الندبة أولًا، فتصير خطًّا باهتًا يلوح بلون الرصاص، فيمتد إلى أقصى مدى، بل تشبه علامة دُوِّنت بالحبر السري لم تظهر إلا

باقترابها من النار. نشأت مشادة صغيرة بينها وستيرفورث حول إلقاء النرد في لعبة الطاولة، وقد ظننت للحظة أنها في عاصفة من الغضب، ومن ثَم رأيت الندبة تلوح مثل كتابة قديمة على الحائط.

لم أندهش من رعاية السيدة ستيرفورث الفائقة بابنها. لقد بدت غير قادرة على التحدث أو التفكير في أي شيء سواه. أطلعتني على صورته وهو طفل رضيع، وكانت محفوظة في صندوق صغير مع بعض خصلات من شعره. أرتني صورة أخرى له بدا فيها كما عهدته أول مرة. أظهرت لي جميع الرسائل التي كتبها لها، وكانت قد احتفظت بها في خزانة بالقرب من كرسيها بجوار المدفأة، وهمَّت بقراءة بعض هذه الرسائل لي، وهممت بدوري للإنصات إليها أيضًا، لولا أن تدخل ستيرفورث وأثناها عن عزمها في نوع من الدعابة.

قالت السيدة ستيرفورث، حين كنا نتبادل الحديث على طاولة، بينما يلعبان هما النرد على طاولة أخرى: «لقد أخبرني ابني أنكما تعرفتما في مدرسة السيد كريكل أول الأمر. وإنني لأتذكر في الواقع حديثه في ذلك الوقت عن تلميذ أصغر منه كان يميل إليه هناك، إلا أن اسمك لم يعلق في ذاكرتي حينها، كما تعلم».

قلت: «لقد كان كريمًا ونبيلًا جدًّا معي في تلك الأيام، أؤكد لكِ يا سيدتي، لقد وفقت به، فقد كنت في حاجة إلى مثل هذا الصديق، فلولاه لصرت محطمًا تمامًا».

قالت السيدة ستيرفورث في فخر: «إنه دائمًا كريم ونبيل».

يعلم الله أنني قد وافقت نعتها هذا من كل قلبي. أدركت أنها صدقت حقيقة مشاعري، بعد أن خففت من أسلوبها المتكبر تجاهي، إلا عندما تتحدث مادحة ابنها، فحينها تعود إلى زهوها وفخرها دومًا.

قالت: «لم تكن المدرسة مناسبة لابني بشكل عام، وكانت أبعد ما تكون عنه، إلا أن ثمة ظروفًا خاصة كان يجب مراعاتها حينها، وقد باتت أكثر أهمية من هذا الاختيار. إن معنويات ابني المرتفعة جعلت من الأفضل أن نعمد به إلى رجل يشعر بتفوقه، بل ويقبل أن ينحني أمام تميزه، وقد وجدنا هذا الرجل هناك».

أدركت مقصدها لأنني كنت أعرف من يكون ذلك الرجل. لم يجعلني ذلك أزداد احتقارًا له، بل حسبت أن كلامها ميزة تغض الطرف عن مساوئه، إن كان من الممكن أن ننعته بأي نعمة مثل الاستسلام أمام شخص لا يُقاوم مثل ستيرفورث.

ومضت السيدة المعتزة بابنها تقول: «كان تحفيز ابني هناك على التنافس، من خلال تدعيم شعوره بالفخر الواعي والكبرياء والكرامة - فمثله لا تحده القيود - فما كان منه إلا التقدم. إلا أنه وجد نفسه ملكًا على المكان، فعزم على أن يكون جديرًا بمنصبه، وقد كان».

أجبتها موافقًا من كل قلبي وروحي، بأنه كان جديرًا به.

استطردت حديثها قائلة: «هكذا، فقد سار ابني بمحض إرادته ومن دون إكراه في المسار الذي يمكنه فيه أن يتفوق على كل منافسيه دومًا ما دام أراد. وقد أخبرني ابني، يا سيد كوبرفيلد، بأنك كنت مخلصًا له دومًا، وبأنك عندما التقيت به بالأمس عرَّفته بنفسك وقد غمرتك دموع

الفرح. وإني لأحسب نفسي امرأة منافقة لو أنني تظاهرت بأنني فوجئت بمثل هذه المشاعر التي يقابلها ابني، لكنني لا أستطيع ألا أبالي بحق أي شخص عاقل يدرك استحقاق ابني لهذا التقدير، وإنني سعيدة للغاية برؤيتك هنا، بل يمكنني أن أؤكد لك أنه يَكنُّ صداقة غير عادية لك، وأنك تستطيع الوثوق في رعايته لك».

ظلت الآنسة دارتل تلعب بالنرد على الطاولة في شغف كدأبها في سائر أعمالها. لو أنني رأيتها أول مرة وهي تلعب عند الطاولة، لحسبت أن نحولها وجحوظ عينيها لم يكونا سوى نتيجة لهذا السعي في اللعب، وليس أي شيء آخر في العالم. إلا أنني سأكون مخطئًا لأبعد مدى لو أنني تصورت أن كلمة من هذا الحديث الذي دار بيني والسيدة ستيرفورث قد فاتها، أو أنها لم تلتفت إلى ملامحي بينما أتلقى كلامها بمنتهى السرور. لقد حظيت بتكريم وثقة السيدة ستيرفورث، وشعرت بأنني أكبر سنًّا بعد أن غادرت كانتربري.

انقضى أغلب الليل، وقد قدمت إلينا صينية من الأكواب والأواني الزجاجية، وراح ستيرفورث يعدني بينما نحن جلوس عند المدفأة بأنه سيفكر بجدية في الذهاب معي إلى تلك البلدة، كما قال إنه ما من أمر يدعو للعجلة، وإننا سنقضي أسبوعًا في منزله ثم نتجه إلى هناك، ومن ثَم قالت والدته الشيء نفسه. كنا نتحدث معًا وإذا به يناديني أكثر من مرة بأقحوانة، مما جعل الآنسة دارتل تتدخل مرة أخرى.

راحت الآنسة دارتل تسأل: «قل لي الحقيقة يا سيد كوبرفيلد، هل

هذا لقب؟ ولماذا يطلق عليك هذا الاسم؟ هل هو... ماذا أقول...؟ هل لأنه يعتقد أنك صغير وبريء؟ إنني غبية جدًّا في إدراك هذه الأشياء».

أجبتها باستحياء قائلًا إنني أحسب أن الأمر كذلك.

قالت الآنسة دارتل: «آهٍ! كم أنا سعيدة الآن لمعرفة حقيقة الأمر! أسأل وأستفسر عن المعلومات، ثم يسعدني أن أفهمها. إنه يَحسب أنك صغير وبريء، ولهذا فإنك صديقه. حسنًا، هذا أمر ممتع للغاية!».

ذهبت إلى فراشها بعد ذلك بوقت قصير، وفعلت الأمر نفسه السيدة ستيرفورث. مكثت لنصف ساعة بجوار المدفأة؛ أتبادل الحديث مع ستيرفورث عن ترادلز وعن جميع الزملاء القدامى في مدرسة سالم، ثم صعدنا معًا إلى الطابق العلوي. كانت غرفة ستيرفورث بجوار غرفتي، وقد ذهبت لألقي نظرة عليها. كانت هيئتها توحي بالراحة، إذ كانت مليئة بالمقاعد الوثيرة والوسائد ومساند الأرجل التي يبدو أنها كانت من أشغال التطريز التي حاكتها أمه، فلم تخلُ الحجرة من أي شيء يُنقص اكتمال مظهرها الأنيق. أخيرًا، أبصرت ملامح الأم الجميلة مع حبيبها في صورة معلقة على الحائط، كما لو أنها تركت له ما يحرسه في أثناء نومه.

وجدت نيران المدفأة موقدة في غرفتي بحلول هذا الوقت، كما كانت الستائر منسدلة أمام النوافذ وحول السرير، مما أكسبها مظهرًا مريحًا للغاية. جلست على مقعد كبير بجوار المدفأة لأتأمل هذه البهجة التي تحاوطني، وقد رحت أتأمل فيما أنا فيه لبعض الوقت، وإذا بي ألحظ صورة للآنسة دارتل تطل نحوي بشغف من فوق رف المدخنة.

كان الشبه مذهلًا، وكان هذا المشهد مذهلًا بدوره. لم يصور الرسام تلك الندبة، إلا أنني تخيلتها في موضعها، فصار خيالها يروح أمامي ثم يختفي. أما الآن فكانت الندبة محصورة فوق الشفة العليا كما رأيتها في أثناء الغداء، ثم في لحظةٍ ظهر المدى الكامل للجرح الذي أحدثته المطرقة، كما رأيته عندما أثارها الحماس.

تساءلت بأسى لماذا لم يتمكنوا من وضع صورتها في أي مكان آخر بدلًا من إقحامها عليَّ. خلعت ملابسي بسرعة للتخلص من طيفها، وأطفأت شمعتي، ثم أويتُ إلى الفراش. إلا أنني في غفوة نومي، لم أستطع أن أنسى أن صورتها لم تزل قابعة تنظر إليَّ من موضعها، ربما تقول: «هل هذا حقًّا؟ أسأل لأنني أريد أن أعرف». استيقظت في الليل، فوجدت أنني كنت أسأل الناس في أحلامي بصعوبة عما إذا كان الأمر كذلك بالفعل أم لا، من دون أن أعرف ما الذي أعنيه بقولي هذا.





تشارلز ديكنز

ديفيد كوبرفيلد

يصعب عليّ الابتعاد عن هذا الكتاب أو تحمل إحساس الانتهاء منه، ولا يسعني سوى أن أشير إليه برباطة جأش بهذا العنوان الرسمي الذي يتطلبه، إذ لم يزل أثره يلازمني وقد أوليته اهتمامًا بالغا، بل لم يزل خاطري منقسمًا بين اللذة والندم؛ حيث لذة إنجاز عمل طويل، وندم فراق الأصدقاء. وإني لأخشى أن أثقل على القارئ العزيز بمشاعري وسرائر وجداني. أما ما يمكنني أن أقوله عن القصة لأي غرض، فقد ضمنته بين كلماتها.

قد يهتم عدد يسير من القراء بمعرفة مبلغ حزن الكاتب حين يزيح قلمه في نهاية عمل إبداعي عايشه طيلة عامين، وأي شعور يلفه بعد أن يفرغ من عمل إبداعي انسابت فيه أفكاره؛ كأنما انتزع جزءًا من روحه وقذف به في عالم الغموض. ولا يسعني أن أزيد القول إلا بأن أعترف اعترافا هو علي هين مفاده أنه ليس بوسع قارئ أن يصدق هذه الرواية، بما يفوق إيماني بها حين سطرتها.

تشارلز ديكنز



ISBN 978-977-765-332-9

